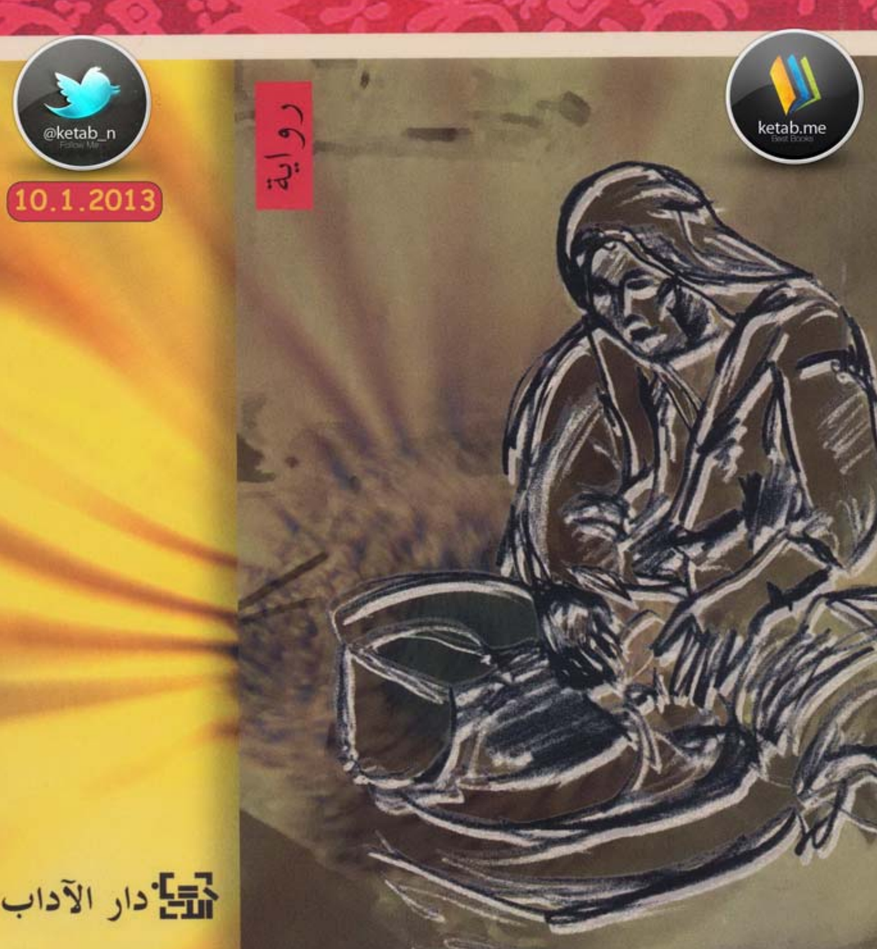
سحر خليفة

عبّاد الشمس



سحر خليفة

عباد الشمس

رواية



دار الآداب - بيروت

عباد الشمس

عباد الشمس

سحر خليفة/روائيّة فلسطينية

الطبعة الرابعة عام 2008

ISBN 978-9953-89-011-1

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير - بناية بيهم

ص.ب. 11-4123

بيروت - لبنان

هاتف: 861633 (01) - 861632(03)

فاكس: 009611861633

e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

Website: www.adabmag.com

الإهداء

إليك

هل تسمعني؟

فمنك وعنك استجبت لوعدي

وشرّعت صدري

بصدق

وحبّ

وإيمان ثورة!

سحر خليفة

كَبروا في غاب اللّيل الموحش، في ظلّ الصَبّار المرّ

كَبروا أكثر من سَنوات العُمْر

كبروا التحَموا في كَلمة حبّ سريّه

حَملوا أحرفها إنجيلاً، قرآنًا يُتلى بالهَمْس

كَبروا مع شجر الحنّاء، وحين التثموا بالكوفيّه

صاروا زهرة عبّاد الشمسْ!

[«من أنشودة الصيرورة»

فدوى طوقان]

(١)

تحت المظلّة يتأمّل باصات أيجيد والنّاس. امرأة تحمل سلّة مليئة بخضار الموسم. قرنبيط وسبانخ وربطة فجل أحمر. رجل دين اشرأبّت سوالفه حين اصطدمت قدماه بالأرض. شابّ وفتاة متخاصران يتأمّلان الشرق بفضول وتسلية. صبيّ في العاشرة يقفز من باص لآخر وبيده أكياس ترمس، يصرخ بأعلى صوته: «ترموس». بعض الباعة، كعك وبيض وزعتر، حلاوة سمسم، وفرش يحطّ عليه الذباب فلا تعرف نوعه. وأناس يروحون وآخرون يجيئون. وفي أوّل الشارع راهبة تجرّ وراءها عنقود أيتام يمشون بصفّ العساكر المهزومة.

رآها قادمة من بعيد، معطفها الواقي من المطر. شال صوفيّ طويل يطير خلف ظهرها ويدها تحمل كتبًا. مشيا بصمت. إلى جانبها يحسّ أنّ العالم أغنى وأقلّ برودة. لا يحبّها، تعجبه. قضيّة الحبّ ما عادت ملحّة كأيّام الصّبا. كقضيّة الدين تمامًا. الله موجود أو لا موجود، هذا شأنه، أمّا شأني فهو العالم.

نظرت إليه خلسة. مازالت تبحث عنه. مضغوط القلب في الداخل. نقاشاته الهادئة لا تتيح لها فرصة الاكتشاف الكلّي.

ـ أنت صامت اليوم.

ابتسم بشحوب:

ـ أفكّر.

ـ بماذا؟

وقف على الرصيف، شدّ بيدها قبل أن تدهمها سيّارة، خفق قلبها خوفًا. هتفت بانفعال:

ـ مجنون.

لكن الطريق له. ضوء المشاة ما زال أحمر.

نظراته الهادئة تثيرها، تملأُها بالغيظ. قالت بتحدٍّ:

ـ الطريق للمشاة أيضًا وليست لأصحاب السيّارات فقط.

كان صوتها مرتفعًا أكثر ممّا يجب، تلفّتت وجوه المشاة نحوهما. أحسّت بالعيون تحيط بها من كلّ جانب. والمشاة مازالوا ينتظرون اختلاف الضوء. أكتافهم متراصّة، بهويّاتهم المختلفة وخلفيّاتهم المختلفة. دمدمت بفكرتها وما زالت يده تشدّ بزندها:

ـ الطبقيّة تتبدّى حتى في قطع الشارع.

ابتسم ولم يبد تجاوبًا. كانت عيناه غائمتين، أحسّت بالمهانة. لا ينفعل، لا تتمكّن من إثارته فتثار أكثر. قالت بشراسة:

ـ لأنّك ابن الكرمي.

نظر إليها ببرود. أحسّت بما يريد قوله فانفجرت غضبًا.

سحبت زندها من يده بعنف واندفعت تعبر الشارع ركضًا. صرّت عجلات السيّارة القادمة وأطلق السائق نفيرًا مزعجًا وهو يلوّح بيده غضبًا.

وصل إلى جانبها، ومشى نحو باب العمود وهو لا يعيرها التفاتًا. وحين نزلا الأدراج وعبرا البوّابة الضخمة علّق:

ـ تتصرّفين كالأطفال.

اتّسعت خطواتها أكثر، وابتعدت عنه مسافة ذراع. وقالت وهي تشدّ كتبها إلى صدرها:

ـ برودك يعيق فهمك. كنت أقصد أن أقول إنّ الطريق للمشاة قبل أن تكون لراكبي السيّارات. كنت أريد أن أقول إنّ الأضواء خدعة ومؤامرة. من وضع الأضواء وحدّد لها نظامًا؟ ذوو العقول البليدة هم الذين يصدّقون. أنا لا أصدّق، ولهذا أقطع الشارع متى أريد. أنا حرّة. أقطع الشارع متى أريد، ولا أنتظر ضوءًا منهم. أصنع ضوئي بنفسي.

تأمّل وجهها الشرس، عينيها السوداوين وقد اتّسعتا، بدتا أكثر تألّقًا. وأسنانها البارزة باندفاع بسيط تبدو مستعدّة للانقضاض. تعجبه حدّتها، يستمدّ منها حرارة وحيويّة. ابتسم:

ـ إذا كرّرت العمليّة فقدت كلّ الأضواء.

ـ أتحدّى كلّ الأضواء.

ـ بما فيها الأخضر؟

ـ الضوء الأخضر رشوة ومؤامرة. يمهلوننا حتى يحقّقوا أهدافهم، وما تبقّى يلقون به للمشاة.

رفعت قبضتها وهزّتها:

ـ أتحدّى كلّ الأضواء.

ـ ستدوسك العجلات يومًا.

ـ أكون قد قطعت الشارع.

ـ ستدوسك وسط الشارع، ولن تصلي باب العمود.

ـ أكون قد أعطيت المشاة مثالاً.

أحسَّ بالضيق والنفور. مدّ يده وسحب ذراعها وضغط:

ـ اعقلي.

صاحت:

ـ اترك ذراعي.

ـ أنت بحاجة للضوابط.

ـ وهل أنت ضابط؟

ـ أحيانًا أكون.

ـ أنت كالضوء الأخضر، مؤامرة.

دمدم وهو يخبّئ عنقه وأذنيه بياقة معطف المطر:

ـ حمقاء.

قفزت الدرجات شبه راكضة وكتفاها تصطدمان بالمارّة. وهتفت وهي تلهث:

وأنت ككل رجال الشرق، وكأيّ مترهّل من آل الكرمي. أنت لست وليّ أمري، لا لأنّك رجل ولا لأنّك من آل الكرمي.

رفع صوته للمرّة الأولى:

ـ حمقاء.

ابتعدت عنه فتبعها. اختفت بين المارّة فجأة. وقف يهزّ رأسه، ومشى في الأزقّة وحده. رائحة جلود الخراف خيطت جاكيتات فرائيّة

بلون الندف. وبائعو البقالة على جانبي الشارع المسقوف، زيتون رصيع، زيتون يوناني، وفسيخ وقطين مشكوك عقودًا طويلة، وخضار وحلويات شرقيّة. وبائع عوّامة وزلابيّة. وباعة أشرطة كاسيت يستعرضون بضائعهم فتختلط الأنغام وتختلط اللغات وتختلط البلد.

اهتزّت السنّارات النحاسيّة اليابانيّة مع مجرى الهواء المتدفّق في الزواريب، دن دن تن تن، وينتحب القلب طفلاً ضائعًا في سوق المدينة. لمحها فلحق بها، أمسك بذراعها فهدرت:

ـ سيري معك لا يمنحك الحقّ في فرض القيود عليّ.. أسير معك كندّ لا كتابع.

ـ لكنّك ستموتين بلا مبرّر.

ـ أكون قد أعطيت الناس مثالاً.. هذا هو المبرّر!

ـ سخافة.

ـ ومن أنت لتحكم؟

ـ وما يضيرك لو انتظرت اللحظة المناسبة وعبرت؟ تكسبين حياتك ولا ترعبين الناس، ويستمرّ السير.

ـ ها. كلّهم يقولون هذا حين يفلسون. يتذرّعون بالضوء الأحمر. لكنّ اللعبة مكشوفة.

توقّف عن المشي:

ـ أيّة لعبة؟

شدّت كتبها إلى صدرها وواجهت بتحدٍّ:

ـ لعبة الرقص على الحبال.

تمنّى أن يصفعها، شدّ قبضته داخل جيبه. أحسّ برأسه يتضخّم، وتذكّر المجلّة والنقاشات المحمومة وسالم. اندفع الدم إلى رأسه. ما عاد للنّاس وجود، وسط الزقاق الحجريّ ودكاكين السوّاح تنفث رائحة الغربة والسفر.

ـ أنت سيّئة النيّة.

ـ وأنت تنزّ مثاليّة برجوازيّة.

دمدم من خلال أسنانه:

ـ حمقاء، حمقى..

ومشى يوسع الخطو مبتعدًا عنها فلحقته راكضة، وصاحت في جوف الزقاق شبه المظلم:

ـ تهرب منّي؟

توقّف حتى وصلته، وكانت شحنة عواطفها قد بلغت أقصاها. وقفت أمامه والدموع في عينيها. وتهدّج صوتها بالعتاب:

ـ تنتقم منّي؟

أحسّ بالإشفاق فانزاح غضبه وهمس:

ـ لأنّي لا أريد لك الموت.

وأحسّها قريبة جدًّا منه وعيناها تخترقانه، فانثال حنانه وتهدّج صوته:

ـ ولماذا تموتين؟

ـ أعطي النّاس مثالاً.

ـ مثالك مخيف لأنّه سابق لأوانه.

ـ أدعهم ينتظرون إذن. . وقد يطول الانتظار!

ـ مثالك سيخيفهم، وقد يعطّل سيرهم فيلومونك بدلاً من أن يتبعوك.

ـ ولكنّي قطعت الشارع ولم أمت.

ـ صدفة. وقد قطعته وحدك، وما نفع أن تقطعيه وحدك؟

ـ تقدّمتهم.

ـ ولم يتبعوك.

ـ لأنّهم جبناء، لأنّهم أذلاّء، ولأنّهم يريدون الأمان.

أفلت كتفيها بيأس: الأسلوب نفسه، الرؤيا المحدودة نفسها، والمنطق الاستعلائي المتبجّح نفسه. لماذا أواصل كل هذا؟ المجلّة، والزملاء. . وجوّ الثقافة. وهذه رفيف تكمل الطابق. أراد أن يهرب فعلاً، لكنّه تماسك. ووقف أمام مقهى صغير تغصّ واجهته بأواني الليمون والبرتقال والتمر هندي:

ـ تشربين شيئًا؟

ـ لا أريد أن أشرب شيئًا.

ـ أشرب أنا.

ودخل المقهى المضاء بأنوار نيون نيلي. جلس في الزاوية ينتظرها، لكنّها ظلّت واقفة بباب المقهى تعبيرًا عن الحرد. تأمّل قامتها الصغيرة فاستعاد إحساسه بالمسؤوليّة وفكّر: «ثورة طفلة». ونادى بأعلى صوته:

ـ هات ليمون.

التفتت، تجاهلها. وعندما وضع الصبي الكوبين على طاولته، استجابت لنداء الليمون، وبدأت تقترب بخطوات القطط.

(٢)

بعد التحدّي المستمرّ، تصاب بنكسة، تصبح بليدة الأعضاء والمشاعر. وتصاب بالصمم والبكم واللامبالاة التامّة. ولم يكن هو بحال أفضل. فبعد نهار مليء بالعمل والمشاحنات والتحرّكات وقدح الدماغ المستمرّ يصبح حطامًا مهدودًا.

لكنّه ما زال يتسكّع في الطرقات مع تلك القطّة المشحونة بالتوتّر، فتزداد أعصابه توتّرًا وانضغاطًا، ويتمنّى أن يهرب منها إلى آخر الدنيا ليجد الراحة والأمان، لكنّه يعرف أنّه لن يطيق الركود، وأنّه سيعود إليها لتذكّره باندفاع الشباب وتهوّر الجيل الأصغر. وأحيانًا، حين تفرغ طاقاتها في الكلام والركض والقفز المستمرّ من رصيف إلى رصيف، من مكان إلى مكان، من موضوع إلى موضوع، تصاب هي الأخرى بحالة من الهدوء الغريب، لكنّه هدوء العواصف، قبلها أو بعدها.

التفت إليها، ورآها قد توقّفت عن المضغ وما زال نصف الكعكة في حجرها، وورقة الزعتر قد انسكبت على الأرض.

ـ لِمَ لا تأكلين؟

ـ شبعت.

وظلّت ترمق أضواء الشوارع المتقاطعة في أعلى المنحدر، والأنوار الخافقة على الأسطح ومن مباني القدس الغربيّة. مدّ يده ولمس شعرها. لم تلتفت إليه. ظلّت تحدّق في الأضواء واللّيل.

ـ تحسّين بالبرد؟

ـ لا.

ـ ما بك؟

ـ لا شيء.

ـ متعبة؟

أمسك بيدها، سحبها عن المصطبة، فاستجابت. تمطّت حين وقفت، ونظرت إليه مباشرة وقد بدأت تستعيد صحوتها. اعتراه القلق، فقد تعود لطبيعتها الحادّة الآن، وهو بحاجة للهدوء والسكينة. وابتسمت ابتسامة أليفة ليّنة.

ـ شكرًا على العشاء. حين نقبض سنتعشى عشاء فخمًا، وسنأكل حتى ننمغص.

تعجبه بساطتها، يعجبه حبّها للحياة، وتلك الشهوة الغريبة للأشياء. لكنّه يخافها. يخاف سطوتها وتسلّطها.

مشيا على الرصيف بتمهّل. تحت سور القدس الغربي بامتداد باب الخليل. رصيف، دوار، أحواض ورد وليلك. وبلصق السور الأثري تجثم نباتات شوكيّة لها ثمار حمراء مرجانيّة. وفي تجويف النباتات أضواء لها طعم الأجواء المفقودة، ليالي أعياد ونبيذ وموسيقى شجيّة.

أقعت أمام إحدى الشجيرات الشوكيّة تراقب الضوء. استدارت بوجه غارق في نشوة كالحلم.

ـ انظر.

ـ نظرت.

ـ انظر للداخل. أترى ثمارها، لونها أحمر بلون الدم... بلون الحرّيَّة... يا إلٰهي. أتراها؟ وهذا هل رأيته؟

وأطلقت تنهّدات مشحونة بالعواطف الدفينة:

ـ هذه الأشياء تثيرني. انظر إلى خيوطه.

ونظر. عشّ عنكبوت تتلألأ خيوطه من خلال أشعّة الضوء. واستدارت إليه ووجهها يقطر إحساسًا يبلغ في حدّته رهافة العاشقين.

ـ أترى؟

ابتسم ملاطفًا.

ـ آ، هذا لم أره، معك حقّ، قوّة ملاحظتك غريبة.

ولمعت الفكرة في رأسه. الحرّيَّة وخيوط العنكبوت.

لهثت:

ـ لأنّي أعشق الأشياء...

ابتسم، فهي لا تنفكّ تذكّره بقدراتها الشعريّة. ولا تدع فرصة إلاّ وتطلق بيتًا من قصيدة ما. «لأنّي أعشق الأشياء». وحاول أن يتذكّر البقيّة فلم يتمكّن. قصائدها مازالت تحمل الطابع الوجودي المتفرّد، لكنّها صادقة، عنيفة في صدقها وتوقّدها. ما أروع قدرتنا على التفكير الأخرس، ولا قامت قيامته ولم تقعدها. «وجوديّة؟ أنا يا عادل وجوديّة»! بل أنت وكل زملائك في المجلّة وخارج المجلّة. أتظنّون أنّي أصدّقكم كما يصدّقكم القرّاء السذّج. أنتم مشعوذون مهرّجون مخصيّون. أنتم مخصيّو العقيدة والفعل والعواطف».

ابتسم وهو يتأمّلها في إحدى حالاتها الباهرة، فهي على الرّغم من سلاطتها رائعة. وكانت ما تزال تنظر في التجويف تتأمّل الضوء والثمار

الحمراء وعشّ العنكبوت بانبهار، وعلى شفتيها ابتسامة فيها مزيج من الشهوة والانجذاب العلوي. فيها شيء يثير الروح والحواسّ معًا. والضوء والليل وبرد آذار ورفيف، كل ذلك يعطي إحساسًا باحتدام العالم. وأحسّ بالرّغبة فيها، لكنّها فتاة عربيّة، تريد الحبّ، وهذا ما لا يقدر عليه. والقصّة طويلة، أطول من أن ينبشها المرء على رصيف شارع.

وقفت فجأة، فركت كفّيها بسرعة، وابتسمت حتى بانت كل أسنانها الناتئة الوحشيّة. وأطلقت قهقهة متحفّزة وهي تصيح وتشدّه من يده:

ـ اركض.

وبدأت تدفعه في ظهره فأخذ يركض. في البداية أحسّ بالضيق، لكن استفزازها المتواصل حفّزه، وانتقلت العدوى إليه فانقلب طفلاً مثلها. وصاح من خلال لهاثه:

ـ أنت مجنونة.

وردّت بأعلى صوتها بامتداد الرصيف الخالي:

ـ وأنت أهبل. أهبال.

يصبح العالم قمّة، وأنت على حافّته فرخ نسر يطير. وتنسى كل شيء إلاّ قهقهاتك، وإحساس بالحرقة يشتدّ مع كل صيحة. وحين تطفر معركة الركض من عيون جرحتها نسمة آذار، تنهمر الدموع فتصل عنقك، وتبكي عند حافّة الدنيا على الناس ونفسك، وتذكر أين أنت وعلى أيّ رصيف. شدّت بيده وهي تقهقه وعيناها غارقتان:

ـ اركض.

وعبرا ساحة منحدرة عند زاوية السور الشاهق، وفي أسفل المنحدر

الحشيشي مغارة، وكشّاف إضاءة مسلّط على صخر أبيض. صاحت وهي تدور حول نفسها:

ـ دوري يا دنيا دوري.

ورفعت وجهها للسماء وهي تطلق عواءات حيوانيّة، مزيج من العذاب وفرح الطفولة. شعرها يطير وعيناها تموجان، فأحسّ بها قريبة جدًّا منه، وأنّ العالم دافئ، له طعم النبيذ، وأراد أن يحتويها، وأن يقول لها أشياء حميمة، وأن يقبّلها، وينام معها على الحشيش. وأن يستمرّ معها في الطيش والجنون والنسيان. لكنّ الواقع أزمة.

وارتطمت بالأرض وتدحرجت على العشب كقطّة بريّة. وأمسكت بيده ليساعدها على الوصول إليه. وجلست بجانبه وهي تلهث وتمسح عينيها وأنفها وتتمخّط.

اقتربت منه والتصقت به. تصاعد الدم إلى وجهه واهتزّ قلبه. لم يعد هناك مجال للانضباط أكثر. وضع يده حول خصرها وحاول أن يشدّها إليه. أجفلت وارتدّت عنه. استدارت بوجهها وهي تحاول الابتعاد.

ـ ألا تريدين؟

دمدمت باضطراب ونفور.

ـ لا.

ـ حقًّا؟

ـ حقًّا.

أحسّ بالإحباط، لكنّه عاد لانضباطه وأشعل سيجارة. وقال موضحًا ببطء:

ـ نريد من العالم أشياء كثيرة. الحرِّيَّة مفهوم واسع. الحرِّيَّة تعني أن نعيش الحياة. أن نعبّر عن إنسانيّتنا. تكمن الحرِّيَّة في الصدق المطلق.

كانت تحدّق في الليل وأضواء المباني. وعقلها يمحِّص أفكاره بشكّ وقلق.

ـ تكمن الحرِّيَّة في الصدق المطلق، حقًّا؟ مفهوم رومانسي مرفوض. الحرِّيَّة، قد لا تصلها إلاّ بعد أن تمارس على نفسك أقسى أنواع الضغوط، فأين هذا من الصدق المطلق؟

ضبطته، فهو ككل المثقّفين متناقض متذبذب.. يطبّقون على العام ما لا يطبّقونه على الخاصّ. وتذكّرت موقفه أمام الأضواء. «أنت بحاجة للضوابط». و«هل أنت ضابط؟» قضيّة الوطن مختلفة عن قضيّة المرأة؟ بل هذه من تلك ولا مجال للفصل. قضيّة المرأة جزء أساسي من قضيّة الوطن. يحلّون عقدهم على حسابي فأتعقّد وأعقّدهم معي، والحلقة اللانهائيّة تدور تدور، وندور معها.

كان يفكّر فيما قالته. وكان موقنًا بأنّ ما قالته صحيح. ولكن، ليس هذا ما يقصد. وحاول أن يفسّر:

ـ العلاقات التقليديّة تفقد الإنسان صدقه. أليس كذلك؟

قالت بحزن:

ـ بلى.

وعادت إلى جمودها. واستغرقت في الصمت. أحسّ بالبرودة تتسرّب إلى نفسه، فها هي تبتعد عنه وتخلّفه وحيدًا مع الليل والأضواء والقدس الغربيّة. أمسك بيدها الدافئة يحاول استرجاعها واسترجاع الدفء.

ـ ما بك؟

قالت ببطء وعيناها تعبران الشارع غربًا:

ـ أفكّر، الفكرة لا تنفكّ تعذّبني، تدور حول الالتزام.. الالتزام يمنح الإنسان قوّة، يشعره أنّه ليس وحيدًا، وأنّه حين تتأزّم الأمور لا يكون وحده. وحتى حين يموت فموته مع الآخرين، والموت مع الآخرين رحمة.

تطلّع إليها بدهشة. أراد أن يذكّرها بموقفها أمام الأضواء. التفتت إليه وبسمة حزينة على وجهها:

ـ وأنا أيضًا أناقض نفسي. ما زلت أتأرجح. أخاف الوحدة وأعشق الحرِّيَّة. تناقض حادّ. أنت لا تستطيع القضاء على الأوّل دون أن تفقد الثاني.

وارتجفت شفتاها وتمتمت:

ـ أنا خائفة.

وأحسّ بالإشفاق والحزن. ليس عليها فقط، وعلى نفسه، على الناس كلّهم من خلال نفسه، أو على نفسه من خلال الناس. الدنيا، والاحتلال، والعالم الثالث.

ـ انظر، تبدو القدس نظيفة للغاية، يبدو العالم موطنًا للأمان. وأحسّ بالحزن عندما أتذكّر.

وصمتت لحظات، ثمّ واصلت باندفاع:

ـ عندما أحسّ بحميميّة العالم من خلال شخص ما ينقبض قلبي، وأتساءل بحسرة: هذا العالم الممتدّ يحتوي ألوفًا، بل الملايين ممّن

يستطيعون منحي إحساسًا بالسلام والأمان، حتى بين الإسرائيليين أنفسهم، هناك الألوف، فلماذا لا ألقاهم؟

ونظرت إليه من خلال الظلمة وعيناها تنضحان وأنفاسها تتقطّع. وأنّت.. أخاف أن أظلّ وحيدة. أنا بحاجة إليه، بحاجة إلى حبّه. وهو لا يعرف كيف يحبّ. وأحسّت بالثورة والمرارة، فهي تعطيه أكثر ممّا يعطيها. وهمست:

ـ أخاف أن أظلّ وحيدة، وأنت عندما تذهب فسأظلّ مع نفسي، وفي الداخل لا شيء كبيرًا يملأ الدنيا عليّ.

وبكت.

«صغيرتي.. تطالبينني بالقدرة على الحبّ والفرح؟ شاب الرّأس لكنّ القلب ما زال خواء.. منذ الطفولة، وتدقّ في شغاف القلب والسنون تنهمر ضربات معلّم. سنو الهزيمة ليست كسنيّ النصر. سنة الهزيمة بمئة. أموت. ما زلت أحلم بالحصول على حبّ يتحدّى الضرب وكلّ الضربات. حبّ كبير، حبّ عظيم، حبّ يتوحّد بالتاريخ».

شدّها إلى صدره محاولاً امتصاص حزنه وحزنها. اختبأت لحظات وانسحبت بعنف. تساءل بألم:

ـ لماذا؟

استدارت بوجهها عنه، فهي تعرف أنّه لا يحبّها، وأنّه لا يحتاجها، وأنّ حاجته إليها لحيظة مؤقّتة. وأيّة امرأة أخرى باستطاعتها أن تسدّ الفراغ. وهي ترفض هذا، ترفض أن تبني علاقات عابرة سطحيّة. العلاقة يجب أن تكون عميقة. كل شيء يجب أن يكون عميقًا، حادًّا،

يجعل للدنيا معنى وطعمًا ونتيجة. كل شيء يجب أن يقرّب الإنسان من قلب الدنيا، من موطن الدفء من رحم الحياة. وهناك تكمن الحرِّيَّة. لكنّ الحرِّيَّة بحاجة للأقوياء، للأصحّاء. والرجل العربي ما زال مريضًا، منفصمًا منقسمًا يرغب في شيء ويطبّق آخر.. مشدود إلى الماضي ويتغنّى بالمستقبل. تجاربها وتجارب زميلاتها وزاوية المرأة علّمتها. هو ضحيّة، كالمرأة تمامًا، لكن مرضه أخطر لأنّه الأقوى والمتجبّر. هذا هو الواقع. ولن تكون ضحيّة الضحيّة. ولكن، من ثمّ الوحدة.

التقطت أنفاسها وهتفت:

ـ أخاف أن أظلّ وحيدة.

تأمّل كلماتها بصمت. فها هي فتاة شرقيّة أخرى. فتاة العالم العربي ترفض إلاّ أن تكون حرمة، ثمّ الروتين والكذب. ربما كانت الثمرة حمراء كمرجانة، لكن شباك العنكبوت تهدّد بالاستنزاف والموت.

قال بفتور:

ـ لماذا نلحّ بأن نكون عبئًا على الآخرين؟ لماذا يتوجّب عليّ أن أقدّم صكًّا للعبوديّة؟

علامة استفهام كبيرة ارتسمت أمام عينيها، وشكوك كثيرة. قالت متبرّمة:

ـ عندما أصل الخمسين وأحسّ أنّ العالم كلّه يقفز من حولي دون أن يكون لي فيه ملجأ، سأحسد الأطفال على لعبهم، والشباب على اندفاع عواطفهم، والناضجين على انغماسهم في القضايا والمشاغل. وأنا سأكون وحيدة.

تدور حول الفكرة نفسها. المحتالة الصغيرة. ثورتها ليست إلاّ قشرة. وهو كذلك، كم من القشور لديه؟ فكيف يلومها! حاول أن يناقش.

ـ هذا ما تحسّ به أمّي وأمّك. المرأة العصريّة غير هذا. اندماجها في المجتمع والعمل سيحول دون إحساسها بالعزلة.

وحاول أن يقول أشياء أكثر، أحسّ أنّه ما عاد صادقًا معها ومع نفسه، وأنّه يحاول إقناعها أنّ مفاهيم المجتمع قد تغيّرت، لكنّه يعرف أنّ التغيّر مقصور على فئة قليلة. وحتى هذه الفئة مازالت مشدودة لخيوط قضيّة أكثر تعقيدًا، ولا يمكن تفسيرها من خلال خطّ واحد. خطوط متشابكة تمتدّ جذورها في الأبعاد الثلاثة، أبعاد الفكرة نفسها، فكرة اليوم وكل يوم، الماضي والحاضر والمستقبل.

(٣)

من القدس لنابلس ولا تحزن يا قلب. الزجاج مغلق وأحدهم يهيّش ومزكومة تعطس. آاتس، يرحمك الله. أتس، يرحمك الله، يرحمك، يرحمنا، لا يرحمنا، لا يرحم القرن الإفريقي والتجمّع المصري. يرحم أميركا والنفط والكيرن كاييمت. أفعالهم تلتفّ أنشوطة حول عنق المدينة. حزيران أتانا بجرّافات لها أشداق جهنّميّة، تلتهم الأرض والصخر والشجر والبشر. وامتدّت شكوناتهم كحقول الفطر والرملة في عزّ الحرب.

حقول الفطر والفطريّات. وبيت حنينا والحنين الساجي الممدود على أرض مطار. طائرات كاكيّة رماديّة سوداء. غربان تحطّ على سطح معتقل. فمصنع العرق، يانسون وصنوبر ولبنان الاحتراق. سرو وبناية اسودّت حجارتها. أكوام زجاج تلتمع تحت شمس شتائيّة. وعلى الشارع تمتدّ مسامير مدبّبة وعوزيّات.

ـ افتاخ بكاج.. افتاخ موتور.. افتاخ هويّة ـ سكّر بكاج ـ سكّر موتور.. سكّر تمّك.. انزل أنت، أنت، كله، كله، اطلع، اطلع..

وتبتعد. ومهما ابتعدت تلاحقك العيون. زرقاء خضراء صفراء سوداء، لها أجفان كاكيّة ورموش عوزيّة.

وجبلا نابلس قاما بمهمّة مشابهة لأسباب لا تتعلّق بالأمن. أكفأ

رقابة عرفها التاريخ. رقابة على الصفحات الداخليّة والخارجيّة والأغلفة والإعلانات والوفيّات. تزوّجت تطلّقت داهمتك الحصبة. تشاجرت تصالحت طبخت ولم تعزم. اسم جدّتك وفخذ عائلتك وفصيلة دمك. وإن كنت فلاّحًا فرحم الله الطابون والزبل مهما علوت. لا أنت من عائلة الكرمي ولا كلّ أنواع الكرم والبخل وقضاء الحاجة. أنت منها وإليها. وكلّ من عليها فانٍ، ويبقى ذو الجلال والاحتلال.

ونزل على الدوّار. زوره أحد الوجهاء بنظرة قرمزيّة حين مرّ به أمام البنك المغلق مع هبوب الاحتلال. عشّشت العناكب في باب المصرف وعلى نوافذه واسودّ الطحلب على أدراجه.. لكنّ العملة لم تتوقّف عن الجري والجريان. لم تفتح باب المصرف ولم تعتل أدراجه. لكنّها بقدرة قادر عامت رغم تعويم اللّيرة، وغرقت الطبقات وقامت، وقعدت أصغر الوسطى على الوسطى.

ومرّ وجيه آخر أشدّ وطأة. مقالاتك يا عادل الكرمي يا أيّها الوغد الأحمر. يا ناسي الأصل يا رافس النعمة. وكأنّ اليهود لم ينسفوا دارًا إلاّ داره.. وكأنّ أبًا لم يفقد موضعه في الدنيا إلاّ أبوه. مقالات حاسد مفضوح عمل في مصانعهم وجاء اليوم ليطلع علينا بفلسفات الحمر أعداء الشعب والوطن ليغطّي على ما كان. وكان يا ما كان. تلك قضيّة لن تغفرها المدينة ولو داهمها زلزال الـ ٢٩. هذه المدينة لا تنسى الفضائح، ولا تنسى أنّ أمّك ما عادت تطبخ كلّ يوم، وأنّ داركم باتت خزقًا وأنّكم ما عدتم وجاهة. وأنّكم إذا ما عاد الحكم فلن يطلع منكم من له في ثقب في أو على كرسي.

ودخل الزقاق الحجري في نحو باب الساحة. ومرّ بالمسمكة

والخضرجي وبائع العفش المستعمل. وضحكت الوجوه السمحة وحيّت وعزمت على فنجان قينر بالجوز والصنوبر.

ـ تفضّلوا. بالله عليكم. أنت فين يا رجل؟ أمانة الله. عليك الجيرة، فنجان قينر، طب نفس..

وصاح بائع السحلب مهلّلاً أمام عربته المزوّقة بأوراق الشجر وزهور بلاستيك كعكبانيّة.

ـ سحلب سوخون.. هايْ السحلب بالجوز والجنزبيل.. أهلان أبو الشباب.. عليِّي الطرباش إلاّ تميّل.. فنجان على الواقف يا ابن الأجاويد..

ما زال يذكر أنّني ابن أجاويد.. عجيبة أنت أيّتها المدينة! عجيبة كصندوق عجب. الصورة تلو الصورة تلو الصورة، ونحن أطفال صغار، نجلس إلى حافّة مقعد خشبيّ، ننظر من خلال فتحة الصندوق والدنيا. أبو زيد الهلالي، والبطل الذي يركب حصانًا ويحمل رمحًا يغرسه في قلب التنّين. عجيبة أنت أيّتها المدينة. الصبر والصبّار والصابون وطيبة القلب والسخام والرخام وتناقضات العالم كلّه..

نوّار.. إلى أين؟ آه كم كبرت الصبيّة. لكنّها تذبل، ككل الناس في الاحتلال.

وقفت على الدرجات تحمل عشرات الدفاتر.

ـ اشتقنا لك. أين أنت؟ تأخّرت هذه المرّة. لم تتصل، لم تخبرنا. قلقنا عليك وأمّي فتحت في رأسنا ورشة. قلنا لقطوك ونتفوك. زرنا باسل يوم الجمعة. سأل عنك. مدّته قاربت على الانتهاء. تأخّرت. المدرسة. سنتغدّى معًا. أمّي تطبخ، لن أتأخّر. ملفوف على الغداء نعصر عليه الليمون ما رأيك؟

وضحكت وقبّلت خدّه وضمّته ضمّة صغيرة. وتحرّك القلب وابتسم.

دفع الباب ونادى. خرجت من المطبخ ويداها مرفوعتان وعليهما آثار معركة الطبخ. انحنى على جسمها المستدير يقبّل الوجنات المكتنزة. وضحك وهو يحاول مناساتها حين عاتبته على التأخير. وسألها عمّن في الداخل، فقالت إنّ أمّ صابر تعاونها في لفّ الملفوف، وجدّته أصبحت خرفانة أكثر ممّا يتصوّر. وذكرت أمر زيارتهم لباسل وقالت سقا الله على لمّ الشمل.

وتبعها نحو المطبخ، وشمّ رائحة ورق الكرنب المسلوق. لا يحبّ تلك الرائحة، لكنّها تذكّره بما هو آت، بأكلة لا يستهان بها، وبامتلاء المعدة بطبيخ منزليّ فخم بعد أن ملّ أكل المطاعم المصاب بفقر الدم والنغنغة.

زعقت الجدّة بصوتها الناحب:

ـ باسل؟ تعال يا باسل أبوسك. طوّلت يا ولد.

وقالت أمّ صابر مرحّبة:

ـ هذا عادل يا حجّة. ادعي له بالسلامة وراحة البال. ادعي له الله يرزقه ببنت حلال تسعده وتكثّر من نسله. الصلاة على النبي، الحامي يحماك. حصّنتك من عين الحسود ومن اليهود.

ومدّت أمّ عادل غطاء من النايلون على طاولة خشبيّة قصيرة الأرجل، وبدأت تلفّ الورق مع أمّ صابر. ولم تمض دقائق حتى اشتعلت حرب الاستغابة، ولم تبق امرأة أو فتاة في الحارة إلاّ

واستحضرت روحها حتى طلعت. وردّدت أمّ صابر اسم سعديّة عدّة مرّات، فقال عادل بغيظ مكظوم:

ـ مالها سعديّة يا أمّ صابر؟

لوت شفتيها وغرّبت عينيها وضربت الطشت أمامها بإصرار:

ـ تعمل العمايل وترخي الشمايل، واحد طالع وواحد نازل وتقول من خير الله والماكينة. الله الله يا ماكينة سعديّة، الله، الله...

وفي صباح اليوم التالي التقى عادل بسعديّة. كان يجلس على طاولة صفّت على طرف الميدان الحجري القديم المسمّى بباب الساحة. وكان يقلّب أوراقًا جمع فيها المعلومات اللازمة لكتابة مقال عن أوضاع البلديّات تحت الاحتلال. ناوله الصبيّ فنجان قهوة وجلس غير بعيد عنه يكحت مريلته الملطّخة ببقع الحمّص والفول وبذور البندورة الجافّة. وصاح الصبيّ بصوت حادّ بدا يخشوشن:

ـ صباح الخير يا أمّ حمادة.

التفت عادل بسرعة. وضع الفنجان على الطاولة وتبعها بنظرة وهي تمرّ أمام دكّان بائع العفش المستعمل وتتأمّل كنبات ألبست وجهًا جديدًا من قماش بشع.

كانت تلبس تنّورة سوداء وبلوزة بيضاء بأكمام طويلة، وكانت قد هزلت كثيرًا واختفت النتوءات من جسمها واستبدلت بانحناءات انسيابيّة لطيفة. واختفى الشعر الطويل وحلّت بدلاً منه قصّة مستديرة أعطتها مظهرًا أكثر حيويّة وشبابًا.

وتردّد كثيرًا وهو يكبح رغبة ملحّة للقيام من مكانه للحاق بها. يكفي سعديّة ما تواجه به من اتهامات وتقوّلات، وفكّر أنّها ليست بحاجة

للمزيد. وبقي في مكانه بعد أن اتخذ قرارًا بزيارتها في بيتها بصحبة أخته، فذاك أدعى للسلامة.

انكبّ على أوراقه وفنجان قهوته ونسي أمر سعديّة إلى أن سمع صوتها القريب يبادره بالتحيّة:

ـ عالعافية أبو الشباب.

وكان في صوتها صلابة توحي بثقة كبيرة بالنفس رقصت لها نفس عادل إعجابًا واحترامًا. فها هي امرأة قويّة باستطاعتها أن تتحدّى ظرفها وظروف البيئة، وتقف على قدمين ثابتتين ولا تهتزّ. هبّ من مكانه فاردًا كفّه وصافحها بحرارة.

ـ أهلاً أهلاً أمّ حمادة. ما أخبارك وما أخبار الأولاد؟

رمقته بنظرة عتاب وتساءلت:

ـ من هون؟ شهور وما سألت. ولو يا أبو الشباب. نسيت المرحوم اللّي كان أعزّ من الأخ؟ ونسيت أنّه كان لأخوك مرة وولاد. أنا عارفة مال الحارة. حتى أبو صابر ما عاد يسأل ولا يطلّ. لكن أنت سيّد الكلّ يا أبو الشباب. تعمل مثل أبو صابر. والله ما أقبلها منك ولا عليك.

واعتذر وأفهمها حقيقة وضعه، فالمجلّة تأخذ كلّ وقته، والسفر من نابلس للقدس ومن القدس لنابلس يزداد صعوبة كل يوم. تكاليف ومجهود وتفتيش وما إلى ذلك. ثم إنّه لا يريد أن يسبّب لها الإحراج. والبلد وطبع البلد وكلام البلد، وأنت يا سعديّة تعرفين.

ـ إلاّ أعرف. يا عيني عليها من بلد. نلقاها من اليهود وإلاّ من اللّسانات السود! حتى الرملة استكثروها وحسدوني عليها. تصوّر..

وتطلّعت في عينيه وقد تندّت عيناها واحمرّت جبهتها وهزّت رأسها بمرارة:

ـ أيش نلت من هالبلد؟ في ساعة الحاجة والغفلة ما ينفعك غير قرشك. قعدت في الدار ثمان شهور ما حدّ مدّ إيده بقرن موز أو تفّاحة للأولاد. لبست الأسود وعصبت راسي وقعدت على مصطبة الشبّاك أبكي وأنوح وأقرأ الفاتحة عن روح المرحوم. والحاصل، لا الأسود ردّ المرحوم ولا العصبة رفعت الرأس بين الناس. أفضالك على الرأس والعين يا أبو الشباب، ما ننسى جميلك، لكن كل شيء وله حدّ وكلّ إنسان لا بدّ يرفع حمله. وحملت حملي بعد ما الدنيا رفعتني من دنيا ورمتني بدنيا. وتعلّمنا كيف نباطح وتعلّمنا كيف الشغل. وتعلّمنا وشفنا وحفظنا الدرس. لكن عتبي عليك يا أبو صابر يا قليل الزمام. كان يسأل ويطلّ وكلّ يوم الصبح يسأل «ناقصك إشي يا سعديّة؟» أقول له حنّيتك عندي بالدنيا. دبّت النار في قلب أمّ صابر وخافت عليه منّي بعدما قالت لها أم تحسين كلام ما بينقال. تصوّر.. لمّا كان المرحوم في الحبس كنتو طالعين نازلين وما حدّ مدّ لسانه بكلمة، واليوم إيش تغيّر؟ لمّا انحبس، غاب الزلمة عن البيت، ولمّا مات، غاب الزلمة عن بيته. غياب في غياب إذن إيش الفرق؟ الفرق أنّي صرت أرملة، والرملة مرار يا أبو الشباب، بدل ما تحنّن القلوب وتقرّبها تقسّيها وتبعدها، آه، قسمتنا.. والشكوى لغير الله مذلّة. لكن أنت فتحت سيرة البلد وكلام البلد. وقلت لك بعرفها. سنين يا أبو الشباب، وتغيّرت الدنيا من حال لحال. وأنت كمان صرت صحفي واسمك في الجرايد والمجلاّت والناس تذكر سيرتك بالخير.

نظرت في ساعتها فجأة وضربت صدرها ضربة خفيفة وهي تشهق، فقد تأخّرت، ولديها من المسؤوليّات ما تعجز نابلس كلّها عن حملها.

وخاطرك، ومع السلامة، وسلّم لي على الستّ أم عادل. وسلّمي على الأولاد. وأهلاً وسهلاً وألف مرحبًا فيك وفي نوّار وفي كلّ الناس الطيّبين. خاطرك. .

وقبل السادسة بدقائق، كان يسير إلى جوار أخته وقد حمل كلّ منهما كيسًا ورقيًا مليئًا بالفاكهة والسكاكر والنقل. واستقبلتهما زفّة الأولاد والرؤوس الممدودة بتلصّص من شبابيك الجيران العلويّة.

وفي الغرفة الكبيرة المرتّبة بعناية على غير عادة، جلس الأولاد هادئين صامتين يسترقون النظرات الخجلة إلى الضيفين وكأنّ الزفّة التي شاركوا فيها قبل دقائق كانت مرسومًا تقليديًّا من مراسيم الضيافة، ثم يعود كل شيء إلى قواعده سالمًا حسب الأصول.

وسحبت نوّار عزيز الصغير وأجلسته في حجرها، فلبد كقطّ متهيّب ولم يجرؤ حتى على النظر في وجهها. وقهقهة عادل وهو يرقب حركات وجه رشاد الخبيثة حين يدّعي اللامبالاة. وتحوّلت القهقهة إلى غصّة حين التقت عيناه بعيني زهدي في الصورة المعلّقة في صدر الغرفة. . آه، أنت هنا. . سقا الله أيّامك ولو أنّها أيّام شقا. على الأقلّ كنت بيننا وكنت تذكّرنا بطوز الكويت. أمّا الآن، فطوز السعوديّة والبليّة أعظم.

قالت سعديّة وهي تضع قطعة كلاّج ضخمة في الصحن:

ـ أعطي هذي يا سميّة لخالتك نوّار.

صاحت نوّار:

ـ كل هذا؟ أمّ حمادة أرجوك.

قهقهت سعديّة بتجلٍّ:

ـ أرجوك ما أرجوك لازم تأكلي حصّتك.

زعق رشاد:

ـ يمّه يمكن عاملة رجيم مثلك.

ـ اسكت وله.

وكانت منكبّة على صينيّة الكلاّج فازداد وجهها احمرارًا. ودارت كلمة رجيم في رأس عادل كحصاة تحدث في الماء أهلّة. وبلمحة عين انحدرت عيناه نحو ساقيها وقدميها في محاولة تلقائيّة للتأكيد. نعم، رجيم.. لا بأس... حقّها.. آه يا زهدي.. ماذا إذن؟ لو كنت مكانها فهل كنت تقعد؟

وسمعت على باب الحضير طرقات قويّة، فتبرّمت سعديّة:

ـ قوم يا رشاد وافتح لعمّك شحادة، يمكن جاب الجلبة الجديدة.

والتقطت عينا عادل نظرات متبادلة بين الصغار، وغمزات وابتسامات خفيّة. وحين قام رشاد عن مصطبة النافذة مشى بقمزة تشبه قمزات شحادة. وكانت سميّة ما زالت تقف بجوار الباب فحبست بيدها قرقرة مكبوتة انطلقت من أنفها شخيرًا. واستدارت وخبّأت رأسها في الزاوية بينما خبّأ جمال رأسه في كتاب كان في حجره.

أطلّت رزمة كبيرة من القمصان محاطة بذراعين طويلين معروقين، فصاحت سعديّة:

ـ يا جمال، تحرّك ساعد عمّك.

قام جمال وسحب من الرزمة كمِّيَّة من القمصان، فظهر وجه شحادة محاطًا بشعر مسرّح بعناية، وكانت تلك إحدى أفانين حلاّق على

الدوار يضع على بابه لافتة يقول فيها «أحدث التسريحات الفنِّيَّة» فبدا شعر شحادة أفنونة لا قبل لها ولا بعد.

ـ أهلان أبو الشباب. أهلن آنسة نوّار. أهلن أهلن.

ردّد رشاد خلسة:

ـ آنسة، آنسة.

وحشرج الأولاد بضحكات مكبوتة.

(٤)

حنى قامته حتى كاد رأسه أن يلمس كفّها، وقمز وهو يتراجع للخلف فصاحت سعديّة:

ـ أوعى الكلاّج..

التفت بخفّة ورسم على وجهه نظرة دهشة فادحة وهتف:

ـ آسف آسف يا أمّ حمادة، سامحيني أنا آسف.. حقّك عليّ سامحيني.

صاح رشاد:

ـ يمّه سامحيه.

ـ اسكت وله.

وخبّأ جمال العاقل رأسه في كتابه وشخر. وتلوّت سميّة بجانب الباب بينما دفن رشاد الشيطان رأسه في صحنه يعمل به فتكًا.

ملأت سعديّة الصحن لشحادة فحمله وجلس بجانب جمال على النافذة المغطّاة بالطراريح. وأنصت للكلام الدائر بين سعديّة ونوّار وأحاديث المجاملة المعهودة التي كان يجيدها أيّما إجادة، وبالأخصّ مع من يحسّ أنّهم أكبر منه مقامًا. وقد كان لدى شحادة إحساس يتلخّص في أنّ كل من لا يحمل اسم شحادة يتفوّق بطريقة أو بأخرى على شحادة. ولكن شحادة، بفضل الله والمقاولين وظروف البلد،

استطاع إثبات جدارته في مجالات عدّة. فبعد مغادرته لمزرعة الكرمي اشتغل عامل بناء ونجح، واشتغل طوبرجيًا ونجح، واشتغل سائقًا ينقل البرتقال من مصنع التشميع إلى الميناء ونجح. ثم اشتغل ميكانيكيًا وبائع خردة بالإضافة إلى قيامه بعدّة عمليّات صغيرة غير مشروعة علنًا لكنّها كثيرة التداول. وبعون الله والظروف أصبح مالكًا لسيّارة دوبل كابين يستخدمها لجميع أغراض النقل. وقد اعتاد أن ينقل القمصان من وإلى إحدى الشركات في تلّ أبيب. يأخذ القمصان من الشركة مقصوصة ومبوّبة ومصنّفة، ويعيدها إلى الشركة جاهزة للبيع وتحمل علامة كتب عليها «صنعت في إيطاليا، أو أميركا أو اليابان». ويشتريها العرب في الدول العربيّة دون نقاش، ويحضرها الغيّاب معهم في الصيفيّة هدايا للصامدين.

وبالإضافة إلى إحساس شحادة المكين بالنقص كان يحسّ بالغربة في الأوساط العربيّة والإسرائيليّة على السواء. ففي نابلس كان يحسّ أنّه غريب عن المدينة بالرّغم من استقراره فيها منذ النكبة الأولى عام ١٩٤٨، وكان آنذاك طفلاً. وفي السنين التي عمل فيها في مزرعة الكرمي، كان يحسّ بالغربة هناك أيضًا. غربة إذا ذهب للمزرعة وغربة إذا ما عاد منها. وغربة إذا ذهب لنابلس وغربة بعيدًا عنها، وتفاقم إحساسه بالغربة حين قدّم الكثير من التنازلات للمقاولين والظرف، وحين تأكّد أنّ كثرة الليرات في الجيب لا تجلب الاحترام ولو أنّها تفتح أبواب المقهى وأبواب الدكاكين على مصراعيها.

كان يجلس في المقهى يوزّع الطلبات على كلّ من هبّ ودبّ، يطلب شيشة لهذا وشيشة لذاك، ولكنّه كان على يقين أنّه إذا التفت فجأة لرأى عينًا تغمز لجارتها غمزة ساخرة أو متواطئة. لا بأس.. الغمزة المخيفة في الظهر خير من الشتيمة المفضوحة في الوجه، إن

كان لا بدّ ممّا ليس منه بدّ.

أمّا عن الغربة في الشارع الإسرائيلي فحدّث ولا حرج «لا دينهم من دينّا ولا عاداتهم من عاداتنا. البنت تضرب خالها وتصير حلال عليه. يا دين محمّد! أيّ شرع هذا! أيّ شعب؟ لكن مطرح ما ترزق إلزق، والإيد اللّي ما تقدر تعضّها بوسها وادعي عليها بالكسر».

لم يكن شحادة سيّئًا تمامًا، فقد كان طيّب القلب سخيّ اليدّ أبدًا مستعدًّا لتلبية النداء.. ولهذا لم يستطع إغفال نداء أحد من المقاولين اليهود أو العرب، فقد كانت مقاماتهم تشفع وتدفع. وكان يجيب إذا ما سأله سائل: «أنا إنسان عملي.. ضاعت البلاد والدنيا احتلال والكل ببيع وبشتري، والشاطر لازم يكون عملي ويستفيد من الظرف. غلب في غلب، لا والله غلب وستيرة ولا غلب وفضيحة».

ولكنّه كان يعلم أنّ موقفه لا يدعو للتفاخر فيصبح ذلّه مضاعفًا. ذلّ للمقاول وذلّ للزملاء كي يصفحوا عن مذلّته الأولى، وفي الوقت ذاته، كان يحسّ باحترام يشبه احترام التلميذ لأستاذ جليل حين يواجه بشخصيّة قويّة. ولهذا السبب من جملة أسباب أخرى، أغرم شحادة بسعديّة غرامًا يشبه غرامه بقصص البطولة والفداء، التي كان يتلقّفها ويبحث عنها في كل مكان ويرويها بحماس بالغ ـ من بعد أن يفلفلها ويبهّرها ـ وهو يتفتف ويؤشّر ويشبر ويحلف أغلظ الأيمان، ويضحك ضحكته الشهّاقة المميّزة وهو يذكر كيف أصيب الجنود بالبله والذعر وهربوا وهم يصرخون «فتخ فتخ»..

وقال مواصلاً قصّته التي ردّدها بدل المرّة مرّات:

ـ ودخل الولد في زقاق وخرج من زقاق والجنود وراه مثل كلاب السلق. تشعبط سور ونطّ، ولقي عجوزة لابسة تنّورة صلاة ويانس

تسقي الجنينة. واختفى الولد. انشقّت الأرض وبلعته. وسأل الجنود العجوزة «الولد فين؟» قالت «أيّ ولد؟» الولد يا جيفريت، الولد يا ستّ، الولد؟.. هون الولد، هناك الولد بين الزرّيعة على الشجرة طالع نازل. لا ولد ولا يحزنون. وبعدما خرج الجنود رفعت العجوز تنّورة الصلاة وقالت للولد «يا الله، عند أمّك». وراح الولد لأمّه والجنود بعدهم يدوّروا عليه.. آهاها.. آهاهأ، آهاهأ.

همس رشاد بصوت مسموع:

ـ سابع مرّة.

ـ اسكت وله.

ـ يمّه سابع مرّة.

ـ بقول لك اسكت. إذا كان الحال مش عاجبك اخرج.

ـ أسمعها سبع مرّات وأسكت؟

ـ إنشا الله عشرة.. يا الله، يا الله، قوم، هاتي يا سميّة المسطرة.

ـ لا، لا.. أخرج أخرج.

وهبّ واقفًا وهو يحيّي الجميع:

ـ سلامو عليكم سبع مرّات..

وغمز بعينه لشحادة، فرفعت سعديّة يدها في الهواء لكنّه فرّ هاربًا كالزئبق. وببساطة وطيبة فتحت سعديّة قلبها لنوّار. انتحت بها جانبًا وهات يا كلام. وفتحت سميّة التلفزيون وجلست وإخوتها على الأرض فوق الطراريح. وانشغل عادل بالاستماع لشحادة وأخبار العمّال في الداخل.

وفاض الكيل في صدر سعديّة فذرفت دمعتين أخفتهما بسرعة. «آه، اللّي راح راح». وفي تلك اللّحظة ومضت ذكراه في خاطرها كالشعاع وأضيئت ملامحه بالحنان ونظرات الرغبة. وخفق قلبها وانهالت دموعها. فأمسكت نوّار بيدها وقد اهتزّت: إيه يا نوّار، أحكي لك عن الرملة وحداد القلب والوحشة المسكونة بالشؤم والعفاريت. كيف تفهم بنت مثلك معنى أنّها الواحدة تعيش بدون صدر قوي يسندها!

قالت محاولة تناسي همّها:

ـ احكي لي يا نوّار، كيف حالك مع صالح؟ معلّقة بحباله؟ أيّ فرق بين حاله وحال زهدي؟ موت في القبر وموت في الحياة، ألعن من بعض!

وتفكّرت قليلاً وقالت بصوت متهدّج:

ـ أقول لك يا نوّار وما تزعلي منّي. أنت اليوم عمرك ٢٥ وفي عزّ شبابك. لكن بالنسبة إلنا إحنا النسوان، السنة الجاية غير الرايحة.

تمعّنت نوّار في وجه محدّثتها الذي ما زال شابًّا رغم همومه، لكن ريشة الزمن بدأت تحزّه بخفّة. وفكّرت بخوف. «بعد عشرة أعوام يصبح وجهي كهذا، وسأنتظر بدل العشرة عشرات.. يا إلٰهي..».

وانتبهت لسعديّة وهي تتساءل:

ـ قسمتهم.. يعني اللّي يموت نموت معه؟ واللّي ينحبس ننحبس معه؟ ما هي مزحة، فاهمة؟ وتستنّي يا نوّار حتى يضيع شبابك؟

وامتلأت نفس نوّار بالشكوك وغمرها الذعر. ونظرت لأخيها تحاول أن تستلهم منه فكرة فوجدته منشغلاً بالاستماع لشحادة:

ـ يا سيدي كل واحد لازم يفكّر بمستقبله. وأنت لازم تلاقي بنت حلال. أنا بصراحة بديت أفكّر بالموضوع، والحمد لله مستورة وأكثر

من مستورة. دخلي يكفي عيلة كاملة وبزيد. لكن على الله الناس تقدّر واحد مثلي.

واسترق نظرة نحو سعديّة فالتقطها عادل واضطربت نفسه «سعديّة تتزوّج من شحادة؟ تستبدل زهدي بشحادة..» وتأمّلها وهي تهمس في أذن أخته. الجمال البلدي الأصيل، وما زالت في عزّ الشباب. وقد تعلّمت المرأة الكثير، كيف تعمل وكيف تلبس وكيف تخاطب الرّجال دون أن تحمرّ أو تتلعثم. خامة ممتازة، مادّة قابلة للتشكيل، ولكنّ الوعي؟ لا وعي إلاّ بصيص من حسّ اجتماعي متمرّد. وهذا شحادة يقف بالمرصاد. وستعود المرأة إلى قواعد الحريم غير سالمة. شحادة والسلامة لا يجتمعان.

واستمرّت دموع سعديّة تنحدر في الخفاء وعيونها مصوّبة نحو شاشة التلفزيون فوق رؤوس الأولاد.

زهدي.. ما فات مات، ولم تبق إلاّ الرملة وهذا الفوج من الرؤوس المرصوصة. حمل ثقيل. ما أثقله!

وابتسمت بحنان ودمعة مالحة بطعم الدم تتسرّب إلى فمها «هذا الشيطان الصغير الذي اسمه رشاد رح يزيد همّي وغلبي وما راح يهدا، طالع للّي خلّفه.. وهو زغلول بحاول يطير».

لم تنس الغرامة المحترمة التي دفعتها مقابل نفقات مقليعته الموجّهة، ومن المظاهرة للسجن مع بقيّة الأولاد.

وتفضّلوا يا أهل ادفعوا ما عليكم. ٣ آلاف ليرة عدًّا ونقدًا.. وحمادة! الله يرضى عليه يقول «لا بأس يا أمّي، لا نحن أوّل الناس ولا آخرهم. ولا رشاد أوّل الطلبة المتظاهرين ولا آخرهم». لكنّه يا حمادة صغير.. الاحتلال يا أمّي لا يرحم الصغار ولا الكبار..

وتفسيرات لا أوّل لها ولا آخر. أحيانًا تناقش وأحيانًا تسكت، فما يقوله حمادة صحيح. وما يفعله رشاد لا تقوى على معارضته. ماذا تقول له؟ «ما تتظاهر ولا ترشق الجنود بالحجارة ولا تكون ابن المرحوم؟» لكنّ الحمل ثقيل، وحمادة نفسه ما زال جزءًا من هذا الحمل. حمادة الذي لا تراه في السنة إلاّ شهرين أو ثلاثة، وبقيّة السنة يظلّ يسحب العملة بالدينار. وفي النهاية سيستقرّ في بيت آخر ويكون سند امرأة أخرى، وجمال كذلك، ورشاد كذلك، وهلمّ جرّا.. فمن يظلّ معها ولها؟ وهؤلاء الناس، هذا العادل، وهذه النوّار، وهذا الشحادة، والجيران والحيطان وكل الكلام وكل التعب.. وتجاربها القذرة مع من احتاجتهم وقت الحاجة. صاحب المقصّ السحري ونظراته تنسحب من ساقيها إلى صدرها وعين تحملق وحاجب يلعب، ثم صفعة مدوّية على الخد السمين ولعنة على المقصّ السحري وكل المقصّات.

ولم تكن التجربة الأخيرة. تعليقات وتنويهات، وإغراءات. ومن باب لباب ومن دكّان إلى دكّان. والحقيقة أنّها لم تكتشف الناس إلاّ حين احتاجتهم. حين كان زهدي كانت الدنيا محصورة داخل جدران بيتها، وكانت أعباؤها محصورة في الطبخ والكنس والمسح. والقلق على زهدي من البطالة ومن اليهود. وحين غاب زهدي وخرجت إلى الدنيا الواسعة اكتشفت كم هي صعبة حياة الرجال. وأصعب الصعب أن تحاول امرأة أن تعيش هذه الحياة. دعك من مشاكل الرزقة التي تسحبها من بين أسنان وحش، فهناك المشاكل الأخرى وهي أمرّ وأقسى. امرأة شابّة جميلة وأرملة..

.. وكم عليها أن تدفع مقابل هذا النعت الذي لا يبدو محصّنًا. أرملة. أي أنّها بدون رجل مستعدّ لكسر رقبة من يتصدّى، كأرض

بدون حارس. وقد تعلّمت، هؤلاء الرّجال قد علّموها الكثير. علّموها كيف تشكّ في كلّ النوايا مهما صدقت. وهذا شحادة الرجل الوحيد الذي يحاول مدّ يده بالحلال.. سخل أعجف لا يبلعه زور ولا تهضمه معدة. لكنّه على كلّ حال رجل، على الأقلّ في نظر الناس ونظر الشرع.

وأحسّت بالغضب ينشب أظفاره في حلقها، لماذا؟ لماذا يتوجّب عليها أن تفكّر في شحادة؟ وتأمّلته وهو يتكلّم مع عادل ويؤشّر ويشبر ويتفتف ويتذلّل. أهذا هو الملجأ الأخير؟ أهذا هو الحلّ الوحيد؟ «اخص، اخص على الدنيا والناس والرملة.. أنا أفكّر بهذا السخل حتى أتّقي شرّهم؟ وبعدما أتّقي شرّهم كيف أتّقي شرّه؟» والرجال أنذال، ومن هم أصلح منه تكشّفوا عن أنذال، فكيف يكون هذا؟ هذا الذي يتمسكن حتى يتمكّن، وبعد أن يتمكّن سيحرق أنفاسها ويستغلّها كما يستغلّ أيّ ظرف يمرّ به. ولكن لا، لن تتورّط هذه الورطة. ولتقم البلد قيامتها. «اخس يا بلد. الله الغني عنك وعن أمّ صابر وأمّ تحسين وشحادة.. علّقيني يا بلد من شعري في باب الساحة.. ولو، وقفت قدّام السجن مع الرجال ولا أتخن شارب، ودفعت ٤ آلاف ليرة عدًّا ونقدًا. وخرجت بابني ومشيت قدّام كلّ العيون وما قلت له مثلهم، إذا عملت وسوّيت يا ولد كسرت إيدك يا ابن الكلب، لا أبوه كلب ولا أمّه كلبة، لكنّ البلد ما بيحفظ. وآخر الموّال شحادة؟ لا والله ولو انشقّ الكعب وانسلخ الجبين.. ويا ويلك يا سعديّة. ويل اليهود وويل الناس وويل الليرة والدينار وويل الشباب الدبلان قبل الأوان...».

لكنّها ستشتري قطعة أرض في الجبل المشمس، وتجلس في الفرانده الزجاجيّة تشرب القهوة والبلد مفروشة تحت رجليها بساطًا، وتظلّ تمشي تمشي ولا أجدع جدع..

(٥)

وقفت سعديّة بملابس النوم الشتويّة وسط الحضير، وفي يدها علبة سمن مملوءة ماء. كان النوم ما زال عالقًا في طرفي جفنيها، وزرقة النهارِ الرائق تأخذ طريقها نحو المدينة النائمة وفوق قمّتي عيبال وجرزيم. استنشقت رائحة الصبح النديّة وهي تتأمّل المئذنة المرتفعة، حيث يقف المؤذّن في العادة وراء سمّاعات مكبّرة ترسل هديرها في كلّ اتجاه، مصطدمة بهدير بقيّة المكبّرات من بقيّة المآذن. وتمنّت لو تنخسف كهربة البلديّة أكثر ممّا هي مخسوفة وتنقطع صبحًا بدل اللّيل، على الأقلّ أيّام الجمعة. «أشتهي من الله نومة طويلة ما إلها أوّل ولا آخر. لذّة الحياة الوحيدة يا حسرة..».

دارت على تنكات صدئة مليئة بالتراب والزهور، صفّت لصق جدران الحضير القصيرة، وسقت العطريّة والنسيم وأوراق الريحان. جسّت بيدها الشابّة جوارب معلّقة على الحبال كانت بمختلف الألوان والأحجام. وألقت نظرة أخيرة على الشارع الضيّق المعتم تحت بيتها المرفوع على الطابق الثاني. تأمّلت نوافذ جاراتها التي كانت ما تزال مغلقة، وتمنّت أمنيتها اليوميّة الثانية، أن تظلّ تلك النوافذ مغلقة إلى الأبد.

وحين تأمّلت خيوط الشمس الذهبيّة تتسلّل نحو صنوبر عيبال وصبّارة، تمنّت أمنيتها الثالثة والأهمّ، أن تتوفّر لديها كمّيّة من المال

تمكّنها من شراء قطعة أرض في ذاك الجبل المشمس. هناك الهواء نقي من العطونة، والملح يحتفظ بصلابته شتاء، وكذا الوجوه تحتفظ برونقها وعافيتها.. الجبال للأغنياء، أمّا بقيّة الخلق ففي هذا الوادي الكئيب المتآكل قدمًا وعفونة.. متى يحنّ الله وترتفع هناك مع المرتفعين؟

وبدت تلك الأمنية حلمًا يقرب بإعجازه ولوج الجنّة، ولكن، لا شيء كبير على الله، فها هي صبيحة المدرّسة اشترت قطعة أرض هناك وبنتُ دارها غرفة غرفة، فكلّما انتهت من بناء غرفة بدأت بالأخرى. طريقة عمليّة ولو أنّها متعبة. لا بأس، ستفعل هذا، ولكن لا بدّ من وجود الأرض أوّلاً.

وبدأت تحسب ما لديها وما عليها من حساب في ذمّة الشركة الإسرائيليّة، وما لها من ديون على الزبونات المرتفعات قاطنات الجبل المشمس ومنطقة الشويترة الغنيّة. وحسبت عدد القمصان في الجلبة الجديدة وما ستحصل عليه بعد الانتهاء من خياطة تلك الجلبة. كما حسبت أجور العاملات لديها ومصاريف البيت ولوازم الأولاد، ثم الخمسين دينارًا أردنيًّا التي ستبعث بها لحمادة في القاهرة لسدّ احتياجاته الجامعيّة. وهزّت رأسها حسرة ويأسًا.

ولكنّها بدأت ترشف فنجان قهوتها وهي جالسة على عتبة الحضيرة، زمّت شفتيها بحزم ولمعت عيناها ببريق العزيمة وصمّمت «رح أنالها ولو على قطع رقبتي». وحين بدأت بترتيب البيت، وبإعادة كل قطعة من العفش، كان الأولاد قد زاحوها مساء أمس، إلى موضعها، وقفت تحت صورة مكبّرة لزهدي وهمست «رح أبني للأولاد بيت، وتشهد على روحك يا زهدي».

وتأمّلت العينين السوداوين والشاربين الكثيفين وأحسّت بالغربة، فما عاد للصورة مفعولها السابق، وما عاد للذكريات طعمها الحادّ ونكهتها المتجدّدة. وبالرغم من الاعتقاد السائد بأنّ روح الشهيد تظلّ على اتصال بالعالم ترأف بالمحبّين وذوي القربى، إلاّ أنّ الزمن يُبهت كل شيء، كما فعل بألوان الكنبات والستائر. والفرق أنّ وجوه الكنبات تجدّد، أمّا وجه زهدي، فيا حسرة! وردّدت «حسرة» عدّة مرّات، وحين نظرت في مرآة الخزانة ردّدتها أكثر. وهبطت على الكنبة وعيناها غارقتان بالدموع، والإحساس بقسوة الحياة وضراوتها يملأها بالرعب والوحشة.

في المنزل غرفتان تنام في الصغيرة مع أصغر الأولاد منذ رحيل زهدي وتستعملها للخياطة نهارًا. والكبيرة حيث ينام بقيّة الربع تستعمل كغرفة للجلوس والأكل ولعب الأولاد ودراستهم ومشاهدة التلفزيون. وكم شهدت تلك الغرفة من معارك حامية الوطيس بين الأبناء حين يفتح أحدهم التلفزيون على أخبار إسرائيل بينما يصرّ آخر على مشاهدة علاء الدين من عمان. وتلك لا تريد هذه أو ذاك، بل إقفال التلفزيون كلّيًا لتتمكّن من دراسة امتحان الغد. ويشتبك الجميع في معركة جنونيّة تهبّ على أثرها سعديّة ومن خلفها كلّ فتيات الخياطة تاركات القمصان على جوانب الماكنات أو على الأرض تحت الأرجل. وتحمل سعديّة مسطرة الخياطة الطويلة والمتر يتدلّى من عنقها، وتنزل في الأولاد سلخًا. وأحيانًا تفقد عقلها بين الصياح والضرب فتعمل في أحدهم ركلاً ولكمًا حتى يكاد الصبيّ أن يفقد وعيه. وتهبّ فتيات الخياطة لتخليص الولد من بين يديها، بينما يكون صراخ بقيّة الأولاد وذعرهم قد جعل من الحادث مشهدًا من أفلام الرعب.

تنشج سعديّة وهي مكوّمة على سرير أحد الأولاد وتندب حظّها

حتى تتورّم عيناها. ويهرب الأولاد للحارة التماسًا للطمأنينة. ويظلّ الولد الضحيّة في الزاوية منبوش الشعر والملابس يشهق بصمت وهو يتحسّس الكدمات في رأسه وجسمه. وحين تهدأ الأمّ وتعي ما حدث تقترب من ابنها تتحسّسه بقلب موجوع، وتضمّه إليها بعنف وتغرقه بالقبلات، وتعطيه حبّة شوكولاتة بعد أن تغسل وجهه وترطّب كدماته بالماء البارد. وتبعث به للحارة ليجمع إخوته بينما تقوم بتحضير عشاء سخي فوق العادة تكفّر به عن سيّئاتها.

يسود المنزل صمت شاحب، ويراقب الأبناء التلفزيون بعد العشاء وهم يتبادلون النظرات المشوبة بالقلق. وتظلّ الأمّ في زاويتها على مصطبة النافذة تمضغ أحزانها ووحشتها مسترجعة ماضيها، متأمّلة حاضرها، متخيّلة ما سيكون عليه المستقبل من وحشة وقسوة. فغدًا يكبر الأولاد، سيتخرّج حمادة بعد ثلاث سنوات، وسيعمل في السعوديّة أو الخليج ليساهم في تعليم إخوته وليدّخر قرشين يبني بهما بيتًا لنفسه. وسيلحق به جمال ثم سميّة ثمّ رشاد وأخيرًا عزيز الصغير. وسينتشر الأبناء هنا وهناك، وتظلّ هي وحيدة في بيتها البعيد في أعلى الجبل. وستكفّ عن الخياطة حين يشتغل الأولاد وتتزوّج سميّة، ولكنّها ستعاني الوحشة القاتلة وتصبح عجوزًا قبل الأوان بسنوات عديدة.

شحادة..؟ لا.. لا.. مستحيل. سيقول الناس «يا بادلة النخلة بسخلة» فأين زهدي وأين شحادة. أين طول زهدي وعرض زهدي ومرجلة زهدي.. كان رجلاً، رجلاً حقيقيًا. أمّا ذاك الأعجف الشاحب ذو الشعر المفلفل والسوالف النتش والضحكة الشهّاقة، فلا والله حتى لو اشترى المرسيدس والتلفزيون الملوّن.

لكنّها ستشتري الأرض في الجبل المشمس، ستحصل على قطعة بجوار صبيحة المدرّسة، وستبنيها غرفة غرفة، وحين يكبر الأولاد ويزوّدونها بالمال ستبني طابقًا علويًّا له فراندة زجاجيّة تجلس فيها صباحًا تشرب القهوة وترى المدينة بساطًا ممدودًا تحت قدميها. وستكون هي قد ارتفعت مع المرتفعين، وستمدّ لهذه المدينة القاسية لسانها وتبتسم لأمّ صابر وأمّ تحسين ابتسامة ذات مغزى. وستذكّرهما بالفضائح المزعومة وهي تقدّم لهما الكنافة على صحون برّاقة كالألماس. وتختال أمامهما بفستان مكسي ـ إحدى هدايا أبنائها من الخليج ـ وستتلمّظ وهي ترى نظراتهما تنهش فرو شبشبها الأحمر. لكنّها ستكون عجوزًا، ولن يكون باستطاعتها لبس الأحمر وشعرها قد بات رماديًّا.. حسرة!

ويبدو المستقبل مظلمًا بالرغم من الجبل المشمس وأحلام المكسي وصحون الألماس. وتستيقظ من أفكارها على صوت المعركة المعهودة في غرفة الأبناء، فتحمل المسطرة الطويلة وتهرع لتنفث نقمتها على حظّها وعلى الحياة. وتضرب أبناءها ضربًا مبرّحًا وهي تبكي وتلعن، وتكفر ثم تستغفر.

لكنّ الأيّام عوّدتها كيف تستمتع بمكاسب الحياة اليوميّة الصغيرة. فحين تقبض أجر جلبة من الجلبات وتعود من تلّ أبيب وفي حوزتها شيك بألفين أو ثلاثة آلاف ليرة، كانت تحسّ بأنّ الدنيا قد بدأت تهادنها فجأة، وأنّ موعدها مع الفرج قد اقترب، وأنّ حلم الأرض أصبح مشروعًا وليس حلمًا.

وتمرّ باللّحّام والخضرجي والبقّال، وتملأ أكياسًا ورقيّة ضخمة بكلّ ما كانت تحلم بأكله حتى في أيّام زهدي. وتعود إلى الدار وعتّال

ضخم يتبعها. وترى النسوة في الشبابيك اللعينة يرمقنها بحسد وغيرة. وتحسّ بأنّها باتت رجلاً أو نصف رجل، فتشدّ خطوتها وتستجمع صوتها وتنادي من أسفل الدرج المعتم «ياولاد».

ويندفع الأولاد إليها يتخاطفون الأكياس وينهشون الموز والتفّاح وهم ما زالوا على الدرج، ويتصايحون ويضحكون ويملأون الزقاق بالهرج والمرج، فتحسّ بأنّ الدنيا روعة وتجلٍّ.

وتنهمك في تعبئة الثلاّجة بالخيرات وإحساس بالكبرياء والثقة يطفو على كلّ حركة من حركاتها. وتفتح شبّاك المطبخ المقابل لشبّاك أمّ تحسين وتغنّي وهي تصنع الحساء والعجّة للعشاء. وتردّد بصوت قويّ حنون مواويل تبدأها بياعيني، فتسمعها أمّ تحسين وتصيح من شبّاكها. «تطلع». فتقهقه سعديّة مدّعية اللامبالاة وترفع عقيرتها وتغنّي بأعلى صوتها. «يا عوازل فلفلو».

وبالطبع تمتلئ الحارة بالأقاويل بعد بضعة أيّام. ويقال بأنّ سعديّة كانت.. الله أعلم أين ورجعت إلى البيت ورجل طول الحائط يتبعها حاملاً ما لذّ وطاب، والله أعلم مقابل ماذا أعطاها كل تلك الخيرات! والله أعلم من أين تأتي بكلّ تلك اللّيرات، مع أنّ ما تخيطه سعديّة وكلّ العاملات لديها لا يتعدّى ربع ما يخيطه أبو تحسين عند صاحب «المقصّ السحري»، ومع ذلك فإنّ صاحب المقصّ السحريّ لا ينفكّ يشكو من قلّة الدخل وارتفاع الضرائب وسوء أحوال السوق. ذاك ما يشكو منه الرّجال فكيف تكون أحوال النسوان؟ «على مين يا سعديّة يا بنت أبو شمر، يا اللّي كان أبوك يبيع الطمريّة على الطبليّة»..

ومرّة فقعتها أمّ تحسين مع سعديّة وردحت لها لأتفه الأسباب قائلة لها «يا بنت أبو شمر لمّي ولادك أحسن لك.. أنا مش ناقصني إلاّ

ولادك! ابنك السحويل رشاد صوّب المقليعة على ولادي من الشبّاك ونقف عبده بحجر في صباحه راح يطلع له عينه». وصاح رشاد من وراء أمّه «كذب، كذب، والله العظيم هو اللّي بدا، ومش حجر، ورقة مطويّة ورحمة أبوي». ويطلّ عبده المنفوخ كالقربة من وراء أمّه ويقول «كذّاب، أنت نقفتني على عيني مثل ما بتعمل لليهود في المظاهرة».

وتتلفّت سعديّة يمنة ويسرة خوفًا من مرور أحد الجنود، وتضع يدها على فمها وتهمس «هس، هس»؛ ولكن أمّ تحسين، وقد أكل الحسد قلبها مذ رأت ماكنات الخياطة الجديدة محمولة على أكتاف العتّالة تأخذ طريقها نحو دار سعديّة، تجدها فرصة مناسبة لتنفث سمّها، فتدوّر سبابتها وإبهامها وتقول «والله لأفرجيك يا سحويل، واحنا اللّي كنّا نشفق عليك ونقول يتيم»!

ويحمرّ وجه سعديّة ويندفع الدم إلى جلدة رأسها وتصيح «ضبّي الطابق يا أمّ تحسين واخزي الشيطان». فتغمز أمّ تحسين بعينيها الكحيلة بكحل بلدي وتهفهف بكفّيها «أنا عندي طوابق يا مطبّقة؟ أنا أخزي الشيطان يا مخزيّة يا دايرة يا أمّ الليرات الحرام»، وتقهقه سعديّة بغيظ وتدقّ قبضتها على كفّها وتصيح «من كيدك وكيد جوزك يا عايزة..».

ويشهد الزقاق ملحمة لا قبلها ولا بعدها، وينحاز الجيران أكثرهم إلى جانب سعديّة الأرملة أمّ الأيتام، وتنحاز القلّة إلى جانب أمّ تحسين ذات اللسان الماضي والأكاذيب المحبوكة. وتنتصر سعديّة.. ولكن نصرًا مريرًا ينتهي ببكائها الصامت أثناء اللّيل وهي تحتضن عزيز النائم على صدرها، وتترحّم على زوجها وأيّامه، أيّام كان أمثال أبو تحسين وأبو صابر وزوجاتهم يتلقّفونه بالابتسام والاحترام خوفًا من سطوته ومرجلته.

ولكن.. ذاك زمن وهذا زمن! والبكاء لا يفيد والخناقات لا تطعم خبزًا، وعليك بالماكنات يا سعديّة، فهي الوحيدة النافعة في هذا الحيّ كلّه. حتى بالجيران الطيّبين المناصرين لا يجدون نفعًا ساعة الحرج والحاجة، وهؤلاء الأيتام مسؤوليّتك أنت، وجامعة حمادة ومصاريفه مطلوبة من رقبتك أنت، والعمل هو الحلّ الوحيد، ففيه الرزق وفيه النسيان وفيه الفرج، وغدًا تتجمّع لديك اللّيرات المطلوبة وتشترين قطعة أرض في الجبل المشمس.. وترتحلين عن هذا الزقاق المعتم وتشربين القهوة في فراندة زجاجيّة على قمّة الجبل العالي، وتحقّقين ما عجز زهدي نفسه عن تحقيقه.

وتفتح الباب لشحادة وتتناول منه جلبة القمصان الجديدة وتستقبله في الغرفة الكبيرة، حيث يجلس الأولاد على الأرض، يشاهدون علاء الدين وياسمينة من تلفزيون عمان. تضيّفه القهوة وتحادثه كزميل، وتعطيه أجره وهو يحلف: أن خلّيها علينا هذي المرّة، ولكنّها تجعّد ما بين عينيها بصرامة وتقول «الشغل شغل يا شحادة، تفضّل حقّك! الله يرضى عليك، وخلّينا نشتغل شغل رجال». وتنظر إليه بقوّة وكبرياء وتسأل «شغل رجال؟» ويخشع قلبه احترامًا وقد هزّته سطوتها «وأحسن من الرجال يا أمّ حمادة، عليّ الضمان أحسن. بشرفي يا أمّ حمادة إنّ شغلك أنظف شغل ومعاملتك أحسن معاملة، حتى اليهود يشهدوا بهذا والله يشهد».

ويتودّد للصغار وهو يرمق الأمّ بطرف عينه، ويحمل عزيز ويضعه على حجره ويحكي له حكاية يضحك لها ضحكة شهّاقة تثير قهقهات الأولاد، فيقلّدونها حين يخرج من الباب وهو ما زال على الدرج.

(٦)

لولا منع التجوّل الذي أصاب المدينة كحمّى ملاريا لا يعرف لها موعد لغادر عادل المدينة في اليوم الثالث من مجيئه لزيارة الأهل. لكن حادثًا ما وقع على الدوّار جرّ في أعقابه منع التجوّل المعهود. سيّارة جيب عسكريّة ارتجفت فجأة وانطلق منها صوت مدوّ وشظايا. وانقذفت كتلة كاكيّة تنزف دمًا.

وبدأ الركض. تدافع الناس وفرّوا كدجاج تعرّض لهجمة، وأغلق التجّار حوانيتهم وهرولوا ببنطلوناتهم الواسعة نحو منازلهم دون أن يشتروا خبز الأولاد. وصاح صبي يقف على برميل صدئ: «وحملت رشاشي آآآآ لتحمل بعدنا الأجيال منجل». وخلال لحظات كان الشارع قد خلا من جوقة الأولاد يتقاذفون كالعفاريت وكلّ يحمل على الكتف خشبة ويمشي بخطوات العساكر. وردّدوا في فراغ الشارع «وحملت رشَاشي»، وقبل أن يقولوا الـ آ آآ وجدوا أنفسهم في سيّارة جيش محاطين بوجوه ضخمة وبسباطير. وتأمّل كل واحد علامات الرضوض وآثار الأصابع على وجه رفيقه وتحسّس خدّه. حاول أحدهم الهرب فتلقى الضرب حتى نزف. وبكى أحد الأولاد وقست نظرات الآخرين واصطكّت أسنانهم بفزع ونقمة. صاحت أمّ صابر من شبّاكها تخاطب أخرى «لمّوا البلد وما خلّوا..».

ودخلت نوّار الغرفة وما زال عادل يسمع الأخبار في فراشه ولهثت:

ـ لا تخرج من باب الدّار، أعلنوا منع التجوّل وبدأوا حملات التفتيش. إذا خرجت فلن تنام إلاّ في السجن.

«السجن.. دائمًا السجن. إذا خرجت للشارع فالسجن بانتظارك. وإذا بقيت في المنزل فالسجن بانتظارك. وهناك ما بعد الجسر سجن ضخم، سجن كبير، أحكام عسكريّة وزعماء مؤلّهون كانوا منك وصاروا عليك. والويل لك كفرد والويل لك كشعب، فبأمرهم كل من عليها فان، ويبقى ذو الجلال والاحتلال».

وتأمّلها تقف أمام النافذة من خلالها تنظر للسماء، وأغصان الليمون في الحاكورة الشرقيّة ما تزال تحتفظ بجمالها الهادئ الشفّاف، لكن مسحات الحزن المتراكمة يومًا بعد يوم وسنة بعد سنة بدأت تذكّره بسنيّ القحط والغفلة. البنت تكبر، في منتصف العشرينات، وغدًا تصبح في الثلاثين وما زالت تنتظر. وماذا تنتظر؟ تحقيق الحلم؟ وما كانت الأحلام قيد خطوة أو خطوات. سنوات قد تعقبها أجيال، الشعوب تراهن على التاريخ، أمّا تاريخ الفرد فأقصر.

ورآها تمسح الدمع خلسة. أنت كذلك؟ وسعديّة، وأبو صابر حتى رئيس البلديّة. «نمسح الدمعات خلسة ونقول للحقّ حشاشة. نحن ما زرعنا الحقد لكنّا نعتصر جناه. ولتكبر يا جرح فوق كل الجباه».

ـ تعالي هنا، اجلسي بجواري.

هزّت رأسها وما زال وجهها نحو الخارج، وتضاعف رثاؤه واختلّ صوته.

ـ نوّار، أختي.

وبدأت تنشج. «آه، الآن يفيض الدمع وتندلع الحسرات. لا يقوى القلب على الوحدة. مطبوع.. مرهون، مشدود، أبدًا يرتدّ إلى الغربة».

وقالت من خلال دموعها:

ـ هؤلاء الأطفال.

ـ أَهُم الأطفال حقًّا؟

ـ ما عدت أحتمل هذا الجوّ.. أريد الهرب. وعد قطعته على نفسي أن أنتظر. كان للانتظار معنى، وكان صالح أمنية، أصبح الانتظار سجنًا والسجين قيدًا وبتّ أحلم بالهرب.

ـ إلى أين؟

ـ لا أدري، ولكنّي فقدت القدرة على المكابرة.

ـ وهل أخبرته بذلك؟

ـ أخبره؟ وماذا أقول؟ مللت الانتظار؟ رسائله لا تكفّ عن بذر الأمل، ولكنّي ما عدت فتاة حالمة كالسابق. أنا بحاجة إليه هنا، أراه أمامي، ألمسه بيدي، أحسّ بدفئه يملأ الشوارع بعد أن كلح البريق. سبعة أعوام سبقتها أخرى وتتبعها أُخر. وما جدوى الانتظار؟

أحسّ بشيء يشبه النقمة. هذا حصاد آل الكرمي وكل الآلات. مرّ أمام سجون كثيرة، في نابلس، في القدس، في رام الله، ورأى الأهل بانتظار الزيارة. فلاّحات بأثواب ريفيّة، رجال بحطّات وقنابيز، أطفال بشعور مشعّثة يعدّون بالعشرات، ونسوة لفظتهنّ قيعان المدن. فقر وشظف ووجوه صفراء كئيبة. ونخزُه أحد الزملاء يومًا فعلّق:

ـ أترى ما أرى؟ لا تسل: من يدافع عن البلد؟

مشكلة. ماذا يقول لهذه الفتاة؟ انتظري؟ الوعد؟ وما جدوى الوعد للعابرين؟ والوعد موقف وقناعة، وقدرة على التشبّث والمتابعة. وإذا هزلت مخيّلة الفرد بات رمادًا. والسرّ أعمق. جذوره تمتدّ في أغوار الواقع ورغيف الخبز. فاقدو كل شيء لا يخسرون. هذه هي القاعدة ولا حقيقة سواها، حين تنقص القاعدة لا الشواذ. والشواذ لا قاعدة له ولا ثبات.

وحين أغلقت الباب خلفها ارتجّت ستارة النافذة فتدفّقت أنسام محمّلة بعبير الليمون، وزقزقت عصافير في سماء لا حدود ولا قيود.

وتأمّل صورة معلّقة على الحائط تمثّل العائلة كلّها. الأب بجلال قدره وقد جلس في الوسط وإلى جانبه زوجته المستكينة، ورعيل الأطفال من حولهم. عادل خلف أمّه تمامًا، وقد تبدّت على وجهه المراهق لمسات حسّاسة تنمّ عن نفسيّة قلقة وأحلام طوباويّة. ونوّار الطفلة بضفائر وشرائط وخدود مكتظّة مستديرة، وباسل الصغير وضحكة عفريتة على وجه مدجّج بالشقاوة والتمرّد. وأطفال آخرون بعضهم مات وبعضهم ما زال حيًّا ينمو ويكبر. من ناحية باسل، فقد عرف الشاب طريقه. قد لا تعدو المسألة صدفة، صدفة أن تورق العائلة الذابلة برعمًا شديد الاخضرار كهذا، وصدفة أن تنزلق نطفة صحيحة التركيب من صلب رجل مات باهتراء الخلايا، وصدفة أن تتناسب عودة أسامة إلى الضفّة في وقت تفتّحت فيه روح الفتى وأحلامه كتفتّح الشمس والكبرياء. وتلاءمت الظروف وخرج من الطفل العفريت الضاحك أبدًا، رجل يعتنق دين الأرض ودين الشمس.

وكانت تفتح الباب بيد وبالأخرى تمسك بصينيّة قهوة. جلست إلى

جواره على السرير فأنّت مفاصله وزقزق. تأمّلها وتساءل بدهشة: «هل كنت واهمًا في التقييم؟ هل كانت صورتها من وحي خيالي؟ أختي على الطريق ولو أنّها لم تبلغ البعد الكامل، لكن مستقبلها واضح»؛ إذن فقد كان كل ذلك وهمًا بوهم، عقله الباطن أملى أحلامه فارتسمت الصورة المجيدة وتقبّلها بدون نقاش أو تمحيص. ودوّى السؤال في رأسه: إذا لم يكن في هذا الرّأس وهذا القلب صالح فمن يكون؟ وزلزلته ذكرى كلماتها: وما جدوى الانتظار. أبهذه السهولة يا نوّار؟ أبهذه السهولة يلفظ الإنسان وعده؟ وعد؟ ومن قال إنّه كذلك؟ كان تيّارًا سحب القشّة على فقّاعة ماء. وكم من الفقاقيع وكم من أعواد القشّ في عرض التيّار!! التيّار يسحب طالما ظلّ في الدفع قوّة، وإذا توقّف الدفع فالماء يأسن، والفقاقيع اللامعة كفلقات الأقمار تنطفئ فجأة، كما جاءت، كما ذهبت، وتظلّ أعواد القشّ على السطح الجامد مرتعًا للهوام وبيض البعوض.

أهذا هو الوضع؟ أهذا هو الواقع؟ ولم لا؟ لا بأس من المراجعة ولا بأس من الاعتراف. رائع أن يحلم الإنسان بواقع أفضل، والأروع ألاّ يفقد الصلة بحقائق واقعه الراهن، لئلاّ يعوم كفقّاعة على سطح ماء جامد.

(٧)

تأمّل أبو صابر وجه الشابّ بحيرة، ثمّ لاحت في العينين ومضات فرحة:

ـ أبو العزّ!

عناق وقبل ووجوه كثيرة. وأيدٍ تسلّم وشفاه تحمد. حمد الله عالسّلامة يا باسل ما عرفناك وحقّ الإله. كبرت يا رجل وأصبحت فحلاً. الله أكبر يا بلد، السنون تمرّ أيّام غفلة. ستّة أعوام أو أكثر؟ وكم شهد البلد يا بو العزّ، حرب كبيرة، وحرب أهليّة، وحرب في الداخل والخارج. والحالة صعبة يا خال. أصعب، أصعب. . هات يا محمّد. عسيس وقينر وقهوة ونَفَس. تغيّر شيء؟ الحاجّ عبد الله أعطاك عمره. صابر سافر. حمادة يدرس. معروف يمكن، ويمكن صار بيني وبينك، الله أعلم. بيروت انفجرت وما خلّت.

والتمّ الزبائن في المقهى. تحلّقوا حول الشابّ يتأمّلونه بفضول وفرحة. كيف السجن وكيف الشباب؟ وأخبار صالح وابن تفيدة؟ أي والله صحيح. سجون كِثيرة يا خال، ونقول السجن وأنّه سجن واحد. كيف الصحّة وكيف الحال؟ الحالة كرب والعيشة مرار. اشرب يا خال، اشرب، روّق.

واندلعت الزغاريد من الشبابيك والتمّ الصبية. وتأمّل الفتيان خرّيج السجن بخشوع وتهيّب. وركضوا هنا. وركضوا هناك، وحمل كلّ طفل

الخبر لأمّه «باسل خرج، باسل خرج.» وعادوا يقفون خلف زجاج المقهى، يسترقون النظر. أروع مشهد أعظم صورة. السجن جميل يا عالم. تدخل طفلاً، تخرج رجلاً يلقاك الناس بزغرودة وألف تحيّة. السجن كبير، السجن عظيم.

وعبّأ رشاد مقليعته، وتوجّه نحو الدوّار حيث الدوريّة تتصيّد. «أمّي، ونوّار، عادل. تعال. اجلس. أخبارك؟ أخبار البلد؟ حين خرجت من السجن لثمت تراب الأرض وعبدت الشمس. وطارت السيّارة فانساب قلبي ولفح الهواء وجهي فعشقت وانهلّت دموعي. ودار قلبي عصفور بيادر. لحظات تنسى خالقك وتذكر خلقه. وتعبد الأرض ومن عليها. ومررت بسهول وهضاب، خضراء سمراء بيضاء صفراء. حقول قطن وعبّاد شمس. وحسبتني في العالم وحدي، ولم أك وحدي. كنت طير عبّاد شمس. أتلقّف النور أحفظه في القلب حبًّا وبذارًا، وأنتظر العام المقبل. ومن البذرة أُنبت زهرة، ومن الزهرة أرشم مرجًا، ومروجًا وحصاد مواسم».

بكى لهفة، وبكى الآخرون. ورنّت زغرودة أمّ صابر. ودار الليمون وأصبحت الدار قبلة الحيّ ومزار المدينة.

ـ وما أخبارك يا عادل وأخبار المجلّة؟ سلام الرّفاق إليك. وفي الأفق مشروع يدبّره صالح. والآن خبّرني بأخبار البلد. لا تقل هذا يا رجل. والمظاهرات؟ والانتفاضات؟ ولنا في الجانب الآخر أصدقاء ورفاق. التقيت بأحدهم في السجن. نعم إسرائيلي. إنسان حرّ لم أرَ مثله. صحيح، ليسوا كثيرين لكنّهم سيكثرون. ونحن، هل نحن كثر؟ سنكثر ونكبر والبلد سيكبر. أنا متفائل؟ طبعًا طبعًا. وأنت؟ ألست كذلك؟ تقييمات عويصة يجيدها المثقّفون. أمّا أنا فأؤمن بالفعل.

وجلس عادل في الزاوية يتأمّل الشاب الضاحك. طول وعرض وشباب، وشارب وفكّ قويّ وعواطف جيّاشة. وأحسّ بالترهّل أمام غليان أخيه. ربما كان للسنّ تأثيرها، وللتجارب المرّة تأثيرها. من الخير أنّ الطبيعة تميت الكبار، ويأتي الصغار بأمل جديد وعزم جديد. وربما للسجن مفعوله المبين، لكن مجتمع السجن مختلف عن المجتمع الأكبر. هنا النساء والأرامل والكهول والأطفال وهبوط اللّيرة. وفي السجن شباب ورجال وقيود السجّان ولا شيء أكثر. هنا قيود الأطفال ومسؤوليّات الرزق والخوف من السجن والإبعاد. وهناك لا خوف ممّا هو واقع. ولا مجال للمقارنة، ستكتشف يا بو العزّ ما تتوقّع.

ـ أكتشف غير ما أتوقّع؟ عجبًا. وقد تكتشف أنت غير ما تتوقّع. الدرب طويل ألم نتّفق؟ لكن لا بأس. سأدور في البلد وأزور الناس وأفهم واقعنا الحالي. اربط جأشك، الثورة لن تأتي من الصين.. نصنعها نحن.

(٨)

هذا فراش حقيقي وليس برشًا. وهذه نافذة عريضة وليست كوّة. وعلى الأرض بساط غزّاوي ملوّن. لكنّ النور ما زال شحيحًا، والألوان ما زالت في حالة نوم. أوّل ليلة خارج جدران السجن وأحكام السجّان. أوّل صبح من غير صالح. يتناوبون النوم والصحو لاكتظاظ الغرفة. وأنا هنا في الغرفة وحدي. شراشف ما زالت تنعم بعبير الشمس والصابون. أيّة نعمة!

صوت المؤذّن يهدر فوق أسطح المدينة. مازالت بحّة النوم تسري في صوته. لكنّ الصوت عميق ويمرّ نسيمًا فوق أعشاب النيروز. أخذتنا أمّي مرّة لذاك التلّ البعيد البعيد. كان أسامة وعمّتي وجارات وأطفال كثر. صباح باكر وقمح غضّ بلون الزمرّد. وصخور بيضاء كالغمام. أصغر طفل كنت وبالكاد أمشي. تربّعت النسوة على الحشائش يشربن القهوة ويستغبن فترنّ الضحكات. لا مثيل للصبح في أوّله. إحساس بأنّ العالم ما زال جديدًا، كعين حسناء أذبلها الحنان. كان لجارنا المنجّد طفلة اسمها حنان. تجلس بجواره على الأرض تمدّ يدها وتتلمّس القماش فأحسّ برعشة. أعتقد أنّي كنت أتمنّى لو أمدّ يدي وأتحسّس الساتان معها. كنت أحسدها، أو أحسد الساتان. كانت ألوانه ساطعة. يفرد المنجّد اللحاف على الأرض ويغطّيه بالساتان. أزرق كبحر بعيد، أحمر بلون الشقائق، فستقي بلون لباليب الريحان،

أصفر بلون مسبحة عمّتي أُمُّ أسامة. كانت لها مسبحة عمرها أكثر من خمسين سنة، أحضرها زوجها من الحجّ حين زار الكعبة. ماتت وفي عينيها صورة الكعبة وصورة أسامة. كان طيّبًا، علّمني الكثير لكنّه ما زال صبيًّا. يولد الرجال في السجن، أو المعركة والانتظار.

أمّي كانت تغلي القهوة في كلّ صباح. لكنّ الوالد، أكره ذكره. أكره كل طقوس المرض. أهرب للحارة بعد أن أصفّر لهاني. أقف على السطح وأضع أصابعي بين الشفتين، فينسلّ صفير طويل طويلٌ يصدح ويرنّ ما بين الجبلين. يصل القمّات وصنوبر عيبال. أحسّ أنّي أشقّ السماء. وأعيد الكرّة كرّات. علّمني كيف أرجرج الأصوات بتغيير أوضاع الشفتين ودفقات الهواء. تخرج موسيقى كموّال جبليّ. أبناء الجليل يجيدون تطريز الموّال. مازال المؤذّن يتغنّى. السمّاعة تفسد صوته. طنين الجهاز وخشخشة التيّار. عيوب الصوت تتضخّم. رائحة القهوة، لكنّ النوم، والفراش ورائحة الصابون!

النوم وصالح. . صالح. يمدّ يده بكتاب جديد. ما أحببت الكتب إلاّ في السجن. عالم يتخطّى كل جدران السجّان. كتب كثيرة، كلّ الأنواع. يجيء اللّيل يروح اللّيل، أنا والكتاب. عداني صالح فعشقت الكتب واللّون الأحمر. أنظر في عينيه الحمراوين أسأل بقلق «لم تنم». صغيرًا كنت ومحرومًا. لا أب حقيقيّ فتعلّقت بصالح. ألتصق به، أتبعه من زاوية لأخرى. نرفع الأبراش معًا ونشطف الأرض بعد أن نرفع حوافي البنطلونات. تظهر ساقاه موبّرتين ناحلتين. يعاني صداع الشقيقة فيربط رأسه بمنديل ويشدّ. علّمها له قرويّ من جبع. قال لصالح «اربط رأسك» ولم يربطه. . «اربط رأسك» ولم يربطه، فربطه له. وبّخه وقال «فلاّح ابن فلاّح وتكبر على وصفة فلاّحين»!

ما زال المؤذّن يترنّم. أين النوم؟ ألأنّها أوّل ليلة؟ ألأنّه صوت الأذان والجهاز المشوّش؟ ألأنّي لم أعتد الفراش الملوكي ورائحة الصابون؟ رائحة الغرفة كانت أبدًا مضغوطة. عرق، أنفاس، أقدام. كان صالح مولعًا بالنظافة، وكنت في أوّل عهدي كثير القرف. قدماي، هه، هه. منذ الطفولة دار مستشفى وأب مريض وأمّ يركبها داء الوسواس. اغسل وجهك، اغسل رجليك، هات يديك، ما هذا؟ قدّامي يا الله على الحمام. يا الله، يا الله. أجلس على الطاولة لآكل. أرني يديك، هات يديك. قم، لا تلمس، لا تأكل، لا تشرب. على الحمّام. أشمّ يديك. أشمّ. لم تغسلهما بالصابون. قدّامي يا الله على الحمّام. أندسّ في فراشي وأغمض عيني. تفتح باب الغرفة وتسأل، نمت؟ لكنّ الصمت لا يجدي. تكشف الغطاء عن رجليَّ، تشهق. ما هذا يا باسل؟ ما هذا يا ولدي؟ قم. قم. قم. مم. مأمأت أو ما مأمأت، قم للحمّام. يا ربّي. ربّك يجازيك على هالمنظر. يا ماما. ولا ماما ولا بابا. قم للحمّام. مم. خذ. صفعة حامية تلسع كالدبّور. أقوم. غسّل بالصابون، بالصابون. عقّدني الصابون، كرهت الماء وكرهت الصابون. وأوّل عهدي بالسجن لم أغسل قدميّ. ضحك صالح وسدّ أنفه. حكيت له، قلت أنا هارب من حبس لحبس. وضحك الجميع. وردّدها صالح «هارب من حبس، هارب من حبس، هارب من حبس». سيهرب صالح. وطار النوم.

أحيانًا كان يسيطر الضحك عليّ وأظلّ أضحك حتى تبتلّ جفوني. يحملقون بي. الشباب يضحكون والكبار يلوون الشفاه. معظمهم شباب. وأظلّ أكيل النكات. نكتة من هنا قه قه قاه. نكتة من هناك قه قه قيه. تضحكني حكايات النملة والفيل. قلت اسمعوا هذه النكتة. حدجني صالح وقال، ألا تكبر أبدًا؟ اسمعوا، اسمعوا. عملت دوشة

ومنعتهم عن الكلام والقراءة والكتابة حتى سمعوا. اسمعوا. سمعنا. الفيل طلّق زوجته النملة فبكت وقالت، احزروا ماذا قالت؟ احزروا؟ قلها يا باسل. احزروا أوّلاً؟ يا أخي قلها. احزروا. طيّب نحزر. قالت بعرضك؟ لا. قالت بطولك؟ لا ها ها. قالت رحماك يا ملاك؟ لا ها ها ها. يا عمّي قلها. لا لا قولوا أنتم. موجة تفكير وقه قه قيه. صالح يبتسم، يهزّ برأسه، ألن تكبر أبدًا؟ سمّيناك أبو العزّ وما كبرت. صالح مسحوق، لأنّه ابن العزّ. هع هع هع. راح العزّ وراح زمانه. في الهوا سوا، غنّي يا عروبة غنّي. دقّينا ببعضنا. وضحكنا بسرّنا، عقبالكم زيّنا ونبقى كلّنا في الهوا سوا. فل هوا سوا. فل هوا سوا. هع هع هاع أينعم. وماذا قالت النملة للفيل؟ يا شيخ حلّ عن دينا. اعمل دوشة. اعمل. دوشة دوشة دوشة. بس اسكت. طيّب. ماذا قالت النملة للفيل. قالت يا كسرة قلبك يا نملة؟ لا. قالت موتي؟ لا.. هه. يا باسل. ألن تكبر؟ لن أكبر حتى تحزر. قلها وأرحنا. لا، قولوا أنتم. عملت مظاهرة؟ لأ.. قالت يسقط الفيل؟ لأ هه. حملت كاتيوشا، ضربت قنبلة قالوا تخريبًا؟ يخرب بيتك، نملة وتخريب؟ يا سيدي يضع سرّه في أضعف خلقه. طبعًا طبعًا. ولكن ماذا قالت النملة للفيل»؟ وضعوا أصابعهم في آذانهم. اعمل دوشة. لن نسمع. طيّب أقول أنا. قل فريت مرارتنا. قالت النملة للفيل، ارحم الفيل اللّي في بطني. ها ها ها ها ع. هع هع هع هع. حلوة؟ مثل عبير أقدامك. ها ها ها ع. ابن العزّ يقتلنا برجليه يا عالم، حتى صالح فقع من الضحك. صالح يهرب.

وقال صالح أثناء الدرس، من هو البرجوازي؟ قال شاطر، هو الانتهازي. كشّر تكشيرة تقطع الرزق وقال، وقت الجدّ جدّ. قال شاطر، باعونا أبًّا عن جدّ. قال صالح، فوضى. قال شاطر، بالفوضى

وتفاوضنا. حرد صالح وانزوى في القرنة يزفر، وساد الصمت. إلاّ الأذان. عودة للنوم. ما بال هذا الفراش يموج!

قال صالح أثناء الدرس، ما هي الحرِّيَّة؟ قال شاطر، هي ألاّ تنام على برش. قال مسحوق، بل هي أن ينام الجميع على أبراش. سألني صالح، وما رأي أبو العزّ؟ قلت، هي أن ينام الجميع على فراش حقيقيّ. هذا فراش حقيقي وليس برشًا، وما زال ينعم بعبير الشمس والصابون. عقّدني الصابون فطلّقته ثم استعدت توازني وطلبت الماء.

قال صالح، ما هي النظافة؟ قال شاطر، هي الإيمان يا أستاذ. قال، وكيف تمارس إيمانك؟ قال الشاطر، بالنظافة يا أستاذ. ضحكنا فزجرنا صالح، وقت الجدّ جدّ. قال ملتح، وقت الجدّ يوم يفرّ المرء من أخيه وصاحبته وبنيه. قال مسحوق، تفوّقنا في هذا الدرس بتقدير جيّد جدًّا يا أستاذ. قال صالح، ولهذا كان السقوط ذريعًا. نعود إلى النظافة، ما هي النظافة؟ قال مسحوق، هي أن تحلّ النظافة على جيب غيرك مثل جيبك. قال ملتح، هي الوضوء أو التيمّم. قال صالح، فسّر. قال، إذا وجد الماء بطل التيمّم. وإذا شحّ الماء؟ قال شاطر، إذن نتيمّم بالبترول. وكيف السبيل وأنت قعيد في القاووش؟ وساد الصمت. سألني صالح، ما رأيك أنت؟ قلت أتيمّم بالشمس. وأنت في قعر الزنزانة؟ أنتظر الفورة يا أستاذ. وبعد الفورة؟ همست بحيطة، مع الفورة نفر يا أستاذ. لمعت عيناه وصفّق.

قال، نعود إلى النظافة، ما هي النظافة؟ قال شاطر، هي أن تنظّف أعضاءك وكل أجهزتك وتمارس الخروج وتتغوّط. قال صالح، وإذا حلّ الإمساك؟ قال ملتح، نمسك عن الطعام. قال مسحوق، جرّبناها وما فلحت فليجرّبها آخرون. تقصد يمسك آخرون ونتغوّط نحن؟ وهذا

تحصيل الحاصل يا أستاذ. قال صالح، يخزي العين تفوّقتم في هذا الدرس. قال شاطر، بتقدير جيّد جدًّا يا أستاذ. ولهذا كان السقوط ذريعًا.

نعود إلى النظافة فما هي النظافة؟ يا أستاذ، هي أن تنظّف ما فوقك وما تحتك وما حولك. وماذا عن اليدين. ضحكوا وأشاروا لي، وماذا عن الرجلين؟ قال، وماذا عن الرجلين؟ قالوا، يريد أبو العزّ أن يقنعنا أنّه منسلخ فسطلنا. قال صالح، وهذا ما نسمّيه التطرّف. وانسحبت إلى الحمّام دون لسعات الدبّور وأوامر أمّي.

بكت أمّي، ما عدت أخاف أوامر أمّي وقد امحلت. إناء مليء بالدمع ورائحة المطهّر. يصرخ فيها فتصرخ فينا. أهرب للحارة أتأمّل حنان والساتان. أزرق كبحر بعيد. احمر كشقيق الربيع. أخضر كلباليب الذرة. أصفر بلون الكارب والشمس. نهبُت السيّارة أرضي، مروج قطن وعبّاد شمس. صناعتهم تتقدّمهم. يستخرجون الزيت من عبّاد الشمس وأكواز الذرة. نستخرج الزيت فنأكل ذرة. إذا وجد الزيت بطل التيمّم. كيف وأنت في قعر الزنزانة؟ نيمّم وجهنا شطر الكعبة. نبكي على سجّادة صلاة. أمّي يا كُلَّ دموع الأرض. أمّي يا محل الفلاّحين. هلّل صالح، تكتب شعرًا. قلت، أسامة علّمني الكثير. تذكره؟ وأذكر زهدي وأذكر عادل. عادل أخي، أخوي الكبير. لكنّك لم تطلع مثله. وهو كذلك لم يطلع مثلي. تلومه؟ عمل هناك. ما عاد يعمل. تبنّى الصحافة يرمّم بقلمه. وما حاجاتنا للترميم؟ إذا وجد الماء بطل التيمّم. وإذا شحّ الماء فالبترول أفضل. لكنّك أثناء الدرس أجبت «الشمس». بدون الشمس لا أصل. البترول بدون الحرارة لا يشتعل. وقد تحترق. لا اشتعال بدون احتراق. لكنّك تقبع في القاووش. أنتظر الفورة وأفرّ. وحدك؟ أنت أستاذي وخطيب نوّار. لمعت عيناه.

عادل يرمقني بنحول. أمّا عذره، ما اعتاد الضرب على القدمين. أبدًا هادئ، أبدًا يغتسل من رأسه حتى قدميه. شديد النظافة. قالوا، لا تتمّ النظافة دون تلويث الكفّين ولا اشتعال بدون احتراق. قدّم لي فنجان الشاي وعبث بشعري. دمعت عيناه، كبرت في السجن كثيرًا. ضحكت، ليس تمامًا، ما زلت أحبّ القفشات. قالت نوّار، أسمعنا بعض نكات السجن. حكيت عن النملة والفيل. ضحكت أمّي حتى داخت. ما زلت شقيًّا يا باسل، وهل النملة تحبل بالفيل؟ قلت بإصرار، وستلد الفيل. ماجت الدمعة في عيني نوّار. وهو كذلك. صالح فالح إلاّ في الحبّ. أمّا عادل فيحبّ رفيف. رفيف ترفّ، وعادل ما زال يحلّق.

قال صالح أثناء الدرس، من هي المرأة؟ قال ملتح، هي نصف الدين. ماحكه صالح، لكنّهنّ ناقصات عقل ودين. قال ملتح، وهو كذلك. قال صالح، لكنّ المرأة نصف الدين ونصف البلد، إذن سنحرّر نصف البلد. قال ملتح، إذا قمنا قامت فنحن القوّامون. قال الشاكر، أبدل الميم بدال. فوقعت طوشة وسبّ وضرب. كشّر صالح فسكت الجميع. قال نعود إلى الجدّ. قال الشاطر، أفلم تسمعني يا أستاذ؟ التفت إليّ، قل يا بو العزّ أين المرأة؟ قلت له، أمّي تطبخ، نوّار تمسح الغبار، رباب تعلف الصيصان، وحنان تعبث بالساتان. قال، يخزي العين فالح، ألا تكبر؟ قلت، عن الواقع يا أستاذ؟ قال، لهذا أنت هنا. ولهذا أقول، أنا يا هنا في فراش يموج. ألن يكفّ الجهاز عن بثّ الأذان؟ ألن يكفّ عن تشويش الصوت؟ يصيح الديك، وهذه أوّل ليلة.

(٩)

بعد العصر، نزل باسل للمقهى حيث يجتمع أصدقاء العمر. أبو صابر، وأبو النوف وشحادة، وأبو معروف صاحب المقهى الطيّب.

كانت السماء صحوًا، لكن النسمة جارحة في الخارج، الأنف قطعة من زجاج. وبمجرّد أن وطئت قدماه العتبة لفحت وجهه ضبابة مشبعة برائحة الأراجيل والقهوة والفحم المحروق. وصاح أبو معروف بصوت ذبحته الأزمة المزمنة:

ـ نوّرت. يا ألف مرحب. يا ألف أهلاً وسهلاً. أخوك فين؟ ما بطلّ علينا إلاّ مثل طلاّت القمر. معلوم يابا، نابلس بطّلت تسعه. ونقول له يا عمّي تعال اكتب في هالبلد. يعني لازم القدس؟ مالها نابلس يابا؟ يقول لك المجلّة والمطبعة والرقابة. وأنا عارف! شغل الناس الأكابر، وإحنا ناس على قدّ الحال. وأنت كيف صحّتك يابا؟ تمام؟ ما شاء الله وكان. صرت قدّ البلد. بتتذكّر لمّا حبسوك أوّل مرّة وحمّلت ربّنا جميله؟ آه آه هه. بتتذكّر لمّا كسرت قزاز باب القهوة بحجر قدّ رأسك وأنت تصيح مع الأولاد في المظاهرة «سكّر يا قليل الدين ضاعت منك فلسطين؟».

وضحك أبو العزّ حتى بانت أضراسه واستعاد عقله. والله زمان يا بلد! واغرورقت عيناه. ومسح وجهه واستعاد ضحكته وعلّق:

ـ وفي اليوم الثاني ناولتني شلوتين محترمين، تذكر؟

ـ آه آه هـ هـ هـ، إلاّ أذكر. كان هذا في أوّل الاحتلال، وكانت الصحّة تمام واليوم عجزنا، ذبحتني الأزمة والأيّام السود الله يقطعها من أيّام. لكن تفرج، بإذن الله تفرج. هات أرجيلة يا محمّد وقهوة مظبوطة على كيفك لأبو العزّ سيّد الحارة.

وأمسك أبو العزّ بالبربيش وبدأ يقرقر. وهات ما عندك. قصص البلد وفضائحها ومآتمها والبلديّة ومشاكل الماء والكهرباء واعتقال ابن الخضرجي أبو جميل.

ـ لقوا المشاكل ملفوفة بورق الفواكه تحت المفتاح والكريب فروت. أينعم! يا مولانا نسفوا الدار وشمّعوا الدكّان ونتفوا جميل نتفة بنت كلب. وبنت أبو سالم رشقت في المظاهرة حجر فتح نافوخ الضابط. لحقوها من شارع لشارع ومن زقاق لزقاق. وكل ما غابت عن عينيهم تنشقّ الأرض عنها وتظهر مثل أسامي الله. حريقة والدِيْن قردة مصفّية. أنا عارف، طقّ شرش حيا بنات هالأيّام وازرقّ نابهم. مسكها الجندي وقال «ما بتخافي من الضرب عرافيت، أنا بعرف على إيش تخافي» شقّت مريولها لحدّ ما بيّنت صدريّتها وقالت «قصدك على هذا؟ ولا على هذا بخاف» أستغفر الله العظيم. جيل كاسر ما بقدر عليه قادر. الوطن على الرأس والعين، لكن يا ابني الشرف غالي، وإحنا عرب.

علّق باسل:

ـ بعد شرف البلد والأرض لا قيمة لأيّ شرف.

ـ معلوم يابا، طالع من الحبس ورأسك حامي، وفي عزّ شبابك وبعدك ما بتعرف الأصول. أبوك الله يرحمه كان..

قاطعه باسل:

ـ أبي الله يرحمه مات، ولا تجوز على الميت إلاّ الرحمة. رحمه الله، مات. أكمل قصّة بنت أبو سالم.

ـ أينعم يا مولانا، طارت من بين أيدي الجندي مثل العصفورة، لحقوها في الزقاق، وطلعوا عليهم بقيّة العفاريت وهات يا حجار وضرب بالمقاليع. بدأ الطخّ وقتلوا ابن اللّحّام أبو حامد. ولد ابن ١٦ سنة لكن قبضاي على كيف كيفك. شفته بعيني وهو يصوّب المقليعة وكل نقفة برأس. . الله وكيلك. وتلاقيه مثل الزمبرك يرقص رقص. آخر مرّة شفته قلت الله يسترك يا هالصبي، باين مش ابن معيشة. وما كذّب خبر وحياة شواربك، تاني يوم أعطاك عمره واستشهد. وطلعت مظاهرة هزّت البلد هزًّا. آلاف الناس طفحت في الشوارع، ونخيل وأعلام وشباب ملثّمين محمولين على الأكتاف يهتفوا والناس تردّ. وقالوا يسقط يسقط لحد ما سقط قلبي وقلت لازم يعمل الجيش عملة. أينعم يا مولانا. دفنوا الصبي ورجعوا، النسوان تزغرد والشباب تهتف والأعلام ترفرف والدموع تسيل. الواحد شعر بدنه قشعر. منظر من العمر يا أبو العزّ. تقول البلد تحرّرت وقامت الدولة، ولا احتلال ولا اعتقال ولا ضرايب ولا جسر ولا تصاريح.

ـ والجنود؟

ـ تعدم اسمهم، من أوّل الجنازة لآخرها ما شفنا منهم صوص ابن يومين. بقول لك البلد كانت إلنا، إلنا ولقلبنا نسرح ونمرح فيها ولا جنود ولا شرطة ولا حدا غريب أبدًا قطعيًا. أوّل مرّة في التاريخ. عليّي الحرام أوّل مرّة. خطر ببالي خاطر وإحنا راجعين وقلت، ثلاث أربع ساعات حرّيّة على ولد ابن ١٦ موفيّة، ياخذوا ثاني وثالث بس نخلص.

ابتسم أبو العزّ:

ـ وتعطيهم معروف يا أبو معروف؟

توقّف أبو معروف عن الكلام وصفن وجمدت عيناه، ثمّ لوى رأسه:

ـ آه، هذي مسألة فيها نظر. معروف يعجبك يا أبو العزّ. السنة الجاية برجع مهندس قدّ البلد. هو الحيلة والفتيلة، صرفت عليه دم القلب. سقا الله وهو راجع ومريّحني من الشقا. خمسين سنة في هالكار الوسخ الله يقطعه من كار. بديت حياتي صبي أرجيلة، أحمل المجمرة أوزّع النار على الأراجيل. ويا ما شفنا ويا ما عملنا ويا ما باطحنا الدنيا. أيّام فوقها وأيّام تحتها وأيّام في خزقها مثل هالأيّام. تحت الدرج مطرح ما بنيت لكم بيت خارج محترم يا ما صار ويا ما اتخبا ناس. من ثوّار الـ ٣٦ زمن الانتداب، لشيوعيين وبعثيين زمن الأردن، لأولاد المظاهرات في هالأيّام. تحت الدرج يا ما صار ويا ما جرى. مرّات تلاقي ناس يشتغلوا بالسياسة ومرّات تلاقي ناس يشتغلوا ببعض. مرّة خرج الحجّ أخو عيني من تحت الدرج ساحب وراه صبي أعرج حالته ما تسرّ البال. صاح أبو صابر «حتى الأعرج يا حجّ أخو عيني! غمز عينه الكريمة وقال «هو أنا ما خده على السبق!» هع هع هع. اه اه هـ هـ هـ هـ أخ اخ تفو.

واحتقن وجهه بالدم وأخذ يسعل وعيناه تدمعان. ناوله أبو العزّ كأس ماء فأخذ يرشفه ببطء ويده على صدره. وقال وما زالت الدموع في عينيه وأنفاسه تلهث:

ـ دنيا فانية ما عليها أسف. ناكل اللقمة مغمّسة بالدم. شوف الناس شوف البلد، شوف الأولاد وشوف اللّي صار بلبنان. شوف اللّي

حواليك. شايف اللّي قاعد هناك وإيده على خدّه. عنده ثلاث شباب في الحبس، واحد محكوم ١٣٠ سنة والثاني ٣٦ والثالث ٧. واللّي مسطّل هناك عنده بنت في سجن الرملة من أوّل الاحتلال لليوم. يوم يقولوا ماتت ويوم يقولوا عاشت ويوم يقولوا بين الحياة والموت. والشابّ اللّي هناك أبو الشوارب وعامل مثل الشبح خرج من شهرين من الحبس. قعد في المستشفى عشرين يوم بالتمام. معدته صارت خردة يأكل من هون يسقط من هناك، ومع هذا تلاقي حركاته غير شكل. يقعد على آخر طاولة مثل ما أنت شايف، وواحد رايح وواحد جاي. وأقول الله يستر، يضحكوا ويقولوا «لحد اليوم ما ستر، نسترها وإلاّ نخلّيها عورة؟ أبلعها وأقول الحمد لله أنّه معروف في مصر. وأنت يا بو العزّ أوعى تعمل مثله، استر علينا الله يستر عليك.

ضحك باسل وربت على الكتف المكتظّ:

ـ لحدّ اليوم ما ستر، نسترها وإلاّ نخلّيها عورة؟

وسعل أبو معروف ثانية، وشرب ماء فهدأ وواصل:

ـ مرّات بقول، أنا عارف إن كان معروف في مصر وإلاّ في طلوزة؟ واحد يقول شفته بلبنان، والثاني يقول شفته بسوريا والثالث يقول بمصر. لكن المحيّرني أنّي ببعث له مكاتيب عن طريق قبرص ويردّ عليها. وأسأله عن الجامعة يقول كل شيء تمام. لكن مرّة كتب يقول، إذا رحت يا والدي للبنان قول عن البنْدورة بنادورة لأنّ الكتائبيين يخلّصوا على كلّ واحد يقول بنْدورة.

وسأله باسل بفضول:

ـ رحت للبنان؟

ـ أينعم يا مولانا، أخي الكبير في جسر الباشا الله يكون له معين. حالة ما إلها إلاّ الله. أفظع من الاحتلال أفظع. تلاقي الحيطان ملانة صور، الشهيد فلان والشهيد علاّن والشهيد ابن الشهيد ابن الشهيد. والحبل على الجرّار. لبنان أفظع من الاحتلال. كلّه أوسخ من بعض. لكن يا أبو العزّ تلاقي الناس هناك معنويّاتهم في السما، بمشوا عرضين وطول ويقولوا ثورة ثورة حتى النصر. والله ما أنا فاهم.. كل هالمذابح وثورة ثورة حتى النصر؟ يا رجل الضحكة على وجه الواحد منهم شبرين، كيف صارت؟ وإحنا بوز الواحد عندنا متر مع أنّنا لا شفنا مثل ما شافوا ولا انذبحنا مثل ما انذبحوا. تقول خلقتهم شكل وخلقتنا غير شكل. وجوههم نار وشرار ووجوهنا باردة وبردانة، قل لي ليش وفهّمني. فهّمني ليش هم دفيانين وإحنا بردانين؟ فهّمني بالله عليك.

همس باسل:

ـ الحركة دفا يا أبو معروف.

حملق أبو معروف وهو يداعب خدّه السمين وهمس بدوره:

ـ طيّب. والبلد هون فيها!

ـ والناس فيها؟

ـ آه والله صدقت. أنا كنت هناك وشفت بعيني. لكن قل لي، معروف عرف منين قصّة البنادورة؟ قولك معروف. يعني. اللّهمّ اخزيك يا شيطان. يعني فلسطين ما ناقصها إلاّ دم معروف؟ عيلتنا أعطت وما قصّرت. أخي الكبير في جسر الباشا دفن ولدين، وأخي الثاني دفن ولد في الزرقا طول النخلة سنة السبعين، وأنا ما عندي غير معروف

والله. هو الحيلة والفتيلة، وأنا يا مصابحة يا مماسيّة. ورزق العيال مين يتوكّل فيه!! هالتفكير بخلّيني أقشعرّ. كبرت يا باسل، يا ابني. في هالعمر لا فيه دفا ولا فيه عفا.

ـ المهمّ هو دفا الصغار، والحركة دفا يا أبو معروف، الحركة دفا.

ـ لكن رطوبة نابلس بتذبح، روماتيزم أزمة وبرد بجمّد المفاصل، توب علينا يا ربّ توب. وسعل حتى جحظت عيناه، ولهث.

ـ أزمة وسخة بعيد عنك.

ودخل أبو صابر، وصاح مرحّبًا.

ـ أهلاً أبو العزّ، أهلاً بسيّد الحارة ومرجلتها، كيف الأحوال يا خال؟

ـ مشتاق والله. مشتاق لكلّ واحد وكلّ الناس وكل الشوارع والبلد. اقعد يا أبو صابر اقعد.

وسحب أبو صابر كرسيًّا وجلس.

ـ إيه يا أبو العزّ، قسمتنا نشتاق واحنا في قلب البلد. وأخوك الله يسهّل عليه زاد شوقنا. والله الحارة بدونه فاضية. البركة فيك يا أبو العزّ، خلّيك بينّا وأوعى تعمل مثل أخوك. حاضر غايب الله وكيلك. نابلس فيها الخير والعزّ طول ما فيها أبو العزّ. نفسك بدفّينا وينوّر علينا ولو أنّه الكهرباء كحلي هالأيّام. وعمّك أبو معروف بكمل الطابق ونازل فينا سلخ عالطالعة والنازلة. فنجان العسملي بـ ١٥ قرش، عمرها صارت؟

تدخّل أبو معروف محتجًّا:

ـ وبعدين معك يا أبو صابر؟ بدينا؟ تقول أنا المسؤول عن

الضرايب والضرب والقسمة. قسمتنا يا عالم، قسمتنا نتصبّح ونتمسّا بوجوه تقطع الأرزاق. خذ، تفضّل، شوف.

وأشار بإصبعه لما وراء الزجاج، وكانت مجموعة من الجنود تطوف الشوارع شاهرة السلاح.

ـ اقعد يا زلمة على فين؟ قهوة مظبوطة يا محمّد. لا والله لازم تشرب قهوة من إيد عمّك أبو صابر. شوقنا من شوقك يا أبو العزّ ورحمة أمواتك. أينعم يا مولانا، ومشاريعك؟ ناوي تدرس ناوي تشتغل ناوي تتغرّب مثل باقي الشباب؟ أوعى، الغربة كربة والبلد للي فيها. بكرة نجوّزك ونفرح فيك، وبنات الحلال كثار بسّ أطلب. أكثر من الهمّ عالقلب. قلّة العرسان خلّت البايرات مثل خضرتنا لما يقفلوا علينا الجسر. والحالة ما هي حالة، كل شيء باير حتى البنات. الشباب يتعلّموا برّه ويتجوّزوا برّه، والبنات يظلّوا قاعدين في خلقتنا أكل ومرعى وقلّة صنعة. والحلّ يا أفندينا؟ يظلّوا قاعدين بلا منفعة مثل الأرض البور؟ والحلّ يا با؟

حبكت مع أبو معروف وقهقه من صدر تلعب فيه المزّيكة:

ـ الحل في دكّة الريّس.

تلقّفها أبو صابر متجاوبًا:

ـ يا سيّدي انحلّت وبان المخفيّ، والمخفيّ أعظم يا أخو عيني.

صفّق أبو معروف وزمّر:

ـ ومين قال أخذوه على السبق؟ هع هع هـ هـ هـ.

وانتابه السعال معلنًا اشتداد الأزمة، فترك المجلس متّجهًا نحو

المرحاض ليبصق ويتنخّع. وبقي أبو العزّ وأبو صابر وحدهما على الطاولة.

كان النهار قد ارتحل، ولم تبق في المدينة إلاّ القطط الضالّة وسيّارات الدوريّة تروح وتجيء دون كلل. أغلقت السينما أبوابها وبقيت اللّمبات مضاءة فوق ملصقات تحتوي نساء بأثداء ضخمة وعجائز معجزات. وأدخل محمّد الكراسي المبعثرة على الرصيف أمام المقهى استعدادًا للإغلاق، ولم يبق في المكان إلاّ ثلاثة رجال أخذهم الحال وأوراق الشدّة.

(١٠)

تأمّل باسل أبو صابر. ازداد الوجه تغضّنًا والشعر شيبًا، والشارب النائم على الشفة باسترسال ما عاد كثيفًا أو محدّد المعالم. أكتاف ازدادت تهدّلاً، وعينان فيهما السحابة نفسها.

ـ وأخبارك أنت يا أبو صابر؟ كيف الشغل؟

ـ الشغل ماشي والحمد لله. البلديّة محترمة وحياة شواربك، ومع المشاكل والمعاش اللّي على قدّ الحال، بتظلّ البلديّة محترمة والشغل فيها محترم. يا سيّدي على الأقلّ بين أهلك وناسك. لحقنا ننسى؟ أنت يا باسل كنت صغير وما وعيت المرارات اللّي ذقناها. مرّت علينا أيّام يا أبو العزّ كان الواحد فينا محتار بين النار وبين جهنّم. لا إذا اشتغلنا هناك مرتاحين ولا إذا اشتغلنا هون مرتاحين. لا إذا هاجرنا مرتاحين ولا إذا قعدنا مرتاحين. والمصيبة أنّك مسؤول عن بطنك وبطن غيرك وبرقبتك صغار وعيال ونسوان ولقمة اليوم ولقمة بكرة. وصدّقني يا خال إنّو الأيّام بتأكل من لحمك ودمك، والدنيا منشار على الطالع يقصّ وعلى النازل يقصّ. ومقابل اللّقمة لازم تدفع. تدفع إيدك، تدفع قلبك، تدفع دمك، وتظلّ تقول، يا الله، معليش، بكرة الصغار يكبروا ويتعلّموا ويشدّوا حيلنا المقطوع. والبركة فيكم يا ابني، البركة فيكم.

وزفر أبو العزّ، وتأمّل يد أبي صابر العاجزة مسترخية على طرف

الطاولة وأحسّ بضخامة العبء وثقله. وتخيّل وجه أخيه المعذّب ودارت المقارنة في رأسه كالوميض: «هذا نصاب، وذاك مصاب».

ـ البركة فيكم يا ابني. البركة فيك وفي صابر وحمادة. إحنا عملنا اللّي علينا. الله يجعل أيّامكم أحسن من أيّامنا. لكنّ الظاهر أنّه الدنيا مش مصلية على النبيّ.

دمدم أبو العزّ بإيمان:

ـ بكره تصلّي، بكره تصلّي.

ولاحت ابتسامة مريرة في وجه أبي صابر، وانسحبت عيناه إلى ما وراء الزجاج وخواء الشارع:

ـ صار البلد مقبرة. مع المغرب تلقى الشوارع ظلام، لا ناس ولا حركة ولا حياة. كلّ واحد خايف من بكرة وبعده. مرّات لمّا أتأخّر في الشغل وأرجع للدار والدنيا ليل، توقفني الدوريّة ثلاث أو أربع مرّات، وهات هويّة وهات تفسير، رايح فين وجاي منين والذي منه. ولمّا يشوفوني رجال كبير على قدّ الحال يتركوني ويخلّوني بحالي. لكن غيري كثير ما خلّوهم بحالهم. وأنت يا أبو العزّ لازم تحفظ الدرس، ومن دروس غيرنا نتعلّم، صحيح؟

ـ صحيح.

وتأمّل أبو صابر وجه باسل المتجهّم وتذكّر أسامة، فهذا ابن خال ذاك وذاك ابن عمّة هذا، وكان ياما كان يموت زمان ويعيش زمان، وما زالت قصّة القبو ونسف الدار في البال. وقال بهمّ:

ـ بعد نسف الدّار تعاونّا وبنيناها من جديد. ما بقي في الحارة رجّال إلاّ ومدّ إيده وبنى. دار صغيرة وحلوة والشمس فيها من الصباح

للرباح. وعادل الله يسهّل عليه هلك حتى بناها من جديد. ما بقي رجّال في الحارة إلاّ ومدّ إيده. أعجبتك الدار؟

ولأوّل مرّة يجد باسل نفسه في مواجهة هذا السؤال. «أعجبتك الدار؟» وهزّ رأسه بحيرة:

ـ لا أعرف.

تمحّصه أبو صابر بقلق:

ـ كيف لا تعرف؟

وتبادل الاثنان نظرة طويلة مليئة بالتساؤل، ثم قال باسل مفسّرًا:

ـ خرجت من السجن من يومين ولم أفكّر بأمر الدار. كل ما أفكّر به حاليًّا هو أنّي خارج السجن وأنّي رجعت للبلد والناس. أمّا الدار، فلم أر منها غير وجوه السكّان.

قال أبو صابر مذكّرًا:

ـ هلك أخوك حتى بناها.

ابتسم باسل وقد فهم ما تنطوي عليه تساؤلات أبو صابر، ورمى بتساؤله هو:

ـ وأنت، تعجبك الدار؟

ـ طبعًا.

ـ أقصد دارك.

لوّح أبو صابر بيده العاجزة وأطلق قهقهة ناشفة:

ـ داري. ومين جاب سيرة داري؟ أنا قاصد داركم إنتو يا دار الكرمي. دار أبوك يا باسل يا ابني. قول الحمد لله أنّه أبو عادل خلّف شباب، واللّي خلّف ما مات.

قال أبو العزّ بحزم:

ـ بل مات. ومن مات فيرحمه الله، لكنّ الأحياء أولى بالرحمة.

ـ والدار؟

ـ ما بها؟

ـ لمين الدار؟ عادل بناها بإيده، ما بناها لنفسه، بناها لأهله، بناها إلكم، لأمّك وأختك وأخوتك وأنت.

ـ بناها للعائلة؟

ـ أينعم يا ابني، بناها إلكم وما بناها لنفسه.

ـ وهل تعجب الدار عادل؟

ـ بناها بإيده وعاونّاه. تعجبه؟ طبعًا تعجبه.

وأطلق باسل السؤال بجفاف:

ـ ولماذا لا يسكن فيها إذن؟

وفتح أبو صابر عينيه وقد تهدّل شارباه:

ـ يا ابني لعادل ظروفه. شغله في المجلّة أبعده عن الدار. وأكمل القصّة ثمّ بدأها من أوّلها. كيف نسفت الدار وكيف تعاون الرجال على بنائها، وكيف سكنت العائلة فيها ثم كيف بدأ عادل عمله كصحافي في المجلّة.

ـ كان عادل يبعث للمجلّة كل أسبوعين ثلاثة، مقالاً. يكتب عن أحوال العمّال وأحوال البلد وقصّة من هون وقصّة من هناك، وبعدين أخذ الله بيده وطلبوا منه يشتغل في المجلّة على طول. وصار أخوك صحافيًّا وكاتبًا يرفع الرّأس بعدما كان غاطس غطسة بنت كلب. قول

الحمد لله أنّه نجح في شغله الجديد وارتاح من الشقا بعدما الدنيا هدّت حيله. أخوك تعب يا أبو العزّ، تعب بزمانه كثير. قول الحمد لله أنّه نجح.

دمدم باسل:

ـ وأحيانًا يكون النجاح لعنة.

واحتار أبو صابر في تفسير وفهم ما يدور في رأس الشاب، فما الذي يطلبه هذا الولد، والأهمّ من ذلك هذا السؤال: هل كبر الولد؟

وتلفّت باسل حواليه فوجد المقهى قد أمسى خاليًا إلاّ من أبي معروف المنشغل عن العالم بعدّ غلّته اليوميّة. وقال لأبي صابر:

ـ يا الله نمشي.

ومشى الاثنان باتجاه حيّ السعادة وكلّ منهما يمضغ تساؤلاته وتحسّباته. وقطع أبو صابر الصمت وحبل أفكاره وأفكار جاره، وبدأ يتحدّث عن المشاكل اليوميّة ومتاعبها:

ـ الوضع زفت. أوضاعهم الاقتصاديّة من سيّئ لأسوأ وليرتهم ولا اللّي في رجلك. كذا مصنع أفلس وكذا شركة وعمّالنا جار عليهم الزمان وربّك، لا الضفّة تقدر تكفيهم ولا إسرائيل، يحمل الواحد شماشيره ويشرق شرقًا بعدما كان يغرب غربًا. وتلقاهم راحلين بالألوف. ناس للأردن وناس للسعوديّة وناس للعراق وغيرها وغيرها. والله أنا خايف بيجي يوم ونلاقي حالنا مثل عرب يافا، سياج قدامهم وسياج وراهم وسياج من الشرق وسياج من الغرب. وحواليهم أغراب وأجانب ولسانات ترطن بكل اللغات إلاّ العربي. واحد ميكانيكي من يافا حكى لي وقال، تصوّر يا أبو صابر لو تلاقي نفسك محشور في

بيت جيرانه كلّهم أغراب، يعني تتغرّب وأنت مطرحك. تصوّر. يلعن أبو هالدنيا، ساعات الواحد عقله بطير. يا مصبر العقل والدين. قول الله يكون للناس معين. يا سيدي تصوّر أنّه حتى الميّة في أرضك حلال للغريب وحرام عليك. تصوّر. ممنوع تشرب وترتوي وحلال لغيرك برك السباحة. قالوا لنا «يا بلديّة ممنوع تحفروا آبار». «قلنا ليش» قالوا، واسمع القول المنظوم اسمع، قالوا «لأنّكم إذا حفرتوا في طولكرم تسحبوا الميّة من تحت إسرائيل». قلنا الله أكبر، البلد بلدنا والأرض أرضنا والميّة ميّتنا، قالوا «ممنوع». اضرب اطرح في الشهر الماضي مرّيت بالمحل نفسه اللّي كنّا ناويين نحفر فيه، وإذا بالحفّارات تهدر يا خال. قلت «خير؟» قال عمّك أبو صبحي سوّاق الصهريج «لا خير ولا خرة، أوسخين» وإذا يا مولانا حفّاراتهم بتحفر والميّة طالعة شلاّل، وأولاد العمّ بسبحوا في الميّة سباحة. آ والله سباحة. بلعنا السكّين وسكتنا. يا سيّدي الإيد ما بتقدر على المخرز. فكّرنا وقلنا، طيّب نحفر شرقًا. قالوا «ممنوع». يعني لا غربًا برحمك ولا شرقًا بسمّي عليك. وآخر الموّال يا سيّدي بعثوا ناس تتجسّس على مصادر الميّة في البلد. قال إيش؟ كشّافة.

ـ كشّافة؟

ـ يا سيّدي كانوا اثنين حاملين معدّات وأدوات وآلات نعرفها وآلات ما نعرفها. قلنا، خير؟ قال عمّك أبو صبحي مثل العادة «لا خير ولا خرة». والناس صاحوا واستراحوا وقالوا «جاي يا بلديّة جاي» شرطة البلديّة مسكت الاثنين وحبستهم. أولاد العمّ عرفوا وما كذّبوا خبر وقالوا ممنوع أضرط من الممنوع الأوّل. «ممنوع يكون للبلديّة شرطة» ومن يومها يا خال صارت البلديّة من غير شرطة.

بعد أسبوعين ثلاثة رجعوا الاثنين بمعدّاتهم وأدواتهم وراحوا للنبع، والناس صاحوا «جاي يا بلديّة جاي» ولمّا رفعت البلديّة أيديها ورجليها حملوا الأولاد والنسوان الحجارة ونزلوا في الاثنين رجم، وناولني الجنب الموجوع. الاثنين هربوا لكنّ الناس ظلّت خايفة وإيدها على قلبها. من يومها وأمّ صابر تقول على الطالعة والنازلة «طعم الميّة تغيّر يا أبو صابر» أقول يا مستورة بلا قلّة عقل. «طعم الميّة غير شكل يا أبو صابر. أنا قلبي مش مرتاح يا أبو صابر، يمكن عملوا فينا عملة يا أبو صابر» وظلّت تقول يا أبو صابر يا أبو صابر لمّا ضبان عقلي طار. حتى الميّة نشربها وإحنا خايفين. شو رأيك؟ هالحالة فيها خير ولاّ مثل اللّي قاله عمّك أبو صبحي.

هزّ باسل رأسه بشرود:

ـ لا أعرف.

ـ عجيبة. أسألك عن الدار تقول لا أعرف، أسألك عن الميّة تقول لا أعرف، وأسألك عن الحالة تقول لا أعرف. بالله عليك تقول لي إيش شاغل بالك؟

وكان أبو العزّ مطرقًا يفكّر فيما قاله عادل يوم خروجه من السجن «ستكتشف يا أبو العزّ غير ما تتوقّع». ومسح باسل رأسه بكفّه.

ـ كل هذا متوقّع يا أبو صابر، ماذا تريد إذن؟ أن تعيش كالأحرار؟ هذا يا عمّي احتلال.

وظلّت الجملة تموج في ذاكرته. «ستكتشف يا أبو العزّ غير ما تتوقّع». وتمنّى لو كان عادل في وجهه الآن ليقول له ما يدور في ذهنه. صحيح يا عادل أنّ أبو صابر لا يفكّر في الجذريّات، وصحيح أنّه خائف على الدار لأنّه ساهم في بنائها، وصحيح أنّه لا يفكّر بداره بل

بدار الكرمي فقط، وصحيح أنّه معطّل اليد خائف حتى من شربة ماء، كل هذا صحيح، ولكن معناه؟ معناه أنّ الدرب طويل، وهذا يفسّر كل الأمور، ألم نتّفق؟ وشيء آخر يا أبو الشباب نسيته كما نسيته المدينة، وهو أنّ البلديّة ما عادت شرطة، وحين اكتشف الناس ذلك كفّوا عن الصياح وإطلاق الندهات. والمثال مسحوب وينسحب على الواقع. أمّا متى يكفّ الناس عن الصياح حقًّا «جاي يا بلديّة جاي» فلا شيء يبقى على حاله، وما من قصّة تنسى وهي ما زالت في البال. والدرب ما زال في أوّله، ألم نتّفق؟

(١١)

وهذه ثاني ليلة. تنبعث الذاكرة من وردة. لا تذكّرني بالصبا والحبّ والجمال. ليالي السهد يا صالح. أين أنت وأين نوّار. وها أنا ذا تتلقّفني أحضان الضفّة وفوهات البنادق، تحجب عن عيني أسراب البنات. تمرّ بي العيون السود وتثير رعشة. لكن وجيب الأرض والبندقيّة أقوى. ضاعت البراءة خلف القضبان واختبأت في ذكريات الطفولة. ولا شيء سوى الصفحات ونعيق السجّان. افتح كتابًا جديدًا واقلب صفحة جديدة وتذكّر. الطرقات والشوارع ورائحة البنّ وضربات المنجّد والقطن المندوف. تراكم الثلج مرّة على النافذة المعلّقة. التصق الرفاق والأخوان ببعضهم. أشعلوا كرتون البيض وعلّقوا الكيلة وشربوا الشاي وحملقوا في أكوابهم. رأوا وجوهًا وأشرطة وحكوا حكايات حزينة مضحكة ماجنة. ضحكوا حتى ابتلّت أجفانهم ثم بكوا وابتلّت لحاهم.

تموج أشجار اللوز الأخضر. مرّ ذاك اليوم، منذ أعوام طويلة. حضرت نوّار ووقفت خلف النافذة المسيّجة. تراجعت للخلف كي أمنحه الفرصة. كانت الأصوات ضجيجا. الزوّار والأطفال وبكاء عجوز مات زوجها وبقيت وحدها تنتظر موعد الزيارة. وقالت له «يا ولدي» بدل المرّة ألف مرّة.

كنت أسترق النظر. في عينيها تلك النظرة وفي خدّيها حمرة شفق. مدّ أصابعه من خلال الشبك المعدني. أمسكت أصابعه تتحسّسها

وتداعبها. تمنّيت لو أنّ ابنة الجولان انتابها إحساس طفلة. أخرجت من جيبها حبّات لوز أخضر كانت قد مرّت بها رغم التفتيش. وهمست وهي تتلفّت حولها: أحضرت لك لوزًا أخضر. وضحكا واقتربا بوجهيهما من الشبك. اصطدمت جبهتها بجبهته، لكنّ المعدن وقف حاجزًا بينها وبينه. وكانت تدسّ له الحبّات الخضر من خلال الفتحات فيتناولها ويأكل وهو ما زال يحكي. ما كان يقول لها؟ ما كانت تقول له؟ كانت تسمع ما كانت تقول، لكنّها تضحك. ذكّرني مرآهما برباب ابنة الجيران، كانت تعلف الدجاج كل صباح. أجلس على حافّة السطح وأنظر لأسفل. في ساحة الدار قفص كبير وعشّ حمام. وكانت تنادي بصوت أعذب من ماء البادان «تعن تعن تعن تعن» وقالت نوّار ضاحكة، أعلفك باللوز. قال، وبقي السكّر، علّقت أنا. ولا عجب إذا غنّت فيروز. احمرّت وقالت، اخص، تتسمّع علينا! أشار إليّ، إذا لم يسمع من البثّ المباشر يسمع التسجيل. نجلس في المساء ونعيد التسجيل والشريط ونظلّ نتكلّم على الزيارة حتى موعد الزيارة الجديدة. كان يحبّها أكثر من طلوع الشمس، أكثر من الناس من الأرض، أكثر. كانت جميعًا. وكنت أعجب من كثرة الحبّ وكبره. جميلة، صحيح، لكنّه الجمال الجامد، كصور العذراء والقدّيسات، جمال المنحدرات من أصل غربي وبملامح الشرق تطعّم. وجدت ثورتها صدفة، يخبّئها بين الأرض وبين البرش. ضحكت وتأمّلت الصورة، ذوقك عفشيكا. أنا أحبّ الجمال البلدي، عيون سود ملامح دسمة. قال يمازح، لأنّك بلدي. سمعنا أحدهم فغنّى بصوت جهوري «بلدي يا بلدي أنا بدي أروح بلدي». سمعه السجّان فجأر «روخ... روخ.» أمسك بعصا المكنسة وضرب السجّان من وراء القضبان فقامت قيامة.

رباب تزوّجت وأصبحت تعلف الأطفال بدل الصيصان. رأيتها تقطع الشارع وطفلان يشدّان أذيال ثوبها، على يدها طفلة وفي بطنها آخر. ما عادت تقول «تعن تعن» صارت تقول «يمّه يمّه». ابتسمت لها فاعتقدت أنّي أغازلها. نهرت أطفالها بحدّة «بسرعة يمّه»، وكأنّ الأمومة حرزها وملجأها ومصدر الحماية. غدًا يكبر الأولاد ويشتركون في المظاهرات وتعرف رباب.

قلت له مرّة وكان يخطّ رسالته إليها، كيف أحببت نوّار؟ قال، ألن أحرجك؟ قلت، إذن سأحرّر نصف البلد. قال، أنت تتقدّم بسرعة. قلت، قل لي إذن كيف أحببت نوّار. سبح بعينيه، أنت تعرف صداقتها للينة، وكانت لينة تذكرها دومًا، تذكر مأساتكم العائليّة. المرض والكلية والأب الذي شغل الجميع عن صحّتهم بمرضه. التقيت بها فأثارت عطفي. كانت تحسّ بغربة شديدة، لا أحد يعبأ أو يستمع. كانت مقموعة وكانت تعرف وكانت تقارب بين شخصيّتها ولينة. جاملتها فبكت وقالت، تسخر منّي؟ وكانت بداية. قلت، إذن أشفقت عليها. ثم أحببتها، كانت ذكيّة، مثل أخيها، مثل أخيها؟ ليتها كانت. تتحسّر؟ أنت تتقدّم بسرعة. وهي، ألا تتقدّم بسرعة؟ كيف وبيننا كل هذه المسافة؟ والرسائل؟ رسائل المستمعين إلى ذويهم. والزيارات؟ لا ينقصها إلاّ قطع الجسر، أمّا التصريح فموجود. إذن كيف تتغيّر نوّار؟ هي ما بين مدّ وجزر. أخاف أن تفلت منّي. تضيع العواطف يضيع الجمال يضيع الأمل. نوّار نافذتي على العالم. أخاف أن تقفل النافذة. تضيع نوّار وأبقى غريبًا. حزين أنت؟ أيعيب الثوري حزنه؟ لأنّك مازلت بعد صغيرًا. بدأت أخاف. لماذا؟ لأنّي أحبّ الضحك كثيرًا. أحبّ حكايات النملة والفيل. ضحك كثيرًا وربت كتفي، قصّ واحدة عليّ. غاصت النملة في الكوب، احزر لماذا؟ تبحث عن فيل؟

لا لا. تغوص لتبحث عن لؤلؤة؟ لا لا هه هه. تبحث عن موبيديك؟ لا لا لا هه هه ها. قلها وأرحني. حسنًا، سأقول. غاصت النملة في الكوب لتكتب رسالة. رسالة. رسالتها من تحت الماء. عفارم عليك، أنت تتقدّم بسرعة، فمن علّمك؟ نسيت فهم أكثر من أن يحصوا. تذكر أسامة؟ وهل ينسى الإنسان لحمه؟ حزين أنت؟ أيعيب الإنسان حزنه؟ عانقني، وبكينا معًا.

قال صالح أثناء الدرس، من هو كوبرنيكوس؟ قال ملتح، هو كافر زنديق ملحد. طرقع شاطر أصابعه بحماس، عرفته عرفته، في حارة النصارى بائع زيتون أسود، أليس هو؟ قال صالح، ما هذه الفصاحة! قال شاطر، بفضل دائرة السياحة. صمت هنيهة ثم زفر، نعود إلى الجدّ. قال شاطر، عزلونا أبًا عن جدّ. وهكذا أنت انعزالي؟ بل الغزالي يا أستاذ. فقامت الطوشة في الحال. تدخّلت لأربأ الصدع وأحلّ النزاع فدخلت عليهم من مجرى النمل. ثلاث نملات نزلن إلى الشاطئ اثنتان منهما بلباس السباحة والثالثة رفضت أن تلبس، لماذا؟ قال صالح، أهذا وقته يا باسل! لم يلتفت الآخرون إليه وانشغلوا بالنملات عنه. قال الشاطر، لأنّ الثالثة معذورة. لا. لأنّها من ذوات وزن ثقيل؟ ها ها ها. لا. خافت أن يطفح البحر ويمتدّ؟ ها ها ها. قلها قلها، هيّا نرجوك. لأنّها تتخصّص شريعة. فارتفع منسوب الطوشة وانسحب صالح إلى الزاوية. تبعته صاغرًا، ففاض العتاب، أهذا ما أعلّمه لك؟ لأنّي أعرف كوبرنيكوس، الشمس هي قلب العالم، والكلّ كواكب سيّارة، لا نور يسود على نورها، إنّي أرفض. قال بإشفاق، رفضك ما زال بعد صغيرًا، اكبر يا باسل يا ابن العزّ. قلت، تعيّرني بأصلي؟ ما زلت تحمل رواسب أصلك. تخاف أن تفقد الشمس حقّ الوجاهة. قلت، ومركزها يا أستاذ؟ قال، المهمّ هو المفعول، العبرة ليست في المركز وكل نجم يضيء

بحجمه. هتفت بفرحة، آ والله صحيح، هي الشمس لا شيء يعلو عليها. قال بصبر، بل بالمجموعة الشمسيّة. فكّرت كثيرًا وقليلاً وأخيرًا قلت، آ والله، فهي المجموعة الشمسيّة.

مازلت أعيش هنا وهناك. لأنّي هناك، أنا يا هنا في فراش يموج. اسمع يا صالح. عادل قال كلامًا كبيرًا، ورجل الأزمة قال الكثير، فماذا تقول؟ أبدًا يا صالح تسأل، أبدًا تردّ السؤال إليّ. بعيدًا عنك أحسّ بغربة. لكنّي أعرف ما ستقول «خارج السجن تحسّ بغربة». احترنا يا صالح أين السجن! أصبح الموت يحدّد بلفظة. انطق بنْدورة بدون ألف تلقى حتفك. وتعجب إن أحسست بغربة؟ خطّ عمودي يقرّر خطّ المصائر. يقرّر كل المصائر؟ كل المجموعة الشمسيّة. فسّر. إن خرج الكوكب عن فلكه يحدث صدمة، يصدم غيره، وغيره يصدم غيره. وتعمّ الفوضى فيحترق الكلّ. وهذي بعض فعال الألف. أليس عجيبًا؟ خطّ يقرّر خطّ المصائر. والخطّ عمودي جدًّا. اكسره إذن. اجعل عمودك وترًا مثلّثًا، فتصبح حافّته منحنى. تقصد داور؟ أقصد ناور. لكن يا صالح هذا انحراف. احك عن النملة والصابون. على حفّة صابونة لزجة وقفت نملة. لماذا وقفت؟ قلها أنت. لكي تنتحر. لماذا؟ لترتاح من دنيا اللزوجة. خسارة التعليم فيك. ظننت الصابونة رمز النظافة. وهي كذلك. فرق شاسع بين هذا وذاك، بين اللزوجة وبين النظافة. بعضهم يقولون عنها لزوجة، وبعضهم يقولون هذي نظافة. والنملة أيضًا ماذا تقول؟ ما عادت تعرف أين هي. أمّا الهاوية فمفتوحة. ماذا نفعل؟ إن سقطت حتمًا تتهشّم. طبعًا طبعًا، قانون النسبيّة وارد. لكنّ العالم ذكرنا، الجذب خلال الريح ضعيف، فهي إذن لن تتهشّم؛ بل تتهشّم. كيف؟.. لماذا؟.. غابت عن بالك يا فالح أنّ النملة تحبل بالفيل، وهذا يفسّر سرّ الوزن. أستاذي أنت كبير

عظيم. لا تبهر، لست سوى تلميذ، إذ إنّ المعضلة مازالت في الصابونة. ماذا نفعل؟ إنّ الهاوية لمفتوحة والخطّ عمود متطاول. اكسره إذن، اجعل عمودك وترًا مثلّثًا. وكيف السبيل؟ الأرض مازالت لزجة، والنملة مازالت هناك، والألف مازالت كالعود، أمّا الصابونة فمازالت هي صابونة. ماذا نفعل؟ فكّر وابحث. فكّرت كثيرًا وقليلاً ثمّ تذكّرت بيضة كولومبس، فقلت، اعبث بالارتكاز. عفارم عليك، أنت تتقدّم بسرعة. من علّمك؟ أكثر أكثر من أن يحصوا. وتذكر أسامة؟ وهل ينسى الإنسان جرحه؟ حزين أنت؟ أيعيب الثوري حزنه؟ إيه يا صالح.. أنت أبي، وأنت أخي، كوبرنيكوس أنت وخطيب نوّار. وقال، حذار من التأليه. قلت بإصرار، لكنّ الشمس هي المحور. قال بإصرار أكبر، بل بالمجموعة الشمسيّة. وعدت أفكّر ثانية، إذا الارتكاز مال، تغيّر، يحلّ فراغ ويصبح فجوة. اسأل صالح؟ سيقول لي ابحث عنها أنت. حسنًا أبحث. أعرفها الآن، بذاك الفراغ ولا الهاوية. تكسر يدها، تكسر رجلاً لكن حتمًا لن تتحطّم. بذاك الفراغ ولاّ الهاوية. أحاول أن أبدّل الارتكاز.

صوت السمّاعة بدأ يوشّ، من ثمّة شيخ يتنحنح. في السجن نقوم ونتنحنح. وأمّي مازالت تطبخ، دخلت السجن تركت السجن وأمّي مازالت تطبخ. قبل السجن كنت أحسّ بهذا العطف. كنت أحسّ هم السجّان أمّي وأبي، عادل ونوّار وذاك الرعيل من الأطفال. كبر الأطفال وكبر السجن. دخلت السجن التقيت بصالح وعلّمني عن معنى الحبّ. الحبّ؟ مررت بأحيائها المستجدّة وخطوت بدروب الرؤى والتمنّي. رأيت الصبايا. وكبر الخيال. وجنحة قلب تمنّى سناء، وكم من سناء، وكم من سناء! عادل ورفيف. غريب أنت يا عادل. تحبّ؟ تلكّأ لكنّه ما ابتسم. همست نوّار تشير إليه، يحبّ رفيف. أتمنّى فعلاً

يا عادل أن تتجاوب. بطيء أنت ككلّ المراحل. أمّا أنا، أفلتني عليها. أعبد أسماء حَسْنا، سناء رباب حنان ودعد. صالح قال، ألن تكبر! أكبر عنها؟ أكبر عن بيضة أو عن ديك؟ المس، المس، ما أنعمها. أحبّ البيض أحبّ سناء. أنت مازلت بعد صغيرًا. لأنّي أحبّ الضحك كثيرًا. أحبّ البنات. أحبّ القهوة. أحبّ البلد.

اسمع يا صالح اسمع، مررت بسوق العطّارين. شممت التوابل مشيت بصمت وحولي الضجيج. بنية تروح وأخرى تجيء. مررت بمحمص، غرفت البنّ. رآني البائع فتبسّمت. قلت أمازح، أهذا مشمش أم بطّيخ؟ لم يتفاجأ. غمز بعينيه وقال، حزرت هو البطّيخ. ولم أكن أعرفه، مجرّد رجل، مجرّد مواطن. يقف وراء آلة بنّ يمسك بالحُقّ، يدير الآلة والمسحوق. يضع المريول في خصره. له شارب يتدلّى لنحره، لكن صلعته لامعة. عينه تغزل، يلقطها وهي على الطاير. وقلت، إذن فهي البطّيخ. قال: وحمرا حمرا على السكّين. قلت له، أين السكّين؟ في عين الحلوة يا شاطر. هذا ما قال، أقسم. قلت أواصل، بل هو مشمش. اسمع ما قال «تؤمر يا أدون، فهو المشمش» قلت له، وتقول أدون! أين السكّين؟ قال، ابلعها فهي المقسوم. قلت، تقول هي المقسوم؟ أبلعها أنا؟ قال، الأدون يقول عن القهوة بطّيخ. ما قولك صالح في هذا؟ قلت، العب غيرها. قال، لعبت. قلت له، ثاني مرّة. ضحك وقد أفلت أمره، علشانك تفرج يا أبو العزّ. الله الله. أروع مشهد. ثمّ تعانقنا في الشارع. مجرّد رجل، مجرّد مواطن. ونقول السجن يبعدنا! السجن يقرّب يا صالح. لكنّها أحيانًا تخرب فنقول عن القهوة بطّيخ. قال البائع، «لكن ما بتعمر لتخرب».

وهذا بساط غزّاوي. لمحت ألوانه كالشفق. وقلت لأمّي، مازلت تهوين السجّاد. قالت، بعناه. سألت، وهذي الدّار، هل تعجبك؟

قالت، لا بأس. قلت، أودّ لو كانت أكبر. قالت، صغرنا قلّ العدد، مات المرحوم فأوحشنا. لم أنطق. ترثين المرحوم. ماذا إذن، أليست على العهد الراحل، لكنّها مازالت تزحف. عيب عليّ. هذي أمّي. عليّ أن أخجل جدًّا. قالت، صغرنا قلّ العدد، ما حاجتنا لدار أكبر؟ قلت، لنجمع شمل الأحبّة. قالت أولادي حولي، أحمد ربّي. قلت، أولادك أكثر من حبّات الرمل. قالت بخشوع، يكفيني هذا من الدنيا، أن ترجع لي. قلت، وصالح؟ قالت، دعني يا ولدي من همّه، نوّار تبور وتتعنّس. حزنت كثيرًا ثم فرحت، لأنّي وجدت العذر لعادل. ألهذا تهرب يا عادل؟ تهرب من دار فيها نوّار؟

قلت له ثاني مرّة. بكلّ صراحة، أنا لا أفهمك يا صالح. قل لي فورًا بالله عليك، ثوري مثلك كيف يحبّ فتاة هشّة مثل نوّار؟ ابتسم وقال، لماذا، أليست من صنف الإنسان؟ قلت بحدّة، وشاه إيران أيضًا إنسان. حدجني طويلاً فتراجعت. لا لم أقصد. أختي نوّار وهي بريئة، وهي ضحيّة. قال، إذن قد أجبت سؤالي. فأنت العاشق لا المعشوق! قال، لماذا يا باسل أبدًا أبدًا ترثي أختك. أوليست بالحبّ جديرة؟ قلت!! بلى. فلديها الكثير، لكن. لكنّي لا أعرف! قل، لا تخجل. لكنّها جامدة جدًّا، وأنا أحبّ الجمال الحيّ. جامدة؟ أبدًا جامدة يا صالح. إذن فالجمال هو الحركة أو أنّ الحركة سرّ الجمال. لا شكّ. نحرّكها، لكن كيف بتصريح منهم أم منّا؟ أم من نافذة المستمعين؟ أصبت الجرح الأعظم. حزين أنت؟ أكره تكرار الكلمات. لكنّ التكرار يعلّم. كرّر. لا ثورة عظيمة دون ألم عظيم. أنت تتقدّم بسرعة، وبك أنا فرح جدًّا. حزين جدًّا فرح جدًّا! وعد الثوري ووجدانه، ألا تعتقد؟ بل أؤمن، أؤمن يا صالح، طيران الرّيح بلا تصريح. وحذار أن تعلو وحدك. بلى سنطير، أمهلني فأجتاز القضبان. ومازال صالح بالانتظار.

(١٢)

طرقعة القباقيب ترنّ من متوضّئي الجامع القريب. والفجر مازال نيليًّا، وأزقّة نابلس غارقة في الظلمة. تسلّل شحادة عبر الزقاق بعد أن أوقف سيّارته في باب الساحة. صعد الدرجات بخفّة، وطرق باب منزلها وقلبه يدقّ انفعالاً. كان يحسّ بانفعالات لصّ وعاشق، ولسان قلبه يهتف، «على الله ما تغيّر رأيها».

حين تبعته وهي تحمل زوّادتها حاول إخفاء فرحته ولهفته بتكشيرة ضخمة جعلت لوجهه لونًا شديد القتام. أوسع خطواته، وحذاؤه لا يكاد يلمس وجه الأرض. ولهثت سعديّة خلفه لكنّها باركت تحفّظه. فالشبابيك اللّعينة مازالت تلوح فوق رأسها كطيور جهنّميّة، وأم تحسين مازالت على أتمّ الاستعداد لرميها بحجارة من سجّيل أو أيّ نوع آخر.

كان العمّال قد أخذوا أماكنهم في مؤخّرة الدوبل كابين، وفي مقعد الوسط خلف السائق جلست امرأة ضخمة بقمطة، وعاملان آخران. وسارت السيّارة بهدوء فوق بلاط الأزقّة الحجريّ. وضرب قلب سعديّة حين لمحت أبا تحسين يقطع الشارع بقبقابه متّجهًا نحو الجامع.

«يا ترى لمحني؟ إذا شافني مع شحادة في مثل هالوقت إيش رح يفكّر؟ رح يقول لمرته طبعًا، ويا دلّك يا سعديّة! لكن الدنيا بعدها ليل، وضوّ السيّارة لا بدّ عمى عينيه بإذن الله. مين عارف، يمكن لمحني».

وتشاغلت عن الموضوع بالنظر من خلال الزجاج إلى ملامح الأزقّة

التي تحفظها وتحفظ كل شبر منها. هنا كانت طفولتها، وهنا كان صباها.. وهذه العين تشهد كم حمل هذا الرأس من تنكات ماء. ويوم اندلقت التنكة على شعرها وجسمها والتصق الثوب بتفاصيلها وكان زهدي إذاك يشهد، احمرّ وجهها رغم اصطكاك الأسنان فاهتزّ شاربه ولمعت عيناه. وبعد يومين خطبها وبعد أسبوعين تزوّجها. وليلة الزفاف قال، «لا عين ولا عيون بعد اليوم». وتحسّس تفاصيلها وهمهم «اندلقت الميّة على بدنك وبان هذا وهذا وهذا. لا عين ولا عيون بعد اليوم. هذا إلي، إلي لوحدي».

تلك أيّام، وهذه أيّام! ولو رآها الآن تجلس بجوار شحادة تنزل لتلّ أبيب ما كان يقول؟ العين أرحم من تلّ أبيب، لكن تل أبيب أرحم من القلّة. زهدي كان يفعل ذلك أيضًا، وما الفرق بينها وبين زهدي، «أنا رجّال يا ستّ، والنسوان للدّار وبسّ».

تلك أيّام، وهذه أيّام. مكانها ما عاد الدار فقط، الدار لا تطعم ولا تسمن. وهي ما عادت امرأة فقط. فهي الأمّ وهي الأبّ وهي الشقيانة بين الدار وتلّ أبيب.

وبدأت ملامح المدينة تختفي، ومازالت أضواء السيّارة تتوهّج. واستيقظت من أفكارها على يد شحادة تمتدّ إليها بترمس ثقيل. فتحته فامتلأ جوّ السيّارة الضيّق بعبير القهوة والهال. وأطلقت المرأة ذات القمطة آهة أتبعتها بضحكة رنّانة. وهتف أحد العاملين بكلمات استعطاف، «أنا بعرض النبيّ». ومدّ يده لسعديّة بكوب صغير.

وتذكّرت سعديّة فطور الأولاد. في كلّ مرّة تنزل فيها لتلّ أبيب يكون شغل بالها الشاغل أكل الأولاد، الفطور، وغدا النواشف لن يشبعهم، وهل ستدبّ معركة في غيابها بين رشاد وبين ذاك الدبّ

المسمّى عبده؟ وهل سيسمّون بدنها بخبريّة سيّئة وهم يستقبلونها على الدرج؟ «يمّه رشاد نقف حجر وفشخ رأس عبده. يمّه سميّة وقعت ونزل من ركبتها الدم. يمّه عزيز لعب بالماكينة وخربت». وبدأ قلبها يغلي، ولم تنتبه للنكات المائعة التي كانت تتبادلها ذات القمطة والعاملين.

ستقبض اليوم ما لا يقلّ عن عشرة آلاف ليرة. وبعد خصم أجر العاملات وميزانيّة الأكل واللّبس والكتب والماء والكهرباء ومصروف الأولاد، سيبقى مبلغ لا بأس به، وستكون لها دار ولا كلّ الدور. غرفة لها، وغرفتان للأولاد، وصالون متّسع تضع فيه طاولة الأكل وكراسي السفرة. وستحطّم الطبليّة على عتبة الدار الجديدة ولن تقول وداعًا يا طبليّة. «مع ستّين سلامة يا طبليّة. مع ستّين سلامة يا حارة الهمّ والغمّ والشؤم. مع ستّين داهية».

ولكن، يعزّ عليها فراق أمكنة رعت ذكرى زهدي، وأمّ تحسين على علاّتها تظلّ وجهًا ألفته لسنوات طويلة وياما جرى وياما يجري بين الجيران والناس. وهذه قضايا اعتادها الناس ولا غنى عنها. والحروب الصغيرة تذوب وتتبخّر مع أوّل حدث يهبّ على الحارة أو على أحد الخصمين. منع التجوّل كم كسر من حواجز أقيمت بين الناس وأباح تحوّل القلوب المتفرّقة ولَمَّ شتاتَها. وفاة عزيز في لبنان أو اعتقال ولد أو مداهمة الجند لأحد البيوت كم أعادت مياهًا تقطّعت مجاريها مدّة أشهر أو سنوات، وأمّ تحسين مدّت رأسها من الشبّاك وصاحت وهي ترى الجندي يضرب رشاد «يكسر إيدك، تعدم ولادك يا عدوّ». وبعثت لسعديّة بصحن مخلّل في اليوم نفسه، وردّت لها سعديّة الصحن بعد أن ملأته بالعوّامة، وجمعت الاثنتان أولادهما عصرًا على الأسطح، وأمسكت كلّ واحدة بطبلة وملأتا الحارة بالزغاريد والهتافات وأغان يردّدها الأولاد في المظاهرات. وكأنّ عرسًا امتدّ من أوّل الحارة

لآخرها. كلّ أمّ وبيدها طبلة وحولها شلّة أولاد. وغناء وسحج ومظاهرات معلّقة على الأسطح. والجنود من أسفل يهدرون بالوعيد والمسبّات الوسخة والإشارات البذيئة. ولكن لمن؟ آمنت بالشعب المضيّع والمكبّل، آمنت بالشعب المضيّع والمكبّل. أسكت مرة، أسكت ولد.. وجعلت جرحي والدما، في السهل والوديان جدول. أسكت مرة، أسكت شرموط. عرافيم كلّه شرموط. وحملت رشّاشي، آهاهاهاها لتحمل بعدنا الأجيال منجل.

وبعد ساعة دفع رجال الحارة ثمن مظاهرة النسوة المعلّقة فحملوا بدل الرشّاشات حجارة الشارع ونقلوها من هنا لهناك ومن هناك لهنا. وتلقّوا الرفس وضربات كعوب البنادق في خواصرهم ولطّخوا الشعارات المكتوبة على الجدران بزفت ساخن أرغموا على تغميسه بأيديهم العارية. وقضوا ليلتهم في الشارع وقوفًا وبدون تململ.

ـ أمّ حمادة، تفضّلي افطري معنا، من خير الله وخيرك.

ردّت يده الممدودة بكعكة سمسم وهي تدمدم بالشكر. وفتحت كيسها وبدأت تأكل بصمت. وكان يتأمّلها بطرف عينه والطريق أمامه مازالت طويلة. لو يسعده الحظّ وتمكّنه الظروف من فتح قلبه اليوم ليصارحها. لو ترضى به زوجًا لحمل همومها وهمّ أولادها على رأسه ولجعل حياتها جنّة. سيبني الدار التي تحلم بها، فلديه ما يكفي وأكثر. لديه قطعة أرض في عسكر. لكنّها تريد أرضًا في الجبل الشمالي وهناك الأرض مثل النار. سيبيع أرض عسكر ويشتري لها الأرض حتى لو طلبتها في المرّيخ. وسيبيع الدوبل كابين ويشتري مرسيدس يشغّلها على خطّ نابلس رام الله القدس. فيكفي من الشقا هذا الحدّ، وسيعيش وسعديّة مثل الأفنديّة. لكن أولادها العفاريت، وخصوصًا رشاد.

الملائكة لا تتحمّلهم ولا تتحمّل عفرتتهم فكيف يتحمّلهم هو؟

وسرح بخياله محاولاً البحث عن طريقة تخلّصه من أولادها. «حمادة في الجامعة، خلصنا من شرّ الأوّل. وجمال بقيت له سنة واحدة وأشهر، خلصنا من شرّ الثاني. وسميّة باقي لها أربع سنين، ورشاد ستّة، وعزيز عشرة... يا وارادا!».

وأشعل سيجارة وبدأ ينفخها بغيظ. فما هي الطريقة التي تخلّصه منهم وأين هي؟ لو كانت لديهم جدّة لوضعهم عندها. لو كان لهم عمّ لطالبه بأخذهم، فالعمّ أولى بهم. لو كان لهم أب! زهدي. وتعكّر مزاجه لآخر حدّ وضرب الستيرنج بيده وهو ينفخ. «هالزهدي اللّي زاحونا بذكره. ومين هو زهدي ومن هو ربّ زهدي! بكرة تشوف سعديّة وتحكم، وبأيّ حقّ خلّف زهدي كلّ هالأولاد. ما كان عنده شغل ولا مشغلة إلاّ البذر! وكأنّ العالم مجبور أن يربّي أولاد زهدي. أنا مش مجبور، لا والله ولو كانت سعديّة بنت النبي محمّد».

واسترق النظر إلى نصف وجهها الهادئ المحاط بالكبرياء، فخشعت نفسه وضرب التسيرنج بيده مرّة ثانية، «كرمالك يا سعديّة الغالي يرخص والمرار يحلى».

ومدّ يده بخيارة وقال متظارفًا:

ـ كلي هالخيارة يا سعديّة.

نظرت إليه بالورب فتدارك:

ـ تفضّلي هالخيارة يا أمّ حمادة.

أخذت الخيارة وقالت بجدِّيَّة:

ـ تسلم إيدك، عشت.

لو أنّها اتّبعت قولها ذاك بنداء اسمه. لو قالت «عشت يا شحادة» لكان لكلماتها وقع ألذّ. ولو أنّها لا تصرّ على أن يناديها «أمّ حمادة» لكان لاسمها وقع ألذّ. لكنّها لذيذة رغم كلّ شيء. فهي ستّ الحارة بدون منازع، بل ست نابلس كلّها «والله العظيم».

قال أحد العاملين متثائبًا:

ـ سمّعونا إشي يا بشر. افتح هالراديو يا شحادة خلّينا نتصبّح.
وأطلّ محمّد قنديل بصوته النديّ مداعبًا:

ـ يا حلو صبّح يا حلو طلّ، يا حلو صبّح نهارنا فلّ.

ورفعت ذات القمطة عقيرتها ترافق الغناء بنشاز ضيّع اللّحن وجوّ الألفة. وتمرّدت أذنا سعديّة لكن لسانها ظلّ منضبطًا. ومدّت يدها نحو الراديو ورفعت الصوت أكثر. ابتسم شحادة وهبّ لتنفيذ أمر لم يسمعه:

ـ اسكتي يا خضرة، صوتك مش بزيادة. مظبوط يا أمّ حمادة؟

ولم تستجب خضرة بل رفعت موجتها أكثر فغطّى العاملان آذانهما بأيديهما وعلّق أحدهما ضاحكًا:

ـ على الله تكون صبحت وصحصحت يا عطا!

وباتت تلّ أبيب على المشارف. وبدأ ذهن شحادة يعمل على ترتيب المشهد الذي سيصارح خلاله سعديّة بحبّه. ولكن أين هو المكان المناسب؟ وهل إذا وجده توافق سعديّة على الذهاب إليه؟ وإذا وافقت فهل ترضى به زوجًا؟ ولكنّه سيملي شروطًا، فهو لا يستطيع الحياة مع رشاد في بيت واحد. وإذا سألته أين تذهب به سيقترح عليها إحدى مدارس الأيتام، ففي القدس مدرسة ولا مثلها في العالم كلّه.

وسيعلّمونه هناك صنعة تنفعه بدل أن يذهب إلى الجامعة مثل أخيه المصون حمادة، وهات يا فتّ، وهات يا ليرات، ويا ريت ليرات، دنانير! ثم إنّه لن يوافق على نزول سعديّة لتلّ أبيب أو غير تلّ أبيب. «شوفي يا سعديّة، أنا رجّال حمش وما عندي نسوان تتمرمط بين الرّجال. النسوان للدّار وبسّ. أينعم الشغل نعمة وشرف، لكن مشاوير تلّ أبيب عليّ أنا. أنا آخذ القمصان وأنا أحمل القمصان وأنا أحاسب على القمصان، وفلوسك تصلك على داير الملّيم. وإيش الفرق بين فلوسك وفلوسي؟ فلوسي فلوسك وفلوسك فلوسي. من أوّلها خلّينا على نور».

ـ أمّ حمادة، تلّ أبيب بعدها نايمة، إيش رأيك ننزل مع الباقين للقهوة نشرب فنجان شاي؟

نظرت في ساعتها وكانت ما تزال السادسة والنصف صباحًا، وهذه أوّل مرّة تصل فيها تلّ أبيب في مثل هذا الوقت. كما أنّها المرّة الأولى التي تنزل فيها سعديّة كانت قاعدة مع العمّال في قهوة بتلّ أبيب تشرب شاي وتدخّن سيجارة. سعديّة كانت قاعدة مع العمّال في قهوة بتلّ أبيب تشرب مشروب وتدخّن سيجارة. سعديّة كانت قاعدة مع العمّال في محلّ بطال بتلّ أبيب تسكر وتخمر وتعرّص. يا هيك يا سعديّة. بدون قهوة وبدون سيجارة وما خلصنا!

وأوقف الدوبل كابين على حافّة شارع أشجاره وارفة ودكاكينه مغلقة إلاّ مقهى. والتفت وهمس بصوت:

تأمرين.

ـ ننزل؟

وأجفلت وظلّت جامدة تفكّر. نزل العاملان وتبعتهما المرأة وبقيت

وشحادة وحدهما في السيّارة. «أنزل؟ وإذا ما نزلت رح أظلّ لوحدي في السيّارة أكثر من ساعة ونصّ. لا حول ولا قوّة إلاّ بالله، وما أغناك يا سعديّة عن هالموقف. لو أنّي نزلت لوحدي مثل العادة ما كان صار ولا كان جرى. لكن إيش اللّي صار وإيش اللّي جرى؟ رح تقول أمّ تحسين في خناقة من الخناقات. يا دايرة يا مطبّقة يا ممسَّحة قهاوي تلّ أبيب. الموت يسبق، سعديّة ممسَّحة قهاوي تلّ أبيب؟ فشرت يا أم لسان يا أم أربعة وأربعين. فشرت يا هبلة يا. . آ. . هبلة، والله هبلة. حسودة وهبلة، ولئيمة وهبلة، وطيّبة وهبلة، وصحن المخلّل يشهد، ويكسر إيدك وتعدم أولادك يا عدوّ تشهد، لكن هبلة، وأمّ صابر مثلها، والحارة، ونابلس كلّها منهم وفوق».

وبدون وعي مدّت يدها وفتحت الباب. وبغمضة عين كانت على الرصيف تحت الشجر.

(١٣)

للمقهى رائحة غريبة أشعرتها أنّها تخطو نحو المحرّمات فأجفلت. وارتدّت للداخل محاولة التشبّث بذكرى من منحوها الأمان: زهدي، والأولاد، وحمادة البعيد.

زهدي، تركتني لمين يا زهدي. وهذه الدنيا مخيفة. وهذا الجوّ وهؤلاء الرجال. وعيون غريبة والرائحة الغريبة. وفي الداخل أرنبة مذعورة أذناها مفتوحتان وقلبها يخفق. أدنى همسة تستحيل في أذنيها صخبًا وهديرًا. وصوت خضرة وضحكاتها الخليعة ملأتها بالذعر. وتنخّعات العمّال وسعال السجائر. وفنجان شاي مليء بقهوة إفرنجيّة على وجهه قشطة ناعمة فائرة. تذوّقته بحذر ثمّ بلهفة. وسمعت خضرة تعلّق:

ـ والله هالقعدة بتسوى الدنيا وما فيها.

«أيّ قعدة؟ أي قعدة يا فاجرة؟ القعدة بين رجال في عيونهم خيطان وإبر؟ القعدة في تلّ أبيب عند اليهود؟ القعدة وسط هالروايح الغريبة والجوّ الغريب»؟

قالت خضرة:

ـ لو تظلّ تلّ أبيب نايمة ونظلّ إحنا الصاحين بتصير الدنيا كباب وفستق حلبي.

علّق صوت كسول حزين:

ـ زرعنا اللوْ طلع يا ريت.

قالت خضرة بتحدٍّ:

ـ والله لو أنوي بقيم قيامة تلّ أبيب.

ـ تساءل الصوت الكسول بسخرية:

ـ كيف يعني؟

ـ يعني أقيم قيامتها.

ـ طبّ تفضّلي قيميها بعرضك.

تساءل الآخر:

ـ هو فين العرض؟

وأحسّت سعديّة بشيء يهوي كالصفعة على وجهها؟ «يا مصيبتك يا سعديّة. وتقعدي في محلّ واحد مع ناس بلا عرض؟ إيش رح يقولوا الناس في نابلس؟ إيش رح تقول أمّ صابر؟» قالت خضرة:

ـ والله أنا ما بخاف ولا من الله. تلّ أبيب بطبلها وزمرها بحطّها بقاعي وبقول ما شفت حدا.

ضحكوا. وسخر أحدهم وتساءل:

ـ تَسَع؟

ردّت خضرة بجلافة:

ـ وتَسَعك أنت كمان.

ضجّوا بالضحك وعلّق أحدهم:

ـ عليك الدايم يا عطا، يا الله، على الأقلّ وفّرت الكفن. «يا سخامك يا سعديّة، له له له له، طق شرش الحيا وبقينا مثل اليهود. والله الكسرة ما هي كثيرة علينا».

صاحت خضرة موجّهة الكلام لصاحب المقهى:

ـ ادوني ادوني، اسلخلي، اني روتسا...

«هالله هالله، وعبراني بلبل يا حريقة الوالدين. الله يرحم نابلس، فين عيون البلد تشوف».

وهمس شحادة في أذن سعديّة وهو يراها محملقة العينين فاغرة الفمّ:

ـ ما تنتبهي لها، هذي خالعة.

تساءلت سعديّة بفضول:

ـ بنت مين؟

ـ أنا عارف بنت مين؟ ما لنا ومالها. أجيب لك كعكة؟ عندهم كعك إفرنجي ولا ألذّ منه.

وتغاضت سعديّة عن ذكر الكعكة وعادت تتساءل:

ـ ما إلها رجال يضبّوها؟

همس بحذر:

ـ متجوزة بدل الواحد اثنين، والاثنين على ذمّتها.

شهقت وضربت صدرها، ولولا ضحكة جماعيّة صاخبة انطلقت من الدائرة التي تجلس فيها خضرة لأصبحت سعديّة مركزًا للعيون.

ومع مضي الدقائق بدأت سعديّة تتحرّق غضبًا. فهؤلاء الرجال لا

يهمّهم شيء. وكل همّهم التسلية وخضرة مادّة ممتازة لمنحهم ما يريدون. وهي كوليَّة تشعر مع بقيّة الولايا من بنات الخلق. وهي إذا ساهمت في تقويم اعوجاج إحداهنّ والستر عليها ستر الله عليها وعلى ابنتها وذرّيّتها من بعدها. ولكن، هل ستستمع خضرة إليها وإلى نصائحها؟ ما علينا، تمتثل للقول الشريف وتقوّم الاعوجاج بلسانها، وذاك أضعف الإيمان.

وتأمّلت خضرة بقمطتها الحمراء وخدّيها المتوهّجين المشدودين عن ضحكة بغمّازات وبرقة أسنان قويّة. وحاجب قلم وكحلة أحدّ من السيف. ثمّ لبان يروح ذات اليمين وذات الشمال دون كلل.

«المسخوطة. الواحدة بجوز واحد وياالله ياالله، وأنت بجوزين يا لعينة الحرسة؟

ـ اسمع يا شحادة.

ومدّ شحادة أذنه المغطّاة بسالف النتش:

ـ أوامرك ستنا؟

ـ عرّفني على خضرة.

رسم على وجهه تعبيرًا ممتعضًا وتكهربت سحنته:

ـ أعرّفك على خضرة؟ يا ستّنا خضرة واحدة خالعة، ما لنا فيها؟

ـ أحكي معها كلمتين يمكن البنت..

ـ بنت! بقول لك بجوزين غير الفراطة. يا شيخة هذي كل يوم مع واحد وحالتها شوربة. المحكمة ما قدرت عليها لتقدري عليها أنت؟

ـ شحادة، عرّفني على خضرة.

احتدّ شحادة وبدأ يتفتف وكفّاه الطويلان يتّخذان أشكالاً متشنِّجة.

ـ مالك ومالها يا ستّنا؟

ـ وليّة مثلي ويمكن أمّ أولاد مثلي، وبنت بلدي وبنت ديني، والواجب ننصحها بدل ما تظلّ دايرة وداشرة والرجال عاملينها مسخرة وتسالي.

ـ يا سعديّة خضرة خالصة على الآخر وما فيها فايدة. يا شيخة أنا الرِّجّال بخاف أقرّبها.

نظرت إليه سعديّة بالورب وعلّقت بسخرية:

ـ لكن خضرة زبونتك اليوميّة.

وفي غمرة انفعاله التبست عليه الجملة وظنّها تورية لشيء ما قصدته سعديّة:

ـ أنا؟ زبونتي أنا؟ والله العظيم عمري ما لمستها.

خبّأت سعديّة فمها ودارت ضحكة كادت تفرّ منها. وكان شحادة مازال يحملق في وجهها بعينين يهتزّ بؤبؤاهما بحركات عصبيّة انفعاليّة. فأسهل طرق الدفاع عن النفس الكذب، ولتثبت سعديّة أنّه يعمل بخضرة الشيء الفلاني. هذي أشياء تعمل ولا تقال. تقال في المناسبات بين الرجال حين يتفاحشون بالكلام، أمّا أمام سعديّة ستّ الستات فالوضع مختلف. لكن سعديّة المقصوفة تلقطها على الطاير، وإذا عرفت أنّ له علاقة بأمثال خضرة فقل على المشروع السلام.

وبإصرار قرّر أن يحول دون اجتماع سعديّة بخضرة. وأعطى لوجهه هيئة جدِّيّة مخيفة، وقال بصوت حاول أن يجعل نبراته ذات سلطان وسطوة:

ـ اسمعي يا سعديّة. أنت حرمة وأنا مسؤول عنك.

فتحت سعديّة أذنيها وعينيها بدهشة، فتلك هي المرّة الأولى التي يجرؤ فيها شحادة على مخاطبتها من موقع المسؤول عنها. ثم كيف يجرؤ شحادة على مناداتها «يا سعديّة» فقط.

ونقرت الطاولة بأظافرها عدّة نقرات وقالت وهي لا تنظر في وجهه المعكور:

ـ من إيمتى تناديني سعديّة حاف يا شحادة؟ ناديتني سعديّة أوّل مرّة وبلعتها، ويمكن لأنّي بلعتها أوّل مرّة تماديت، ونسيت حدّك. أوّلاً أنا أمّ حمادة ومش سعديّة. وثانيًا أنا مش حرمة، أنا مثلي مثلك، أنت صاحب مصلحة وأنا صاحبة مصلحة. وثالثًا، ما حدا مسؤول عنّي غير الله ونفسي، مفهوم؟

ولم يقل شحادة «مفهوم» فقد كان رأسه قد بدأ يغلي بالغيظ والنقمة عليها.

«بكرة شوفي يا سعديّة إذا كنت حرمة أو لأ. بكرة يا سعديّة تشوفي إذا كنت مسؤول عنك أو لأ. بكرة يا سعديّة تشوفي إذا كان حمادة أحسن من شحادة. أم حمادة، هه، طيّب، بكره نشوف. على إيش هالحرمة شايفة حالها وعاملة أبو علي؟ على القرشين اللّي حيلتها وإلاّ على خياطة القمصان؟ على إيش؟ البلد ملآنة خيّاطين وخيّاطات. لكنّ الحقّ أنّه شغل سعديّة أنظف شغل ومعاملتها أنظف معاملة. حتى اليهود بعترفوا وبقولوا أمّ حمادة تمام، شغل تمام وموعد تمام وكلّه تمام بتمام».

وتزحزت مقاعد العمّال وبدأوا يندفعون نحو الباب. وتلكّأت خضرة وتقصّعت وهي تنظر في زجاج الباب وترى شبحها فيه. وأعادت

وضع قمطتها وشدّت حزام ثوبها على خصر غير نحيل. ومشت دون أن تلتفت يمينًا أو شمالاً.

ـ يا خضرة.

والتفتت خضرة ورسمت ابتسامة فضوليّة وهي ترى سعديّة تقترب منها وشحادة يتبعها ورأسه بين كتفيه.

ـ كنت ناوية أقعد معك.. لكن استحيت من الرّجال.

ابتسمت خضرة بترحاب للحظة، ثم ارتسمت في عينيها نظرة حذرة وتساءلت بشيء من السخرية والترقّب:

ـ خير إنشا الله؟

ـ سلامتك، لكن سمعت أنّك بتشتغلي في محلّ خياطة، قلت أسألك إن كان للمحلّ فرع في نابلس وإلاّ لأ.

طقعت خضرة لُبانها ونظرة استخفاف في عينيها:

ـ وأنا إيش عرّفني؟ روحي اسأليهم.

تدخّل شحادة:

ـ خضرة لا بتشتغل في محل ولا في مصنع. قصدي إيه خضرة عاملة مياومة وكل يوم في شغل شكل.

نظرت إليه خضرة نظرة متفحّصة وخمّنت أنّ في الموضوع مؤامرة، فاستعدّت للدفاع بأن بادرت بالهجوم:

ـ يعني متلك تمام. يوم عامل ويوم سوّاق ويوم مقاول ويوم قوّاد ويوم تشغّلني بس من غير أجرة. الدفع اليوم سلف يا خواجة.

ـ اسكتي يا..

وأمسك عن لفظ كلمة بذيئة، وبدأ بؤبؤا عينيه يهتزّان وهما يتنقّلان ما بين خضرة وسعديّة.

انسحبت خضرة وهي تطلق ضحكة رنّانة واستدارت بعد أن هزّت كتفيها. وظلّت سعديّة في مكانها وقد وقف شعر رأسها وبدأت معدتها ترغي.

ومدّ شحادة كفّيه وقال بانفعال وغضب:

ـ أعجبك الحال؟ قلت لك إنّها عايبة وما منها فايدة. وقلت لك إنّك حرمة وما بتعرفي بهالمسائل. تفضّلي خلّينا نروح للشركة.

ـ ومالك أنت ومال الشركة؟

ـ أحميك، أنت بحاجة لرجّال يحميكِ.

وطقطقت عظام رقبة سعديّة وبالكاد بلعت ريقها. «تحميني؟ أنت يا شحادة تحميني؟ ما ناقص عليّي إلاّ أنت يا شحادة. هذا أوّل الموّال، كيف آخره؟».

وأسرعت خلف خضرة التي كانت تقف على رصيف الشارع حيث وقف باص إيجيد ضخم وفيه عدد من الركّاب الإسرائيليين. كانت خضرة تتبادل الحديث مع السائق الذي كان يمدّ رأسه من شبّاك الباص. وكانت تضحك والسائق يضحك، ثمّ أشار بيده نحو سعديّة وسأل:

ـ طير غريب؟

ـ لأ.. منّا، من نابلس.

وتفحّص السائق سعديّة، وقال:

ـ توصيلة؟ اطلعوا، اطلعوا.

وحدجت خضرة سعديّة بنظرة تمتزج فيها السخرية بالتحدّي ومدّت يدها صوب باب الباص، وقالت:

ـ يا الله، تفضّلي، مش بدّك تعرفي إن كان للمحلّ اللّي بشتغل فيه فرع في نابلس؟ تعالي اسأليهم.

وجمدت سعديّة في مكانها وألجم النطق عليها. وعادت خضرة تلحّ بتحدٍّ:

ـ أنا بدّي.. أنا..

ونظرت حواليها، ورأت شحادة يقف على الرصيف المقابل وقد اعترت وجهه أمارات الخوف والتحفّز ويداه ممدودتان نحوها تلوّحان بالنهي. وحاول أن يقطع الشارع لكن سيل السيّارات منعه من التقدّم، وظلّ في مكانه يلوّح بيديه.

وعاد السائق يردّد:

ـ توصيلة؟ اطلعوا بسرعة.

صاحت خضرة:

ـ بدّك واللاّ لأ؟

ورأت سعديّة شحادة يشقّ طريقه بين السيّارات المتراصّة وقد توقّفت عن السير. وانتابها إحساس طفلة ملاحقة، فرفعت قدمها نحو حافّة الباص، ثم تراجعت وسألت بقلق:

ـ توصلني لشركتي؟

قهقه السائق بتسلية:

ـ شركتك!

ـ آه، الشركة اللّي بخيط لها القمصان.

بوصّلك للمرّيخ بس اطلعي. يا الله خلّصونا، اطلعوا.

ووجدت سعديّة نفسها في الباص إلى جانب خضرة في مقعد خلف السائق، والسائق يحملق فيها من خلال مرآته الأماميّة أثناء السواقة. وسأل خضرة ضاحكًا بعد فترة:

ـ عندك شغل؟

ـ الدفع سلف.

ـ بكم؟ مثل المرّة الماضية؟

ـ اللّيرة هبطت. زيادة عشر ليرات.

ـ موافق.

ـ والركّاب.

ـ هم ركّاب أبونا؟ يلعن أبو المنيح فيهم.

وصاحت سعديّة ويدها تلطم صدرها:

ـ وأنا؟ يا أخوي الله يستر عليك نزّلني. يا خضرة الله يرضى عليك ويخلّي حبايبك خلّيه ينزّلني.

لكنّ الباص كان مستمرًّا في سيره والركّاب كلٌّ في حاله وليس لديه الاستعداد لأن يسأل عن حال سعديّة. نزل الركّاب وظلّت هي واقفة في مكانها لا تدري ماذا تفعل. «وتروحي فين يا سعديّة؟ الله يخرّب بيتك يا خضرة، وأنا اللّي كنت ناوية أعمل معك معروف يا بنت الذين!».

طفرت الدموع من عينيها وهي تحسّ أنّها وقعت في فخّ محكم. وأرادت أن تستجير ببعض الركّاب، لكنّها تراجعت في آخر لحظة. «هذي آخرتها يا سعديّة؟ تطلبي من اليهود يساعدوك على أولاد بلدك؟ اليهود!».

واستدارت نحو السائق والدموع في عينيها.

ـ يا أخوي الله يستر عليك رجّعني لمحل ما كنت. بخاف أضيع وأنا غريبة.. الله يستر على ولاياك.

ونظر السائق إلى دموعها وأحسّ أنّ في الأمر التباسًا. فهذه المرأة مختلفة عن خضرة، وقد تكون امرأة محترمة بل لا شكّ أنّها امرأة محترمة. هذه الدموع وهذه الملابس وهذا الوجه و.. والله يستر على ولاياك. هذه المرأة مختلفة عن خضرة. وبخجل وإشفاق قال:

ـ يا أختي أنا متأسّف. لا تخافي ولا يكون لك فكر. رح أرجعك لمحل ما كنتِ، حاضر، بس اهدي واستريحي.

وكانت خضرة تتأمّل دموع سعديّة بجمود ودهشة، فما الداعي لهذا الموقف المحزن والنهار في أوّله ولم يحصل ضرر. وممّ تخاف الستّ سعديّة؟ تخاف على شرفها؟ بلا شرف بلا قرف وكأنّه بقي للإنسان ما يخاف عليه.

وأخرجت من شنطة في يدها كيس بزر وبدأت تتسلّى، بينما جلست سعديّة في مقعد خلف خضرة تمسح دموعها وهي تحسّ بالضياع والغربة والذلّ. «الحرمة حرمة. حسرتي عليك يا سعديّة، والله لو ركّبت لوجهك شوارب يقف عليها الصقر ما بقيت إلاّ حرمة. تركتني لمين يا زهدي؟ تركتني لمين؟».

ومدّت خضرة يدها بكيس البزر:

ـ تفضّلي تسلّي، يا شيخة خوّفتيني. هو يوسف غول باكل النسوان؟ والدموع ليش دخلك؟

تساءل يوسف بتسلية وهو ينظر في المرآة ويسوق بهدوء:

ـ وأنت يا خضرة ما بتخافي؟

ـ ولا من الله.

ـ ولا من اليهود؟

ـ ولا من القرود، ولا من العبيد السود.

ـ عمرك بكيت؟

ـ ما ببكي إلاّ لمّا أتوجّع.

ـ وإيمتى بتتوجّعي؟

ـ لمّا رأسي يوجعني، بطني يوجعني، طاحونتي، قاعي..

ـ وغيره؟

ـ ما فيش غيره.

ـ والاحتلال؟

ـ خره..

ـ والعرب؟

ـ أخرى.

ـ اخص الله يلعنك، صحيح أنّك واحدة بطّالة.

ـ والله ما بطّال إلاّ عُرِيك، قول الحمد لله إنّنا مش في لبنان،

الفلسطينيين هناك صاروا كفتة وكباب. فضّنا من هالسيرة وخلّينا مبسوطين.

وأخرجت رأسها من النافذة ولوّحت بيدها لفتاة تسير على الرصيف وقد بدأ بطنها مكشوفًا، وتحمل على ذراعها منشفة. وصاحت بأعلى صوتها وهي تقهقه وتصفّق:

ـ أنا أموت بالسرّة يا جفيرت.

وغطّت سعديّة وجهها بيديها وأجهشت في البكاء وهي ترتجف من الخوف والخجل. والتفتت إليها خضرة وصاحت بغيظ:

ـ وبعدين معك يا مدلّلة؟ ناقصنا غمّ؟ على إيش يا أختي؟ على إيش؟ ما ضل إشي نخاف عليه. عليِّي الطلاق أنّي مستعدّة أموت من غير ما أنزل دمعة. ومستعدّة أقلع عين ديان الصحيحة واللّي بدّهم إيّاه يعملوه. والله ما بخاف ولا من الله.

وكتمت سعديّة أنفاسها وبدأت تقرأ الآيات وتستعيذ. وتأمّلتها خضرة وهي تبسمل وتحوقل، فأخذت تتلوّى كما لو أنّ أحدًا يزغزغ إبطها. ثمّ جفّفت دموع ضحكها، ومدّت رأسها من الشبّاك وسحبت شهيقًا طويلاً، وقالت وهي تعبّ رائحة البحر:

ـ الله، الصيف كيف، ملعون أبو البحر ما أحلاه، خذنا عالبحر يا يوسف.

قهقه السائق بانبساط:

ـ البحر. ناوية تخربي بيتي؟ يا شيخة إذا طلع الباص عن الخطّ شبر بطلعوا روحي.

طرقعت خضرة لبانها وقالت بسخرية:

ـ خوّيف. اخص.

ولوت رقبتها وبدأت تنقر حافّة الكرسي أمامها وتغنّي:

ـ يا مسافر وناسي هواك رايداك والنبي رايداك.

ردّد السائق مشجّعًا:

ـ الله الله يا ثومة.

وقهقه الاثنان ومازالت سعديّة تتلو الآيات وتستغفر. وقالت خضرة بإلحاح:

ـ طيّب خذنا مشوار.

ـ مجنونة أنت؟

ـ طيّب ليش المرّة الماضية أخذتني مشوار؟

ـ والمشوار طلع على بدني. افتكروني ناوي أخطف الباص وأعمل عملة.

ـ يا ريت.

ـ مش بقول لك مجنونة!

ـ والله ما مجنون إلاّ أنت، هي ساعة الصفا تنعاد؟ وعلى بلد المحبوب ودّيني زاد وجدي، البعد كاويني.

ومدّت يدها وزغزغته تحت إبطه فتلوّى وراء الستيرنج، ثمّ سألها وهو يغمز بعينه في المرآة مشيرًا لسعديّة:

ـ يعني؟

ـ يعني. ناس عالشطّ وناس عالبحر. وفي البحر لمْ فتّكم في البرّ فِتّوني.. يا ليل يا ليل.

ـ الله الله. آه يا خضرة، والله ساعة جنون معك بتنسّي الواحد همّه وغلّه. أيوه يا ستّ أيوه!

ومدّت خضرة يدها من النافذة تلوّح لسائق باص إيجيد يمرّ بهم مسرعًا:

ـ يا وابور قل لي رايح على فين؟ اسبقه يا يوسف اسبقه. باطل يا يوسف، بتخلّي اليهودي يسبقك.

همهم السائق وعلّق:

ـ إن كان على هذي، بسيطة.

ـ والله يا يوسف لو كنت مطرحك لطعجته.

ـ الله يقصف عمرك ويريّحني منّك.

ـ طيّب. . خذنا على طريق البحر وادعس.

ـ ما أنا داعس.

ـ ثاني.

ـ أكثر من هيك؟

ـ ثاني وثالث ورابع ويا الله. ويا شوفير ادعس بنزين عالميّة وتسعة وتسعين.

وطار الباصّ، فبدأت سعديّة تلطم صدرها وهي ترى المشاهد تنطوي أمام عينيها كالشهب. . صاحت، وولولت، وخضرة مازالت تغنّي والسائق يغنّي معها.

وفجأة، ومن خلال أشجار كثيفة على طرف الشارع انبثقت سيّارة رادار وموتوسيكلات الشرطة. فانتاب السائق إحساس مفاجئ من الحيرة والغضب، وبدأ يصبّ نقمته على خضرة.

ـ الله يقصف عمرك يا خضرة. الله يقصف عمرك وعمرهم. ملعون أبو المنيح فيكم يا أولاد العرص. عجبك يا مسخوطة! رحنا بستّين داهية يا مجنونة.

وصاحت سعديّة بفزع:

ـ وأنا؟

ـ وأنت معنا يا مسخّمة، عالتحقيق طوّالي. الله لا يعطيك العافية يا خضرة. كلّه منك.

واشتبك الاثنان في معركة كلاميّة بينما راحت سعديّة في غيبوبة بعيدة. وحين فتحت عينيها وجدت نفسها في غرفة صغيرة في مخفر من مخافر الشرطة، ولا أحد بجانبها إلاّ خضرة.

(١٤)

أهو كابوس أم حقيقة!! وتحسّست جدران الغرفة والمقعد الخشبي تحتها. كل شيء يبدو كالحلم. الأصوات الراطنة بالعبريّة خارج الغرفة، ووقع الأقدام، وأجراس التلفونات، ورائحة قهوة إفرنجيّة، ورائحة محلول النظافة، وشبح خضرة يقف أمام الشبّاك بدون حراك.. كل ذلك أتاها من خلال إحساس مخدّر لا يعي حقيقة الوضع باكتمال.

قامت عن المقعد الخشبي ثم هبطت، ولاحت في ذاكرتها المعتمة أزقّة ووجوه وأيدٍ تؤشّر وعيون تنظر، ثمّ الأولاد. عزيز وسميّة ورشاد وجمال، وعشاء الأولاد. وألقت برأسها على الحائط، خلفها فدوى، وأحسّت بالزلزال يرفعها ويخفضها. ودارت النافذة، دارت خضرة وتماوج السقف وماجت الأرض، وأمسكت بمعدتها المتخبّطة وكبحت رغبة في التقيّؤ.

سمعت طرقًا مدوّيًا على الباب وصوت الأُكرة تتحرّك بعنف، وخضرة ترفس الباب بقدمها وتصرخ. افتاخ هاديلت. افتاح هاديلت مزيريم. إنّي روتسا لليخت. افتاخ، افتاخ.

وفتح الباب وأطلّ جندي قصير بلحية وشوارب. صاح وهو يرفع يده في وجه خضرة، شيكت. وصرخت خضرة بجنون: ما شيكت؟ إنّي روتسا... ومدّ يده ودفع بها بعيدًا عن الباب. تراجعت للخلف ثم عادت تمسك الباب قبل أن يقفله. إنّي روتسا لليخت، إنّي روتسا...

وسحبت الباب بكلّ قوّتها فانسحب الجندي معه. رفع يده وهوى بها على وجهها فتصدّت، وسحبته إليها ورفسته بين رجليه فتهاوى على الأرض. ووقفت لحظات فوقه وهي تنظر إلى سعديّة بعينين جاحظتين وشعر منبوش:

ـ تعالي.

نظرت إليها سعديّة بذهول، فصاحت الأخرى بوحشيّة:

ـ تعالي يا حمارة.

ودقّ قلب سعديّة وهبّت على رأسها لحظات صحو. فما الذي تفعله هذه المجنونة، تريد أن تهرب من المخفر؟ والجنود والأسيجة؟ وإسرائيل كلّها؟ وتهاوى رأسها على الحائط وعادت الأرض إلى الدوران. مدّ الجندي يده وأمسك بساق خضرة فوقعت فوقه بجسمها الثقيل. وبسرعة فتحت فمها وأنشبت أسنانها بأنفه وصرخ بصوت مختنق.. أمسكت رأسه بيديها القويّتين وضربته بالأرض فدوَّى وسكت. وقامت قبالة سعديّة ومدّت يدها:

ـ تعالي يا حمارة، امشي.

تطلّعت إليها سعديّة بعينين فارغتين وسألت ببطء:

ـ نهرب؟

ـ آنهرب، وإلاّ.. نرقص؟

هجمت عليها وسحبتها من يدها فتماوج جسد سعديّة بتراخ، وهبطت مكانها. سمع وقع أقدام وبساطير تعبر الممرّ. تلفّتت خضرة بجنون وصاحت: ـ ضيّعت الوقت يا حمارة، سواد عليك يا مشحّرة.

وتركتها واندفعت نحو الباب، فتلقّتها أجساد كاكيّة وأذرع قويّة.

وابتدأت المعركة، صراخ خضرة، وسباب الجنود، وشدّ شعر ووقوع خضرة على الأرض، وسحبها لساق أحدهم، فركله في بطنها. لكن خضرة تشبّثت بالباب وهي تصرخ نحو الزاوية، وأعمل فيها الثالث ضربًا وهي تجأر. ممزيريم، ممزيريم. إنّي روتسا لليخت، إني روستا...

تلفّتوا بعد إنهاء المهمّة، وتقدّم أحدهم من سعديّة وفي عينيه بريق وأمسك بشعرها فصاحت:

ـ من شان الله...

هزّ رأسها في يده وجأَر:

ـ أي الله؟ أي الله؟ مفيش الله.

وأحسّت بصفعات ولطمات، فترنّحت وارتمت على الأرض. وخرج الجنود. تحسّست رأسها بذهول. ما هذا؟ حلم لم تر في حياتها أسوأ منه. لكن هذا الصداع في رأسها حقيقة، والحريق في صدغها حقيقة، والجندي وكل الجنود. وقفزت إلى مخيّلتها صورة الأولاد ينتظرونها على الدرج ويبكون. ويسألون عنها والناس تسأل. وأمّ تحسين تحملق بعينيها وتتناقل الخبر. ستقول أشياء وأشياء. وشحادة الذي تركته أمام المقهى سيعود إلى نابلس ويسأل عنها، ويقول سعديّة ذهبت في باص إيجد ولم تعد. «يا مصيبتك يا سعديّة. مش كفاية همّ الأولاد؟».

وتذكّرت عزيز الصغير وحنّت إلى ملمسه الدافئ. سينام المسكين بدون أمّه، وهل سينام؟ وكوّمت ذراعيها على صدرها وتخيّلت دفء جسده الصغير فانهالت دموعها وتفطّر قلبها. وتذكّرت الضرب، وتخيّلت عيون أولادها ترى ما مرّت به. فأحسّت بالرعب والمهانة.

ولكن لماذا ضربوها؟ «أنا ما عملت شيء استاهل عليه الضرب، لا حاولت أهرب ولا زعّلتهم ولا ضربتهم، ليش ضربوني؟ ليش؟».

وأحسّت أنّها مقطوعة في هذا العالم وليس لها نصير أو أحد يشدّ ظهرها ويسندها. وانتحبت وتمايل جسدها يمينًا وشمالاً كعادة النسوة أثناء النواح. وسمعت صوت خضرة الغاضب ينهرها بجلافة:

ـ وبعدين معك يا مدلّلة!! خلّصينا.

رفعت سعديّة رأسها ورأت المرأة جالسة في الزاوية كوحش برّي محبوس في قفص، والدم على صدرها وجبهتها وارمة وثوبها ممزّق. جمدت الدموع في عينيها خوفًا وعادت إلى حالة الذهول. وبدأت خضرة تتكلّم:

ـ ضربوني العرصات. تفه، والله العظيم إذا مسكت بواحد لأخصيه. تشاطروا عليّ العكاريت، أنا لفرجيهم. والله لألعن دينهم. حبسونا وضربونا ولعنوا دينّا عشان باص، إيش يعني؟ كلّه هالباص. وهم أخدوا كل إشي وما حدا حاسبهم.

وتحسّست الكدمة في جبينها وبدأت تضغطها بكفّها:

ـ هه، ضربوني، والله قتلة حرزانة تعبّي الرأس، طز، أكلت مثلها بعدد شعر الرأس. الأب يضرب والجوز يضرب واليهود تضرب، ضرب في ضرب، لا والله ضرب اليهود أحسن، على الأقلّ الواحد بحسّ أنّه محترم. بكره أخرج وأقول اعتقلوني، هه، تمام، السجن للنسوان يا رجال، هه. أولاد الكلب تشاطروا عليّ وأنا واحدة. هم ثلاثة وأنا واحدة، لو كان أبو اللّحية لوحده كان أجرمت فيه وسحبته من شيته.

وصعقت سعديّة وهي تسمع مثل هذا الكلام. «أيّ نوع من الناس هالحرمة؟ أنا في حياتي ما شفت إنسانة أوحش من هالشكل. إنسانة؟ الإنسان يخاف، الإنسان يخجل، الإنسان يحسب الحساب، لكن هذي المرأة لا تخاف ولا تخجل ولا تحسب حساب أيّ شيء.. غريبة!».

ودمدمت خضرة وهي تصلح ثوبها بيديها:

ـ دنيا وسخة ما عليها أسف. من يوم يومنا ضرب ومذلّة ومرار وخره. أنت يا مرة إيش اسمك؟ نسيت اسمك والله العظيم.

ولم تجبها سعديّة وظلّت تتأمّل منظرها المخيف بذهول. فصاحت خضرة:

ـ هيه يا مرة، شو اسمك يا طرشة؟

وأخذت تكلّم نفسها وهي تحاول مسح الدم عن صدر ثوبها:

ـ هذه المرة حمارة برخصة. ألطع من هالشكل عيني ما رأت. أنا بعرف هالنوع وبعرف دلعه. إذا حدّ لوّح قدّام وجهها بإيده تلويح تصيح وتقول يمّه، خيّ. والله مساطر!

ونظرت إليها بازدراء:

ـ لا تكوني فاكره شحادة رح يدافع عنك ويحميك. هه، لا شحادة ولا غير شحادة، كلّهم أعرص من بعض. أنت باين عليك عالسكّين. اسمعي من هاللّحية، أنا جرّبت بدل الواحد خمسين، وكلّهم أوسخ من بعض. كلّهم سفّل بعيد عنك، كل واحد يقضي غرضه ويدير ظهره ولا خاطرك ولا مع السلامة. كل واحد اللَّهُمَّ نفسي. طول ما للواحد عندك مصلحة ومحتاجك يظلّ ماسك بخناقك مثل العلقة. ولما تحتاجيه تعدمي اسمه وما تلاقيه.

واندفع السؤال إلى حلق سعديّة:

ـ وأولادك؟

طأطأت خضرة واستمرّت تمسح الدم بطرف ثوبها:

ـ أولادي، البقيّة بحياتك.

ـ ماتوا؟

ـ أنا عارفة إن كان ماتوا وللاّ عاشوا؟ مع أبوهم، الله يقطعهم ويقطع أبوهم. أبوهم في الزرقا وهم معه. وما شفتهم من عشر سنين. سنة ٦٧ هاجرنا مع اللّي هاجروا للضفّة الشرقيّة، وشفنا أيّام ما شفنا مثلها إلاّ أيّام الـ ٤٨. يا شيخة الله حاطط محطّتنا وداعي علينا بالكسر. أنا عارفة شو عملنا لك يا ربّ!

ورفعت رأسها وأشارت بيدها إلى أعلى:

ـ شو عملنا لك ياللّي فوق؟ تعرفي يا... أنتِ، إيش اسمك يا أنتِ؟ قولي شو اسمك؟

أجابت سعديّة بذلّ:

ـ اسمي سعديّة والناس بنادوني أمّ حمادة.

رفعت خضرة يدها إلى رأسها بالتحيّة:

ـ مبروكة، وأنا اسمي خضرة وكانوا ينادوني أمّ خليل.

صفنت لحظة وطفرت الدموع من عينيها فجأة، وأجهشت بدون توقّع:

ـ الله يقطعني ويقطع حظّي. ول على هالدنيا ول، حتى أولادنا ما يتعرّفوا علينا يا ربّ! وإلاّ تقولي أولاد إلهم أمّ مثلي معقول يتعرّفوا

عليها؟ والله ما هو بإيدي. الله يرضى عليهم وين ما كانوا. قسمتنا.

ومسحت دموعها وغابت في صفنة طويلة، ثم تساءلت:

ـ وإلك جوز يا سعديّة؟

تمايل رأس سعديّة وهي تتذكّر زهدي وأنّت:

ـ كان لي رجّال ولا كل الرجال.

وعادت للنواح وهي تتمايل. تأمّلتها خضرة وقد بدأت تشفق عليها، فهذه المرأة مسكينة لا تعرف من الدنيا شيئًا، وهي بالفعل على السكّين لا تقوى حتى على الدفاع عن نفسها، كل ما فعلته حين أمسك الجندي بشعرها أن صاحت، من شان الله. أيّ الله يا مسكينة، أيّ الله؟ وهي لا تنسى نظرات الرعب في عينيها وهلعها حين عرضت عليها الخلاص من السجن «نهرب؟» آنهرب، طبعًا نهرب، وضيّعتِ الوقت يا حمارة. صحيح أنّها حمارة وما تفهم من الدنيا أيّ شيء. وأحسّت أنّها الأقوى والأكثر خبرة وتجربة. فهذه الحياة القحبة التي لا يقدر عليها إلاّ الأقحاب كثيرة وكبيرة على سعديّة. وقالت برفق:

ـ تعالي يا سعديّة، اقعدي جنبي، تعالي يا مسخّمة ما ظلّ إلك في الدنيا غيري.

ونظرت إليها سعديّة بذعر وطار صوابها. «ما ظلّ إلي في الدنيا غيرك؟ الموت يسبق». وعادت للنشيج المرّ. «تركتني لمين يا زهدي».

وقالت خضرة مواسية:

ـ يا شيخة ولا يهمّك، كلّها هالقتلة. يعني جديد عليك القتل؟ يا شيخة أكلنا قتل في زمانا لحدّ ما دخنا، من يوم يومنا تربّينا على القتل. اسكتي يا شيخة، اسكتي. حرام عليك قطّعت قلبي. أنت باين عليك

مسخّمة وقلبك قطيع. اسمعي يا سعديّة، اسمعي، بحياة أبوك تسمعي. ولك بقول لك اسمعي.

وصاحت بسعديّة صوتًا ضخمًا فهمّدتها. نظرت إليها كأستاذة مدرّبة خبيرة بفنون التربية وقالت:

ـ آ، هيك بدّي إيّاك. اعقلي وخلّي في رأسك عقل. لا الدموع تنفع ولا النواح ينفع ولا شيء ينفع. يا سعديّة يا حبيبتي لا إحنا صغار ولا مدلّلين. خرجنا من البلاد على رجلينا مشي. كنّا نمشي والدم بين رجلين أمّي يسيل. كانت نَفْسَا والولد مات بين أيديها على الطريق. قطعنا جبال وقطعنا وديان وأكلنا الخرفيش ونمنا تحت السما. وارتمت على الأرض وغمضت عينيها وراحت للّي خلقها. صرت أصيح وأقول يمّه. والرصاص والضرب.. وأبوي يصيح وأنا أصيح. وما قمت عن أمّي إلاّ بعدما أكلت قتلة ولا اللّي شفتيها بعينك. أنا عارفة يا سعديّة! أنا عارفة! أنت بعدك خام. أنت ما شفت مثل ما شفت. فوقنا مخيّم وتحتنا شقا ونموت والشقا لاحقنا ومعلّق بذيالنا. من مخيّم لمخيّم ومن شارع لشارع ومن واحد لواحد. وكلّه شقا بشقا. نهرب من الشقا ومطرح ما نهرب نلاقيه مستنّي. إيش نعمل قسمتنا! قولي يا سعديّة، أنت هاجرت من البلاد؟

هزّت سعديّة رأسها نفيًا، وقالت وهي تتمخّط:

ـ أنا من نابلس. من قاع نابلس.

ـ والله نابلس فيها وما فيها. صحيح أنّه حالك أحسن من حالي، لكن برضه باين عليك أكلتيها بزمانك.

تمايلت سعديّة وأنّت. وتذكّرت الكويت وطوز الكويت والغرفة التي كانت مثل الفرن وهربت منها بعد بضعة أشهر وبقي زهدي فيها وحده

مع أصحابه. تذكّرت الحوش المظلم المحروم من الفضا حيث رأت عيناها النور، وتذكّرت أيّام العيد حين كانت تلبس فساتين بنات الأكابر حيث كانت أمّها تغسل الملابس، وكيف كانت تخشى المرور بشارع الأكابر خوفًا من أن تتبعها ابنتهم وتقول لها «يا سعديّة يا شحّادة أنت لابسة فستاني». حدث هذا الموقف مرّة وبكت سعديّة حتى انفجرت. وقالت:

ـ وإلاّ مالنا أكلناها. اللّي بوقف على الدوّار بقول بلد الخير، لكن اللّي بعرف بعرف واللّي ما بعرف بقول كفّ عدس. لكن الحمد لله هلقيت مستورة.

ونظرت إلى النافذة ورأت اختفاء اللون الأزرق وحلول الظلام فشهقت وضربت صدرها:

ـ ييه، الدنيا ليل! يا سخامك يا سعديّة.

وضربت رأسها وعادت للبكاء والنواح. أم تحسين وأمّ صابر والحارة كلّها والأولاد بانتظارها على الدرج وعزيز يبكي ووجهه مغطّى بالدموع والمخاط، وآه. يا دلّك يا سعديّة.

ـ مالك يا سعديّة؟ ما قلت عقلت!

ـ الأولاد يا خضرة، الأولاد.

وتذكّرت عزيز وخدوده المستديرة وغمّازاته حين يضحك. وأسنانه البيضاء كيف تصبح شفّافة حين تزغزغه ويضحك، وتقبّله في عنقه الدافئ وهو يضحك. وبكت وبكت بقلب مذبوح.

ـ وبعدين معك يا سعديّة؟ كلّها هالقتلة. والحقّ عليك اللّي ما فشّيت قلبك. لو أنّك ضربتيهم مثل ما ضربوك كان ارتحت.

ـ يا شيخة اسكتي. هَمّ الأولاد أكبر من كلّ الهموم، ووجع الأولاد أوجع من كل القتلات. الأولاد هلّقيت قاعدين على الدرج بستنّوا وبقولوا، أمّنا راحت فين؟ أنت مش سائلة عن أولاد، أولادك كبار، لكن أنا أولادي بعدهم قطاطيم لحم. وعزيز بعده يا عيون أمّه جرو. اشتقت لهم يا خضرة، اشتقت لهم.

وطفرت الدموع من عيني خضرة وقالت:

ـ نشتاق لمين وإلاّ لمين؟ الله يرضى عليهم وين ما كانوا. يا الله يا سعديّة. على الأقلّ إلك أولاد يسألوا عنّك. أمّا أنا، يا حسرة على بختي. ما إلي غير اختيار بدل ما يعينّي يخبلني. هربت من الأوّل الله يقطعه. كانت إيده والهواية يضربني ضرب ما تتحمّله العفاريت. هربت وقلت يمكن إرتاح، لكن شو الفايدة، ما قلت لك نهرب من الشقا ومطرح ما نهرب نلاقيه مستنّي! تجوّزت الثاني قلت يمكن ألاقي يوم أرتاح فيه. قلت أقعد في بيت رجّال يكفيني ويريحني من الخدمة في بيوت الناس والسرقة والتعريص. طلع مريض وحالته حالة، وبدل ما يطعمني صرت أطعمه. مسكين، قلبه تعبان وتيجيه كل نوبة يروح ما يروح فيها. أطعمه وأسقيه وأشتري له دواء. مسكين، حنون ولسانه حلو وما يناديني إلاّ خضرة يا ستّ الكلّ. سمّعني كلام عمري ما سمعته. تعرفي يا سعديّة؟ اللّي في القلب المسخم ما حدّ يقدر عليه إلاّ الناس المسخمين مثلنا. وجوزي عمره من عمر أبوي، لكن حنون. وأبوي كان حنون لحدّ ما ماتت أمّي. من يومها صار مثل الوحش الكاسر. يضرب حاله ويضربنا. وكل ما واحد قال يابا أنا جوعان يحطّنا وينزل فينا قتل. في البلاد أيّام أمّي الله يرحمها، كانت الدنيا دنيا. شمس وهوا وبرتقان وخير كتير. كان أبوي فلاّح مثل باقي الفلاّحين. عنده أرض صغيرة كافية خيرنا وشرّنا. وراحت البلاد

وراحت الأرض، ودرنا من خيمة لخيمة، من مخيّم لمخيّم ومن دار لدار. واشتغلت خدّامة في هالدار وخدّامة في هالدار لحدّ ما جوّزوني. قبض أبوي المهر واشترى حنطور. المسكين، منعت البلديّة الحناطير ودار أبوي مثل الدرويش. بعدين راح عالكويت ومات هناك. وأنا بقيت مع رجّال مثل صرمايتك. على الطالع يضرب وعلى النازل يضرب. متجوّز وعنده مرة وأولاد أكبر منّي. ضرّتي تقول له عملت خضرة كيت، يحطّني وينزل فيّ قتل. سوّت خضرة كيت، ينزل فيّ قتل. ما قلت لك، من يوم يومنا منحوسين والله داعي علينا. هربت منه وقلت يمكن أرتاح. طلع همّي الثاني أكبر من همّي الأوّل. وخسرت أولادي وخسرت حالي وصرت مثل ما أنت شايفة. يوم مع شحادة ويوم مع يوسف ويوم هون ويوم هناك.

ـ لكن يا خضرة ما لقيت غير هالطريق؟ وأولادك! الله يصلحك ويصلح حالك؟ وقلب الأم كيف طاوعك؟

ـ يا شيخة أنت ما بتعرفي القتل شو بعمل. تسكتي أوّل مرّة وثاني مرّة وثالث مرّة. وبعدين تقولي يا معين. تشمّري إيديك وتمضي أسنانك وتنزلي عضّ شمال ويمين. أحكيلك يا سعديّة هالنهفة. كنت أوّل ما تجوّزت آكل القتلة أصيح وأقول يا بوي. ييجي أبوي وبدل ما يعيني يخبلني. وبعدين يقعد هو الثاني يعيّط مثل النسوان، ويقول تعلّمي الصبر يا خضرة، تعلّمي الستر يا خضرة، خلّي اللّي في القلب يسطح ولا بين الناس يفضح. ومن هالحكي ومثله لحدّ ما راح عالكويت. وفي يوم حطّني جوزي ونزل فيّ قتل مثل العادة، قلت لحالي وآخرتها؟ ما لقيت حالي إلاّ متعلّقة بلحيته لحدّ ما سخسخ وارتمى على الأرض. أقول لك يا سعديّة هالسرّ؟ إذا ضاقت حيلتك اضربي الرجال بين رجلينه تلاقيه يرتمي مثل الشوال، واللّي يكون

عامل حاله جمل يكشّ ويصير مثل البزّاقة المرشوشة ملح. . هه هه هه. المقصود، من يومها عرفت أنّه الضرب اللّي ما تردّيه بوجع أكثر. حتى اللّي بضربك لمّا يعرف إنّك قادرة عليه يخاف منك ويحسب لك حساب. وأنتِ لو فشّيت قلبك وضربت ما كان القتْلة أوجعتك كثير، توجع لكن مش مثل ما تضلّي حاطه الهمّ في قلبك وطحالك مليان، والله يا سعديّة هيك الدنيا.

قالت سعديّة مفكّرة:

ـ إذن ليش هربت منه ما دام صار يخاف منك؟ كان ضلّيتي عنده وعند أولادك.

ردّت خضرة وكشرة ضخمة على وجهها:

ـ ما هو صار لمّا يضربني يجيب أولاده معه؟ وأولاده كلّ واحد قدّ البغل. وهم كثار وأنا واحدة. يتشاطروا عليّ وأنا لوحدي. يعني مثل ما عملوا فيّ الجنود. هم ثلاثة وأنا واحدة، معقول أقدر لهم؟ وأنتِ لو ما كنت خوّيفة كان ساعدتيني، لكن طلعتِ قلبك قطّيع وبعدك خام. وبعدين إيش عملنا حتى يحبسونا؟ أخذنا الباصّ ساعة؟ كله هالباص. حبسونا ولعنوا دينّا عشان هالباص! وقالوا عنّا سرّاقين عشان باصّ، وهم أخذوا كل شيء وما حدا قال عنهم سرّاقين ولا حرامية ولا ملوخلاخيم.

قالت سعديّة بدهشة:

ـ بس هم ضربوك لأنّك حاولت تهربي، لو ما حاولت تهربي ما ضربوك.

وتذكّرت أنّها ضربت بسبب خضرة فأحسّت بالغيظ، وتمنّت أن

تصرخ في وجه المرأة، لكنّها خافت، فقد تضربها. وهي كما ترى لا توفّر أحدًا. وكبحت غيظها وقالت بهدوء:

ـ وضربوني بسببك.

حدجتها خضرة ولسان حالها يقول «أمّا حمارة» وقالت مزمجرة:

ـ ومن غير سبب يضربوك.

قالت سعديّة بتأنٍّ:

ـ لو أنّك ما حاولت تهربي، ما ضربوك وما ضربوني.

ـ يا ستّي ويضربوا، نقصنا إيد وإلاّ رجل؟

سكتت الاثنتان دقائق وقد أحسّت كلّ واحدة منهما أنّها في واد والثانية في واد آخر، ومن العبث أن تفهم الواحدة طريقة الأخرى في الحياة. وقامت خضرة من مكانها وسوّت القمطة على رأسها وأخرجت علكة وبدأت تعلك، وحامت في الغرفة بملل ثم عادت وجلست في زاويتها. ورجعت إلى وضعها ونظرت إلى سعديّة الحزينة المكتئبة فأحسّت بالإشفاق، وقالت لها وهي تخرج قطعة علكة من صدريّتها:

ـ تأخذي تعلكي؟

هزّت سعديّة رأسها نفيًا وظلّت تنظر إلى المرأة وهي لا ترى شيئًا. الأولاد، وعزيز، وأمّ تحسين وأمّ صابر والحارة كلّها.

قالت خضرة:

ـ جوعانة؟

هزّت سعديّة رأسها نفيًا. أمّا خضرة فتحسّست بطنها وقالت بغيظ:

ـ ضربونا وحبسونا وحتى من الأكل حرمونا.

وتحسّست كرشها وسارعت في مضغ العلكة، ثم توقّفت عن المضغ وبصقت العلكة بعيدًا ونهرت:

ـ تفه، يلعن أبو المنيح فيهم، أنا جوعانة.

وكانت سعديّة تفكّر باستغراب، كيف تجوع هذه المرأة وهي في هذا الوضع؟ كيف تجوع؟ وتأمّلتها وهي تتحسّس بطنها فتكثّف غيظها وانقلب الغيظ إلى ضحك وقهقهات. ونظرت إليها خضرة بتسامح:

ـ تضحكي؟ يا الله، معليش، اضحكي، نسمع ضحكك ولا نسمع نواحك.

وعادت نظرات الألفة بينهما تشيع جوًّا من الحميميّة، فانطلق لسان خضرة:

ـ ول على دينهم. لو يعطونا كل واحدة قرن موز، بتحبّي الموز يا سعديّة؟

ـ أولادي بحبّوه، أوّل ما أقبض القبضة أشتري لهم موز بالرطل والرطلين، والحفيظ يحفظهم، يأكلوا الرطل بغمضة عين. عزيز باكل خمس موزات ويقول يمّه تاني.

قالت خضرة وابتسامة طفلة على وجهها:

ـ وأنا صغيرة كان الله مسلّطني على بيّاع موز في آخر المخيّم. كنت أغافله وأسرق موزة وأهرب. كان رجّال كبير ومسكين طيّب، يصيح وراي وأنا هاربة ويقول «عيب يا بنت، بكرة تكبري وتصيري حراميّة». مسكين كان طيّب الله يرحمه. لكن بيّاع الزلابية كان عرص. سرقت منه مرّتين ثلاثة بالعدد، وآخر مرّة غافلني ومسكني من رقبتي وحطّ أصابعه في حلقي لحدّ ما راجعت كل اللّي في بطني. ومن يومها قرفت الزلابيّة

وقرفت ريحتها. لكن لو جابوا لي زلابية هلقيت باكلها، بتحبّي الزلابية؟

هزتّ سعديّة رأسها وابتسامة خجلة على وجهها:

ـ بحبّها.

وبدأت معدتها تلوب، وتمنّت لو تسكت خضرة ولا تذكّرها بالأكل والجوع، وقالت وهي تحاول الابتعاد عن ذكر الأكل.

ـ السرقة حرام يا خضرة، أنا بتمنّى أموت من الجوع ولا أسرق.

قالت خضرة باستخفاف:

ـ السرقة حرام؟ لأ مش حرام. مين أحسن يموت الواحد من الجوع وإلاّ يسرق ويأكل؟ ويمكن تقولي التعريص حرام. مين أحسن أعرّص وإلاّ أخلّي الرجّال يموت؟ طيّب لمّا تيجيه النوبة ويروح ما يموت بتمنّى لو أسرق نابلس وأشتري له بحقّها دواء ما يناديني إلاّ خضرة يا ستّ الكلّ. عمره ما حدّ قال لي خضرة يا ستّ الكلّ غيره؟ صحيح مريض وعاجز ومسكين، لكن لسانه حلو وقلبه حنون. يعني مش حرام يموت وأظلّ في هالدنيا وحيدة لا كلمة حلوة ولا لسان دافي؟ والله الكلمة الحلوة يا سعديّة بتنسّي الواحد همّه وغلبه.

قالت سعديّة وقد أحسّت أنّها مسؤولة الآن عن الدفاع عن الحياة الشريفة:

ـ لكنّ السرقة حرام، وفيه ألف طريقة شريفة. . .

وقاطعتها خضرة وهي تلوّح بيدها:

ـ يا شيخة بلا شرف بلا قرف. ما ظلّ إلنا إشي نخاف عليه. يعني تقولي الناس الأغنيا أشراف؟ عجيبة، هذي أنت يا سعديّة بعدك خام!

بتعرفي لمّا الواحد يشوف الناس الأكابر ويشوف عمايلهم شو بقول؟

وتذكّرت سعديّة المقصّ السحري، وطرفت عيناها، لكنّها تذكّرت أنّها استطاعت العيش بعرق جبينها بطريقة شريفة، فقالت:

ـ فيه ألف طريقة، لكن الواحد لازم يصبر عشان ينال.

قالت خضرة بشراسة:

ـ ولمّا يفيض الصبر إيش نعمل؟ نشمّر ذراعنا ونمضي أسنانّا ونعضّ. تعرفي؟ لو يرجع أبو اللّحية لأكلته قدّام عينيك، بس بخاف أزور بلحيته.

ضحكت الاثنتان. وقالت خضرة مسترجعة ذكرياتها مع الأكل:

ـ بتحبّي الكباب؟

ـ يا شيخة فضّينا من هالسيرة.

تحسّست خضرة معدتها وقد تحلّب ريقها:

ـ أنا بحبّ الكباب وبحبّ الفستق حلبي وبحبّ المعمول.

ضحكت سعديّة:

ـ وأيش ما بتحبّي يا خضرة؟ ما ظلّ شيء ما بتحبّيه، حتى الزلابيّة.

ـ آ والله يا سعديّة، كل شيء زاكي وبفتح النفس، من يوم يومي بحبّ الأكل وبشتهيه. إذا مرّيت قدّام الكببجي نفسي تهفّ، وإذا مرّيت قدّام الحلواني نفسي تهفّ، وإذا مرّيت قدّام بيّاع النقرشة والنقل نفسي تهفّ. طيّب هو الأكل لمين؟ مش للناس؟ وإلاّ يعني فيه ناس ناس وناس مش ناس؟ احكي لك يا سعديّة ما ظلّ بينّا شيء مخبّا. كنت أشتغل عند ناس الرزّ عندهم بالشوال والسكّر بالشوال. قلت لنفسي،

إيش فيها إذا أخذت من هذا شويّة ومن هذا شويّة وبعتهم واشتريت كباب وفستق حلبي وكلّ اللّي بنفسي؟ هي مرّة في العمر، والواحد إيش نايل من هالدنيا غير اللقمة الحلوة؟ صرت كل يوم آخذ من هالشوال شويّة ومن هالشوال شويّة، ولمّا صاروا حرزانين أخذتهم وبعتهم لبقّال في شارع بعيد، واشتريت كباب وفستق ومعمول وما خلّيت شيء في بالي إلاّ اشتريته. وقعدت ورا الدار آكل وأتمزمز. شافوني الجيران وفتنوا عليّ، وانطردت من شغلي.

قالت سعديّة بشماتة وعفويّة:

ـ تستاهلي.

فغضبت خضرة وكشّرت وصاحت:

ـ أستاهل؟ ليش؟ شو عملت؟ إيش نقص على أصحاب الدار غير شويّة رزّ وشويّة سكّر؟ لا سرقت دارهم ولا سرقت سيّارتهم ولا سرقت باصهم. وعملوا فيّ مثل العكاريت اللّي هون. سرقت شويّة رزّ وشويّة سكّر، طردوني وبهدلوني ولو طلع بإيدهم حبسوني، وهدول ضربونا وبهدلونا وطلع بإيدهم. هدوك عشان شويّة رزّ وهدول عشان شويّة باصّ. كلّهم أخرى من بعض، لكن ضرب في ضرب، لا والله ضرب اليهود أرحم، على الأقلّ الواحد بحسّ أنّه محترم.

وصمتت لحظات وهي تفكّر:

ـ وبعدك يا سعديّة تقولي السرقة حرام؟ أنا بقول مش حرام. كل الناس بتسرق وكل الناس بتعرّص. الفقير المسخم مثلنا بنفضح على سرقة صغيرة، والغني والقوي يسرق الدنيا وما فيها وما حدّ يحسّ فيه أو يفضحه. طيّب لو أنا ما سرقت الرزّ والسكّر كيف آكل كباب؟

قالت سعديّة بدهشة واستنكار:

ـ ولازم كباب؟

ـ آ. . لازم كباب، إذن الكباب لمين؟ ليش ناس تاكل كباب وناس تاكل خره؟ فهّميني ليش؟

ـ قسمتنا يا خضرة، قسمتنا، ولازم الإنسان يرضى بالمقسوم. هدرت خضرة:

ـ طز على المقسوم ويلحقه التقسيم، ومين اللي قسم؟

ـ الله قسم يا خضرة، حرام تكفري.

ـ لأ مش الله. وإذا كان الله إذن الله غلطان. ليش إحنا اللي نعرف الله وغيرنا يعرفه؟ ولك يا هبله، ما سمعت الجندي وهو يقول لك، ما فيش الله؟ وظلّ يضرب فيك وأنت تصيحي منشان الله.

وأحسّت سعديّة بالذلّ وهي تتذكّر القتْلة التي أكلتها وكيف كانت تصيح بضعف «منشان الله». وهزّت رأسها بمرارة. «حسرة عليك يا زهدي، لو كنت على وجه الدنيا كانت سعديّة تمرّ بها الأيّام السود؟».

واصلت خضرة:

ـ لا تقولي الله ولا غير الله. الناس تعمل العملة وتقول الله. والهِبْل اللّي مثلك يصيحوا منشان الله. خلّي الله بحاله وخلّينا بحالنا. الله لا سائل عنّي ولا عنك. ولو بدّه يسأل شو يلحق ليلحق؟

وصاحت بعد دقائق صمت وقد تملّكها فقدان الصبر:

ـ وبعدين معهم هالعكاريت؟ أيمتى رح يخرجونا؟ زهقنا، فرفطت روحنا، طلع دينّا. ما أهون القَتْلة على الحبس، أنا عارفة الرجّال المسخم إيش رح يعمل؟ إذا عرف إنّي بالحبس بعدم عقله. بحبّني يا سعديّة، بحبّني. ما يقول إلاّ خضرة يا ستّ الستّات. خضرة يا منيحة

يا حمّالة الحمال. بنزل كلامه على قلبي مثل السكّر، وأتمنّى لو أسحب من دمي وأعطيه. تعرفي يا سعديّة؟ الكلمة الحلوة بتخلّي الدنيا كلّها حلوة. ولمّا تحسّي أنّه فيه حدّ بحبّك مرار الدنيا كلّه يهون، كان جوزك بحبّك يا سعديّة؟

تمايل رأس سعديّة يمينًا وشمالاً وناحت:

ـ كان. كان يا ما كان!

ـ وكان منيح معك؟

ـ شو أحكي لك يا خضرة؟ شو أحكي لك؟

وتهدّل رأسا الاثنتين، ودمعت عينا خضرة وأنّت:

ـ إذا عرف المسكين أنّي في الحبس تيجيه نوبة يروح فيها، وما يظلّ إلي في الدنيا بني آدم يحبّني ويسمّعني كلمة حلوة. مين يظلّ إلي في الدنيا؟ شحادة؟ الله يقطع المذكور ويقطع ذكره.

وتمثّل لسعديّة شحادة واقفًا يمدّ يده إليها فاعترتها رجفة. واستعادت ذكرى زهدي علّها تجد الأمان، لكنّ الأمان كان بعيدًا عنها بعده عن الأرض كلّ الأرض.

وكانت خضرة تمسح دموعها وتتمايل:

ـ إذا مات وتركني ما يظلّ إلي في الدنيا حدا.

واجتاح اليأس قلب سعديّة وبكت، «آه يا زهدي، آه يا زهدي». تراجع طيف زهدي وظلّت وحدها مع كوم الأولاد. وقالت من خلال دموعها:

ـ أنت يا خضرة ما عندك أولاد، لكن أنا، راح وتركني لهمّهم

وهمّه وهمّ حالي. رجّال ولا كلّ الرجال. قتلوه يا خضرة، قتلوه وهو في عزّ شبابه.

هزّت خضرة رأسها وهي تمسح دموعها:

ـ لا أوّل واحد ولا آخر واحد. الدنيا كلّها شقا بشقا. باعتنا وما حدّ اشترانا، حتى أبوي باعني واشترى حنطور. وأنا ببيع حالي وبشتري للمسكين دوا. دنيا ما عليها أسف، قتل وبهدلة وسرقة وتعريص وخرة. الدنيا كلّها من هالشكل.

ودار عقل سعديّة في رأسها وتساءلت: «الدنيا كلّها من هالشكل؟ معقول كل الناس وكل الدنيا من هالشكل؟ معقول كل الناس مجبورة تسرق وتعرّص حتى تعيش؟» وهزّت رأسها بإصرار: «لأ، الدنيا فيها الأبيض والأسود وعلى الإنسان أن يختار».

وقامت خضرة عن الأرض وتوجّهت نحو الباب وبدأت ترفسه بقبضتيها وقدميها، ولم يجبها أحد.. صاحت بفراغ صبر:

ـ طقّينا يا عالم، طلعت روحنا يا الله. كلّه عشان باصّ؟ كلّه هالباصّ. حبس بحبس، يا ريت سرقنا أكثر من باص.

وجلست على الأرض وقد يئست، وسألت سعديّة باستفزاز:

ـ السرقة حرام يا سعديّة؟

قالت سعديّة بملل:

ـ حرام؟

ـ وهم سرقوا وما خلّوا، وسرقوا جوزك يا حمارة. السرقة حلال وإلاّ حرام؟

أجابت سعديّة بإصرار:

ـ السرقة حرام، حرام.

ـ وضربوك من غير ذنب، وأخذوا جوزك، وأخذوا الدنيا. وإحنا ما سرقنا إلاّ الباص ساعة. السرقة حلال وإلاّ حرام؟

صاحت سعديّة وقد فقدت صبرها تمامًا:

ـ حرام، حرام.

دمدمت خضرة في عبّها:

ـ هذي حمارة، حمارة برخصة..

(١٥)

كانت السماء سوداء كالكحل. لا قمر ولا نجوم ولا أثر. نابلس مصابة بمنع التجوّل كالعادة، وسيّارات الجيش تحاصرها من كل جانب. أوقف السائق سيّارته قبل مدخل المدينة بعدّة كيلومترات وأنزلهما على الرصيف. وأسلمت سعديّة قيادها لخضرة التي قالت بثقة:

ـ تعالي عالمخيّم.

موقف آخر غير متوقّع لم تحسب له الحساب. أثناء الطريق كانت قد حسبت كل الحسابات إلاّ هذا الحساب. فكّرت بالأولاد ولقاء الأولاد ولسان أمّ تحسين والفضيحة المنتظرة. وفكّرت في طريقة مضمونة تخلّصها من خضرة قبل وصول المدينة، فكّرت في كل هذا، لكنّها لم تفكّر أبدًا بمفاجأة منع التجوّل هذه. فما العمل الآن، وأين تقضيان اللّيل! غرقت في التفكير والتشاؤم وما عادت تبصر الطريق فنهرتها خضرة. وأخيرًا أسلمت أمرها لله وخضرة ودمدمت «المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين».

قالت لها خضرة همسًا «من هون». وانساقت وراءها كالنعجة. وسارت خلفها بين البيوت الصغيرة المعتمة. والمجاري المفتوحة والهوام التي تحوم حول النوافذ المضاءة. وسمعت أنغامًا موحّدة تنطلق من هنا وهناك وكلّها تردّد النغم الواحد: آمنت بالشعب المضيّع

والمكبّل. ووقف الشعر في رأس سعديّة رهبة وخشوعًا. هذه الأغنية تحفظها كما تحفظ مواويل فريد الأطرش وأغنية صباح التي تقول فيها، «يا غايبين في هواكم قلبي دايب». وفي العادة كانت تردّد هذه الأغنية مصحوبة بدموع وآهات وهي تذكر حمادة الغائب الذي سيعود، والغائب الذي غاب ولن يعود، زهدي. أمّا هذه الأغنية فلها طعم آخر، لا دموع ولا آهات ولا حسرات. شعر يقف فوق الرأس والساعدين وقلب تتدفّق فيه الحرارة بدل المرارة، وأصوات الرجال الغليظة تشعرها أنّ زهدي مازال موجودًا يعمر البيت بالأمان والأمل. وحين تغنّي الأغنية على الأسطح مع بقيّة النسوة والأولاد يكون للأغنية طعم فيه حلاوة وطرافة وانشراح. ويصخب السحج وترنّ الطبلات فوق كل سطح في الحارة، وحينذاك يبدأ الجنود بكيل السباب والإشارات البذيئة.

وقالت خضرة همسًا «من هون». وتبعتها وهي تتلفّت حولها وتنظر من خلال زجاج النوافذ. من خلال هذه النافذة ترى عائلة متحلّقة حول الطبليّة تأكل. ومن خلال تلك ترى شابًّا ممدّدًا على سرير وفي يده ترانزستور يلصقه بأذنه. وهناك عجوز وعجوزته. وهذه امرأة ترضع طفلاً تهدهده على الإيقاع نفسه، آ ها ها ها.

وطالت الطريق فوقفت في مكانها وسألت همسًا:

ـ على فين.

نهرتها خضرة:

ـ امشي وخلّيكِ ساكتة.

تسمّرت في مكانها تحملق في شبح خضرة المعتم، فهمست تلك بفراغ صبر:

ـ سواد عليك، ولك امشي.

ـ بس فهّمني رايحين فين؟

ـ ولك امشي، إذا ما مشيت بروح وبخلّيك لوحدك، منع تجوّل يا مسخّمة، فاهمة إيش منع تجوّل؟ يعني إذا لقيك جندي يمسكك من شعرك وبخلّي المخيّم كلّه يتفرّج على خيبتك وأنت تصيحي منشان الله.

ومشت خلفها وهي تلعنها، فهي مازالت تذكّرها بذاك المشهد، وكأنّها بذلك تفاخرها بشطارتها وجدعنتها. لكنّها تذكّرت أيضًا كيف مدّت لها خضرة يدها وهي تحاول الهرب، وربما لولا خوفها وتلكّؤها لتمكّنت خضرة من الهرب. وربما لو طاوعت خضرة وأسرعت لما ضاعت الفرصة ولما نامتا في السجن ولوفّرت على نفسها مغبّة الفضيحة التي ستتغنّى بها أم تحسين وتتناقلها. معكم خبر؟ سعديّة نامت في تلّ أبيب... معكم خبر... معكم خبر... خبر خبر خبر بر بر. وتشهق فلانة وتدقّ صدرها، سبعين عين تطرقها، وصلت معها لها الحدّ؟ وتردّ أمّ تحسين «آ والله العين تطرقها، وإلاّ الليرات اللّي بتنعفها سعديّة نعف من وين؟ من الماكينة؟ سلامات يا ماكينة سعديّة. الصلاة والسلام عليك يا ماكينة سعديّة».

وأحسّت سعديّة بالسخط يملأ قلبها، فلولا خضرة لما مرّت بكلّ هذه المشاكل والمصائب. الباص والسجن والضرب وشدّ الشعر وخوف الأولاد والفضيحة وكل ذلك بسبب خضرة، لكنّها واصلت السير، وماذا باستطاعتها أن تفعل غير ذلك؟

وقفت خضرة أمام باب وطرقته، فرنّ تنك الزينكو مصحوبًا بخشخشة. ونادت بصوت خفيض:

ـ يا حجّ، يا حجّ.

ولم يجب على النداء أحد.

ـ يا حجّ أبو حسن. يا حجّ..

وعادت خضرة تطرق الباب بقوّة وهي تشتم أبو حسن وأم حسن والباب واليهود. ثم دفعت الباب فانفتح. كانت مفاجأة غير متوقّعة، لكن خضرة بطبيعتها الجريئة المغامرة تخطّت العتبة وغرقت في عتم الغرفة. ولم تجد سعديّة بدًّا من اللّحاق بها فلحقتها. وكانت خضرة تقف وسط الغرفة تمدّ يدها باتجاه محدّد ممّا أكّد لسعديّة أنّ خضرة تعرف المكان معرفة حميمة. وبدأ قلبها يضرب بخوف وهي تتوقّع مفاجأة جديدة من مفاجآت خضرة اللّعينة. وفكّرت في التراجع، ولكن إلى أين؟

وهمهمت خضرة وهي تمسك بشيء ما «عال». فتراجعت سعديّة خطوة للوراء حذرًا، لكنّها عادت وتقدّمت ثانية حين أضاءت خضرة قنديلاً صغيرًا فوق منضدة في صدر الغرفة. وتأمّلت سعديّة الغرفة. سرير رفيع وحصيرة وصور مكبّرة لشباب بملامح صلبة. وهناك على الجدار الغربي حيث تنسدل ستارة كثيفة تتدلّى سجّادة صلاة ومسبحة خشبيّة من حبّ الزيتون معلّقة على مسمار.

وقالت خضرة وهي تخلع حذاءها وتهبط على السرير بثقلها فيئنّ:

ـ مالك واقفة؟

فخلعت سعديّة حذاءها وجلست على الحصيرة وغرقت في أفكارها. وبعد لحظات ارتفع شخير وملأ الغرفة. وتلفّتت سعديّة حولها فوجدت ترانزستورًا صغيرًا على طرف المنضدة فزحفت إليه وبدأت تعبث به فانطلق صوته وأفاقت خضرة. وهمهمت بلهجة آمرة:

ـ حضّري لنا لقمة نأكلها.

فاندفع الدم إلى جبين سعديّة ودمدمت «مش ناقص عليّ إلاّ أنت يا خضرة!». وتذكّرت أنّ أولادها بلا أحد يرعاهم ويعتني بهم ويحضّر العشاء لهم، وأمّهم تحضّر العشاء لخضرة! لكن إحساسها بالخوف الممزوج بالشفقة من خضرة جعلها تخزي الشيطان وتنفّذ الأمر بدون جدال.

وقامت سعديّة تبحث عن شيء يؤكل في أنحاء الغرفة، ووجدت خزانة لها باب من المنخل حيث يحتفظ الناس عادة بالأكل، وبداخل الخزانة وجدت بعض الزيتون والزيت والزعتر والحلاوة الطحينيّة. وبحثت فوجدت إبريق شاي وطنجرة مليئة بالخبز الحاف. وأثناء غليان الشاي استمعت لنشرة الأخبار وعلمت عمّا حلّ في نابلس وبها. انفجار وقتيلان وجرحى ومنع تجوّل، وما يتبع ذلك من تفتيش واعتقالات وتحرّشات. وتذكّرت الأولاد فأخذ رأسها يتمايل. ماذا لو اقتحم الجنود الدار وأفزعوا الأولاد؟ ماذا لو تحرّشوا برشاد أو تحرّش رشاد بهم؟ ماذا لو بكى عزيز وازداد إلحاحًا في طلب أمّه؟ هل ستتمكّن سميّة من إسكاته وتهدئته؟ ولم يعد بإمكانها تمالك أعصابها أكثر فصاحت: قومي يا خضرة، قومي.

وجلستا على الأرض. خضرة تأكل وسعديّة يتآكلها الضيق والخوف. توقّفت خضرة عن المضغ وهمست بحذر:

ـ اسمعي.

وسمعتا صوت أقدام بطيئة تقترب، فأغلقت سعديّة الترانزستور بينما خفضت خضرة فتيل القنديل. وصوّبت الاثنتان عينيهما على الباب وقد تعلّقت أنفاسهما. وانفتح الباب ببطء فأطلق صريرًا خافتًا. واختلطت

الرؤية بالأصوات. صوت ارتطام، فوهات سوداء، رجال ملثّمون، أصوات آمرة. ارتفعت الاثنتان على الركب، وخبّأت سعديّة وجهها وتشهّدت، وانتظرت انطلاق الصوت النهائي. وسمعت السؤال من وراء اللّثام فلم تستوعبه.

ـ اسمك؟

اصطكّت أسنانها وسرحت في شبه إغماءة، وأجابت خضرة على الفور:

ـ اسمي خضرة واسمها سعديّة.

وساد صمت ثقيل قطعته خضرة بتعليق منفعل وهي تدقّ سعديّة بكوعها:

ـ هم، ولك يا سعديّة هم.

همس الصوت الغليظ محذّرًا:

ـ اسكتي، اسكتي يا خضرة. اقعدوا.

هلّلت خضرة بانفعال:

ـ روحي فداكم يا رجال.. الله ينصركم. لقينا الباب مفتوح ودخلنا. كنّا في الحبس وخرجنا. وصلنا نابلس لقينا منع التجوّل. قلنا نبات ليلتنا هون.

وأخيرًا استوعبت سعديّة الموقف، فقالت بصوت متهدّج وأنفاس مقطوعة:

ـ أوّل مرّة بحياتي أشوفهم.

علّقت خضرة بسخرية:

ـ هذي الهبلة أرملة واحد وبتقول أوّل مرّة بحياتي أشوفهم. جوزها

زهدي كلّ البلد بتعرفه. وأنا روحي فداكم وأبوس تراب رجليكم. تفضّلوا تعشّوا من خير الله وخيركم. إحنا تعشّينا والحمد لله. قومي يا سعديّة نحضّر عشا للرجال.

وقامت الاثنتان، وجلس الرجال الثلاثة على الحصيرة بعد أن وضع أحدهم القنديل في مكان منزوٍ، وحلّ في الغرفة شبه ظلام. وأخذوا يأكلون والمرأتان واقفتان بجانب المنضدة. كانت رؤوسهم منخفضة فلم تر سعديّة لهم وجوهًا. وسأل أحدهم باقتضاب وهو ما زال يمضغ:

ـ حبسوكم؟

وبدأت خضرة تقصّ الحكاية من أوّلها لآخرها، وأغفلت طبيعة عملها وقالت بسرعة إنّها تعمل خيّاطة في شركة إسرائيليّة. وحدّثتهم عن الباص والحبس والضرب، وكيف حاولت الهرب لولا جبن سعديّة التي أفسدت المشروع. وسألها أحدهم بلهجة غير مصدّقة كيف استطاعت أن تبطح الجندي وتلقي به أرضًا، فقالت بحماس:

ـ رفسته بين رجليه رفسة قويّة ووقع من طوله مثل الشوال.

وضحكوا، فاستمدّت من ضحكهم المزيد من الحماس، وأخذت تتبجّح مستعرضة بطولتها بعقد مقارنة صريحة بينها وبين سعديّة.

ـ هذي سعديّة بعدها خام وبتخاف من خيالها. ولو ما كانت خوّيفة كنّا هربنا من الحبس. تصوّروا يا جماعة الخير، أكلت قتلة نصّها موت قدّام عينيها وما تحرّكت تساعدني عليهم وقعدت تبكي مثل الأرامل.

وضجّوا بالضحك وعلّق أحدهم متفكّهًا:

ـ مثل الأرامل، مثل الأرامل يا سعديّة؟

طقطقت عظام رقبة سعديّة وبلعت غصّتها تتخيّل ردّة فعلهم حين تصف لهم خضرة بقيّة المشهد وتحدّثهم كيف شدّ الجندي شعرها وكيف صاحت «منشان الله». وانتابتها موجة من الخجل وبدأت تثور على نفسها وعلى خضرة، لكنّها لم تتفوّه بكلمة. وكانت خضرة مازالت تتبجّح بشطارتها أمام الرجال، وكلّما ضحكوا ازدادت حماسًا وازدادت إسهابًا:

ـ وبعدين مدّ الجندي إيده وشدّ. . .

ـ فصاحت سعديّة:

ـ اسكتي.

وسالت دموعها فمسحتها خلسة وقالت بسرعة:

ـ أنا جوزي كان سيّد الرجال. مات وخلّف لي كوم أولاد. وربّيتهم بشرفي ومن عرق جبيني. بشرفي وبدموع عيني ربّيت أولادي.

ومدّت يدها وقرصت فخذ خضرة المكتظّ فلعنتها الأخرى في سرّها، فالإشارة تعني الكثير، وفيها من التهديد ما أسكت خضرة في الحال. ولم تكمل قصّة شدّ الشعر لكنّها استمرّت في الحديث وقد غيّرت اتجاهه:

ـ وقالت لي سعديّة، ضربوني بسببك. قلت لها، ومن غير سبب يضربوك، صحيح وإلاّ لأ. بالله عليكم؟

أجاب أحدهم وهو مازال يمضغ:

ـ صحيح ونصّ، بكرة سعديّة تتعلّم.

وأسقط في يد سعديّة وهي ترى أنّها الجبانة الوحيدة في الغرفة، فأخذت تردّد الأعذار والمبرّرات:

ـ ما أنا لا عمري ضربت ولا انضربت ولا بحبّ الضرب.

قال صوت أليف أوقف مسمعه الشعر في رأسها:

ـ ولا تضربي أولادك؟

وضحكوا فانتقلت عدوى الضحك إليها وقالت بخجل:

ـ أولادي بضربهم، لكن عمري ما ضربتهم إذا تظاهروا أو نقفوا جندي بحجر، والله عليِّي إنّي دفعت ٤ آلاف ليرة وأخرجت ابني من السجن.

قال أحدهم بجفاف:

ـ لولا هذي العادة لصاروا مضحكة العالم كلّه. تعلّموا يا ناس!

ولم تتوقّع سعديّة ردًّا كهذا فأصيبت بالمزيدِ من الحرج، وأخذت تبحث في رأسها عن مبرّر آخر:

ـ لمّا كل الناس دفعوا دفعت، وإلاّ يعني أولاد الناس يطلعوا من السجن وابني يظلّ فيه!. الناس اللّي معهم ليرات طلّعوا أولادهم من السجن، وأنا والحمد لله مستورة الحال معي.

وتهامسوا فيما بينهم طويلاً ثمّ لزموا الصمت. وقالت خضرة بهمّة:

ـ إبريق الشاي مليان، تشربوا تاني؟

ومدّ أحدهم يده وتناول إبريق الشاي ووجهه مازال نحو الأرض. وقالت خضرة بصوت متشفٍّ:

ـ يا سلام مين كان يصدّق إنّي أشوفكم اليوم. شايفة يا سعديّة؟ شايفة كيف الدنيا؟

قال أحدهم بلهجة جافّة:

ـ انسي الموضوع يا خضرة.

هتفت بانفعال:

ـ روحي فداكم وأبوس تراب رجليكم.

قال بلهجة أقسى:

ـ قلت لك انسي الموضوع يا خضرة.

تراجعت على الفور:

ـ حاضر، فهمت. لا شفنا ولا رأينا، الله ما بينًا وبينكم. شفنا إشي يا سعديّة؟

قالت سعديّة وهي تتأمّل الفوهات على الحصيرة بجانب الرجال:

ـ لا شفنا ولا سمعنا.

وسأل أحدهم محقّقًا:

ـ وإذا سألوكم؟

قالت خضرة بسرعة خاطر:

ـ كنّا في تلّ أبيب نشتغل، ورجعنا لقينا منع التجوّل، نمنا ليلتنا تحت الشجر.

ـ شاطرة يا خضرة. أنت جدعة صحيح.

وطار صواب خضرة وهي تسمع المديح يكال إليها من قبل هؤلاء الرجال بالذات فعادت تتبجّح:

ـ والله ما بخاف ولا من الله. على إيش بخاف؟ ضاعت الدنيا وضاعت أهاليها وما ظلّ إشي نخاف عليه. لكن سعديّة بعدها

عالسكّين. أنا قلت لك يا سعديّة وإلاّ لأ؟ قلت لك إنّي مستعدّة أقلع عينه الصحيحة وأقول ما شفت حدا، قلت لك وإلاّ لأ؟ وقلت لك إنّي مستعدّة أموت من غير ما أنزّل دمعة، قلت وإلاّ لأ؟ يا عمّي على إيش نخاف؟ إذا الشباب اللّي مثل الريحان بموتوا وما بخافوا على شبابهم، إحنا على إيش نخاف؟

وفاض الكيل في صدر سعديّة فقالت بغيظ:

ـ أنت ما عندك أولاد تخافي عليهم، لكن أنا عندي، عندي كوم أولاد بقرطوا الأخضر واليابس. يعني على إيش كل هالنفخ؟ على الباص؟ وإيش نفعتنا سرقة الباص؟ ضربونا وشدّوا شعرنا، آ شدّوا شعري، وحسّيت جلدة راسي مثل المسلوخة. وتبهدلنا وتركنا أولادنا في الحارات. . الله أعلم إيش صار بحالهم وكلّه علشان باص. يعني إيش فادت سرقة الباص؟.

قالت خضرة محتدّة:

ـ بحياة النبي تشوفوا خيبتها. كل ساعة بتقول السرقة حرام السرقة حرام. صار اللّي صار وبعدها تقول السرقة حرام. وهم أخذوا كل إشي وما حدا منهم قال السرقة حرام. أخذوا كل اللي أخذوه وما حدا قال لهم السرقة حرام. الله عليكم تقولوا، السرقة حلال وإلاّ حرام؟

وقهقهوا بتسلية، فأحسّت خضرة بالعظمة وانتفخت كديك حبش. وتضاءلت سعديّة وتمنّت أن تبتلعها الأرض، وبدأت ترتجف ثانية. وقال أحدهم وهو مازال يمضغ:

ـ والقتل حرام يا سعديّة وإلاّ حلال؟

التبس الأمر عليها ولم تعرف بِمَ تجيب، فإذا لم تقل ما بنفسها فهذا

كذب وتستحقّ عليه عقاب الله وملائكته، وإذا قالت فعقاب الدنيا، ووازنت الأمر بين الأمرين ووجدت أنّ عذاب الدنيا أخفّ وطأة، فأسدلت عينيها وأسلمت أمرها لله وليكن ما يكون:

ـ القتل حرام.

ـ والقاتل يا سعديّة؟

ـ القاتل يقتل بإذن الله.

ـ صحيح يا خضرة، فكّري بالموضوع أكثر.

وحمل الرجال متاعهم وخرجوا، وودّعتهم خضرة عند الباب وهي تهمس:

ـ معاكم الله وإذن الله.

وطوال اللّيل كانت سعديّة تمحص الموضوع وتطرح السؤال على نفسها وتعيد. فكّرت في زهدي وفي رملتها وأبناء رملتها وكل الأرامل وكل الأيتام، وقالت لخضرة وهما في طريقهما إلى نابلس صباحًا:

ـ القتل حرام يا خضرة.

نظرت إليها الأخرى بعينين منتفختين من أثر النوم، وأجابتها بصوت أجشّ مليء بالغيظ والازدراء:

ـ الرملة فيك حلال وحقّ النبيّ...

(١٦)

ضغط عادل رأسه وحاول أن يحصر ذهنه، لكن طنين النقاشات مازال يطنب على أذنيه ويحيل رأيه قنبلة موقوتة تهدّد بالانفجار. وأشعل سيجارة وبدأ ينفخ. تمنّى أن يغمض عينيه ويفتحهما فيجد نفسه في المقهى بين البسطاء يقرقر أرجيلة.. ويشرب قهوة ويستمع لأغنية كلثوميّة ويردّد مع الآخرين الله الله. لكنّه يعرف أنّه حتى لو وجد نفسه هناك فجأة، فسيظلّ هذا الطنين يدوّي في أذنيه، سالم وما يبدعه الأستاذ بديع.

الواقع أزمة، ستكتشف يا بو العزّ غير ما تتوقّع. وابتسم بحنان وهو يذكر الشاب المفعم بالتفاؤل والأمل الفوّار. وأحسّ بشيء من الرثاء على نفسه. فما الذي أوقعه في هذا المأزق وهذا الجوّ الدخّاني المعقّد! ورطة في الماضي وورطة في الحاضر. على الأقلّ كان العمل هناك يحدّد معالم الصراع ويشحنه بالاستفزاز والتحدّي. أمّا الصراعات هنا فشباك عنكبوتيّة تحيل كيان الفرد جثّة تبرّت الروح منها والحشاشة.

وتذكّر المقارنة التي عقدها بين نفسه وبين أخيه، وأحسّ أنّه بات هرمًا. تكثّف الدخان في رأسه واسودّ الضباب في عينيه ونزفت أعصابه. وحاول الابتعاد عن الجوّ باستحضار وجه رفيف. وغاب وجهها عن مخيّلته وما تمّ استحضاره سوى لحظات. وزفر بحسرة. لا رفيف ولا غير رفيف، فمازالت النقاشات تطنّ وتدوّي في أذنيه. ومن

المكتب المجاور جاءه صوت سالم، والتلفون يقرع الراديو يذيع أخبار لبنان وصوت سالم. وهنا وهناك وأسوار القدس وجبلا نابلس وجبال الجليل وأبناء البلد وراكح ويسار الصهيونيّة وسالم. ومزاودات ومهاترات وحرية الكلمة وديموقراطية الفكر والأغلبيّة اللامبالية والأغلبيّة القطيع والمواطن الساذج، المواطن الطيّب، وديكتاتوريّة الطبقة العاملة والمستقبل القريب والمستقبل البعيد. واسكت. شعبنا. شعبنا.

وبدأت الأرض تميد. وعندما تميد الأرض من تحتك فكلّ شيء على ظهر الكرة يموج. وتحاول التشبّث بالثوابت، ولكن، حتى الثبات نفسه يتطوَّح. ثمّ اكتب، انحت في صخر، وافقد الوعي واللاوعي. وغيبوبة فغمامة، ثم انقشاع فضّي حين ينعدم الوزن وينسلخ الواقع. وتستحيل نبيًّا حين تخترق الضباب على كتفي شاعر. ثم تصطدم بنيزك، ولات ساعة الاحتراق.

ابتدأ النقاش ومعظم الزملاء إلى صفّه، وانتهى بانسحاب معظمهم من النقاش ومن الغرفة وبقي وحده وسالم. يا سالم... دعهم ينمّون قدراتهم. تلقّمهم أفكارًا لم تمضغها عقولهم. بالتبن تحشوهم، بالنخالة، وبأمصال جاهزة لا تستثير مناعة الجسم إلاّ شكلاً.

ـ ها هم أمامك، والمجلّة أمامك. تكلّم ما شئت واكتب ما شئت والحياة للأصلح.

وأيّهما الأصلح؟ هذا أصلح، بل ذاك أصلح، بل هذا، بل ذاك، فطنين وقنابل موقوتة. نقطة الخلاف تدور حول الزمن. عامل الزمن والتكتيك والمرحليّات. وتشمّر سالم وبدأ الهجوم.

ـ التكتيك زيف وكذب وقمع لتلقائيّة الجماهير وإبداعاتها.

ـ يا سالم.

ـ الزمن مطيّة أركبها لا مطيّة تركبني.

ـ يا سالم.

ـ والمرحليّات مبرّر الانهزاميين والانبطاحيين والدسّاسين والخونة.

وكل الأوجاع إلاّ هذا. وجع إسرائيل قدر، وجع العروبة قدر، وجع الإمبرياليّة مفهوم معلوم، أمّا هذا، فلا حول ولا قوّة إلاّ بالله.

ـ لا جنيف ولا دولة مسخ ولا تسوية أيًّا كان نوعها. التحرير الكامل، من الأردن حتى المتوسّط، من المحيط إلى الخليج.

ـ والثورة، تصمد؟

ـ قطعًا، إذا كانت بمستوى الجماهير العربيّة. على عاتقها تقع مهمّة التثوير.

ـ يبدأ المرء بنفسه، الثورة تثوّر نفسها وشعبها أوّلاً، ولا بدّ من الأرضيّة الصالحة. لن تجني الشهد من نحل ولا تجمعه خليّة. ابني الخليّة أوّلاً. القاعدة أوّلاً.

ـ تثوير الجماهير من المحيط إلى الخليج.

ـ وكم تستغرق؟ تدفع الثمن زمنًا وضحايا سهلة. أبني الخليّة أوّلاً، وبعدها نمتدّ كأصابع النور من كفّ الشعلة.

ـ هراء، استراتيجيّتي واضحة ومحدّدة، تحرير الوطن العربي كلّه، لا مرحليّات ولا هدنات ولا أنصاف حلول. ولا لجنيف ولا للدولة المسخ ولا للثورة المسخ.

ـ وماذا يبقى؟

ـ الثوّار الحقيقيّون.

ـ من هم؟

ـ الذين يقولون لا.

ـ وتلفظك الشعوب فقد سئمت. احتلال وانحلال وفقر ومرض وأوبئة البترول ويتم الشعوب المقصقصة الجوانح. ويقولون «خذ، حلني يا رجل». ويناولونك بدل الوسطى ذراعًا. «هذه هي الثورة، خذ، على هذا ثورتك، خذ. أنزل عن ظهورنا تخوزقنا ما فيه الكفاية».

ـ جبناء، سذّج، جهلة، مرضى، قطيع.

ـ بل بسطاء يحنّون للأمان، يعبدون النسل يشتهون القمح والخبز الساخن. بشر، قلوبهم تحنّ للدفء والأعراس وأفراح المواسم.

ـ جبن، تدافع عن الخنوع والمذلّة. خائن لقضايا التحرّر والثورة. النخبة الثوريّة هي الخميرة، ولست منها.

ـ النخبة، لا لست كذلك ولن أكون ولستم. الطبقيّة في ثياب مزركشة، النخبة. لست كذلك.

ـ ولا تتقدّم القطيع؟ فمن يقودهم؟

ـ أتقدّم الناس ذراعًا، أمتارًا، خطوات لا تشكّل مسافة تحجب رؤيتي ورؤياي.

ـ روح القطيع.

ـ فلمن تثور إذن، وبمن تثور؟

ـ بالطبقة العاملة.

ـ أينها؟ تبلورت؟

ـ نبلورها.

ـ وأين الصناعة؟

ـ فكر الطبقة العاملة هو المقصود.

ـ وواقعها؟

ـ لم يكن في الصين صناعة.

ـ ولهذا اختلف القالب.

ـ أينعم، اختلف القالب.

القالب. القالب. ما القالب؟ كيف القالب؟ ذاك القالب. هذا القالب. ذاك القالب. هذا القالب. ذاك، هذا. ذاك ذاك، هذا هذا.

يا أبو العزّ، ستكتشف غير ما تتوقّع. ثم ما المطلوب؟ ماذا ستعمل وكيف تعيش؟ والعيش هنا لا بدّ له من ليرة ورغيف خبز. والنضال أصعدة. والصعيد الأوّل يعني البقاء على الأرض رغم جميع الظروف. عليك القناعة. والآخرون، تقنع نفسك، تقنع غيرك، وتقنع الطرف الآخر. وللطرف الآخر أهميّته والضرورة. لا يمارس الحبّ من طرف واحد. يتمّ الزواج بتوقيع عقد، يموت الزواج بتوقيع عقد. وتأتي المحبّة بدون عقود ودون قيود. شروط المحبّة وعي ومنطق. ومهما طال الأفول، فنسمات الصحو قد جنحت يومًا، وأغرقت عيون البعض بنور الرؤى، وبات العالم يغلي على نار متذبذبة الأوار، ولا بد من عامل التجربة، والمراحل، وخيط الزمن.

وأشعل سيجارته العشرين ووقف خلف النافذة. هذا الممرّ، وتلك الحشائش الربيعيّة، وشجرة كينا قديمة، عريقة، وجذع ضخم يعي الحملات الصليبيّة وكل احتلال. وتبقى الفروع ويبقى الورق، ويبقى المرار حصادًا يعالج لبّ المرض.

ورآها تعبر الممرّ بشالها الصوفي الطويل ووراءها امرأة حامل. إحدى قارئات زاوية المرأة ولا شكّ. ستقول لها أشياء كثيرة. زواج وطلاق وحمل وميلاد ومحاكم شرعيّة وكل الشرائع. وهذه من تلك والكل في بوتقة واحدة. وتبقى رفيف. نضال يواكب ركب النضال. والدرب طويل يا سالم، ولن نتّفق. عامل الزمن والتجربة. اقفز ما شئت، حركات دنكيشوت والبهلوان، ويومًا فيومًا ستبلغ رشدك. وأنتِ رفيف، متى تبلغين؟

وقرع التلفون بإلحاح. نعم يا رفيف؟ أذكر، أذكر. نعم نلتقي، وكيف أمورك؟ صوت مكظوم شحنته العواطف. متى يا رفيف. متى تعلمين؟ غدًا تكبرين. النضج لن يسبق التجربة، كأيّ مثال، كأيّ استواء.

(١٧)

كانت تنتظر، الأصدقاء يمزحون ويمرحون، يتأهّبون لقضاء سهرة ينسون أو يتناسون فيها أحداث اليوم وكلّ يوم. واختلطت الأصوات والضحكات. وانفجارات أحاديث ونقاشات صاخبة. مصر والسادات وصحيفة الأهالي، والكويت تمنع صحيفة من الصدور. ماذا حدث؟ طوز الكويت، بل طوز السعوديّة. لا فائدة، بل هناك فائدة ولا بدّ من تصعيد النضال. كيف؟ بالكلمة، بالأحزاب، بالنقابات، بالتجمّعات تحت الأرض وفوق الأرض. التحرير الشامل. التحرير الجزئي. المرحليّة. التكتيك، الاستراتيجيّة. إسرائيل. بيغن. الليكود. الليكود لا يختلف عن المعراخ. بيرس أكثر وسامة وحنكة.

وانطلق صوت صافٍ لإحداهنّ، ودندنات أوتار، وموشّحات أندلسيّة تثير الشجن. واهتزّت كؤوس ودمعت أعين. لوعة حارقة تسيل في الجوف مع كل جرعة، ومع كل نسمة محمّلة بعبير الأرض وزخّات المطر.

ومازالت تنتظر في الردهة المظلمة وتتأمّل اثنين يجلسان في الحديقة منشغلين عن الدنيا ولسعات البرد. وأحسّت بالوحشة والخوف، فقد ينشغل عن المجيء أو يتشاغل. هل يحبّها؟ لم يقل هذا أبدًا، ولم يقل عكسه. لم يجلس معها جلسة حميمة كجلسة هذين الاثنين. لم يحتضن يدها وينظر في عينيها نظرة تقول ما لم يقله لسانه. لكنّه يمسك بيدها

حين يعبران الطريق وحين تصيبها نوبات الجنون وتركض وتضحك وتصرخ في الشوارع الخالية. لم يفعل ذلك إلاّ بدافع الحماية والمجاراة. لو تركته لمزاجه لما قام بذلك وحده. عليها أن تقوم بمجهود بطولي كي تسحبه لأجواء أقلّ فتورًا ووقارًا. لماذا لا يحبّ؟ أليس إنسانًا له قلب وعواطف؟ يشتهيها، نعم، اعترف بذلك، لكنّها تريد قلبه. تريد علاقة متكافئة ليست من طرف واحد. واستمرّ الصراع على قلبه، وكلّما تمادى في خذلانها اندفعت تحاول من جديد بإلحاح يفوق إلحالها السابق. تريد قلبه ولن تعدل.

ورأته يقترب بخطواته الواسعة البطيئة. لو أنّه أكثر حركة. لو أنّ حركة أعضائه تجاري حركة عقله. لو أنّ قلبه، لو أنّ! وحيّاها بمزيج من الودّ والتعاطف. ولكن، لا أثر للهفة في صوته أو حركاته. بينهما شيء مشترك، يمشيان معًا، يتسكّعان معًا، يجمعان معلومات عن مواضيع تهمّه. يعطيها كتبًا تقرأها، كتبًا تشمل مواضيع مختلفة وميادين مختلفة. أدب، فنّ، سياسة، اقتصاد، علم نفس، ومن خلال كل تلك الكتب وتلك المواضيع كانت تحاول التعرّف على شخصه والبحث عن صميم ذاته. وكلّما اقتربت منه أحسّت بالفجوة تكبر وتتّسع، وتزداد جهودها إلحاحًا وعنادًا.

ـ أين أنت؟ تأخّرت؟

أجاب وهو يتأمّل الردهة المعتمة والباب المفتوح على الزملاء:

ـ تأخّر الاجتماع. المشاكل نفسها والصداع نفسه. عرضت المشروع على بعض أفراد الهيئة. بعضهم اعتبر المشروع مزحة وبعضهم اعتبره تنازلاً قوميًا، وبعضهم شجّع المشروع بدون تحفّظ.. لا بدّ من إنجاز المشروع. الوصول للطرف الآخر ضرورة تحتّمها الأحداث.

الشارع الإسرائيلي لن يفهمنا ونحن بعيدون عنه. وأنتِ، لم تحضري الاجتماع، لماذا؟

يحقّق معها، في شؤون العمل كعادته، ولا يسأل عنها إلاّ من خلال هذه الزاوية.

قالت بغيظ مكبوت:

ـ نمت، وقرأت ثمّ نمت.

ـ ولا شيء آخر؟

ـ ولا شيء آخر؟

ـ وتلك المرأة؟

ـ استمعت إليها ودوّنت بعض الملاحظات. إنصرفت وانصرفت وراءها.

ـ ولم تكتبي شيئًا؟

ـ لم أكتب.

ـ وزاوية المرأة؟

ـ سئمتها، أفكّر بتركها.

ـ القصّة المعهودة.

انفجرت فجأة:

ـ ولماذا نستمرّ في تقديم هذه السخافات؟ أهي مجلّة تقدّميّة أم ماذا؟ أريد أن أعرف. إن كانت تقدّميّة فعلاً فعلينا التوقّف فورًا عن معاملة المرأة كما لو كانت شريحة اجتماعيّة منفصلة. هي إنسان وعليها أن تقرأ ما يقرأه الرجل. اهتماماتها هي اهتماماته نفسها، فلماذا

نخصّص لها زاوية منفصلة؟ سخافة. أنا لن أستمرّ في هذا.

استند إلى عمود الردهة وعقد ذراعيه على صدره وأجاب بهدوئه المعهود:

ـ ناقشنا هذا الموضوع أكثر من مرّة.

ـ ولم نصل إلى حلّ.

ـ بل وصلنا. المجلّة مضطرّة لمجاراة السوق. نحن بحاجة لمزيد من القرّاء والمزيد من المساندين. ثم مشكلة المبيع والتوزيع.

نفخت بغيظ:

ـ وبدلاً من أن نؤثر فيهم ندعهم يؤثّرون فينا. هذا ابتذال وتدنّ.

طأطأ وأجاب بملل:

ـ علينا أن نكون واقعيين. نحن لن نغيّر العالم بين يوم وليلة. لابدّ من المجاراة أحيانًا حتى لا نبتعد عن الواقع.

وأحسّت بكل نقمتها عليه ـ كرجل صعب المراس وكثوري بطيء يمشي الهوينى ـ تتكثّف في قلبها ورأسها وتجعلها تحسّ بكراهية له وللجوّ المحيط به وبها. واشتدّت حلكة اللّيل حولها وأحسّت بمزيد من الوحشة والغضب. وهتفت بحدّة:

ـ لابدّ من التغيير، لا بدّ.

وابتسم بوهن، فهو يعرف بالضبط ما تفكّر فيه وما تريد قوله، وما تحسّ به. وابتسم بإشفاق وهو يتذكّر نوّار، الوجه الشاحب والأعماق الراكدة. والمقارنة التي يعقدها بينهما دومًا. لا بأس، على الأقلّ فإنّ هذه تمنحه الفرصة في التعامل مع واقع يطمح للتغيير.

واستقام في جلسته وتساءل:

ـ هل تقضي السهرة بعيدًا عن الزملاء؟ ألن نشرب شيئًا؟ اسقيني شيئًا.. رفيف.

وبندائه ذابت باخرة النقمة وتلاشت، وأحسّت به طفلاً وهي أمّه. تدفّق الحنان في قلبها واستجابت. مدّت يدها إليه فأذعن، وقادته للداخل وتخطّت به صيحات الترحيب المنبعثة من هنا وهناك. وصبّت له كأسًا رصّته بالثلج وقدّمته له. ابتسم بعرفان ونظر نظرة أليفة عذبة وهتف:

ـ أنت رائعة.

وخفق قلبها لكنّها تماسكت ولم تبد اهتمامًا ظاهرًا. وبقيت تحوم حوله. تعود إليه بعد كل دورة تقوم بها في أنحاء المنزل الصاخب، وتجده واقفًا مازال يناقش.. السادات، التجمّع اليساري، الليكود، منع التجوّل، قضايا العمّال في إسرائيل، مشروعه الجديد والوصول إلى الشارع الإسرائيلي والحتميّة التاريخيّة، متى ينتهي من كل هذا؟ متى ينتهي ويتفرّغ لها؟

وجرعت عدّة أكواب كي تنسى ما تحسّ به من وحشة وذلّ. شوقها إليه يذلّها، إحساسها بالتبعيّة يسحقها، انشغالها به عن قصائدها أوقف نموّها الأدبي. وزاوية المرأة التي تجدها سخيفة لولاه لتركتها. قراراتها كلها أصبحت مرهونة به، وتصرّفاتها كلّها أصبحت ردّات فعل لعلاقتها به. وهذا خطأ، صميم الخطأ. فأين حرّيّتها كامرأة مستقلّة؟

وبثورة خلعت حذاءها وغاصت في أمواج الموسيقى والأجساد المتراصّة. بطرف عينها كانت ترقبه، ورأته مازال يبربر. ثلاثة حوله في آخر الصالة يسمعون وهو مازال يبربر. ماذا يقول؟ السادات؟ مصر؟

قوّات الردع؟ الشارع الإسرائيلي والحتميّة التاريخيّة؟ اللعنة على كل ذلك. ألا ينسى أبدًا؟ ألا يعيرها التفاتًا ولو ساعة؟

سال عرقها، وانقطعت أنفاسها، لهثت، وأسلمت نفسها بيأس للموسيقى الصاخبة وقرع الطبول.

«اللعنة على كل شيء. اللعنة عليه وعلى العروبة وإسرائيل وكل شيء. نحن بحاجة لساعة أمان واحدة، لساعة سلام. ولا سلام على الأرض، لا بين الناس ولا بعيدًا عنهم. لا لحظة حنان واحدة تنسينا ما نحن فيه». وانسابت دموعها وتلوّت. واشتعلت الصالة كلّها ومازال بعيدًا عنها وعن الآخرين.

وقفت في الردهة وحدها. وأحسّت بالنسمات الجارحة تخترق مسامها. «سأمرض، سأصاب بلفحة برد ونزلة صدريّة أو ذبحة. سأموت ولن يسأل عنّي». وتكثّف إحساسها بالإشفاق على نفسها فازدادت حاجتها إليه. لو أنّه معها ولها. بحاجة إليه وحده من دون كل الناس. لم يعد للآخرين وزن. ما عاد في العالم شيء يثير اهتمامها سواه. تلخّص الوجود في شخص واحد.

وضربت حافّة الردهة بقبضتها وزمجرت. غلط، غلط، أين الشعر؟ أين عالم الأدب الواسع؟ أين الناس وأين تعاسة الإنسانيّة؟ تتمحور حول ذاتها، تلوك خذلانها والإحباط. وتمرّ الأيّام لها طعم العلقم. تساؤلات واستنتاجات مبنيّة على الأحداث اليوميّة الصغيرة، وجراح منثورة هنا وهناك وتصبّ في جرح واحد، شرخ واحد. والرؤى الشاملة محدودة بسبب الحصر والانحسار.

«أريد، أرغب، أتمنّى، أشتهي، أتوسّل، الحياة معجزة العجز. لا شيء جديد، لا شيء متكامل، لا شيء يشدّ المرء إلى كلّه. مراكب

تطوف في فضاء التيه بحثًا عن محرّكات. وهناك في العمق إحساس بالاختلال وعدم التوازن.

أحسّ بالشيخوخة منذ الآن. على أبواب الثلاثين ومازلت ألهث. سيسبقني القطار ومازلت ألهث. وأصبح امرأة بشيب وتجاعيد وعضد مترهّل. وأعلى الرقبة وتحت الذقن سيتهدّل جلد وتجمّعات دهن وعندما أصبغ الشفتين سيتخطّى اللون كرمشات الشفة.

اللعنة. الرؤيا نفسها. ومفاهيم الطبقة المبتذلة، من العصر البطريركي حتى الآن. على المرأة أن تثور ثورة جذريّة، ولكن كيف؟».

كالرؤية في حمّام يعبق بالبخار، والتنفّس عميق لكنّه لا يشفي الغليل. عواطف الشرق حمّام ساخن، لكنّها لا تعد بجلد نظيف أو إحساس بالانتعاش. شرخات الألم تمتدّ طوليًّا وأفقيًّا، تشطر المرأة، تقصقص أجنحتها. أمّي. قلت لك ألف مرّة. وارتفع الإصبع محذّرًا. وكم ارتفع الإصبع وأقام الحواجز بينها وبين الحبّ، بينها وبين الناس، بينها وبين المجتمع والحياة والكرة الأرضيّة داخلاً وخارجًا.

ما عاد الماضي ملجأ. على بساطته وحنيّته واستعداده الدائم لتلقّف أحزان الفرد واستيعابها في جرن يمتزج فيه البخور بموسيقى التسابيح والبسملات. هروب واندحار وارتداد.. ثم أين الثورة؟ لو أنّها لم تعتد كلّ تلك الرواسب. فتاة شرقيّة، أحلام مراهقة في حبّ كبير يغيّر وجه الدنيا والتاريخ. وما جدوى كل المفاهيم المكتسبة التي تردّدها ويردّدها آخرون. ببغاوات فقدت هويّتها بين حضارة الغرب وضباب الشرق. العقل في واد والعواطف في واد آخر. والحاجات والرغبات وكل أشواق الخلجات الدفينة. أودية لها قيعان وتقعّرات ولا قرار.

والموسيقى تموج أنينًا ونحيبًا. غدًا يفارق أحد الزملاء إلى أوروبا في بعثة دراسيّة. سيتعلّم فنون الصحافة والإعلام حسب الأصول. وسيعود للوطن ليكتب أحسن، ويناقش بنَفَس أطول، ويقول كلمات لها ضجيج. المزيد من الضجيج، وغيره آخرون يضجّون. ويتفاقم الضجيج على كل المستويات. وتظلّ شلل المثقّفين تجتمع لتشرب وتناقش وتتعذّب. يدخلون السجن يخرجون منه، يتبادلون التهم والشتائم ويثيرون الأقاويل والرأي العام. يقولون ما لا يقال، يناهضون الاحتلال والسلطات والسلطة في كلّ مكان. ينشدون الأمان ويهربون منه. وحين يجتمعون يزدادون فرقة، ويتفرّقون فيشتدّ الظلام، ويحلمون بساعة أمن وصدر حنون.

وقفت على العتبة تشمل الراقصين بنظرة ضائعة ذاهلة. أينه؟ وبحثت عيناها عنه في كلّ الزوايا. وارتطمت نظرتها بالمشهد الغريب. يدور مع الراقصين يشدّ إليه فتاة لها جسد مصهور وبشرة نحاسيّة. يدفن وجهه في عنقها، ويده ترتفع وتنخفض على الظهر المصبوب كقالب.

ارتفع العالم ثم هوى. تناثرت الجبال واختلطت بالشجر والصخر وأعمدة التلفون ومصابيح الكهرباء. وانسدلت ستارة كثيفة من العتمة والقتام. واختبأت في زاوية الردهة تلهث، وأمسكت بقلبها المشروخ وأنّت. وأوقفت دمعة غصّت في حلقها.

«كفى سخفًا! أغار عليه. الغيرة ليست غريزة، بل غريزة، بل إحدى الرواسب المتخلّفة وبصمة من بصمات الكبت وعدم الثقة، ونزعة للاحتكار والامتلاك وكل ما هو ضيّق. المفاهيم العفنة والجذور الممتدّة من بداية العصر البطريركي. اللّعنة على كل شيء، فقدنا البساطة، حتى الغيرة لها حساب ومقياس. لو أنّني بقيت كالأخريات،

كملايين الأخريات. لا أحلام ولا ثقافة ولا ثورة. مجرّد أنثى يتقدّم لخطبتها رجل لديه دخل. ثم تحبل وتلد وتطبخ الأكلات الصعبة. وتثبت جدارتها بالزوج والبيت ومسؤوليّات الأمومة».

وأنّت تستنجد.. أمّي. قلت لك ألف مرّة، ارتفع الإصبع، ونشجت بيأس. ما عاد الماضي ملجأ. والحاضر كذلك ليس ملجأ. هناك هروب، وهذا صراع. وهي معلّقة بين هذا وذاك.

(١٨)

ـ ما بك؟

«ما عاد للحياة طعم، بل لها طعم كريه. كل شيء غريب ومعقّد. أقرب الناس أبعدهم وأعقدهم. لا يستطيع المرء مواجهة كل هذا الزيف وحده. وهذا الخليط من العجز والأمل السراب. بماذا أحسّ؟ لوعة وإحساس بالعطش حتى التلظّي. ابتعد. لست بحاجة إليك. أنت إنسان بدون عواطف. وما فائدة ما تمثّله من قيم أو لا قيم. يفقد الإنسان رشده حين يفكّر. غرباء نحن، ولا فائدة ترجى. نفلسف الأشياء حتى الترهّل. نلوك أحزان الفرد وأحزان الجماعة. ونظل في الداخل ذبابة في عشّ عنكب. نمدّ أيدينا ترتدّ خواء، ورغم الظلمة مطالبون بالنور والرؤية وادّعاء البصيرة. إنجاز حضاري بغير حضارة. تلك أمراض البيئة، والتربية، والظرف المارق».

ـ ما بك؟

ـ ابتعد.

همست بصوت مشدود الأوتار، وغابت عن الوجود في لحظة موت. ماتت الأصوات والموسيقى ورائحة الزهر والأرض وأوراق الشجر.

ـ ما بك؟

ـ قلت لك ابتعد.

ـ ولكن ما لك؟ هل أنت مريضة؟

«مريضة؟ نعم. إن كان الإحساس مرضًا. إن كانت العواطف ضعفًا. إن كانت الغيرة وحشة والوحشة ضياعًا. فسّر لي كل هذا إن كنت تقدر. أتحدّاك، أتحدّاك أن تظلّ عادلاً رغم كل هذا الظلم وهذي القسوة».

ـ تعالي أوصلك.

ـ كفى زيفًا، ابتعد.

ـ أنت مريضة.

ـ وكم يهمّك!

ـ لن أدعك وحدك.

ـ منذ متى؟

صرختها بحقد وقوّة. وانهارت وبدأت تنشج. حاول أن يسندها لكنّها انطوت وتكوّمت لصق الحائط.

وحيدة في درب مقفر. لا شيء سوى اللّيل وضياع اليتامى. أمواج تتلاطم في أذن مفتوحة على العدم، وصراخ في الأعماق يخترق الشغاف.

ـ دعيني أمسك بيدك.

ـ ابتعد، لا تحاول. كفى. أكرهك، أكره نفسي وأكره ضعفي. أستحق كل هذا. أستحقّ. وقعت فيما كنت أخاف منه. صرت عبدة. تافهة. أحتقر نفسي. لماذا وثقت. لماذا حلّقت وكيف هويت! كنت أعرف من البداية بأنّ كل هذا كذب ووهم. واستغرقني الكبت ونقصان

التجارب. أصبحت واحدة ممّن أستلم رسائلهنّ السخيفة في زاوية المرأة. أحزانهنّ تافهة، مريضة، تحمل عفونة الشرق وتذكّر بأجواء الحريم. يعذّبني، يصدّني، يحبّ عليّ، يتزوّج عليّ، يطلّقني، وأنا أحبّه. ما أفعل. بربّك سيّدتي انقذيني من هذا الجحيم، المعذّبة في بلاد الله الواسعة فلانة.

وكنت أقول، ما هذا القرف؟ وأكتب لها.. أشرح وأقول هذا عصر ثورة. كفّي عن كونك حرمة. ابتعدي عنه، انسيه، أعيدي اعتبارك لنفسك وانشغلي عنه بما هو أقوى. كانوا يئدونها، صحيح، ولكن كان يحقّ لها أن تدير باب الخيمة فتصبح حرّة. وأنت الآن في القرن العشرين وما عادوا يئدونك، إنجاز رائع، لكنّهم أقفلوا باب خيمتك فأدبرت حرّيّتك.

كنت أقول هذا وأشياء كثيرة، وكنت مشغولة بحلم عظيم، أن أصبح سيّدة نفسي، أعمل، أكسب، أنتج، أبدع. وكنت قد بدأت شيئًا وحقّقت شيئًا. ثم التقينا. ارتداد لأحلام الطفولة والبراءة كان منّي، وانجذاب شهواني كان منك. يوم أسود. ليتني ما رأيتك. ليتني متّ قبل هذا.

ـ لِمَ كل هذا!

ـ أكره تجربتي معك، أكرهك.

ـ ولكن لماذا؟

ـ لأنّك كرّهتني بنفسي، أفقدتني احترامي لها، جعلت منّي واحدة من المعذّبات الساذجات المتخلّفات اللواتي يملأن بلاد الله الواسعة. لم أعد ما كنت، لم أعد حرّة. وقلبي يئنّ. مذ رأيتك وقلبي في وجع دائم. وماذا نلت من كل هذا؟ لا المتعة ولا ضبط النفس وتحقيق نظام

يساعدني على الإنتاج أكثر ولا الحصول على المزيد من الاستنارة والارتقاء. كنت ذكيّة فأصبحت غبيّة. كنت منفتحة مستقلّة غير مكبّلة، والآن عبارة عن بركان عواطف بحممه غطّى السهل وغطّى الوعر. ما عدت أفكّر. تمحور ذكائي كلّه حول هذه العلاقة. متى أراه؟ متى أسمعه؟ متى يتحرّك قلبه؟ متى يقول ما لم يقله؟ متى يحسّ؟ ما به؟ أهو طبيعي أم أنّني لا أثير اهتمامه؟ لكنّه يجدني جذّابة ويشتهيني. أنت قلت هذا، لا تنكر. قلته بلسانك وعينيك وغنّة صوتك حين يموج وتقول بأنّي ذكيّة وتستمتع بصحبتي وإلاّ لما أوليتني كل ذاك الاهتمام. لم لا تحبّني؟ أريد أن أعرف، قل أليست لديك عواطف؟ أين العطف وأين العواطف. في هذه الحياة الموحشة نحن بحاجة للحنان قبل كل شيء. لكنّكم تغرقون في غمار الشهوة، وتظلّ الحياة قحطًا. قرأت كثيرًا عنكم. قرأت الكتب أبحث عنك وعنهم. ظننتك أرقى. ظننتك أرحم.

قال بهمّ:

ـ فلنمش من هنا.

صاحت بثورة:

ـ لن أمشي معك بعد الآن، ولن أدعك تستعبدني بهذا الشكل.

ـ ولكن من قال إنّي أريد استعبادك؟ أريدك حرّة مستقلّة قويّة لا تعرف الضعف ولا تخضع لأيٍّ كان مهما كان. هل أنا مخطئ؟ أريدك ثورة حقيقيّة بدون شوائب.

ـ شوائب! فالعواطف شوائب إذن. أهذا ما تقصده بالثورة الحقيقيّة؟ ثورة بدون عواطف؟ وأصبح باردة ككتّاب البحوث؟ ولكنّ الشعر عواطف وموسيقى ونبض حياة. وأنا أموت. أحسّ بشراييني تتجمّد وقلبي يمتلئ بالموت والمرارة. ثورة بدون عواطف؟ أنت

مخطئ، صميم الخطأ وإلحاد بالإنسانيّة والجمال. أعظم الثوريين كانوا عشّاقًا عظامًا، وكانوا يستوعبون الفنّ بإحساس يبلغ حدّ الدمع. وأنت إنسان بدون عواطف.

ـ حقًّا! أهذا أنا!

وانتبهت، فقد كانت تسير إلى جواره في الشارع الخالي إلاّ من أضواء شاحبة. توقّفت وسط الشارع ودقّت كعبها بالأرض.

ـ قلت لن أمشي معك.

ـ ولكنّك مشيت.

ـ إذن، فهذا ما تريد، ألاّ أتحرّك إلاّ بعد دراسة. وعليّ أن أقضي الساعات أناقش قبل أن أخطو خطوة، وأصبح كبقيّة المثقّفين، إناء مضغوط مليء بالكلام والسفسطات. كل شيء بمقدار، كل شيء بمقياس، وأفقد تلقائيّتي وأصبح آلة. أين الإبداع في كل هذا؟ أين الحرارة؟ أين الصدق؟

ـ لن تحقّقي حرّيّتك إذن. قلت لن تمشي وقد مشيت. أين الصدق فيما قلت وفيما فعلت؟ مشاعرك سيّرتك إلى جانبي ومشيت رغم ما أملاه عقلك. ومن الكاذب ومن الصادق؟ عقلك؟ لا أعتقد. قرارك كان طبيعيًّا، تريدين الدفاع عن نفسك منّي. أقدّر هذا، وكنت أقدّر أكثر لو قلت لي بحزم أكبر، ابتعد.

وأحسّت بالطعنة تنغرز في كل عضو من جسدها. وأجهشت:

ـ إذن فهذا ما تريد.

ـ بل هذا ما يجب أن تريديه إن كان وضعك قد أصبح بالشكل

الذي شرحت. وما كنت أعرف أنّ المسألة بهذه الخطورة. هذا وضع غير مرض وعلينا مواجهته بحزم وصبر.

ـ وأبتعد عنك؟

ـ ولم لا.

ـ وأتألّم؟

ـ كي تتحرّري.

ـ وأموت؟

ـ في سبيل أن تصبحي سيّدة نفسك.

أمسكت رأسها بيديها وصاحت في عتمة اللّيل وخواء الشارع:

ـ كفرت بالثورة والحرِّيَّة. كفرت بك وبقيمك. ليتني أموت لأخلص.

ورأى شبحها في الظلمة ينكمش ويتكوّر، وحركات ذراعيها ورأسها تلتفّ وتتشنّج. أحسّ بفراغ قاتل أعقبه إحساس بالخوف والذعر. ماذا لو حدث شيء؟ ماذا لو انهارت كلّيًّا، وسيكون مسؤولاً عمّا يحلّ بها. قذارة، أهذا ما يخيفه فقط، وقوع جريمة؟ وماذا عن الضحيّة؟ ماذا عن إحساسه بها؟ أين العطف وأين العواطف وأين الرقّة؟ كل هذا ضاع مع ضياع العمر ونحيب السنين. انتقام أم ردّة فعل؟ عشرة أعوام أم عشرون.

واعترتها رجفة برد. نظرت إلى ذهوله فأصيبت بالعدوى. وبدأ عقلها يصحو من غفوته. من هذا؟ رجل، مجرّد رجل. مجرّد إنسان مشوّه مقموع، مثلها تمامًا، ومثل الآخرين مهشّم. هشّمته الدنيا وبلّدته التجارب. بدون عواطف؟ لا، العلّة تكمن فيما هو أعمق، ولماذا لم

تستطع الوصول إلى علّته لتعرف؟ الشرق؟ والده؟ العائلة؟ الاحتلال؟ العروبة؟ الخذلان والإحباط وتعقيد الحياة؟

وهمست بذهول:

ـ أنا لا أعرفك. قرأت عشرات الكتب ولم أعرفك. عشرات الكتب، مئات الكتب.

«تجربة واحدة قد تغنيك عن كل هذا. حين يتخذ المرء قرارًا يصبح رهينة. عرف التاريخ هذه الحقيقة منذ بدئه. في سبيل الهدف قد تبيع للشيطان روحك. ويصبح القول المأثور مثالاً يحتذى. نضع أيدينا في يد الشيطان. حتّى تتجنّب القهر قد تضطرّ لخوف المقرف والمرعب. خطأ، خطيئة، وأين الصواب من كل هذا؟ اختلطت الأشياء حتى باتت لعبة الموت أهزوجة سلام».

ومرّت بخاطره نوّار. أيّ تناقض في كل هذا! صدمته أخته حين أعلنت أنّها ما عادت تستوعب علاقتها بصالح. وأحسّ ساعتها بأنّ المأساة، مأساة فكرة وموقف. المسألة معناها أنّ الفتاة بحاجة لذراعي رجل، وهذا مسلك طبيعي ولا حاجة لإنكاره. هذا هو الواقع بكل فظاظته وجبروته. نوّار مقابل صالح. الأغلبيّة مقابل قلّة، قلّة تحمل على ظهرها عبء التاريخ ومسؤوليّة التغيير. إغراق في المثاليّة؟ بل قدرة على فهم المنظور وغير المنظور. الطريق وكيفيّة الوصول. الفييت كونغ، السوفيات، كوبا وثورة العالم الثالث. ليس للمستحيل وجود. إرادة الإنسان أقوى وأبقى. وينكسر الحاجز ما بين رغبة الفرد وحاجات الجماعة. والجماعة شعب وشعوب وأمميّة.

صدمته نوّار وتصدمه رفيف. تلك تريد رجلاً وهذه تريد رجلاً يرضي حاجات الأنثى المتعطّشة للامتلاك. «ترفض الحصول على جزء

منّي، تريدني كلاً لا جزءًا. وهذا محال. ألن تعرف!».

ـ تعالي، اجلسي. أريد أن أفهمك شيئًا على الطبيعة. انسي الكتب وانسي الشعر ودعينا نفهم معًا. قد اكون مخطئًا في تفسيري للأمور. ولكن، إذا كنت تريدين الفهم فافهمي. أختي نوّار أحبّت صالح.

ـ أعرف.

ـ سنوات مرّت والكلّ يعرف. وقفت وتحدَّت وصاحت: أحبّ صالح. لم يكن الأمر سهلاً. فتاة كنوّار لا تقول ذلك بدون مقدّمات. لا بأس. أبو العزّ قام بدوره وفجّر الموقف. سحبها التيّار ووقفت وصاحت، أحبّه، أنا له ومعه، سأنتظره العمر كلّه. سأقف بجانبه داخل السجن وخارجه. وقلنا آمين وصدّقنا. هي نفسها كانت تصدّق وكانت صادقة فيما تقول. لكنّ الأيّام تفتر العواطف وتغيّر الرغبات. العواطف ليست ضمانًا. وفي تقرير المصائر نحتاج لما هو أرسخ. نوّار تبحث الآن عن الاستقرار والأمان. بحاجة للاستقرار الذي يتناسب ومفاهيمها التي تركض وراء الحلول السريعة. بحاجة لبيت تقليدي قد يحصل الإنسان فيه على الاختناق أكثر ممّا يحصل فيه على التنفّس.

دار رأسها. «وأنا أطلب الاستقرار أيضًا. سئمت، تعبت، من كل هذا. هذا الركض وهذا اللهاث».

ـ ماذا تقولين؟

ـ لا شيء. أستمع.

ـ وهل تستوعبين؟

ـ أستمع.

واختلطت كلماته بأفكارها. جمل متقطّعة تصلها يضيع معظمها في

صخب الأزمة. النضال. أوهام العواطف. حتميّة التاريخ وصراع البقاء. الأهمّ فالمهمّ. الفرد والمرحلة والتاريخ. التاريخ حوت يبتلع الأسماك والطحالب ويبقى جبّارًا يقطع المسافات سنوات ضوئيّة. الالتزام يعني أن يستوعب الإنسان مسؤوليّته تجاه كل هذا العبء ولا تهن قواه.

«ما هذا. ما كل هذا! تعبت. تعبت. هذه الدوّامة اللانهائيّة من التحليل والتعليل والسفسطة. تعبت، تعبت».

ـ لست بحاجة إليّ، قل هذا وأرحني.

ـ بحاجة إليك وبحاجة لغيرك.

ـ مجرّد واحدة تعبر.

ـ كما أعبر أنا.

ـ ونظلّ أرقامًا بغير عدد! التاريخ يصهر الأرقام في رقم واحد؟ لا. أرفض. لا تتعب نفسك. لم أفهم. أنا إنسانة لي خصوصيّتي وما يميّزني. أرفض أن أصهر في بطن الحوت. لن أجعل منه إلٰهًا. قد كفرت بالآلهة منذ سنين ليس لها عدد.

وبهدوء ورتابة عاد يردّد ما كان يقول. وبجنون صرخت:

ـ لست بحاجة إليّ، قلها وأرحني. أرفض. أرفض. أرفض أن أوأد في معبد أو بطن الحوت.

(١٩)

امتدّ خيالها على الأرض فوصل حافة الدنيا والشمس. وامتدّت الغصّة في حلقها فوصلت لباليب الشجر. وراجعت وضعها للمرّة الألف. كم مرّة يا رفيف أصبت بنكسة كهذه؟ ولم تكن تجاربها في الواقع كثيرة، ولم تكن تجربتها مع الرجل غنيّة. مرّتان يا رفيف بالعدد. دوّار أشعل كيانك كلّه مدّة أشهر طويلة، أطول من مسافة الشرايين في جسمك أطول، وأطول من محيط الكرة الأرضيّة، أطول. واشتعلت، واحترقت، وتصاعد الدخان منك، ثم همدت. ولم يبق إلاّ رماد التجربة والذكرى وأنين الروح.

أمّا تجاربها الداخليّة المخبّأة غير المعلنة، في الخيال وفي العقل الباطن، فتلك لا عدّ لها ولا حصر. حبّ الممثّل وابن الجيران وهي مازالت أرضًا ملساء بدون خصب ودون هضاب. وعبد القدّوس، والسباعي والشاعر المشهور مجهول الهويّة. أحلام مكبوتة وعرق يتصبّب وعصاب يمتدّ على الأيّام يلتهم الطاقات، يلتهم الذكاء وأوراق الدفاتر.

ثم كانت تجربة عنيفة. في الجامعة وأستاذ متزوّج داعب أيّامه والملل بأكل البوظة في بكداش. بدأت المسألة بنظرة، فسؤال غريب من طالبة شقيّة، ثمّ أشعار فتاة موهوبة وهو في سنّ الوالد. ثم البوظة في بكداش، ثم البوظة ولا شيء غير البوظة والشعر، وأحاديث رجل

زوجته غبيّة. هو أستاذ جامعة وهي غبيّة. «لا تفهمني، لا تفهم إلاّ الفستان والكوافير وفتح البخت في الفنجان. أنت يا رفيف على صغر سنّك تفهمينني». «نعم أفهم. قلبي يفهم، عقلي يفهم، حبّي يفهم». ودموع وسهر وشعر وموسيقى وأحلام ونشيج وقهر وغيره. وانتهت المأساة بتخرّجها. عادت إلى الضفّة والاحتلال وعاد إلى زوجته والملال.

وكان الحبّ قتلاً وتعذيبًا وعصابًا، ثم عادل الكرمي وجرحه. لم تعتد الحبّ المسطّح. وصاحت مرّة تستنجد بسلوى «أنت يا باحثة الاجتماع علّميني كيف أحبّ من غير موت ومن غير نشيج. علّميني كيف أعوم ولا أغرق. علّميني كيف؟». هزّت سلوى رأسها وقالت «عبث، البيئة، رؤيتك لنفسك من خلال عيني أمّك، من خلال البيئة، والطفولة...».

عبث. وتذكّرت كل موضع وردت فيه هذه الكلمة فأحسّت بالغثيان، وتذكّرت الغثيان، فأصيبت بالرّعب، عودة إلى سارتر وهيسه وكافكا وتطوحات الوجوديين وتهويماتهم! وأين الحلول؟ هروب من الواقع بتجاوزه وتخطّيه بقفزة روحيّة، وصدق لا يقدر عليه إلاّ الموغلون في المركز والطبقة والذّات. الذات هي البداية وهي النهاية وهي المحور. وكم فيلسوف وكم شاعر وكم متفلسف. وفلسفات الشرق كلّها ما استطاعت الخروج بحلّ علمي واحد. وقالوا أشياء رائعة وراقية حسّاسة. وفي نهاية المطاف يقف المحكوم بين يدي السجّان بانتظار الحكم وسكّين الجلاّد. ثمّ قفزة روحيّة تتخطّى القيد. ويبقى الجسم في السجن بين يدي سجّان لا يرحم. وقالوا: الإيمان. إيمان روحي، إيمان غيبي، إيمان علماني، إيمان جنائزي. وانضوى سارتر تحت لواء المقاومة ثم عاد لينضوي تحت لواء نفسه. وبعثر صكوك الغفران وعفا

عن جلاّدي منتصف القرن العشرين. وأثبت عجز فلسفته عن الثبات. وسقط في دوّامة منطلقه ومنطلق صحابه: الطبيعة البشريّة لا تتغيّر.

«بل تتغيّر، العلم يقول والعلم أصدق». واشتدّت خطوتها ورفعت رأسها وما عادت ترى خيالها. وتأمّلت الناس من حولها يسيرون في الشارع. يتلكّأون، يسرعون، يصرخون، يجلسون يقفون، يتمطّون، يشتمون، يتحسّرون. وتساءلت دون أن ترمش: «وهؤلاء كيف يصلون الإيمان؟ وصلوه منذ أجيال فقطعهم، وقطعوه فوصلهم، ثم انقطع ثم انوصل وأصبحت المسألة مأساة ومهزلة، وأين الثبات وأين تحديد الهدف؟»

ومشت في الشارع الفرعي وتلاشت الأصوات. هنا شجرة، وهنا مدرسة خلا ملعبها من الطلبة، وهنا بيوت نظيفة على أسطحها غسيل مضيء. وهنا امرأة تطرّز على الفراندة وتستمتع بدفء الشمس الربيعيّة. هل طبخت هذه المرأة؟ هل لديها أطفال؟ هل تؤلمها متاعب الدنيا والناس؟ هل تفكّر بما قاله سارتر وما قاله ماركس وما قاله عادل الكرمي؟ هل تمرّ بأزمات عاطفيّة وفكريّة وتدوخ في دوّار حركة التاريخ والدنيا؟ ما هي أحزانها؟ ما هي مخاوفها وماذا يقلقها؟ ومهما قلقت على الولد والزوج وطبيخ الأسبوع، هل يعادل قلقها المبسّط كلّه قلق يوم واحد لإنسان يحمل عبء الماضي والحاضر والمستقبل؟

ووقفت وسط الطريق وهمست «عادل الكرمي. أصبحت نسخة من عادل الكرمي! ألم يقل هذا؟ ألا يقول هذا يوميًّا؟ وبقيّة المثقّفين ألا يمضغون هذا الموضوع حتى الدروشة. وفي حياتهم اليوميّة كيف يتصرّفون؟ الفوضويّون ينادون بتحرير الفرد من واقعه فورًا، ولا تضادّ بين ما يقولون وما يفعلون. أمّا عادل الكرمي فشيء آخر. ألا يفهم بأنّ

ما يطبّقه على السياسة لا يطبّقه عليّ؟ أنا جزء من الواقع ولا فائدة من المداورة. فلماذا لا يطبّق ما يقوله عن الكلّ على الجزء؟ وأنا جزء من هذا الواقع. فكيف أصدّقه وأصدّق ثباته وهو العاجز عن فهم واقعي ومعطياته؟».

وأحسّت بالغضب يجتاحها وبرغبة شديدة في الانتقام منه ومن وجعه. وتمنّت أن تبتليه الظروف بتجربة قاسية كالتي أوقعها فيها. وتمنّت أن تراه في وضع يكون فيه تحت رحمتها أو رحمة امرأة أخرى تقتصّ منه.

«الثورة لن تحلّ مأساة الشعب وهؤلاء هم القادة. عادل والشعب. وأنا نصف الشعب. أنا المرأة، أنا النموذج الذي يمارس عليه عادل تطبيق النظريّة. يعجز عن فهم واقعي ومواكبة متطلّباته، فهو عاجز عن رؤية واقع المرأة ومتطلّبات هذا الواقع، فهو عاجز عن دمج الواقع بالنظريّة، ومن يعجز في الجزء يعجز في الكل. ويريدني أن أستمرّ في زاوية المرأة. أهذا هو الحلّ الذي يطرحه عادل لمشكلة المرأة؟ (نحن بحاجة إلى مزيد من القرّاء وإلى المزيد من المساندين). ثم ماذا يحلّ بنا؟ ما حلّ بالمرأة الجزائريّة بعد الاستقلال؟ وعادت المرأة إلى قاعدة الحريم وغطاء الرأس. ناضلت وحملت السلاح وتعذّبت في السجون الإفرنسيّة، وجميلة وعائشة وعائشات، ثم ماذا؟ وخرجوا للنور وتركوها في الظلمة. وكأنّ الحرِّيَّة مقصورة على الرّجل وحده. ونحن، أين حرِّيَّتنا وما هو السبيل إليها؟ لن يخدعونا؟ الحرِّيَّة للرّجل والاستقلال للرّجل والصلاحيّات للرجل ونحن؟ المساندات للثورة حتى يتمّ التحرير ويتمّ الاستقلال. ولنا من كل هذا المجد زاوية المرأة. نحن القارئات ونحن المساندات. ثم لنا بعد العشاء حديث آخر».

وتكثّفت نقمتها فتعثّرت بحجر ووقعت. وسال الدم من رجلها وخدشت يدها. وتبعثرت كتبها وأوراقها على الأرض فلمّتها وبكت. وصاح ولد من على سور مدرسة الأولاد «يا بنت، ورقة عند الشوك». وأجفلت، وتلفّتت حولها لترى من رأى عثرتها غيره. ورأت المرأة المطرّزة على الفراندة ترمقها بجمود «اللّعنة عليك. أنت هنا تطرّزين وتنعمين بدفء الشمس ورفاهية الأنثى المنسجمة مع واقعها وأنا أمشي وأمشي وأتعثّر وأفكّر بزاويتك التعيسة والرشوة، وأفكّر بواقعك في الثورة وبعد الثورة وأنت ترمقينني بهذا الجمود. اللّعنة. لو أنسل خيوط رقعتك الملوّنة هذه. لو أنبش شعرك المصفّف وأطيح بغسيلك ألوّثه بأوحال الأزقّة المتعفّنة في مستنقعات الشرق كلّه. لو أزرع في رأسك بعض أحمالي.. فقد تعبت. تعبت منك ومن ماضيك ومن حاضرك ومن مستقبلك، وتعبت من عادل الكرمي ومن كل عادل. تعبت».

وآلمتها رجلها وتذكّرت أنّ الطريق مازالت طويلة، فأنّت. «أما من أحد يساعدني على الوصول؟ أما من أحد يشاركني وحشة الطريق؟» ومرّت بها عربة كاز. صهريج مرفوع على عجلات يجرّه حمار. القوّة الدافعة محمولة على كتفي حمار. وهوى البائع بعصاه على مؤخّرة الحمار فخبخب. الكاز يسيّره حمار، والحمار يتلقّى الضرب ولا يرمش. وأنت يا حامل العصا تسير من الصباح للرباح تحت الشمس وتحت المطر. وغدًا تقوم الدولة وتظلّ متربّعًا على عرش الصهريج وعرش حمارك. تعدّ الضربات على جنبك وجنب حمارك. وأنا وأنت والكاز في صهريج واحد. مسيّرون بقوّة دفع حمار. اللّعنة».

ووقف البائع أمام دار خرج منها صبي يحمل تنكة. رأتهما من بعيد وهي مازالت تعرج. امتلأت التنكة ودخل الصبي الدار وظلّ بائع الكاز واقفًا يتلفّت حوله ويصيح «كيياز». رآها تقترب فرفع صوته أكثر وظلّ

يحدجها. كان شابًّا وقويًّا وشارباه مفعمان بالحيويّة والمرجلة. «كيياز» واقتربت أكثر ومازال ينادي «كيياز... كيياز، نار، نار يا حبيبي». ولعنته ولعنت جنسه ورفعت يدها المخدوشة إلى فمها تبلّلها بريقها وذلّها...

«حتى أنت يا هذا! ولم لا، كلّكم هكذا. وعادل الكرمي هل هو أرقى؟ ماذا أعجبه فيّ؟ يشتهيني. ويطالبني بشيء آخر، يطالبني بحمل عبء حركة التاريخ وحمل عبئه. ويطالبني بالذكاء والثقافة والعمل المستمرّ مثل حمارك. ويطالبني أن أكون وقودًا للثورة البردانة، وأن أكون وقودًا لبروده، وأن أكون وقودًا لرأسه البارد. على الأقلّ، أنت يا راكب الحمار لا تطالبني أن أكون أكثر من الذي تحتك، ويا ليتني مازلت كذلك، لكنّني ما عدت أطرّز، متى يفهمون؟ أنا ما عدت أطرّز رغم التطريز في كل الميادين».

واقتربت من مبنى المجلّة ورأت عادل يقف أمام سيّارة ذات رقم إسرائيلي. دقّ قلبها ونبضت عروقها وتمزّقت فأنّت «آه يا عادل». وظلّ يتكلّم ويتبادل الحديث مع رجل في السيّارة تعرفه. صديقه خضرون الإسرائيلي، رفيق الفكر ورفيق الشعوب. «ولو أنّك تعرف يا خضرون، لو أنّك تعرف. ماذا يقولون لك هنا؟ مساواة الشعوب ومساواة الأجناس ومساواة المرأة؟ وصلوك يا خضرون قبل أن يصلوني. آمنوا بك قبل الإيمان بي. يحاولون الوصول إلى شارعك قبل الوصول إلى دهاليزي. ويقولون لك الشعب، وأنا نصفه. فهل قالوا لك عن النصف المعتم؟».

ونهشت الغيرة قلبها من خضرون ومن شارعه ومن شعبه ومن نصف شعبه. ومن عادل واهتمامات عادل. «إذا لم يحس بمأساتي عادل فهل

ستحسّ يا خضرون؟ كذب. وعادل الأبله لا يعادل المعادلة البسيطة. إذا لم أحسّ بمأساته فهل ستحسّ يا خضرون؟ وأنت لست نصف شعبه. ومن أقرب إليه منّي؟».

ولم يعد بينها وبين عادل والسيّارة سوى خطوات. وماذا تقول له. هل تحيي؟ هل تدعه يحسّ بوجعها ويقدّم إليها رشوة أخرى؟ نظرة عذبة وكلمة حلوة، ورفيف، أنت رائعة. ويمسح دموعها بعطف مسيحي ثم ينهرها ويقول: «حركة التاريخ والتاريخ حوت يبتلع الأسماك الصغيرة. وما معناه أنّك يا رفيف سمكة». «لن يرى انهياري فالموت أرحم».

وشدّت قامتها وضغطت رجلها الملويّة، وسارت مرفوعة الرأس وحيّت بوجوم «مرحبًا». وكان لصوتها رنّة جشأ سمعتها فاغتاظت، لكنّها أسرعت. التفت عادل ورفع حاجبيه ونادى:

ـ رفيف، رفيف، أين أنت! انتظري.

ولم تنتظر. أسرعت وأوسعت الخطو والدمع يجري. صوته يعذّبها، رؤيته تعذّبها وحنينها إليه يوجعها. وقفزت الدرجات ومرّت ببعض الزملاء، حاولوا استيقافها فهرولت. ودخلت المكتب الصغير «زاوية المرأة».

جدران خشبيّة لمكتب كصندوق عجب، فيه طاولة مكحوتة وكرسي مهترئ، وصور نسوة يحملن أطفالاً بشعور مشعّثة وعيون مفتوحة على مصاريع المأساة. مأساة الشعب أنا نصفه.

وأغلقت الباب المصفّح بالابلكاج، وارتمت على كرسيّها ودفنت رأسها في ساعديها وأجهشت. وتذكّرت وقفتها في الردهة في البرد تنتظر مجيئه. وتذكّرت بروده حين جاء. وتذكّرت لهجة الأستاذ التي خاطبها ويخاطبها بها. وتذكّرت الجسد المصهور وعادل. وتذكّرت

دموعها ووجعها وحقدها وتذكّرت فلسفته. كان دمها مسفوحًا على الأرض تحت قدميه وكبرياؤها تئنّ وجراحها تنزف وهو يتفلسف ويتفلسف. وتذكّرت لوعتها وصدمتها فيه. وتذكّرت البرد يخترق مسامها وهي تبتهل للمرض أن يرميها كي تنسيها السخونة أوجاع عادل.

وبكت وبكت، وتمنّت لو أنّها بقيت في البيت أيّامًا أخرى. وسمعت طرقات لطيفة على الباب فخنقت نفسها وأخلدت للصمت. وعادت الطرقات تلحّ باللّطف نفسه والهدوء نفسه. وتمنّت أن تصرخ وأن تفزع الدنيا وأن تقول ما تسمع النسوة يقلنه في الأزقّة.. ولكن. «حتى نعمة الكلام البذيء الذي يفشّ القلب محرّمة عليّ. حتى التياسة التي تغرق فيها النسوة المطرّزات اللواتي يقمن قيامة الزوج إذا بصبص أو حملق محرّمة عليّ. عليّ أنا المهذّبة المثقّفة الذكيّة الثوريّة أن أفهم وأتفهّم. وأن أطالب ولا أطلب. عليّ وعليّ وليس لي بل عليّ. أطرق الباب ما شئت يا عادل الكرمي فلن أفتح. ماذا تريد؟ اتركني فأنا لا أريدك. أكرهك وأكره تجربتي معك وأكره ضعفي أمامك».

وغابت الطرقات وسمعت صوت حذائه يبتعد، وأحسّت بالشماتة. «انتصرت عليك يا عادل الكرمي. انتصرت على ضعفي ولم أفتح. وسأنتصر أكثر إذا ما تركت المجلّة كلّها وأخرجتك من حياتي وجعلتك رقمًا، مجرّد رقم واحد عبر. وأبتعد عنك! ولم لا؟ وأتألّم؟ كي تتحرّري. وأموت؟ في سبيل أن تصبحي سيّدة نفسك. إذن فهذا ما تريد. هذا يعني أن أخضع لمشيئتك. ولن يعذّبك ضميرك إذا متّ. ستقول لنفسك وللملأ: ماتت في سبيل حرّيّتها، وتتفلسف: الحرّيّة مفهوم واسع. تكمن الحرّيّة في الصدق المطلق. العلاقات التقليديّة تفقد الإنسان صدقه ـ رحم الله الموغلين والمدعومين بمركز وطبقة. الحرّيّة

مفهوم واسع. أوسع من الأديان ومن كل الحواجز الجغرافيّة والقوميّة وكلّ الحدود. أوسع من الماضي والحاضر لأنّه المستقبل. مستقبل الأجناس والطبقات والشعوب. وفي سبيل الحرِّيَّة يدفع الإنسان روحه، وحتى تدفع حياتك عليك أن تصل إلى مرحلة الوعي الكامل. وحتى يصل الإنسان مرحلة الوعي الكامل لا بدّ من مضاعفة مجهود الطلائع. وبإرادة الطلائعيين وإيمانهم والتزامهم يقطع الحوت المسافات سنوات ضوئيّة. ويعيش الشعب كل الشعب. تصفيق، تصفيق حادّ. تصفيق لروح الشهيدة التي بلغت مرحلة الوعي الكامل بفضل مجهود الطليعي. وتصفيق أحدّ مع هتافات مدوّية للطليعي الذي استطاع بإرادته وإيمانه أن يجعل الحوت يقطع المسافات سنوات ضوئيّة. هكذا إذن. أنا أموت وتبقى أنت لهتاف الجمهور وتصفيقه. وتسبح أنت والحوت في المسافات الضوئيّة، وأتمدّد أنا في قبر يسبح الدود فيه على رفاتي. اللّعنة».

ولعنت عادل ولعنت نفسها ولعنت الحوت ولعنت السموات وبكت حقدًا، وهدّدت «ستدفع يا عادل الثمن سنوات قحط، ولن أدعك تسبح في الضوء على رفاتي. لن أكون شمعة ضوئك لأنّك معتم. أنت إنسان بدون عواطف. لا أصدّق ثورتك. أعظم الثوريين كانوا عشّاقًا عظامًا. تريدني باردة ككتّاب البحوث، وتريدني كازًا يوقد برودك. لهفتك على السباحة أنستك عدلك، ولن أموت في سبيل شوط سباحة، ثورة بدون عواطف؟ ثورة باطلة تهدّد بالجمود وبطء النبض. لكنّي سأعلّمك كيف تكون الثورة، ثورة حقيقيّة بعواطف.

ولكن كيف؟ أترك المجلّة وأثور على زاوية المرأة وأغيظك. ولكن معنى هذا أن أهرب وأن أختبئ منك وأدع لك الساحة وحدك لتسمع التصفيق وتنعم به، ويقال: «عادل البطل ناضل ووعى الجماهير حتى

بلغوا البعد الكامل. تصفيق حادّ وهتاف. وأنا، أين موقعي وكيف أحقّق ثورتي؟ الشعر؟ ومن يقرأ الشعر غير الصفوة؟ وأنا أريد جماهير عريضة. الجماهير التي يخاطبها عادل نفسها. بل أعرض، أعرض. وهذه الجماهير لا تقرأ الشعر وفي الغالب لا تقرأ شيئًا. هذه الجماهير تسمع وتشاهد الراديو والتلفزيون. فلننس الراديو والتلفزيون فأنا هنا في الضفّة السخطة. الجرائد، لكنّ الجرائد لن تنشر المقالات الجادّة، وإذا نشرتها فمصيرها عند بيّاع الخبز يلفّ بها الأرغفة، أو لدى النسوة المطرّزات يمسحن بها زجاج فرانداتهم لتلمع أكثر. المجلاّت، وكم مجلّة لدينا في الضفّة؟ اثنتان أو ثلاث ومجلّة «البلد» أوسعها انتشارًا وأكثرها توزيعًا. مشكلة المبيع والتوزيع، لا بأس يا عادل الكرمي فمنك أستفيد. والجمهور عريض، طلبة ومثقّفون وأدباء وعمّال زاوية المرأة. المرأة هي نصف الجمهور، وهذا النصف يستقطبونه بفضلي. الشاعرة رفيف وزاوية المرأة، ونجحت الزاوية لكنّها بقيت زاوية. نصف الجمهور يرشونه بزاوية. لن يستمرّ هذا. نصف الجمهور له الحقّ في نصف المجلّة. الزاوية تمتدّ وتلتهم نصف المجلّة. لن توافق الهيئة ولن يوافق مجلس الإدارة. كلّهم رجال إلاّ ثلاث نسوة. الشاعرة رفيف، والباحثة الاجتماعيّة سلوى، والسكرتيرة سعاد. السلطة في أيديهم، عالم الرجل ومجلّة الرجل وثورة الرجل. ونحن إمّا الطعم البرّاق لاستقطاب المساندات كالشاعرة رفيف، وإمّا المختبئات وراء الكواليس كالباحثة سلوى، أو الكادحات وراء الآلة الصمّاء، سعاد.

سيقولون: ماذا؟ نصف المجلّة للمرأة؟ أنت تقولين هذا؟ وأين نقمتك على الزاوية؟ أعترف بخطأي، والاعتراف بالخطأ فضيلة. ومن منكم لا يتراجع؟ وهذا واجب المثقّف الشريف، وأنا أتراجع عن موقفي السابق وأطالب بنصف المجلّة لنصف الشعب. المرأة نصف

الشعب، أليس كذلك؟ ومن منهم يستطيع نكران هذه الحقيقة؟ لكنّهم سيدورون ويلفّون ويخلقون الأعذار ويحسبون التكاليف وردّة الفعل ونظريّة الأهمّ فالمهمّ ونظريّة المرحليّة ثم يقولون لا، الواقع الحالي لا يستوعب، واقع المرأة، وواقع المجلّة، وواقع الثورة. ويستديرون بوجوههم لعادل الكرمي يناقشون مشروعه. الملحق الناطق باللغتين. وبهدوئه وبروده وإحصائيّاته وأرقامه ومنطقه الجبّار قد يقنعهم، ويصل الشارع الإسرائيلي وتظلّ زاوية المرأة محبوسة في صندوق ابلكاج. اللّعنة. ويظلّ عادل الكرمي خيّال السبق الذي لا يجارى، وأقبع أنا في هذا الجحر أتلقّى الأوامر. أوامر الرجل المنبثقة عن سلطته التي لا تجارى. لكنّي سأكون بالمرصاد: توافقون على مشروع عادل ولا توافقون على مشروعي؟ أيّهما أسهل، الوصول إلى الشارع الإسرائيلي أم الوصول إلى دهاليز المرأة العربيّة؟ سؤال وجيه ومفحم. ويتهامسون ويتناقشون ثمّ يحتدّ النقاش ويتضاربون كالعادة. وسالم! أين يكون سالم. في صفّ غير صفّ عادل طبعًا، وفي صفّ غير صفّي. ولكن، إذا استطعت استقطاب سالم ترجح كفّتي. لكن سالم صعب المنال. سالم يقول لا لأيّ مشروع يأخذ طابع المرحليّة. التحرير الكامل من المحيط إلى الخليج. لا فرق بين فلسطيني وخليجي. لا فرق بين رجل وامرأة. زاوية المرأة يجب ألاّ تكون أصلاً ـ موقفي السابق. فكيف يوافق على اتساع مساحة الزاوية لتلتهم نصف المجلّة؟ إذا دخل سالم في النقاش فلن تخرج الهيئة إلاّ بكلمة لا. ونتيجة ذلك لن تخرج الهيئة بقرار محدّد. وستستمرّ الصراعات ما بين اللاّ وبين النعم أسابيع وأشهرًا وسنوات. ويموت مشروعي ويموت مشروع عادل، كالعادة، ورحم الله ابن خلدون ولا ردّ روحه.

رجوع إلى ابن خلدون وعصر الانحطاط وعرب البداوة؟ لكنّ

الوضع تغيّر. سكنا المدن لكن شروش الصحراء مازالت ممتدّة تهدِّد ببني هلال والموحّدين والأندلس. البيئة وتغيّر البيئة وما يمليه التغيّر من تغيّر في طبيعة العلاقات بين الأفراد، بعضهم ببعض، وبأنفسهم. تغيّرت البيئة قليلاً وتغيّر العقل كثيرًا. وما تحت العقل؟ الإصبع الممدود وقلت لك ألف مرّة وبنو هلال وجواري الخليفة. وعادل الزفت لا يفهم هذا. يريدني أن أواكب التغيير في رأسي وأنسى ما تحت رأسي والبيئة. يريدني أن أموت وأن أصلب، وأجعل جسدي طعامًا لمكّة. أنا لست المسيح ولن أصلب، ولن أدعك تركب الحوت على رفاتي. يا عادل الكرمي سترى».

(٢٠)

جلست في الجانب السفلي من الطاولة ترمق المجتمعين خلسة وتدّعي الانشغال بأوراقها والمسؤوليّات. كلٌّ يجلس في مكان يتناسب وأهمِّيَّة العمل الذي يقوم به في المجلَّة. لم تكن المسألة مرتّبة أو مقصودة، فكلّ واحد يختار مقعده تلقائيًّا حسب أهمِّيَّته في المجلّة، وحسب اقترابه أو تقرّب مدير التحرير منه.

مدير وسكرتير التحرير هو شخص واحد. وفي العادة يجلس في قمَّة الطاولة عند النافذة العريضة المغطّاة بستار من المخمل العتيق. وفي الأيّام الغائمة القاتمة يضاء النور الكهربائي الذي يعلو الطاولة ويصبّ في منتصفها، فيجعل للمخمل ظلالاً بالأبّهة والجلال. وتبدو الغرفة مسرحًا رثًّا لا ترى النظارة منه إلاَّ العظمة.

مدير وسكرتير التحرير رجل متفقّه في أمور الفكر والصحافة والديموقراطيَّة في العالم الثالث. مارس الصحافة قبل الاحتلال بسنين طويلة، وبزغ نجمه في صحيفة تدعمها الحكومة، وسال قلمه في وصف المؤتمرات العربيَّة، وأهمِّيَّة الدور الذي تلعبه الدولة في تعبئة الرأي العربي والعالمي لصالح القضيّة واللاجئين. أجاد حرفة الكلمة، وأصبح مسؤولاً له أهمِّيَّته في حقل وزارة الإعلام والمطبوعات، وفي مجال الفكر والصحافة والديموقراطيّة. وبعد الاحتلال، مارس صلاحيّاته كوجيه محتلّ. وبدعم من زملاء وجهاء في الداخل والخارج

أسّس مجلَّة «البلد» وهي مجلَّة ذات صيغة ديموقراطيّة. وبفضل الظرف ورأس المال وقلّة المنافسة، انتشرت مجلّة البلد وطغت وأصبحت الناطقة بكل الألسن بما في ذلك العامل والمرأة.

إلى يمين ويسار مدير التحرير يجلس عادل وسالم. ومن الصعب تحديد موقع أيّ منهما. فإذا نظرت من أعلى الغرفة تجد عادل إلى يسار مدير التحرير وسالم إلى يمينه. وإذا نظرت أسفلها تجد عادل إلى اليمين وسالم إلى اليسار. وبين هذين القطبين يتمايل المدير، لكنّه مع الكفّة الراجحة دومًا. فإذا مالت الكفّة باتجاه عادل ووافقت الهيئة على مقترحاته يميل المدير مع المائلين وإذا مالت الكفّة باتجاه سالم مال مع المائلين ولكن بتحفّظ. فالتطرّف الذي ينتهجه سالم قد يطيح برأسمال المجلّة. ورأس المال له شروطه والوجاهة. والحرب التي يشنّها قلم سالم تتخذ طابع التحريض أكثر ممّا تتخذ طابع التبنيد والتنفيذ، وهذه أمور خبرها عادل الكرمي وأجاد فيها بفضل ماضيه والتجربة. وعلى الرّغم من اتفاق وجهات النظر بين سالم وعادل في الأمور العامّة والخطوط العريضة، إلاَّ أنَّ النقطة المحوريّة التي تشعل الخلاف بينهما دومًا تدور حول عامل الزمن والمرحليّات. عادل يقول: نوحّد الصفّ لمواجهة الرقابة ثم نناقش مشاكل المجلّة الداخليَّة بعد التحرير. وسالم يقول: نناقش مشاكل المجلّة الداخليّة قبل التحرير ونواجه الرقابة.

وحين يشتدّ الخلاف بين القطبين يرفع مدير التحرير يده بالڤيتو، أو ترفع هيئة التحرير يدها بأن تنقضها. وينسحب أفراد الهيئة فردًا فردًا، ويظلّ في غرفة الاجتماع عادل وسالم يتبادلان التهم والنعوت والألقاب. أنت جبان، أنت أرعن، أنت برجوازي، وأنت مهيج، وتموت نقطة النقاش دون أن يحتاج المدير لاستخدام حقّه في الڤيتو. وحين يطالبه أحدهما بتحديد موقفه يقول: هذه مجلَّة ديموقراطيّة،

أحصل على موافقة الأغلبيّة لأحدّد موقفي. ويصفن الاثنان ويتأمّلان الصلعة تلمع تحت أضواء الكهرباء محاطة بالمخمل، ويتمنّى كلٌّ منهما أن يهوي على الرأس بأقرب منفضة سجائر تطالها يده. لكنّه يعرف أنَّ المنفضة لن تخرج بالحلّ المطلوب. وأنَّ المنفضة قد تأتي بحلّ عكسي فتقع على أمّ رأسه بفضل رأس مال المجلّة. فيبتلع الواحد منهما قنوطه والمنفضة والسجائر ويفشّ خلقه في الطرف الآخر. يا عادل الكرمي ضيّعت الفرصة. يا سالم المختار ضيَّعت الفرصة. أنت السبب، بل أنت السبب. ويرفع المدير يده بالسلام بدل الڤيتو ويغادر الغرفة.

قال عادل:

ـ وقد بحثت الأمر مع خضرون ومثقّفين يساريين آخرين في إسرائيل وقالوا إنَّ مشروعًا كهذا قد يحقّق ما لم تحققه الحرب أو هيئة الأمم. إحدى الأستاذات في الجامعة العبريّة قالت: حين قرأت تلك القصّة المترجمة أحسست بالفاجعة وبكيت لأنّي ولأوّل مرَّة أحسّ أنّي أقف في الجانب المظلم.

هذه الأستاذة يا زملاء ليست يساريّة كما يشير تعليقها، وهذا يعني أنَّ باستطاعتنا كسب ذوي الضمائر في إسرائيل. وأنّ باستطاعتنا، بل هذه مسؤوليّتنا، أن نعمل على زيادة نسبة الوعي وإيقاظ روح العدالة في الجانب الآخر. والمسألة ليست سهلة، وأنا أقرّ بهذا، وقد يتطلّب الأمر جهدًا كبيرًا وسنوات طويلة، لكن حلم الدولة الفلسطينيّة العلمانيّة لن يصبح حقيقة ما لم يصل الشعبان إلى نسبة كبيرة من الوعي. فالتعايش بين الشعبين لن يتمّ بشكل صحّي ما لم يبلغ الشعبان مرحلة النضج والقناعات المشتركة، وهذا لن يتمّ بدون جهد كبير ونفس طويل. وعامل الزمن هامّ ولا يمكن التغاضي عنه. ومرحلة الحصاد لن تتمّ قبل المرور بمراحل البذار والاخضرار والإيناع. وهذه المرحلة

تتطلّب منّا أن نبدأ ببذر مفاهيم العدالة والإخاء التي تنادي بها ثورتنا ومجلّتنا.

أعود إلى تعليقات الأستاذة الإسرائيليّة، وقد كان بين هذه التعليقات سؤال في غاية الأهمِّيَّة. قالت: لماذا لا تقومون بترجمة الكثير من الأدب والدراسات الفلسطينيّة للعبريّة؟ لماذا لا نسمع من الجانب الفلسطيني إلاَّ التهديد والمتفجّرات أو الشكوى والتظلّم؟ وقال خضرون ويساريّون آخرون: لماذا لا نضع أيدينا في أيدي بعضنا بعضًا ونواجه الاحتلال والسلطة وعدم الوعي في الجانبين؟ نترجم أدبكم ودراساتكم، وتترجمون أدبنا ودراساتنا.. ونصدر ملحقًا نتقاسم تكلفته.

أيّها الزملاء، إنّي أطالبكم بالتثنية على هذا المشروع الذي طرحته أمامكم مدعومًا بالدراسات والأرقام والإحصائيّات اللازمة، كما أطالبكم بالتفكير العميق قبل البتِّ في أمره. لأنَّ مشروعًا كهذا يحتاج لقناعة كل منّا حتى نستطيع مواجهة ما قد نتعرّض له من اتهامات من قبل الشارع العربي والإسرائيلي على السواء. وإذا لم نكن متّحدين ومتراصّين ومؤمنين بما نفعل، فقد نتساقط ونحن مازلنا في أوَّل الطريق. وتساقطنا هذا قد يكون له نتائج وخيمة لا علينا فحسب، بل على مشاريع أخرى مشابهة قد يتبنّاها آخرون في المستقبل. وإذا فشلنا نحن وكانت هزيمتنا ساحقة، فإنَّنا بذلك نسدّ الطريق على الآخرين في المستقبل بأن نخيفهم من مواجهة مصيرنا نفسه. عدا عن أنّ هجمتنا ستعلّم الأوليغاركيّة درسًا في الدفاع عن نفسها ضدّ كل من يحاول النيل من سلطتها ومكاسبها، وفي التاريخ أمثلة لا تحصى من تجارب كهذه. علينا أن نكون حذرين وأن نكون مؤمنين بما نفعل قبل البدء بالفعل. وإنِّي حاليًّا أطرح المشروع للتصويت.

ـ وهذا يعني أنَّنا بحاجة لرأي الأغلبيّة. من يوافق على المشروع فليرفع يده.

وبدأت الوجوه تتلفّت وتتبادل النظر. من يرفع يده أوّلاً؟ ومن سيحجب ثقته؟ والمسؤوليّة ضخمة لكنَّها تستحقّ المجازفة، فهذا واجب الطليعة المثقّفة في اتخاذ قرارات قد تصبح منهاجًا يسير عليه آخرون. فمن يقول نعم عليه أن يتحمّل نتيجة موافقته. ومن يقول لا عليه أن يتحمّل نتيجة وقوفه في وجه مشروع إيجابي لا يستطيع أحد نكران أهمِّيَّته. وهذه مسؤوليّة تاريخيَّة تقع على عاتق كل فرد منهم. ولم ترتفع إلاَّ يد عادل، وظلّت الأيدي الأخرى مخبّأة تحت الطاولة تنتظر لحظة الإلهام.

ورفع سالم يديه الاثنتين وقال:

ـ قف. المجال ليس مجال تصويت. نبدأ بالنقاش ثم نصوّت.

وابتسمت رفيف، فرمقها عادل بنظرة مستعجلة وأنزل يده وقال لنفسه «بدأنا». وشحذ ذهنه وصبره ورحابة صدره، وقال بأدب:

ـ تفضّل.

قال سالم وهو يقرأ نقاطًا دوّنها أثناء شرح عادل لمشروعه:

ـ أنا أهنِّئ عادل على طاقته في جمع الأرقام والإحصائيّات التي تتعلّق بتوزيع الملحق، والمراكز التي سيتمّ التوزيع فيها وأسماء المترجمين الذين يرشّحهم ـ وهم أكفّاء ولا أكفأ، والمطابع ومصحّحي البروفات وطابع رسومات الأغلفة التي ستتصدّر الأعداد، وغيرها من الأمور الفنّيَّة والتجاريّة. أهنِّئ عادل وأعترف له بالمقدرة الفنِّيَّة والاقتصاديّة. ولكن. . .

وسكت لحظة ونظر حوله. فارتفعت الأيدي من تحت الطاولة وارتاحت فوقها. ورقصت عضلة في صدغ عادل، رأتها رفيف وتذكّرت بما كانت تحسّ عند رؤيتها في السابق حين كانت ماتزال تسير في ركابه، وكيف كانت هذه العضلة تثير في قلبها حنان أمّ تشهد ابنها يخوض مسابقة شعريّة أو رياضيّة، واثقة منه لكنّها خائفة عليه، فقد يأتي المجهول بغير المتوقّع. ويظلّ قلبها يدقّ وأنفاسها تلهث، وأحيانًا تفقد أعصابها وتتدخّل في النقاش الصاخب إلى جانب عادل، فيكلّمها سالم بكلمة تطيح بكبريائها. ويتّهمها بالتبعيّة ويقول «أهذا ما لقّنك إيّاه عادل؟» وتغادر الغرفة فيتبعها المدير بحجّة تهدئتها ولا يعود إلى الغرفة.

وابتلعت غصّة في حلقها وقرّرت «لن أضعف ولن أتخاذل، لنصف الجمهور الحقّ في نصف المجلّة، ولا تبعيّة بعد اليوم».

قال سالم بعد أن منح كل فرد من الأفراد نظرة متملّية متفحِّصة:

ـ ولكن، هل سألنا أنفسنا هذه الأسئلة؟ دعوني أطرحها للنقاش أو التذكير فقط:

* من هو اليسار الإسرائيلي؟

* هل يتأثّر الشارع الإسرائيلي بطروحات اليسار؟

* ما مدى تأثير اليسار على النظام في إسرائيل؟

ولأبدأ من أولاً. كما نعلم، هناك الشيوعيّون، راكح، وغالبيّة قادتهم وكوادرهم من العرب. وحين أقول الغالبيّة أعني الغالبيّة السود والشيوعيين، وهذا على ما أعتقد غير مستقرّ لأنّه بغير أساس حقيقي. فالفهود السود على ما أعرف لا يمثّلون قاعدة فكريّة يساريّة حقّة، وأنّ

ما دفعهم لإقامة هذا الحلف مع الشيوعيين هو شعور الاضطهاد الذي يعانونه كيهود شرقيين. والسؤال هو: إذا اختلف وضع اليهود الشرقيين في إسرائيل ونالوا امتيازات يهود الغرب نفسها، هل يظلّون موالين لهذا التحالف؟ والجواب نفيًا على ما أعتقد.

ثم هناك اليسار الصهيوني بمختلف فئاته، وهؤلاء يتأرجحون بين الليبراليّة وبين النزعة الشوفينيّة، ولهذا فإنّ جانبهم لا يؤتمن، فهم يوم معك ويوم عليك، وسيظلّون هكذا حتى بعد خمسين سنة، وحتى لو أغرقنا سوقهم بالملاحق والدراسات والمقالات.

ثم هناك اليساريّون الأحرار، أي غير المنخرطين في حزب أو تجمّع، وقد نجد بينهم أفرادًا لامعين، لكن ألمعيّتهم لا تجد صدى في الشارع الإسرائيلي فيلجأون إلى الشارع العربي أو العالمي. وطبعًا، هؤلاء أفراد قلائل يعدّون على الأصابع، وهم إلى جانب ذلك مقتنعون بعدالة قضيّتنا بملحق وبغير ملحق.

فإذا قمنا بعمليّة حسابيّة بسيطة نجد أنّ الشيوعيين، وغالبيّتهم من العرب كما أوردنا، ليسوا بحاجة لملحق مترجم لأنّهم يقرأون ما نكتبه بالعربيّة. وأنّ اليسار الصهيوني لن يغيّر موقفه الليبرالي المذبذب مهما أبدعنا في صياغة الملحق وتجويده، وأنّ اليساريين غير التابعين للأحزاب والتجمّعات هم من القلّة بحيث أنّ عددهم لا يستدعي إصدار ملحق، وهم واعون وليسوا بحاجة لملحقنا ليزدادوا وعيًا على وعي.

رفع عادل يده وقال:

ـ أطلب منحي فرصة نقاش بعض النقاط التي طرحتها.

هزّ سالم رأسه:

ـ لا لا ، دعني أكمل حديثي أوّلاً ثم علّق ما شئت.

ـ ولكن يا سالم...

ـ لا لا... تكلّمت أكثر من نصف ساعة ولم يقاطعك أحد، والآن عليك أن تمنح هذا الحقّ لغيرك. هذه مجلّة ديموقراطيّة، أليس كذلك؟

هزّ المدير رأسه استحسانًا وقال مشجّعًا:

ـ أكمل يا سالم. أكمل..

وأكمل سالم:

ـ اليسار على علاّته في إسرائيل، يظلّ النقطة المضيئة التي تبذر فينا الأمل للمستقبل، وطبعًا، نتأمّل أن يكبر هذا اليسار وأن يتبلور مع الأيّام أكثر.

قاطعه عادل:

ـ بدون جهد وتغذية لن يكبر أبدًا.

رفع سالم يده محتجًّا واستمرّ رغم المقاطعة:

ـ ولكنّه في الواقع الحالي صغير وضعيف جدًّا، وليس له أيّ تأثير على الرأي العام في إسرائيل ولا على مواقف الحكومة. ولنأخذ أمثلة من الإحصائيّات التي أجريت في إسرائيل عقب زيارة السادات. الأغلبيّة توافق على إنهاء حالة الحرب فورًا. بديع. الأغلبيّة الإسرائيليّة لا توافق على إخلاء المستوطنات في الضفّة والقطاع والجولان وسيناء. وهذا أبدع. أتعرفون لماذا؟ لأنّه يقودنا إلى استنتاج سريع بصدد تأثير اليسار على الرأي العام والشارع الإسرائيلي. الشيوعيّون طالبوا بإخلاء المستوطنات فورًا، واليساريّون الصهيونيّون طالبوا

بإخلائها مع إبداء التحفّظ. الشيوعيّون واليساريّون الصهيونيّون كانوا قد أعلنوا رأيهم بوضوح وكتبوا عنه ودعوا إليه في صحفهم وكل أجهزة إعلامهم، وماذا كانت النتيجة؟ أغلبيّة الشارع الإسرائيلي لا توافق على التخلّي عن المستوطنات، وهذا يعني أنّها لا تتأثّر بطروحات اليسار أيًّا كان نوعه ومهما كانت تحفّظاته. ومثل موضوع المستوطنات أمثلة كثيرة، وكلّها تشير إلى أن تأثير اليسار الإسرائيلي على الشارع الإسرائيلي إن لم يكن معدومًا فهو معدوم حقًّا وفعلاً.

تدخّل عادل:

ـ المسألة ليست بهذه البساطة.

رفع سالم يده وهزّ رأسه:

ـ أنا أحتجّ. أنت تقاطعني، وهذه هي المرَّة الثانية.

ربت المدير يد عادل مهدّئًا وهمس بلطف:

ـ دعه يكمل يا عادل.

همس عادل:

ـ لكنّه سيضيّع الزملاء في متاهات فلا نصل إلى قرار.

هزّ المدير رأسه برحابة صدر:

ـ لا بأس، لا بأس، خذوا وقتكم.

تحرّق عادل وبلع غيظه، ونظر إلى رفيف كي تمنحه نظرة مشجّعة كما كانت تفعل في مواقف كهذه، لكنّها كانت جامدة تنظر إلى سالم دون أن ترمش ودون أن ترسم على وجهها علامات الاحتجاج التي كانت تواكب النقاشات المشابهة.

وواصل سالم:

ـ نصل إلى السؤال الثالث وهو الأهمّ. ما مدى تأثير اليسار على الحكومة؟ وهذا السؤال ليس بحاجة لجواب لأنَّه معروف، وما من داع للشرح وللاستطراد.

والآن، فلنراجع ما لدينا. بالنسبة للسؤال الأوّل، خرجنا باستنتاج أنَّ أغلبيّة الشيوعيين من العرب ولا يحتاجون لترجمة الأدب والدراسات الفلسطينيّة إلى العبريّة لأنَّهم يقرأونها بالعبريَّة. وأنّ اليسار لن يتأثّر بكتاباتنا لأنّ لديه مفاهيمه وتقييماته الخاصّة النابعة من مصالحه القوميّة والطبقيّة. ولن أشير لليساريين الأفراد غير الملتزمين بحزب أو تجمّع لأنَّهم أقلُّ من أن يكونوا جماعة، ولأنَّهم منحازون إلينا ولا داعي لبذل مجهود لكسبهم.

رفع عادل يده وأبقاها مرفوعة، لكن سالم تغاضاها وكذلك المدير. وواصل سالم:

ـ إذن باستطاعتنا أن نشطب السؤال الأوّل من القائمة بعد أن أجبنا عليه سلبًا. وكذلك باستطاعتنا شطب السؤال الثاني بعد أن أجبنا عليه بالسلب أيضًا، ونشطب السؤال الأخير والذي يتعلّق بتأثير اليسار على الحكومة، لأنَّ جوابه معروف، بل أكثر من معروف. وبناء على ما تقدّم، فإنِّي أحجب ثقتي عن المشروع وأقول بأنّه سابق لأوانه، وأنّه سيكون مضيعة لجهودنا التي لو وجّهت لمشاريع ذات إمكانيّات أكبر في النجاح فإنَّنا بذلك نخدم قضايا شعبنا بطرق أقصر ومجهود أقلّ. والآن تفضّل يا عادل.

نظر عادل في أوراقه يتفحّص النقاط التي دوّنها، وفي تلك الأثناء كان أفراد الهيئة يتهامسون وينقلون النظر بين عادل وسالم. وتستقرّ

أعينهم على الأخير فيتأمّلونه لحظة ثم يعودون للتهامس. ورفع المصحّح اللغوي والمسؤول عن الزاوية الأدبيّة يده وتنحنح، ونادى بصوت رفيع وكلمات منمّقة:

ـ يا أستاذ عادل، إذا سمحت من بعد إذنك، هل لي أن أطرح سؤالاً هامًّا وجوهريًّا قبل مواصلة النقاش؟ فقد يكون لهذا السؤال أهمِّيَّة أنتم عنها غافلون.

ابتسم الجميع ابتسامة استظراف. وقال محرّر الزاوية الرياضيّة، وكان يعقد تحالفًا مع محرّر الزاوية الأدبيّة، وأحدهما يهوّي للآخر:

ـ فلنسمع سؤاله يا عادل، فقد نستفيد منه.

تأمّل عادل الاثنين بصبر وفرد كفّه بأدب، وقال:

ـ تفضّل.

تنحنح اللغوي ونظر من خلال نظّارته النازلة على قنطرة أنفه وتكلّم ببطء وبلغة سليمة جدًّا:

ـ أنا أعتقد أنّ مشروع عادل هو مجازفة ضخمة. والمجازفة لا تتعلّق بالأمور السياسيّة وحدها، بل بالأمور اللغويّة أيضًا. نحن نعرف أنّ اللّغة هي عنصر أساسي من عناصر القوميّة، قوميّتنا العربيّة التي نفخر بها فخرنا بديننا الحنيف. وللحفاظ على هذه اللغة سليمة وغير مشوبة، علينا أن ننأى بها عن هبّات الغزو، علينا أن نبتعد بها ونحفظها من مؤثّرات واقعنا الحالي. ونحن كمثقّفين ومسؤولين عن الدفاع عن قوميّتنا وحضارتنا الإسلاميّة، علينا أن ننأى بلغتنا ما أمكن عن كل التيّارات والمؤامرات الغازية الدخيلة. إنّي يا سادة لأرتجف غيظًا وقهرًا كلّما سمعت كلمة عبريّة في الشارع الفلسطيني ينطق بها فرد

فلسطيني. أتعرفون أنّ مفردات لغتهم قد بدأت تغزو شوارعنا؟ حتى أدباؤنا يا سادة، باتوا يستخدمون بعض الألفاظ العبريّة. وإذا سألت أحدهم عن السبب قال «كي أدمج القارئ في الجوّ والمناخ». أيّ جوّ وأيّ مناخ؟ وهل عجزت لغتنا عن استنباط المفردات والمصطلحات اللازمة لتعبئة الجوّ والمناخ الأدبيّ؟ أهذا ما حلّ بنا؟ كنّا في الماضي نستقطب المفكّرين والأدباء والفلاسفة من جميع الأمم فيكتبون بلغتنا، والآن، بتنا بدل أن نسيّر الآخرين في ركابنا وفي ركاب حضارتنا وركاب لغتنا، نسير في ركاب حضارة ولغة الآخرين؟ إنّي لأهيب بالمثقّفين والأدباء والمتأدّبين أن يحفظوا لغتنا من هبّات الغزو التي تحاصرنا، أنسيتم يا سادة أنّنا خير أمّة أخرجت للناس وأنَّ لغتنا هي لغة القرآن الكريم؟

زمجر سالم بفراغ صبر:

ـ أوجز يا أستاذ، أوجز.

ربت المدير يد سالم بلطف وهمس:

ـ دعه يكمل يا سالم.

زمجر سالم:

ـ طلب الإذن في توجيه سؤال فبدأ بإلقاء محاضرة.

ـ دعه يكمل، له الحق في إبداء وجهة نظره.

وتلفّت اللّغوي حوله وقد علت وجهه علامات الاستياء من تعليقات سالم، لكنَّه لم يحتجّ. وقال المدير بلطف:

ـ أكمل يا أستاذ بديع. أكمل.

وتبادل عادل وسالم النظر، وابتسم أحدهما للآخر برأفة، فالحال من بعضه يا سالم، الحال من بعضه يا عادل. متفاهمان على الخطوط العريضة يا عادل لكن هذا البديع بديع زمانه. ألم أقل لك يا سالم إنّ عامل المرحليّات هامّ؟ تفضّل يا سالم اسمع البدع، وهذه البدع لا تمحوها بضربة ساحر. بل يجب تخطّيها وتجاوزها يا عادل. هذه البدع تخلّف الرّكب، ونحن متخلّفون عن الحضارة العالميّة بأجيال، وعلينا أن نسرع. نسرع. الصبر يا سالم الصبر. اسمع اسمع.

وكان الأستاذ بديع مازال يطرح السؤال:

ـ أحيانًا أمسك بأحدهم وأقول له، لماذا تستخدم كلمة «أدون؟» فيقول، هذا حوار يا أستاذ، وحتى أعطي للحوار جوًّا واقعيًّا أجد أنَّ من المناسب أن أطعّم الحوار ببعض مؤثّرات الواقع. وأقول لا بأس يا بني، ولكن بدلاً من استخدام الكلمة الدخيلة في منتصف جملة عربيّة سليمة، أستخدم كلمة «سيد» بدل «أدون» وأضع بجانب كلمة سيّد نجمة أو رقمًا وأفسّر الكلمة بالعبريّة في أسفل الصفحة أو في آخر الكتاب. وإذا لم تكن القصّة في كتاب بل في مجلّة، أورد التفسيرات وترجمة المفردات في نهاية القصّة. أنا لست ضدّ استخدام المفردات الأعجميّة، فلغتنا مليئة بمثل هذه المفردات، وأيّنا لا يذكر ما دخل على اللغة العربيّة من مفردات أعجميّة.

صاح سالم فجأة:

ـ أحتجّ على هذا الإسهاب.

ابتسم عادل وابتسمت رفيف، وقال المحرّر الرياضي مدافعًا:

ـ على أيّ شيء تحتجّ يا سالم؟ إنّ ما يقوله الأستاذ بديع صحيح مئة بالمئة، وأيّنا يستطيع أن ينكر قيمة ما يقوله الأستاذ بديع؟ أنا أعتقد

أنّ ما يقوله الأستاذ بديع مفيد للغاية، وعلينا احترام المواضيع التي يطرقها لأنَّها تذكّرنا بأشياء قد نكون عنها غافلين.

صاح سالم:

ـ ومن قال إنّنا بحاجة لذكرها؟

هزّ الأستاذ بديع رأسه هزّة خيبة أمل. ونظر إلى سالم نظرة زاجرة ولكنّها مليئة بعطف أبويّ. وقال بلهجة أستاذ مدرّب:

ـ أنت يا سالم عجول دائمًا. في التأنّي السلامة وفي العجلة الندامة. دائمًا أقول لك هذا يا سالم كما كنت أقول لتلاميذي منذ أربعين سنة. كنت أقول لهم، المثل يقول «عدّوا للعشرة قبل الإجابة». وأنا أقول، عدّوا للمئة، بل عدّوا للألف.

لوّح سالم يده في الهواء وشهق شهيقًا قويًا. وتغضّنت جبهته حين رفع وجهه باتجاه نور الكهرباء، وبدت ملامحه القويّة صارمة مشدودة. وقال وقد قرّر أن يعلن الحرب على الأدب وزاوية الأدب.

ـ يا أستاذ بديع أنت دخلت على الخطّ لتطرح سؤالاً، سؤالاً واحدًا فقط، وها أنت تأخذ وقتنا وتطرح بدل السؤال محاضرة.

انقبضت ملامح الأستاذ بديع وهو يحسّ بالاضطهاد الناتج عن عدم تقدير أبناء هذا الجيل. وترحّم على أيّام شبابه قبل أربعين سنة حين كان يقول الكلمة فترنّ في الصفّ كالأذان. وكان أبناء الجيل السابق مؤدّبين، يحترمون السنّ ويحترمون الأدب واللغة، أمّا أبناء هذا الجيل.. فحسبي الله ونعم الوكيل.

تدخّل عادل وحاول تهدئة الجوّ:

ـ إنَّ ما تقوله يا أستاذ بديع وارد، ونحن نقدّر إمكانيّاتك اللغويّة

ونشيد بأفضالك على المجلّة، ولكن يا أستاذ بديع، أنت وعدتنا بطرح سؤال، ونحن مازلنا بانتظار هذا السؤال، فهل تتكرّم، إذا سمحت، أن تتفضّل بطرح سؤال كي يستمرّ النقاش ولا نضيع في تفاصيل فرعيّة قد لا ننتهي منها قبل أيّام.

زمجر سالم:

ـ بل سنوات يا أستاذ. ماذا تظنّهم يفعلون في المجمّع اللغوي في القاهرة؟ منذ بداية القرن العشرين وهم يباطحون كلمة «ساندويش»، ساعة يقولون شطيرة، وساعة يقولون مشطورة، وساعة يقولون شاطر ومشطور وما بينهما. تفضّل بطرح سؤالك أرجوك.. وإلاً فلن نقوم عن هذه الطاولة إلاً على نقّالات.

مدّ المدير يديه الاثنتين مهدّئًا وقال بلطفه الذي لا يتزحزح:

ـ خذوا وقتكم، خذوا وقتكم. هذه مجلّة ديموقراطيّة، ولكلّ واحد الحقّ في إبداء رأيه.

تدخّل سالم:

ـ ولكن يا أستاذ عطاالله...

قاطعه المدير:

ـ أنت أدليت برأيك واستمعنا لك، وعادل أدلى برأيه واستمعنا له، وللأستاذ بديع الحقّ في الإدلاء برأيه وعلينا أن نستمع له كما استمعنا لك ولعادل.

قال عادل محاولاً شدّ أزر سالم:

ـ ولكن يا أستاذ عطاالله، الأستاذ بديع دخل على خطّ النقاش فقطعه.

هزّ المدير رأسه وقد بدأت ملامحه تلوّح بالڤيتو:

ـ أنت سمحت له يا عادل، ولا يمكنك التراجع الآن.

وعادت ملامحه للطفها المعهود:

ـ تفضّل يا أستاذ بديع، أكمل. تفضّل.

قال سالم وقد ومضت في خاطره فكرة:

ـ لماذا لا نصوّت على الموضوع؟ من يرغب في الاستماع لعادل فليرفع يده.

دقّ المدير الطاولة دقّة إنذار خفيفة:

ـ قلنا فليستمرّ الأستاذ بديع.

قال سالم بجرأة:

ـ أنت يا أستاذ عطاالله قلت، أمّا نحن فلم نقل، وهذه مجلّة ديموقراطيّة وعلينا أن نأخذ برأي الأغلبيّة.

نظر إليه المدير نظرة صفراء واستعدّ للدفاع عن وجهة نظره:

ـ أنت تحاول أن تقسم الهيئة إلى صفّين، أحدهما مع عادل والآخر مع الأستاذ بديع، وهذا تفسيخ للصف ووحدة الكلمة. ونحن في هذه المجلّة غير معنيين بشحن الخلافات وتشتيت الوحدة.

بدأ عادل وسالم في الكلام معًا فتشابكت أقوالهما، وارتفعت أصوات أخرى من هنا وهناك، وساد جوّ من اللغط، فدقّ المدير الطاولة بالمنفضة. وحدج عادل رفيف وعيناه تسألان «ما بك صامتة كالقبر، ما بك؟» أسدلت جفنيها وغرقت في أوراقها تدّعي الانشغال بها.

ودقّ المدير الطاولة ثانية بالمنفضة ورفع صوته:

ـ هدوء، هدوء. يا سادة، إذا سمحتم.

رفع سالم يده متحرّقًا ولوّح بها كطالب لجوج:

ـ كلمة واحدة يا أستاذ عطاالله، واحدة فقط، أرجوك.

ـ نعم.

ـ نحدّد لكل منّا خمس دقائق حتى لا ينسى الواحد منّا نفسه ويسهب.

وهزّ أفراد الهيئة رؤوسهم موافقين، وراقبهم المدير وقال:

ـ لا بأس.

وقال سالم بسرعة قبل أن يفلت الزمام من يده:

ـ وقد انتهت دقائق الأستاذ بديع الخمس.

فاندلعت الضحكات من الجميع بما في ذلك المدير ورفيف. لكنّ الأستاذ بديع وقد أحسّ أنّه أصبح مثارًا للضحكات والسخرية وقف وهو ينتفض وقال بصوت متهدّج.

ـ عيب عليك يا سالم. عيب عليك. وأنتم جميعًا تتواطأون معه وتسخرون منّي. ولكنّي أربأ بسخريتكم وأعتبرها موجّهة لغير شخصي. بل لما أذكّركم به وأنتم عنه غافلون. أنتم لا تسخرون منّي، بل تسخرون من لغتكم، تسخرون من قوميّتكم، تسخرون من دينكم وحضارتكم. اللعنة على هذا العصر وعلى أبناء هذا العصر. اللعنة على هذه المجلّة المنحرفة التي تغذّي العقول بأفكار الغرب وكفره وسقوطه. اللعنة على زاوية العامل المليئة بالأخطاء اللغويّة والألفاظ

السوقيّة. اللعنة على زاوية الأدب المليئة بالأودنات والجفيرات وكل المصطلحات الدخيلة. اللعنة على زاوية المرأة المليئة بالانفعالات والتشنّجات ومهاجمة الشرع وتحدّي الدين. اللّعنة على هذه المجلّة. إنِّي مستقيل، مستقيل.

وارتفع اللّغط، وتشابكت الأصوات، وقهقه سالم بصوت مرتفع، وابتسم عادل بغيظ، وابتسمت رفيف بقلق، فهذه الهجمة على زاوية المرأة سيكون لها مفعولها السلبي على مشروعها. وغاصت في أوراقها وأفكارها ونسيت ابتسامتها معلّقة على وجهها حتى كلحت.

وضرب المدير الطاولة بمنفضة وأعلن فضّ الجلسة:

ـ نرفع الجلسة. نؤجّل الاجتماع للساعة الثالثة بعد الظهر. تفضّلوا.

انسحب سالم وهو مازال يقهقه. وانسحبت رفيف وهي تجترّ قلقها. وانسحب عادل وهو يحمل المشروع تحت إبطه المبلّل بالعرق.

(٢١)

دخل المدير الغرفة ويده تحيط بكتف الأستاذ بديع. كان قد صالحه وأطرى جهوده وقدّم له فنجان قهوة وسيجارة وروّق خاطره، ورجاه أن يسحب استقالته ففعل. ودخل الاثنان غرفة الاجتماع بعد أن وعد المدير الأستاذ بديع بشدّ أزره ضدّ قلّة أدب أبناء هذا العصر، وأن يفهمهم أنَّ المجلّة لا تتنصّل من الماضي وأمجاده، بل إنّها تصرّ، وتصرّ بصمود على الإبقاء على هذا الماضي وعلى أمجاده. «ننسى ماضينا يا أستاذ بديع؟ معاذ الله. إذا خسرنا ماضينا فماذا يتبقّى لنا؟ الحاضر وما كسبناه، والمستقبل، بيد الله وعلم الغيب، ونخسر ماضينا أيضًا ذخرنا الوحيد؟ لا والله محال، محال. امسحها بهذه اللّحيّة يا أستاذ بديع. سالم ولد طيّب لكنّه عجول ومتسرّع كما قلت، وعلينا أن نتحمّل تسرّعه ونقوّم اعوجاجه. إذا تركناه على خاطره يشتطّ أكثر، وعلينا أن نكبح جماحه.. لا لا، أنت مخطئ، سالم يقدّرك وعادل يقدّرك وكلّهم يقدّرونك. ما رأيك بعادل؟ لطيف ومؤدّب ودبلوماسي. أليس كذلك؟ ابن ناس وأصله يشفع. الأصل يونّس يا أستاذ بديع، وأنت أدرى الناس بالأنساب والأصول. عادل شاب محترم رحم الله والده. عائلة الكرمي عائلة عريقة، وعادل مؤدّب ومهذّب ويحترمك احترامه لوالده. يا رجل، يا رجل، أنت قاعدة المجلّة وجوهرتها وتاج رأسها. أنت الأب وهم الأبناء، وإذا لم تحتملهم أنت فمن يحتملهم؟

ورفيف امتعضت، لا بأس، فصالحها؛ وحافظ امتعض، لا بأس فصالحه، فزاوية العامل هامّة يا رجل، وزاوية المرأة كذلك. علينا أن نجاري العصر يا رجل. علينا أن نستمع للجميع وأن نفسح المجال للجميع. وأن نحافظ على خطّ مجلّتنا الديموقراطي، وألاّ نتقوقع حتى لا يسبقنا العصر ويتخلّى عنّا. أعرف، أعرف، ولكن علينا أن نجاري. المهمّة صعبة، ولكنّها مسؤوليّتنا التاريخيّة، وعلينا أن نحافظ على التاريخ كي لا ينسانا. كنت واثقًا من حلمك وسعة صبرك، تفضّل، تفضّل».

قال المدير وابتسامة رحبة على وجهه:

ـ أرجو أن تكونوا قد هدأتم بعد الغداء فالمعدة فارغة تفقد الإنسان صبره، أليس كذلك؟

وابتسم الجميع ابتسامة مجاملة وانتظروا البقيّة. واصل المدير وهو يتحسّس المنفضة:

ـ وأريد، بالنيابة عن الجميع أن أتقدّم بالشكر للأستاذ بديع الذي استجاب للنداء وتراجع عن تقديم استقالته. وقد أفهمت الأستاذ بديع أنّنا ـ جميعًا ـ نقدّر جهوده وأفضاله على المجلّة كما قال عادل، فالأستاذ بديع كما قلت له بنفسي، هو قاعدة مجلّتنا الناطقة بالعربيّة، وأنّه جوهرتنا الغالية التي لا غنى لنا عنها. وأنّنا جميعًا أبناؤه وهو الوالد. حفظ الله لغتنا وحفظ مجلّتنا وحدتنا.

وصفّق محرّر الزاوية الرياضيّة، فصفّق الآخرون وصفّق المدير وقد طابت نفسه. فها هم المحرّرون أمامه جميعًا، لم ينقص منهم أحد ولم تخسر المجلّة أيّ صوت من أصواتهم. وهو مازال المدير الكفؤ الذي يتمكّن من فضّ الخلافات بين الأطراف حين تتأزّم الأمور. وهو المدير

الكفؤ حين تهتزّ ميزانيّة المجلّة فيدعمها برأس المال من الداخل والخارج. وهو المدير الكفؤ الذي استطاع رغم كل الظروف وكل التيّارات الحفاظ على خطّ المجلّة الديموقراطي.

ومن أعلى الطاولة جاء صوته:

ـ لدى الأستاذ بديع سؤال وجيه اعترف بأهمِّيَّته وأولويّته، وأعتقد أنّنا لن نستطيع الاستمرار في نقاش مشروع عادل دون الالتفات إلى هذا السؤال. والحقيقة أنَّ هذا السؤال لم يخطر ببالي أبدًا. فأنا لست ضليعًا بالأمور اللغويّة كما تعرفون. لكن الأستاذ بديع بفضل خبرته وأسبقيّته في هذا الميدان، استطاع أن يثير نقطة غابت عن بال الجميع وأوّلهم عادل. عادل قدّم لنا دراسة مفصّلة عن المشروع لكنَّه نسي نقطة حسّاسة وجوهريّة. وأنا أشيد بألمعيّة الأستاذ بديع وأطلب منه بالنيابة عن الجميع أن يتفضّل ويطرح سؤاله الحيوي.

واستبدّ الفضول بعادل، فما هو السؤال الحيوي الذي نسي الإشارة إليه في دراسته؟ أمور الترجمة وبحثها، أمور الطباعة وحلّ مشكلتها. المشكلة المادِّيَّة ووجد لها مخرجًا. الأمور الفنِّيَّة كلّها أخذها بعين الاعتبار. فما هي النقطة الحيويّة والهامّة التي لن يستمرّ النقاش بدونها؟

وفتح عادل أذنيه على سعتيهما، وكذلك سالم، وكذلك رفيف وكلّ الآخرين:

ـ تفضّل يا أستاذ بديع، تفضّل، كلّنا آذان صاغية.

تنحنح الأستاذ بديع وتفضّل:

ـ كما يعرف الجميع، فاللّغتان العربيّة والعبريّة هما لغتان ساميتان.

وللغات السامية ملامح متشابهة من حيث الألفاظ ومن حيث القواعد. فمثلاً في اللغة العبريّة وفي العربيّة الكثير من الألفاظ المتشابهة مثل كلمات أذن، عين، رجل، سلام.. وأنا وأنت وأنتم وغيرها. كذلك فإنّ التشابه متواجد في طريقة الكتابة، والكتابة في العربيّة تبدأ من اليمين إلى اليسار، وكذلك اللّغة العبريّة، تبدأ من اليمين إلى اليسار. والسؤال الهامّ هو..

وفتح الجميع آذانهم باهتمام. وتأمّلهم الأستاذ بديع وهو يهزّ رأسه بخطورة ويتفحّصهم فردًا فردًا:

ـ السؤال الهامّ هو: إذا وافقنا على مشروع عادل وبدأنا بإصدار الملحق، فبأيٍّ اللغتين نبدأ وكلتاهما تبدآن من اليمين إلى اليسار؟ نبدأ بالعربيّة أم بالعبريّة؟

ووقع الطير على رؤوس الجميع ومازال الأستاذ بديع يتأمّلهم ويهزّ رأسه بخطورة. وأصيب عادل بصدمة ألجمته وعقدت لسانه، وفتح عينيه وأجالهما واستقرّتا على عيني سالم. وأطلق سالم فجأة قهقهة قويّة مدوّية صاخبة. وظلّ يضحك ويضحك، ويتلوّى ويميل بكرسيّه للوراء وللأمام. لهذا الجانب ولذاك الجانب. ونقر المدير الطاولة بخاتمه، لكن سالم ظلّ يضحك، وعاد يدقّها بقبضته وظلّ سالم يضحك. وأمسك بالمنفضة ودقّها فخبّأ سالم رأسه في ذراعه وأخذ يشخر.

قال المدير وهو يرفع صوته متغاضيًا عن ضحكات سالم:

ـ هذا السؤال يجب ألاّ ننكر أهمِّيَّته. فإذا بدأنا باللغة العربيّة اتّهمنا الإسرائيليّون بالتحيّز والشوفينيّة. وإذا بدأنا باللغة العبريّة اتهمنا العرب بالتبعيّة والخيانة. وعلى الوجهين فإنّنا سنواجه الأزمات ولا نخلص من

شرّ هذا ولا شرّ ذاك. وهذا ستكون له ردّة فعل سلبيّة على المجلّة، فنخسر قرّاءنا الحاليين بدل أن نكسب قرّاء جددًا. وماذا يحلّ بالمجلّة حينذاك؟ ماذا يحلّ بنا كجماعة وكأفراد؟ ستخسر مجلّة البلد سوقها، وسنواجه التهم كجماعة، وسنخسر سمعتنا كأفراد وطنيين في الداخل والخارج. وأنا يا سادة لست على استعداد لخوض هذه المجازفة. فأنا بصراحة، وبكلّ صراحة، أخاف على سمعتي من الغبار. طوال حياتي كنت رجل مبدأ ورجل وطنيّة وماضيّ يشهد والله يشهد. طوال حياتي وهبت قلمي ونفسي للناس وقضايا الناس وقضايا الشعب والقضيّة الفلسطينيّة من أوّلها لآخرها. طوال حياتي كنت رجلاً نظيفًا ولم يتمكّن أيّ إنسان من نفض الغبار عن فردة حذائي. ناضلت وجاهدت والله يشهد والصحافة العربيّة تشهد. والآن، في سبيل مشروع غير مأمون العواقب ألقي بسمعتي في الوحل؟ حاشا الله. فمهما كان الظرف ومهما كانت المصائب فأنا أرفض أن يقال عطا الله انحرف عن مبادئه ونسي عروبته. لا ترفع يدك يا سالم، لا ترفع يدك. أنت لم توافق على المشروع وأنا أوافقك. وأنا أعتقد أنّ هذا المشروع سابق لأوانه.

صاح سالم:

ـ ولكن منطلقاتنا مختلفة.

رفع المدير يده مسكتًا:

ـ أرجوك، أرجوك، لا تقاطعني، عادتك في مقاطعة الآخرين هي عادة سيّئة للغاية، وعليك التخلّص منها بأسرع وقت ممكن حتى نستمرّ في العمل.

وكان في صوته رنّة تهديد التقطها عادل فحدج سالم كي لا يناقش ويفقد المدير صبره، وقد تكون العواقب وخيمة فيفقد سالم موضعه في

المجلّة. وحرّك شفتيه بدون صوت «اسكت، اسكت». وسكت سالم على مضض ورفع رأسه إلى الكهرباء وحملق متجهّمًا. وواصل المدير:

ـ مشروع عادل ممتاز، والطريقة التي قدّم بها عادل المشروع ممتازة، وأنّي أهنّئه على كفاءته وأشيد بها، وسأحتفظ بملفّ هذا المشروع في خزانتي بين الوثائق والمستندات الهامّة. وقد تأتي الأيّام بالحلّ المناسب ويفرج الله عن هذا المشروع ويصبح قابلاً للتنفيذ. أمّا الآن، فإنّي أعتقد أنّ المشروع سابق لأوانه. وإنّي أشكر الأستاذ بديع الذي لفت نظري إلى هذه النقطة الهامّة والحيويّة التي غابت عن بال الجميع وبالي. وإنّي كمسؤول عن هذه المجلّة، وكرجل له تجاربه الغنيَّة في حقل الصحافة والمطبوعات، وأعرف الجمهور العربي وحساسيّته تجاه القضايا التي قد يعتبرها سالم ثانويّة، وقد يعتبرها عادل بالية وعلينا تقع مسؤوليّة تجديدها، إلاّ أنّي أقول إنّ القارئ العربي لم يتغيّر، وإنّه ليس على استعداد لتقبّل التجديد وخصوصًا من منطقة تواجه التحدّيات والضغوطات، كمنطقتنا. سيتّهموننا بالتبعيّة وعدم الصمود. سيقولون ما لا تحلمون به. سيقولون أشياء تقشعر لها أبدانكم يا سادة. أنا أعرف الشعب العربي واعرف القارئ العربي. وعلى الصحفي أن يكون حذرًا جدًّا كما قال عادل. هذه النقطة أشار إليها عادل وأنا لا أنكر فضله. كما أنّ سالم أشار لنقاط كثيرة هامّة وحيويّة، ولو أنّي أختلف معه في أمر الفهود السود وفي عدم تمكّننا من التأثير على اليسار الصهيوني. أنا أختلف مع سالم في أمور كثيرة، ولكنّي أوافقه على أمور هامَّة؛ وبنظري أنّها أهمّ ما في الموضوع. ربما اختلفت منطلقاتنا كما قال سالم، لكنّ النتيجة واحدة. أنا لا أوافق على المشروع وكذلك سالم وكذلك الأستاذ بديع وكذلك. . .

وأجال عينيه في بقيّة أعضاء الهيئة، ورفع المحرّر الرياضي يده:

ـ وأنا كذلك.

هزّ المدير رأسه استحسانًا ثم سأل محرّر زاوية العامل:

ـ وأنت يا حافظ، يجب ألاَّ ننكر أهمِّيَّة زاوية العامل، ما رأيك؟

قال حافظ بتجهّم:

ـ أنا أوافق على مشروع عادل، فهو أمل المجلّة الوحيد في التجديد. أنا أعتبر المشروع ثورة وعلينا تقع مسؤوليّة دعمها.

هزّ المدير رأسه استحسانًا، فلا بأس من سماع رأي المعارضة طالما أنّ أغلبيّة أصوات أفراد الهيئة إلى صفّه. وبما أنّه يتمكّن من كسب الجولات عن طريق الديموقراطيّة فما الداعي لاستعمال حقّه في الفيتو. وتوجّه إلى رفيف وسألها بفضول وهو يرى ملامحها متغيّرة عن السابق:

ـ وأنت يا رفيف؟

قالت بجفاء:

ـ أستنكف عن التصويت.

وأطلق سالم صيحة دهشة، وحملق عادل في وجهها وقد أصيب بصدمة أخرى، وبدأت أعماقه تئنّ «حتى أنت يا رفيف، حتى أنت! أينك يا أبو العزّ ألم أقل لك؟ ستكتشف غير ما تتوقّع. حتى أنت يا رفيف. لعن الله العواطف». وقرّر أن يراها بعد الاجتماع بأيّ ثمن. منذ تلك اللّيلة اللّعينة لم يرها إلاَّ لمحًا. أكثر من أسبوعين. ما عادت تسأل عنه. تتغاضاه، تتجاهله، تتهرّب منه. تريد أن تقطع العلاقة؟ لا بأس، ولكنّها تخلط بين الخاصّ والعام، وهذا خطأ، ويجب أن تعرف خطأها وأن تتعلّم.

قال المدير:

ـ والآن، وبعد أن وصلنا إلى القرار المطلوب، هل لدى أيّ واحد منكم أيّ جديد؟

رفعت رفيف يدها بتهيّب، فقد آنت الساعة وعليها أن تدلي بدلوها فلعلّ وعسى. ورغم أنّها تشكّ في إمكانيّة نجاح مهمّتها، إلاّ أنّها لن تضيّع الفرصة. على الأقلّ، فليعرف عادل بما يدور في ذهنها، وليعرف أنّها باتت مستقلّة عنه وأنّها لن تسير في ركابه، ليعرف أنّ لها مشاريعها الخاصّة وشخصيّتها الخاصّة واهتماماتها الخاصّة. فليحلّ بمشروعها ما حلّ بمشروع عادل، لا بأس، على الأقلّ تكون قد واجهتهم بشيء من عندها وليس من عند عادل، وتكون قد واجهت عادل قبل الجميع فيعرف أنّه ليس في الساحة وحده، وأنّه ليس خيّال السبق الأوحد.

قالت رفيف وهي تنظر في وجه المدير وحده:

ـ لديّ مشروع مشابه لمشروع عادل، إلاّ أنّه لا يحمل طابع المجازفة التي أخافتكم. فهو من ناحية سيزيد من عدد قرّاء المجلّة فترتفع نسبة المبيع، وهذه المسألة واردة ولا نستطيع إنكار أهمّيّتها يا أستاذ عطا الله. ومن ناحية ثانية، فهو لا يتعلّق بالمسائل الوطنيّة المباشرة التي قد تتسبّب في إثارة الأقاويل والاتهامات سواء في الشارع العربي أم في الشارع الإسرائيلي. لكنّه على المدى البعيد سيزيد من فعاليّة مجلّتنا في نشر الوعي لدى فئة كبيرة من المواطنين إن لم يكن نصفهم. ومن ناحية ثالثة، فإنّ عنصريْ التجديد والمبادرة اللّذين لا ينفكّ الزملاء عادل وسالم وحافظ يطالبون بهما متوفّران في المشروع بشكل فعّال.

علّق سالم:

ـ شوّقتنا يا رفيف، أسرعي بربّك.

لم تلتفت ولم تنظر، وواصلت:

ـ طوال مدّة عملي في الزاوية كنت أحسّ أنّ الزاوية لا تخدم الهدف المطلوب للأسباب التالية:

إنّ الزاوية تمرّ بمشاكل المرأة مرور الكرام دون أن تتوغّل فيها وتحاول نبشها بشكل جدّي، وبذلك اتخذت الزاوية طابع المهدّئ والرشوة بدل أن تتخذ طابع التثوير والتوعية.

إنّ الزاوية اتّخذت طابعًا تجاريًّا ودعائيًّا بدل أن تتخذ طابعًا علميًّا مبنيًّا على الدراسات وجمع الحقائق وطرح المشاكل ومحاولة إيجاد حلول جذريّة لها.

إنّ الزاوية كانت تخاطب المرأة من علٍ، على اعتبار أنّ المرأة عاجزة عن اختيار اهتماماتها، فكنّا نختار لها نحن ما نعتقد أنّه يهمّها دون أن نسألها رأيها أو أن نشركها في عمليّة الاختيار وعمليّة التعبير. بمعنى أنّنا نستخدم الزاوية لوصول المجلّة إلى المرأة، بدل أن تستخدم المرأة الزاوية للوصول إلى المجلّة. والآن، أبدأ بتفصيل البنود بندًا بندًا.

ونظرت حولها لأوّل مرّة. كان عادل يصغي إليها باهتمام شديد، يده على خدّه وعيناه فيهما نظرة اختلط فيها الحزن بالفضول الشديد. جبينه معقود وبشرته شاحبة. واستحالت عليها معرفة ما إذا كانت سحنته قد اتخذت هذا الطابع الحزين نتيجة الصدمة التي تلقّاها إثر هزيمة مشروعه، أم لأنّها تهزمه كامرأة حين تتحدّاه وتخرج عن ركبه. وكان سالم يعقد ذراعيه على الطاولة وفي وجهه طيف ابتسامة وعيناه فيهما حماس من يشهد حدثًا تاريخيًّا جديدًا ومثيرًا. وحافظ يستمع

بجدِّيّة ولكن دون حماسة. والاستاذ بديع والمحرّر الرياضي يستمعان بدون جدِّيَّة ودون حماسة. والمدير يهزّ رأسه مشجّعًا ويقول:

ـ أكملي يا رفيف.

واستوعبت الجوّ جيّدًا: عادل، وبعد أن هزم مشروعه وانتهى الأمر فلن يقف في وجه مشروعي فهو رجل مبدأ. قد يجري عليه التعديلات لكنّه لن يعارض. المدير قد ينحاز إلى صفّي إذا عرف أنّ المشروع سيكون مربحًا ولا يحمل طابع المجازفة، وأنّه سيزيد من سمعة مجلّته في الداخل والخارج كمجلّة فعّالة لها قيمتها ولها وزنها ولها أكبر عدد من القرّاء في الضفّة والقطاع والجليل. سالم سيقول: المشروع سابق لأوانه. ولكن إذا استطعت إقناعه أنّ الأوان قد آن لنعمل على إيقاظ النصف النائم من الشعب فتصبح عمليّة التحرير أكثر يسرًا وسرعة.. سيوافق. حافظ قد يكون إلى صفّي بدون تحفّظ ولو أنّه لا يتسرّع في إبداء الحماسة. الرياضي سأذكّره بمواقفه من المباريات النسائيّة التي شارك بالتحكيم فيها وكان يعتبرها نصرًا على الضعف الجسماني للمرأة العربيّة. والأستاذ بديع سيقول لا، وسيصرّ على قوله. لكنّه سيكون الوحيد ضدّ الأغلبيّة إذا وفّقت في كسب الأغلبيّة، ولأحاول.

وقالت بصوت منضبط النبرات:

ـ الزاوية كان لها مفعول الرشوة. فهي بدل أن تجعل المرأة تحسّ أنّها مهملة في مجتمعها العربي، وأنّ هذا المجتمع لا يحرّك إصبعًا لتحسين أوضاعها وتغيير طرق معاملتها كإنسان حرّ له الحقوق نفسها التي يتمتّع بها الرّجل، هذه الزاوية تجعلها تحسّ أنّ لها أهمِّيَّتها وأنّ اسمها وارد في مجال الفكر والصحافة، وأنّ الوعي العربي لا ينساها، بل إنّه يخصّص لها زاوية تتردّد فيها كلمة «المرأة» أكثر من مئة مرّة في

الصفحة الواحدة، ويتردّد فيها اصطلاح «حرِّيَّة المرأة» أكثر من عشرين مرّة في الصفحة الواحدة. وكأنّنا بهذا الأسلوب نقول للمرأة: «أنت يا نصف المجتمع أيّتها المرأة، مظلومة ظلمًا كبيرًا، ولكنّا نؤمن بحرِّيَّتك ونعمل على الوصول إليها، فقرّي عينًا أيّتها المرأة». ثانيًا: الزاوية اتخذت طابعًا تجاريًّا ودعائيًّا. وهذا البند شائك وعلينا أن نفصله بحذر. أنا لا أنكر أهمِّيَّة المبيع والتوزيع، ولا أنكر أنّ رأسمال المجلّة محدود وأنّ زاوية المرأة تعمل على زيادة البيع وتسويق المجلّة، وهذا وارد وبالحسبان. ولكنّي أتساءل: لماذا لا نعطي الشاري نفعًا بدلاً من اللغو؟ المرأة تدفع، ونحن بحاجة لهذا الدفع، فلماذا لا نقدّم لها مقابل ما تدفعه فائدة حقيقيّة تساهم في رفع مستواها الفكري ووعيها الوطني والثوري؟ هذه مجلّة تقدّميّة والكلّ يقرّ بهذا، مغضوب عليها من قبل الاحتلال ومغضوب عليها من قبل الرجعيّة العربيّة، فلماذا لا نقدّم للمرأة مواضيع تقدّميّة حقّة تساعدها على فهم واقعها وتحديد رؤياها لمستقبلها كمواطنة فعّالة في المجتمع؟ جزء كبير جدًّا من الزاوية مرصود لنشر نبذ وأقوال وفقرات من هذا الكتاب ومن ذاك، ومن هذه المجلّة العالميّة ومن تلك. ففيها: وصفة لكعكة الزبيب والزنجبيل وطبخة تدخل معدة الرجل لتدخلك إلى قلبه يا سيّدتي، وكيفيّة إرضاع مولودك دون المرور بمرحلة تشقّق الثديين الأليمة، وكيف تكونين امرأة عصريّة جذّابة. وهنا فستان وهناك تسريحة وهنا كريم يزيل بقع الكلف والتجاعيد..

أنا لا أنكر أهمِّيَّة باب «حلّ لمشكلتك يا سيّدتي»، فقد أثار هذا الباب من التساؤلات والتجاوب ما لم يثره أيّ باب آخر. ولكن، كم مشكلة تعرض في هذا الباب؟ مساحة الزاوية كلّها لا تزيد عن صفحتين

من كامل المجلّة! فما مساحة الباب؟ نصف صفحة، أي أقلّ من نصف قدم مربّع.

قال المدير وعلامات الاحتجاج والدهشة على وجهه:

ـ أكثر، أكثر.

ـ حذفت من الصفحة الحواشي والزخرفة يا أستاذ عطا الله.

رفع يده مستوقفًا:

ـ ولكن انتظري، من كان المسؤول عن اختيار المواد في الزاوية، ألست أنت يا رفيف؟ هل تدخّل أحد منّا في أمورك وقال لك ضعي طبخة بدلاً من وضع دراسة؟ كان بإمكانك أن تملأي زاويتك بما يروق لك وبما تعتقدين أنّه مفيد وجادّ بدلاً من وضع وصفة لكعكة الزبيب والزنجبيل وبدلاً من شرح كيفيّة إرضاع الطفل وكيفيّة الحصول على مظهر عصري جذّاب. ثم إنّي أتساءل واسمحي لي يا رفيف بهذه المقاطعة وهذا التدخّل.

وتنحنح سالم وابتسم، لكنّ المدير لم يلق إليه بالاً واستمرّ:

ـ إنّي أتساءل حقًّا، ما وجه الخطأ في إرشاد المرأة إلى الأساليب الحديثة لتخفيف آلامها الجسديّة؟ أنا متزوّج كما تعرفون... (وابتسم بخجل، واتخذ وجهه طابعًا أبويًّا وطفوليًّا في الوقت نفسه)... وطبعًا لي أولاد وأعرف المشاكل التي تمرّ بها المرأة بعد الولادة. وأنا أذكر أنّ زوجتي كانت تعاني آلامًا مبرحة نتيجة تشقّق الثديين، وفي أيّامنا ما كانت المرأة تعرف أنّ هناك مراهم ودهونات ومسّاجات إذا استخدمتها استطاعت تلافي تشقّق الثديين، فما المانع في إرشاد المرأة لهذه الطرق التي تساهم في تخفيف آلامها؟ ثمّ ما وجه الخطأ في إرشاد المرأة إلى طرق تستطيع من خلالها الاحتفاظ بزوجها؟

والتفت إلى أفراد الهيئة بشكل دائري:

ـ يا رجال، إنّي أسألكم أن تقولوا رأيكم بصراحة وبمنتهى الصراحة، ودعونا من التكلّف والزيف والشعارات. أيّنا لا تجذبه المرأة ذات المظهر الحسن والوجه الحسن؟

قهقه سالم وابتسم عادل وهزّ الرياضي رأسه موافقًا، وتدخّل الأستاذ بديع متحمّسًا:

ـ أنا أقرّك يا أستاذ عطا الله، أنا أقرّك، فالله جميل ويحبّ الجمال. ونحن والله بشر، في صدورنا قلوب والشعر العربي كلّه يشهد.. من امرئ القيس حتى ابن أبي ربيعة حتى نزار قبّاني حتى شعراء الأرض المحتلّة. ولو أنّي لا أنادي بالتبرّج والتبهرج والخلاعة، فإنّي والله أمقت هذه الأمور مقت الدين والتقاليد لها. لكنّي أرغب في رؤية زوجتي بشكل يفتح نفسي، قلت «حلال الصفحتين في زاوية المرأة. وحيّاك الله يا رفيف يا بنت الأكارم».

قهقه سالم وهو يهزّ رأسه، وضحك الآخرون وكل من زاويته يداعب زاوية المرأة، وأكمل المدير:

ـ وعلى كلّ حال، نحن أعطيناك الزاوية وقلنا لك، يا رفيف خذيها واصنعي بها ما شئت. وكانت الزاوية ناجحة وإنّي أعترف بفضلك، فما هذه الهجمة المجحفة التي تشنّينها على زاويتك اللطيفة بدون مبرّر؟ وعلى كل حال، ومن خلال المنهاج الديموقراطي الذي ننتهجه أقول، لك مطلق الصلاحيّات في إجراء التعديلات التي ترتأينها، فمازالت الزاوية مملكتك تصنعين بها ما شئت!

وكان وجه رفيف قد أصبح بلون العنبر، لكنّها تماسكت وقالت بعناء:

ـ أيّة مملكة هذه التي لا تزيد مساحتها عن قدم مربّع؟ ثم من قال إنّي أريد الزاوية مملكة؟ أنا أريدها جمهوريّة ديموقراطيّة حقيقيّة يعبّر الفرد فيها عن رأيه بحرِّيَّة.

قال المدير بحماس:

ـ وأنا أوافقك، وأشجّعك، فأنت تعرفين ميولي وتعرفين منهاجي في العمل، ماذا تريدين؟ إشراك نساء من خارج المجلّة في تحرير الزاوية؟ لا مانع لديّ، بل إنّي أشجّع هذا لأنّه سيجعل المرأة تقبل على الزاوية أكثر. ولكنّي أذكّرك من الآن أنّ ميزانيّة المجلّة لا تحتمل الدفع للمساهمات في التحرير. فإذا استطعت الحصول على متبرّعات تكونين قد أبدعت. وأقول لك ما قاله الأستاذ بديع «حلال الصفحتين في زاوية المرأة، وحيّاك الله يا رفيف يا بنت الأكارم».

وابتسم برضى وهو يتلفّت حواليه، فابتلعت رفيف غصّتها وبدأت تلعن: لعنة الله عليكم، أهذه هي أفكاركم النيّرة؟ أهذا ما تطالبون الزاوية به؟ فتح نفوسكم المسدودة لزوجاتكم المهملات في التطريز؟ تطالبون الزاوية أن تساهم في توعية النسوة إلى أهمِّيَّة التطريز فيجتهدن بالتطريز أكثر، هذا هو المطلوب ولا شيء آخر؟ وهذه المملكة التي لا تزيد مساحتها عن قدم مربّع ورغم ذلك تحمّلون بها ربّنا الجمائل، هذه المملكة أهي مملكتنا حقًّا؟ أم هي الطعم الذي ترشوننا به لنواصل في تدعيم سلطة الرجل في مملكته؟ أهذا ما تفهمونه عن آلام المرأة.. تشقّق الثدي والحلمة؟ أهذا مفهومكم عن الحبّ الذي يجب أن يدخل معدة الرجل وأمعاءه قبل أن يدخل قلبه؟ أهذه نتيجة كل الكلام الذي قلته وأعددته وتعبت في حفظه وتدوينه واعتقدت أنّكم تستوعبونه وتفهمونه؟ لكنّكم لا تفهمون غير شيء واحد، أنّ المرأة حمارة لابدّ

من تطريز سرجها حتى يطيب ركوبها. يا راكب الحمار غدًا تقوم الدولة وتظلّ متربّعًا على عرش الصهريج وعرش حمارك.

وضغطت كفًّا بآخر، وضغطت قدمًا بأخرى فآلمها الجرح وأنّت: أما من أحد يساعدني على الوصول؟ أما من أحد يشاركني وحشة الطريق؟

وسمعت عادل يأتيها كنجدة غير متوقّعة:

ـ أوّلاً، أنا أحتجّ على مقاطعة رفيف بهذا الشكل المجحف.

لقط سالم الخيط وأكمل:

ـ وعادة مقاطعة الآخرين هي عادة غير مستحبّة، كما أنّها تعطّل مسيرة العمل، عدا عن أنّها تعارض منطلقاتنا الدِيموقراطيّة التي ننادي بها ليلاً ونهارًا.

لاحت في وجه المدير اكفهرارة بسيطة محاها بابتسامة لطيفة وأرفقها باعتذار نفس كريمة:

ـ أنا أعتذر، وأسحب ما قلت وأطلب من رفيف أن تستمرّ في قراءة مشروعها وشرحه، فمازال حقّها في الكلام ساري المفعول.

قالت بصوت متهدّج وقد بدأت تفقد انضباطها:

ـ أيّ حقّ وأيّ كلام؟ وهل أبقت لي تعليقاتكم أيّ أمل في إقناع أيّ واحد منكم؟

وسمعت ضربة خفيفة على الطاولة، وقال حافظ وقد لانت ملامحه:

ـ أنا مقتنع بكلّ ما قلت، وأنا أطالبك بأن تستمرّي رغم كل

المثبطات. المهمّ ألاّ تفقدي صبرك. وهذا الموقف ليس بجديد علينا، زاوية العامل لا تعامل بشكل أرقى.

وطرفت عينا المدير وجنحت أفكاره «يا وعدنا، كنّا بواحد صرنا باثنين». وتلفّت إلى يمينه وإلى يساره «بل أربعة، لكن لا بأس، فهم يعرفون حدود المجلّة وإمكانيّات المجلّة ورأسمال المجلّة».

قال سالم مثنيًا على قول حافظ وهو يرى وجه رفيف يوشك على البكاء:

ـ وأنا مقتنع ومتشوّق لسماع البقيّة.

ونظرت إلى عادل بتلقائيّة فهزّ رأسه مشجّعًا وهمس:

ـ أكملي.

وحين التقت عيناها بعينيه لأوّل مرّة بعد أسبوعي غياب اهتزّ كيانها كلّه، وسحبتها عيناه إلى شوارع القدس وإلى الدباغة وإلى سماء فيها نجوم وشعر وشوق وشجن، وأحسّت بيد مجهولة تسحب شعر رأسها وتسحب قلبها من جذوره فبدأت ترتجف.

وقال المدير مشجّعًا ومعتذرًا:

ـ أنا آسف على المقاطعة وأعتذر، استمرّي يا رفيف، استمرّي.

واستمرّت. أكملت الشرح ولكن بصوت متعب وأعصاب مشدودة. وسمعت صوتها ينطق الكلمات المكتوبة دون أن يواكب النطق توهّج في الفكر وحماس في القلب. وكان موقف عادل المتوقّع قد ملأها بإحساس غير متوقّع من الخور والتخاذل. لو لم تكن في عينيه تلك النظرة الأليفة! لو لم يكن في صوته ذاك الحنان الدافئ! لو لم تهزمه

الهيئة وظلّ محتفظًا لنفسه بصورة خيّال السبق الذي لا يجارى. لو لم يكن كلّ هذا لأحسّت بالاستفزاز اللازم لتحدّيه وتحدّي الهيئة وتحدّي الإدارة. لو انتصر لعبّأها نصره بالحقد المطلوب والقوّة الدافعة لمنافسته. لكنّه مهزوم، وأيّ نصر في هزيمة مهزوم!

ويد حافظ تربت يدها تحاول شدّ أزرها وتذكّرها أنّها ليست في الساحة وحدها، في الزاوية، في أسفل الطاولة. ولم تستطع يد حافظ أن تشحنها بالقوّة الدافعة لمواجهة الهيئة ومواجهة ضعفها، وما نفع الزوايا وقمّة الطاولة تلوّح بالفيتو؟ ولكن، أضعف الإيمان أن تحافظ على تماسكها وألاّ تجعل من نفسها سخرية لهم. ماذا يقولون إذا بكت؟ المرأة ودموع المرأة وعواطف المرأة؟ «وأيّ سلاح أبقيتم لي أيّها السادة وهذا المنطق منطقكم؟ آلام المرأة تتلخّص في تشقّق الثدي والحلمة؟ أهذي هي آلام المرأة؟ والله جميل ويحبّ الجمال. والجسد المصهور بين يدي عادل. لماذا انتقى جسدًا مصهورًا ولم ينتقِ جسدًا غير مصهور؟ وهل حين اختار ذاك الجسد كنت بعيدة عن متناول يده؟ ولكنّه يعرف أنّي لن أحقّق رغبته مثل صاحبة الجسد المصهور، وأنّي أطالبه بالالتزام قبل ممارسة الصدق المطلق الذي يتغنّى به. مزيّف، زائف. تريدني أن أصلب وأن أجعل جسدي طعامًا لمكّة؟ أنا لست المسيح ولن أصلب، يا عادل الكرمي سترى».

قالت وقد استعادت قدرتها على التحدّي والثورة:

ـ وبناء على كل ما أوردت أقول: لنصف الشعب الحقّ في نصف المجلّة.

ردّد الأستاذ بديع منغّمًا وقد أخذته المفاجأة:

ـ الله أكبر!

وصاح سالم:

ـ على مهلك، واحدة واحدة يا بنت الناس!

وفكّر عادل بمرارة، وهو يتلقّى الصدمة الثالثة «النضج لِن يسبق التجربة. الدرب طويل يا بو العزّ، الدرب طويل».

(٢٢)

أنّت وهي تبكي وتلهث، وأمسكت بيد زميلتها وهتفت: «أنت يا باحثة الاجتماع علّميني كيف أتمسح، علّميني كيف أتلقّى الصدمات ولا أهزم، وعلّميني كيف أهزم من غير دموع». . وبكت الاثنتان، وقالت سلوى «الأكاديميّات علّمتني النظريّة لكن دموعي تشهد». ومسحت سلوى دموعها ووقفت:

ـ اعذريني يا رفيف، المسؤوليّات بالانتظار، الأولاد وأبو الأولاد وطبيخ الغد. أنت يا رفيف مازلت حرّة، وغدًا تتزوّجين وتحملين أعباء الآخرين فوق أعباء نفسك.

ـ وأبقى وحدي!

ـ والأولاد؟ وأبو الأولاد؟

وبقيت وحدها تتأمّل تراقص الشمعة وانسحاب الضوء من خلف الزجاج الملوّن. مقاعد شرقيّة ووسائد مخمل وصوان منقوشة. وتلفّتت حولها تتأمّل الزبائن منشغلين بأكل الأطعمة الشرقيّة ويشربون عرق رام الله مع المقبّلات. سيّاح وعرب وإسرائيليّون وعرب إسرائيل، وهي في الزاوية وحدها محاطة برسوم الشرق ودخان السجائر. من يحسّ بها في هذا العالم؟ لا الأمّ تفهم ولا عادل يفهم ولا سلوى تفهم. عادل مازال جرحه في القلب ينزف، وسلوى تقول: «أنت يا رفيف مازلت حرّة». أيّة حرِّيَّة يا ابنة الأكارم؟ حرِّيَّة في مملكة لا تزيد مساحتها عن قدم

مربّع يستعملونها كهذه المقبّلات لفتح نفوسهم المسدودة؟

وبدا المستقبل شديد الظلمة، فلا أمل في الرجوع إلى صدر الأمّ ولا في الاستمرار في زاوية المرأة. «أترك الزاوية وأترك المجلّة وأترك عادل». بكت بحرقة وهي تتذكّر عيني عادل وصوت عادل. لو لم تكن في عينيه تلك النظرة الأليفة، لو لم يكن في صوته ذاك الحنان الدافئ. لو لم يكن مهزومًا مثلها لما بقي له في قلبها غير الأسى. لكنّه مهزوم، وجراح المهزومين واحدة ولها المرارة نفسها. ذاك الشحوب وذاك الصبر وذاك الألم. ولماذا لا تصبر مثله؟ لماذا لا تخبّئ دموعها كما يفعل؟ لماذا ينسحب من جلسة الهزيمة وهو مازال يقول: في الإجتماع القادم نكمل بقيّة النقاش. وهي تنسحب من جلسة الهزيمة وفي عينيها دموع؟ لماذا لا تتعلّم منه كيف تنضبط حتى النهاية؟ لماذا لا تتعلّم كيف تحسّ ولا تنفعل؟ ولكن، هل عادل حسّاس حقًّا؟ لو كان حسّاسًا لأحبّ. ومن ليست له القدرة على الحبّ ليس حسّاسًا أبدًا.

تمنّت أن تسمع صوته وأن تسأله أسئلة مفحمة وأن تضعه تحت المجهر لتعرف حقيقة مشاعره. ستقول له، بماذا أحسست بعد الهزيمة؟ وتظلّ تحفر وتحفر حتى تعرف الحقيقة. هل كان يذرف دموعًا في الداخل؟ هل كان يحسّ بالألم؟ ولو تألّم حقًّا فكيف استطاع الاحتفاظ ببروده وهدوئه وقوله «في الاجتماع القادم نكمل بقيّة النقاش؟».

أيّ نقاش؟ هو يعرف جيّدًا موقف الهيئة ونوعيّة أفراد الهيئة. ويعرف أنّه لن يزحزحهم ولو استعار منطق العالم كلّه. سالم لن يتزحزح وسيظلّ يقول «النقاش مع الإسرائيليين عبث». والأستاذ بديع سيظلّ يهدّد بالاستقالة وهو أرسخ الجميع وأبقاهم. والمدير سيظلّ يدقّ الطاولة بمنفضته ولن يمكّن أحدًا من نفض الغبار عن فردة حذائه.

عادل يعرف كل هذا، لكنّه مازال يلحّ «نكمل بقيّة النقاش غدًا». ولو كان أكثر حساسيّة لطفح ألمه على الصبر كلّه. لكنّه متمسح، ويريدها أن تتمسح مثله، وهي الآن تريد أن تتمسح مثله. ثورة بدون عواطف؟ صميم الخطأ وإلحاد بالإنسانيّة والجمال. وما العمل؟ وأين الطريق؟

تمنّت أن تسمع صوته ولو عبر الهاتف. والتفتت تنظر لمنصّة الحساب من خلال الحاجز الزخرفي المقطّع. وقفت ثم هبطت. التقت عيناها بعينيه، ولمحته يودّع صاحبة الجسد المصهور وهو وسط الممرّ بين الطاولات والزبائن. وغاص قلبها ونشج. وأشعلت سيجارة وهي تهتزّ ذلاً وحسرة.. «لو أنّي ما كنت عاطفيّة لما أحببت بهذا العمق، ولما آلمني الجرح بهذا العمق. اللعنة على العواطف وكل العاطفيين».

وأحسّت به يقترب. لم ترفع رأسها ولم تبد حراكًا، لم تلتفت، لكنّها كانت تحسّ به يقترب. وقف فوق رأسها ورأت ساقي بنطلونه وكفّيه المتهدّلين إلى جانبيه.

ـ أجلس؟

«ماذا تريد يا كافر يا زائف يا تمساح عصرك؟ اتبعها يا قائد الثورة يا نصير المظلومين والمرأة يا شدّاد أزر الزوايا، فأنا مازلت في الزاوية بانتظارك. ولو لم أكن بلهاء رعناء ساذجة لعرفت كيف أواجه هزيمتك بتمسحة وأقول: نتابع النقاش فلم يحصل ضرر».

ـ أجلس؟

ولم ينتظر الإذن أكثر فجلس إلى جانبها على المقعد الطويل لا يفصل بينه وبينها سوى سنتمترات. وتذكّرت الجلسات السابقة التي جلساها في المكان نفسه. ضبطت دموعها وحرقتها وبلعت دخان السجائر.

«ماذا تريد؟ ألا تكفيك واحدة فقط؟ تعدّد الإناث مازال شرعك».

وكم سمعتهم يتشدّقون بفحولتهم ويزخرفونها بكلّ تحف المنطق ومعجزات المثقّفين: الإنسان متعدّد الزوايا متعدّد الحاجات متعدّد الوجوه. وعودة إلى هيسه والألف وجه في وجه واحد. والمرأة كم وجهًا لها يا أصحاب الفخامة والجلال؟ وجه واحد ورغبة واحدة وزاوية واحدة؟ بل لها مثل الرجل تمامًا. وتقارع هذا وتقارع ذاك وتصبح فتجد نفسها على الطريق وكلاب الشارع العربي تنهش؟ أفهمني كيف أعيش بألف وجه ويظلّ لي في الشرق وجهٌ لم تمزّقه الأظافر. أفهمني يا أستاذي فأنا مازلت قاصرًا. أفهمني كيف أنظر في وجوه الآخرين بوجه مشوّه! أفهمني كيف يتمكّنون من رؤية وجهي وقد غطّته جراحات الأظافر، وكيف ينظرون إلى الجراح ويحسّون أنّي قادرة على تضميد الجرح الأعظم، وكيف يفهمون أنّ لهذا الوجه ألف وجه في وجه واحد، وأنّ قضيّة الشعب فوق كلّ الوجوه لأنّها وجه الأساس. وحتى لو أفهمتني وفهمت فهل يفهمون؟ وإذا لم يفهموا، فكيف لي أن أضمّد الجرح الأعظم!

ـ رفيف.

نعم، ماذا تريد؟ اتركني أرجوك، ما عاد لي على النقاش حشاشة. أنا لن أتابع النقاش في هذه الجلسة ولا أيّة جلسة. آخر الشهر أقدّم استقالتي وأنسحب من هذا الجوّ وهذه الهزائم. ما عدت أحتمل الزيف، ما عدت أحتمل أكثر.

ـ لكنّ الانسحاب هروب، والهروب هزيمة الهزائم.

ـ لا تفلسف الأمور. شبعت، أتخمت، ما عاد يهمّني شيء، كفرت.

ـ اهدأي، لن نتمكّن من التفاهم وأنت عصبيّة بهذا الشكل.

ـ ومن قال إنّي أريد التفاهم؟

ـ انظري إليّ.

«أنظر إليه؟ ولماذا أنظر وأنا أعرف أنّ خلف الوجه ألف وجه! أنت مثلهم، كلّكم مثلكم. وما الفرق بين أزواج النسوة في زاوية المرأة وبينك؟ أنظر إليك؟ وإلى أيّ وجه نظرت تلك السخيفة الرقيعة المطرّزة؟ وبأيّ وجه قابلتها يا حضرة المثقّف؟ وأيّة نصائح وتعاليم لقّنتها وحفّظتها؟ أنظر إليك؟ لتبدأ بالشرح والتدريس والوعظ؟ لن أفهم ولن أستوعب ولن أحفظ لأنّي حفظتك وحفظت أزواج النسوة وزاوية المرأة. ولن أنظر».

ـ مشروعك كان ممتازًا، أمّا مطالبك فمتطرّفة.

«ممتاز؟ رشوة جديدة. كلمة عذبة، نظرة أليفة، نغمة في الصوت ضمّخها الحنان، فشعر وموسيقى ونشيج وغيرة. أهذا هو وعد الثورة بالحرّيّة؟ حرّرني من عواطفي أوّلاً واطلب ما شئت، وخذ بدل الوجه ألف وجه ومليون وجه. لكنّي مازلت بوجه واحد. وهذا هو وجهي فإمّا تقبله وإمّا ترفضه. تعدّد الوجوه حرفة لم تعلّمها لي أمّي. وأمّك أمّي لكن البنية مختلفة، وللرجل مثل حظّ الأنثيين. فلسف ما شئت وعِظْ ما شئت، لم أعتد إلاّ الوجه الواحد. هذا وجهي، سمّه الاحترام، سمّه الالتزام، سمّه الكبرياء، سمّه ما شئت.. لكنّي مازلت أؤمن، رغم كفري، أنّ الإنسان بحاجة للأمان ولوجه واحد».

ـ النصر يتطلّب طول النفس، وطول النفس لا يخلقه سوى الالتزام، والالتزام يعني أن يستوعب الإنسان مسؤوليّته تجاه كل التناقضات ولا تهن قواه.

«التناقضات؟ الالتزام؟ أسكت، أسكت».

وفاض الصبر واندلعت كالحمّى:

ـ أيّ التزام هذا الذي تتحدّث عنه؟ ولماذا لا تذكر الالتزام إلاّ حين تطالبني بحمل حوت التاريخ على أكتافي؟ لماذا لا تذكره إلاّ في قضايا السياسة وقضايا المجلّة؟ لماذا لا تذكره وأنت تودّع سخيفتك الغبيّة الرخيصة؟

ـ ليست سخيفة وليست غبيّة وليست رخيصة.

ـ تحبّها.

ـ لا.

ـ ولماذا تدافع عنها إذن؟

ـ لأنّي أعرفها.

ـ ومن هي؟

ـ فتاة أعرفها.

ـ من هي؟ لا تريد أن تقول من هي؟ هل تخجل من القول والاعتراف؟ لماذا؟ ألأنّها امرأة بألف وجه وأنت رجل بألف وجه؟

ـ رفيف ظننتك أذكى!

ـ اذهب، اتركني، لا أريد رؤية وجهك. ما عدت بحاجة لتعاليمك وتناقضاتك. يكفيني همّي وتكفيني هزائمي. اذهب وانس هزيمتك لديها. أنا لست بحاجة إليك لأنّك تذكّرني بضعفي وقلّة حيلتي. تذكّرني أنّي أواجه الدنيا بوجه أعزل، والعزّل لا ينتصرون إلاّ بمعجزة، وما عدت أؤمن بالمعجزات.

ـ متى تكبرين يا رفيف؟

ـ ما عدت أحمل لك في القلب عواطف ولا غير العواطف. ما عاد في القلب عواطف.

ـ ولماذا الانفعال إذن؟

ـ اذهب، اذهب.

وانسحب بهدوء، ومشى بخطوات مندحرة. المجلّة ورفيف وسالم والأستاذ بديع وخضرون ومشروع تثقيف الشعبين. أيّ عبء وأيّة حرب استنزاف.. يا صبر أيّوب الأعظم!

ومشى في الشارع دون أن يبصر طريقه. آخر سيّارة إلى نابلس وإلى أبو العزّ ودار الكرمي. دخل الدار فوجدهم حول الطاولة يتناولون العشاء وصوت ضحكاتهم يرنّ في أنحاء الدار. يا أبو العزّ مازلت تضحك! دخلت السجن وخرجت من السجن تحمل روحك على الكفّ ومازلت تضحك! علّمني كيف يموت المرء وعلى شفتيه بسمة وفي العينين شعلة. علّمني يا ابن الجيل الأصغر!

دخل باسل الغرفة ووجد أخاه ممدّدًا على السرير بكامل ملابسه:

ـ ما بك؟

هزّ رأسه ولم يجب، وبدا شديد الشحوب وهالات زرقاء تحيط بعينيه. التقت نظراتهما، ابتسم وحاول أن يقول شيئًا يكسر الجمود:

ـ كيف وجدت الدنيا؟

ـ لا بأس بها.

ـ تعجبك؟

ـ ولم لا تعجبني؟

ـ نزلت بين الناس؟

ـ نزلت.

ـ وماذا وجدت؟

ـ مازلت أكتشف. وأكتشف أشياء كثيرة معظمها متوقّع، ما رأيك بهذا؟ اكتشفت أنّ الناس ما عادوا حالمين كالسابق، وربما كان الأمر لعنة. القدرة على الحلم تشحن الناس بالأمل فلا يرحلون، وهذا أهمّ ما في الموضوع. تصوّر الوضع حين تخلو البلد من الناس، تصوّر! لكنّ المطمئن أنّنا شعب مخصاب. هل قرأت الدراسة التي قام بها أحدهم؟ يسمّيه الغزو العربي من الداخل، ما رأيك بهذه التسمية؟ ومقابل هذا نسبة الراحلين شرقًا وما يسمّونه باستنزاف الأدمغة، وهذا خطير. لكنّي سمعت قصّة أثارت فضولي، أنّ الناس حين رفعت البلديّة رجليها ما صاحوا «جاي يا بلديّة جاي». أنت تعرف القصّة ولا شكّ. واكتشفت شيئًا آخر يا بو الشباب، اكتشفت أنّ هذه الدار مازالت غير مريحة، لا أعتقد أنّي أصدمك بدليل أنّك تهرب منها، أليس كذلك؟ واكتشفت أنّ نوّار هي أيضًا ما عادت تحلم كالسابق. صالح على الرأس والعين طبعًا، لكنّ السجن علّمني الكثير. نوّار بحاجة إلى صالح هنا، أن تراه أن تلمسه أن تحسّ بدفئه يملأ الدار والشوارع. وهذا يقودنا إلى استنتاج آخر وحلّ آخر. ولكن هل تسمعني؟

ـ أسمعك.

ـ ولكنّك لست معي.

وما كان معه بالفعل، كان يفكّر برفيف ونوّار والمقارنات التي كان

يعقدها بينهما دومًا. «اللّعنة، إحداهما ألعن من الأخرى. هذه تريد رجلاً، وتلك تريد رجلاً يرضي حاجات الأنثى المتعطّشة للامتلاك. ألا تكفي المرء هزائم شعبه؟ ومدير التحرير والأستاذ بديع وسالم ورفيف ثمّ نوّار»!

وصفّق باسل بحيويّة وهو يتذكّر شيئًا:

ـ أمّا سعديّة فشيء آخر، اختلفت كثيرًا يا رجل، ألا تعتقد؟ ولها ابن عفريت اسمه رشاد، تعرفه؟

ـ أعرفه.

ـ سعديّة اختلفت حقًّا، انقلاب عجيب. لكن شحادة بالمرصاد. شحادة ليس سيّئًا تمامًا، لكنّه لم يحلّ مشكلة سعديّة. ما رأيك؟

ولم يجب، فالتفت باسل وسأل بدهشة:

ـ ولكن ما بك؟ أنت لست في حال جميل. سحنتك والعياذ بالله. ما بك؟ أهو المشروع؟ أهي المجلّة؟ أهي الدار؟ أهي رفيف؟

وجلس الاثنان على سرير واحد، وتكلّما حتى بزوغ الصبح.

(٢٣)

مشكلة الماء غزت. شحّت العيون والآبار وعدّوا حبّات المطر. حبسوها وجمركوها ولم تسلم عين من رقابتهم إلاّ عين المسكين. حتى العين التي وعت صبا سعديّة وخلافة الأتراك وانتصارات الزنكي جفّت، وعيون العروبة تشهد.

حملت بقجتها وطاستها وتوجّهت نحو حمّام البلد. مرّت بالعين وتذكّرت التنكة المدلوقة والصدر الواقف وشارب زهدي. كل شيء تغيّر. لا زهدي ولا الماء ولا الصدر الواقف. وهذه سميّة تمشي أمامها ممسكة بيد الطفل عزيز. ما عادت البنت طفلة، أصبحت تتحرّج من نظرات الرجال وتمشي بكتفين متهدّلين خوفًا من بروز فقّاعتي الصدر. كل شيء تغيّر. الأكتاف المرفوعة تهدّلت والصدر المسنود مال والقلب الغضّ التوى.

لم تطأ عتبة حمّام البلد منذ سنوات طويلة. ولولا أزمة الماء التي أصابت البلد لما دخلته. كانت تخاف ارتياد أيّ مكان قد تلتقي فيه بذوات الألسن، أمّ صابر وأمّ تحسين وغيرهما من نسوة الحارة. وحتى لو لم تلتق بأيّة امرأة تعرفها، يكفي أن تسهو مرّة وتذكر اسم عائلتها صدفة لتتبرّع جوقة من الحاضرات بكشف خبايا الماضي، وبنبش جذور شجرة العائلة ومكاحل عظام الميتين منها قبل الأحياء. كانت سعديّة تعرف هذا، فهي ابنة البلد أبًا عن جدّ، وهي نفسها كانت قد شاركت

في عمليّة النبش أكثر من مرّة. هي نفسها قد ذكّرت أنّها سعديّة بنت بيّاع الطمريّة، ومهما ارتقت وترقّت، ستظلّ قاعدتها الطبليّة وقرص الثوم والطمريّة. وبعد الاحتلال واستشهاد زهدي، أصبحت الأسطوانة تدور على أنغام الطبليّة وأنغام أخرى. فهناك مواويل تبدأ بتنكات الماء وتنتهي بالنغمة الجديدة المطّاطة: الله الله يا ماكينة سعديّة، الله الله.

حملقت فيها عيون الرجال بنظرات الاستفزاز المعهودة. ورغم أنّ عملها كان قد ساهم في نزع الهيبة عن تلك النظرات، إلاّ أنّها الآن وهي تتجه نحو الحمّام وتتخيّل ما يدور في رؤوس الرجال من خيالات، أحسّت بالإحراج، وكادت تتشقلب لولا أنّ ربّك ستر.

واصطدمت بالحممجي الواقف وسط الطريق وبيده عصا طويلة يسحب بها المنشفة المعلّقة في أعلى الزقاق معلنًا بذلك انتهاء موعد حمّام الرجال. صاح الحممجي «يا ساتر»، وتردّدت أصداء الكلمة في الزقاق وتلقّفتها أفواه كثيرة على الصفّين وكرّرتها بأنغام مختلفة. هرولت نحو الدرجات العتيقة والزواريب التي تنفث وتتنفّس برائحة الزمن المهترئ، وتوارت عن العيون، وتشهّدت.

ترحّمت على الحمّام وزمانه وعهوده. كانت للحمّام أيّام وليال أين منها أيّام قبل الاحتلال. كان الناس يؤمّونه من كل الطبقات والعائلات. وكانت السيّدات المترفات يجعلن من الحمّام مشهدًا يذكّر بقصص ألف ليلة وليلة. عطور وحنّاء ومناشف مقصّبة يفوح منها المسك والطيب والبخور. زفّات عرائس يتأهّبن لليلة الدخلة، ونفسات يحتفلن بمواليد ذكور، ونسوة يتسبّعن يوم الأربعين ويقمن الاستعدادات لليلة الحمل الجديد. وهي نفسها مازالت تذكر تلك التجربة التي مرّت بها منذ أكثر من عشرين سنة. كانت تحتفل بمرور أربعين يومًا على

ولادتها لابنها البكر حمادة. سحبتها أمّها وأمّ صابر وبقيّة النسوة من القريبات والجارات، وقلبن الحمّام زفّة. دلكنها وفركن جلدها بالزنجبيل حتى أصبحت بلون الشمندر. حنّين شعرها وطلين أظافرها بالنقوف وأقعدنها على بلاط بيت النار بعد أن فقسن عليه بيضة. حاولت التهرّب من حذافير تلك الطقوس دون جدوى، وفي النهاية أذعنت لوعود الخبيرات والعارفات وقعدت على بيضة. وأحاطتها النسوة بالنصائح من كلّ جانب: الزنجبيل يشدّ العضلات التي أرخاها الحمل. البيض يغذّي الرحم فيصبح أفقس من دجاجة بيّاضة. والحلْبة تدرّ الحليب ويصبح الثدي أضخم من ضرع بقرة هولنديّة، والماء بلسم الطهارة ودليل الحسناء ووصفة تفتح شهيّة الزوج المهدود.

كلّ شيء كان سخيًّا، الماء والبيض والحليب والنسل الوفير وشباب زهدي. أمّا الآن، فعن جيوش الصراصير التي تحتلّ حيطان الحمّام فحدّث، وعن الرطوبة والعطونة وشتّى الآفات فاحكِ ولا تتحرّج. وتلك الأرائك، حيث كانت ترتاح النسوة المعطّرات بعد معركة التدليك، أصبحت أثرًا بعد عين. أكياس عفنة تسطّحت أركانها وانساب من داخلها القشّ والتبن والبقّ. والبهو الذي كان محاطًا بأصص الياسمين والريحان أصبح مرتعًا للجراذين والبزّاق. والكوّات الزجاجيّة التي تزيّن السقف بشعاع فضائي أين منها قناديل الجنّة، أضحت الآن مزارع أعشاب الرطوبة وخيوط العناكب، وجحافل هوام لا تنفكّ تذكر بسمات الوضع الحاضر.

نزعت سعديّة ملابسها والتفّت بوزرتها. وتبعتها سميّة على رؤوس أصابعها معقودة الساعدين متهدّلة الكتفين. لكنّها حين لفّها بخار الحمّام ورأت أثداء النسوة مدلاة فوق بطون شقّقها الحمل المزمن، تشجّعت. فردت ساعديها ونزعت شلحتها الصغيرة وأقبلت على الماء

بإذعان المحروم.

استفاقت سعديّة من رحلة الماضي على رنّة صفعة أعقبتها صرخات عزيز. وحملقت في وجه ابنتها مجفلة مغضبة، فما الداعي لهذه الصفعة الرنّانة التي لفتت الوجوه والأنظار إليهم.

ـ يمّه عزيز سقط صرصور في الجرن.

صاح عزيز، واختلطت دموعه بقطرات الماء المنسابة من شعره، ورنّت صرخاته واختلطت بصراخ بقيّة الأطفال المرغمين على احتمال وطأة الدعك ورغوة الصابون. وأمسكت سعديّة بإذن عزيز ولوتها:

ـ تلعب بالصراصير يا غضيب؟

تلوّى بين يديها محاولاً الهرب. وحبسته في حضنها وهو مازال يدافع عن نفسه:

ـ كلّ الأولاد يلعبوا.

وأشار نحو مجموعة من أطفال يجتمعون في ركن بعيد يرشقون الصراصير بالليف ويقعونه أرضًا، ثم يلتقطونه ويجرون عليه تجارب الاستحمام في قنوات الماء والصابون المفتوحة. شهقت سميّة وولولت، والتفتت إليها المزيد من العيون. وكشّرت إحداهنّ وقد غاظتها حركات سميّة الموحية بالدلع والأنفة والترفّع، فسحبت بسملة كالموّال. وتأمّلت وزرة سعديّة الجديدة، وتفحّصت اللّيفة الإسفنجيّة التي تدلّ على نزعة مخالفة لأجواء الحمّام، ثم ذاك الصندوق البلاستيكي المليء بالأطعمة والفواكه، وتيرموس القهوة، فلوت فمها وسألت بلهجة يمتزج فيها الحسد بالسخرية:

ـ إنتو من هالبلد والاّ يهود؟

نزل السؤال على رأس سعديّة كالصاعقة، وأسعفتها ذكرى المناوشات التي اعتادتها منذ الطفولة ومشاوير العين، فتصدّت للسؤال بدرع لهجة قحفتها من أعماق حارات نابلس القديمة:

ـ اسم الله حولنا وحوالينا. يهود؟ ليش يا خالتي، شو شايفة علينا؟

ورغم لهجة سعديّة المقنعة لدرجة الإفحام، إلاّ أنّ خياشيم المرأة كانت ماتزال مفتوحة على مصاريعها في محاولة ناشطة لكشف النقاب عن تلك الرائحة الغريبة. وزرة جديدة وليفة إسفنج وصندوق مليء بالخيرات وتيرموس قهوة. وكلّها مظاهر نعمة حرمت منها الفئات التي مازالت ترتاد حمّام البلد!

كانت سعديّة مازالت تتصدّى للمرأة بعينيها وقلبها يدقّ خوفًا من مشروع خناقة قد تتحقّق وتعود إلى بيتها وقد اغتسلت بفضيحة جديدة بدل الماء والصابون. وتزايد إحساسها بالغربة وأحسّت بجذورها تتقطّع، فهي من هاتيك وبعيدًا عنهنّ. عيونهنّ ترفضها وترفض الاعتراف بها واحدة منهنّ. والسؤال الصاعق مازال يدوّي في رأسها وحلقها «إنتو من هالبلد والاّ يهود؟» وتمنّت أن تسحب الوزرة الجديدة عن جسمها وتبقى بعريّها مثل أكثريّة النسوة وتصرخ فيهنّ «أنا من هالبلد، من لبّ البلد. أنا بنت أبو شمر بيّاع الطمريّة وتشهد عليّ تنكات العين وكل العيون». ولكن، أهذا ما تطلبه حقًّا؟ أن تسترخي للفقر والذلّ وجيوش الصراصير وأمراض البلد التحتا؟ وأحلام الفراندة الزجاجيّة أينها؟ وصحون الألماس وكسر الطبليّة على عتبة الدار واستبدال الحارة المعتمة بجبل الشمس؟ ولماذا يتوجّب عليها في سبيل أن تصبح واحدة منهنّ أن تستسلم لما يستسلمن له؟ ويعاد الزمن الأوّل ونداء ابنة الأكابر خلفها «يا سعديّة يا شحّادة أنتِ لابسة فستاني»!

وتقعد في بيتها تنتظر حسنات الأجاويد الممسكين، ترقع ثياب الأيتام وتدور على البيوت الغنيّة تنظّفها كما كانت تفعل أمّها! لن يكون هذا ولو رفضها العالم كلّه. فمن عرق جبينها وبشرفها تكسب. سعديّة ليست خضرة، والعري ليس هو المقصود، ولن تتعرّى. لا هذا العري ولا ذاك.

لكنّها حين رأت سميّة تمدّ يدها نحو الصندوق لتأكل نهرتها. فرغم كلّ تلك الفتاوى التي توصّلت إليها مازالت تحسّ أنّها واحدة منهنّ. فكيف تأكل وحدها وتترك الآخرين ينظرون؟ وعيون الأطفال وعيون النسوة!

وكانت المرأة مازالت تبربر وهي تعمل في رأس طفلها دعكًا وفتكًا:

ـ هه، صرصور. صار الصرصور عجيبة، ما شا الله!

واختصارًا للشرّ أمرت سعديّة ابنتها بغرف ماء الجرن لإزالة الآثار. وباشرت سميّة بإنجاز المهمّة حين رنّت في أرجاء الحمّام نداءات صارخة:

ـ هيه هيه يا بنت يا بنت!

ولم تلتفت سميّة للنداء الذي اختلط ببقيّة النداءات وطرقعة الطاسات وصياح الأطفال. أقبلت الحممجيّة ترفل بوزرتها وسمنتها، وأمسكت بالطاسة وسحبتها من يد سميّة وهدرت:

ـ مش حرام الميّة تروح عالفاضي؟

ارتسم الذعر في عينيْ سميّة وعقدت الحيرة لسانها، لكنّها أشارت للصرصور الممدّد وسط الجرن وقد انفرش جناحاه على وجه الماء.

فمدّت الحممجيّة يدها وكمشته وألقت به بعيدًا. وملأت الطاسة بالماء وصبّتها على أمّ رأسها وعلّقت:

ـ هه، شوفي، خايفة من صرصور؟ يا بنيّتي، الميّة هالأيّام ما بتلاقيها بعلب العرايس!

وذكّرتها سعديّة بالمرض والصحّة والطهارة، فابتسمت المرأة معتذرة:

ـ كان زمان يا حبيبتي، وبكره وبعده يا ما نشوف.

انقبض قلب سعديّة وأشرفت على البكاء. أهذا ما سيحلّ بالناس حقًّا؟ يموتون من القذارة والعطش؟ وهي، على الرغم من عملها وعرقها وأحلام الدار الجديدة وصحون الألماس، أليست منهم؟ وما يصيبهم سيصيبها ويصيب أولادها حتى ولو نصبت فوق رأسها خيمة من حديد. وأكبر دليل على ذلك قدومها الحمّام. بالرّغم من تفاديها الناس وجدت نفسها بين الناس وبين النسوة. وغدًا قد لا تجد لنفسها متّسعًا في الحمّام. سيتحوّل الجميع إلى عراة في حمّام البلد.

يا مغيث أغثنا وارفع عنّا السوء. متى ردّدت ذاك النداء ورفعته إلى الله بصراخ مذعور؟ كانت ماتزال طفلة، اشتدّ العطش وشحّت السماء وأصيبت المدينة بالجفاف. لحقت بالجموع التي ظنّتها زفّة عرس، وظلّت الجموع تمشي بحزن جنائزيّ ممدودة الأكفّ مسدلة العيون. وتكاثر الأطفال حتى سدّوا الشارع. ثم ارتقت الجموع طرقات ترابيّة نحو الجبل حيث المزار. وهناك في ساحة حول قبر أحد الأولياء اجتمعوا في حلقة ضخمة. ووقف رجل مهيب ورفع صوته بمديح يشبه الأذان. وارتفعت الأصوات من بعده تردّد: يا مغيث أغثنا وارفع عنّا السوء. ووقف الشعر في رأس سعديّة وبدأت ترتجف خوفًا. وبكى

الأطفال وأيديهم الصغيرة ممدودة نحو السماء فأحست بالذعر وبكت. ورأت الرجال الكبار يمسحون دموع التأثّر والخشوع فازدادت نحيبًا. وهربت من المزار وأصوات الناس تلاحقها ودويّ الطبول. مرّت بالعين التي اعتادت أن تملأ التنكات منها فوجدتها مازالت تتفجّر. واليوم، تشحّ العين وتنحبس السماء ويجفّ ريق الأرض والناس ولا تقام الصلوات ولا يقرع الناس الطبول!

وكانت الحممجيّة مازالت تقف فوق رأسها تشمل النسوة بنظرات الخفارة؟ وطفح الإحساس بالخوف من بكرة وبعده في نفس سعديّة، فأشارت للمرأة بيدها تعزمها على فنجان قهوة، فعسى رفقة المرأة أن تؤنس وحشتها وتنسيها مخاوفها. وتربّعت الحممجيّة بثقلها فوق بلاط الحمّام وبدأت تشرب القهوة وتمزمز. وسألت سعديّة وهي تتلفّت حولها وتتفحّص التيرموس والإسفنجة وإناء الطعام:

ـ أنت من هالبلد؟

وللمرّة الثانية تحسّ سعديّة أنّها وراء قضبان قفص اتهام، فهبّت للدفاع عن نفسها ولوّحت بهويّتها:

ـ أنا من لبّ البلد يا خالتي. أنا بنت أبو شمر بيّاع الطمريّة.

ضربت المرأة صدرها فرنّت أساورها المعدنيّة:

ـ أنت سعديّة اللّي كانت تملّي التنكات من العين؟

ولم تشعر سعديّة بالإحراج كما كانت تتوقّع. فأن تكون ابنة بيّاع الطمريّة وملاّية التنكات من العين خير ألف مرّة من أن تواجه بتهمة «إنتو من هالبلد والاّ يهود؟» وقهقهت المرأة وهي تعفر دخان سيجارة مبلولة:

ـ والله يا سعديّة كبرت وبقيت عال!

وتفحّصتها ثانية وثالثة دون أن ترمش، وعادت تقهقه وتردّد:

ـ والله يا سعديّة كبرت!

تحسّست سعديّة شعرها ودمدمت:

ـ شويّة شيب بصبغهم بالحنَّة.

وازدادت قهقهات المرأة من خلال دخان السجائر ودخان الحمّام، وعلّقت:

ـ كلّ هالشغل وبعدك عالسكّين؟

خضرة. كلمات خضرة. أيّ شغل وأيّة سكّين؟ وما الذي تقصده هذه المرأة؟ أي أنّها حمارة كما كانت تقول خضرة؟ والشغل؟ أهو الشغل الذي تتحدّث عنه أم تحسين دون أن يندى لها جبين أو يجفّ لها ريق؟

ولوّحت بهويّتها الثانية:

ـ كان لي رجال مثله الأرض ما حملت.

علّقت المرأة وقد اتّخذ وجهها طابعًا جدّيًا:

ـ رحمة الله عليك يا زهدي يا سيد الرجال.

وبدأت سعديّة تستأنس:

ـ الله يسلّمك ويسلّم حبايبك يا أمّ عبد الله.

ـ حبايب؟ منين يا موت قلبي! ما خلص، قطعتهم الدنيا وقطعونا. إحنا يا هالنسوان ما إلنا غير الله. والله ما أنا عارفة هالنسوان اللّي قاعدات على البيض ليش قاعدات! اللّي جوزها محبوس، واللّي أخذته

السعوديّة واللّي أخذته الكويت واللّي ما أخذه محل ثاني أخذه ربّك!

هزّت سعديّة رأسها بحسرة وهمست:

ـ صحيح.

ـ لكن عادة واعتدناها، وبظلّ الحبل أكثر من الهمّ على القلب. الواحدة منهنّ بيجي جوزها من السعوديّة يومين ثلاثة بنفخ بطنها وبقول خاطركم مع السلامة. وتظلّ قاعدة تربّي الصيصان لحدّ ما جناحاتها تريّش وتطير.

صاحت امرأة قريبة منهما وقد كانت تتنصّت خلسة:

ـ شدّة وبتزول يا أمّ عبد الله، شدّة وبتزول. وحّدي الله يا ستّ.. وحّدوا الله يا ستات، وحّدوه!

وأمسكت بطاستها وبدأت تنقر، فاجتمعت النسوة في حلقة دائريّة حولها وبدأن يصفّقن. التفتت الحممجيّة لسعديّة وصاحت في أذنها من خلال الضجيج:

ـ مثلك مثل غيرك يا سعديّة، صفّقي.

ولم تستجب، وظلّت ترمق النسوة المصفّقات بجمود. «نربّي الصيصان لحدّ ما جناحاتها تريّش وتطير!! سعديّة تربّي الصيصان لحدّ ما جناحاتها تريّش وتطير؟ حمادة ومن بعده جمال ومن بعده رشاد وسميّة وعزيز. ويقولوا لك يا سعديّة صفّقي!» ولم تصفّق. واشتدّ وطيس الطاسة، وأقعى الأطفال في حضون أمّهاتهم أو عند أرجلهنّ وأعملوا أكفّهم الصغيرة بحماس منقطع النظير. وقفت طفلة عارية وسط الحلقة وأخذت تهزّ جسمها الناحل والنسوة يهزجن ويضحكن ويشجّعن. وغنّت امرأة ذات صوت قويّ والنسوة يهزجن من بعدها:

واجب علينا واجب
يا هالحبايب واجب
نرقص ونغني واجب
بزوال الشدّة واجب

اشتد الضجيج ودوّت الأصوات في فراغ الحمّام الكبير وهدرت، فوقف الشعر في مسامّ سعديّة وابتلّت عيناها. ورنّت كلمة «حبايب» في أذنيها حاملة صدى فراغ قلبها، فترنّحت تحت ضربات الذكرى. وتذكّرت مشهد حمّام آخر لم تكن فيه وحيدة، فارتعدت وسالت دموعها فوق صدرها. آه يا زهدي. ضاع الأمان يا زهدي. لا القلب ولا البدن، لا الصيصان ولا الأمان. وكانت ذات الصوت القوي مازالت تغنّي والأخريات يهزجن وجوقة من الأطفال ترقص:

امّه يا امّه يخلّيه لامّه
فتحي بالحطّة راجع لامّه
مرّوا عليّي وأنا بتحنّا
بدّلوا الحنّا بدمّه وبهمّه
صرت أنادي اللّيل
والغربة والناس
واحسب الأيّام واحلم بضمّه.

وصاحت الحممجيّة مشجّعة:

ـ صفّقي معنا يا سعديّة.

مع من تصفّق ولمن؟ من يحسّ بها؟ من يسأل عنها؟ وكل هذه الوحشة والاشتياق لزهدي هل تبدّله صفقة يد أو صفقة قمصان! ولم تصفّق.

وحدجتها الحممجيّة بغيظ وهي ترى دموعها ونهرتها:

ـ صفّقي يا مجنونة، مثلك مثل غيرك.

مثل غيرها؟ ليتها كانت. هنّ قويّات القلب، أمّا هي فجبانة. هذا ما قالته خضرة وما قاله الملثّم بالحطّة.

ولعلع الصوت القوي كالزلزال:

بدّلوا الحنّا بدمه وبهمّه

صرت أنا وحدي ببلدي يا ولدي

حيّة بسبع روس التفّت على تمّه

وانتحبت سعديّة، وضاعت شهقاتها وسط أصداء المعمعة. ومن خلال البخار والضباب والضجيج تراءت لها صور وخيالات وأشباح. الرجال يدفعون الباب حاملين إليها الخبر المشؤوم وبعض حوائجه الصغيرة. وحرموها من رؤيته إلى الأبد. لم تره، لم تودّعه، لم تستسمح خاطره قبل رحيله. دفعوا الباب ودخلوا. وكان عزيز، مازال يلعب بأغطية الطناجر، وكانت تحمل مغرفة العدس الذي ما كان يحبّه. سقطت المغرفة من يدها، وسقطت هي على الأرض ولم تفق.

وكانت الأصوات مازالت تدوّي في فراغ الحمّام الكبير:

يا عين كوني صبّارة

عاللّي نسفوا العمارة

يا عين كوني صبّارة
عاللّي سقونا المرارة
واللّي معانا الله معاه
واللّي علينا الله عليه
يا ناس ردّوا علينا
اللّقمة المرّة نبلعها
وايدين الظالم نقطعها
والبلد الحرّة نرجّعها
أيتام الحارة صاروا رجال
نسوان الرملة ذاقوا هوال
من بعد الشدّة هدّوا جبال
الشاه الخاين صال وجال
والقصر العالي اهتزّ ومال
ومن بعده دور الاحتلال
ويا عين كوني صبّارة.

(٢٤)

بخار وضباب وهتافات تتصاعد من أجساد تفتّحت مسامها بعد طول انسداد. تمايلت أجساد واهتزّت صدور ولعلعت حناجر وهي مازالت تعيش ذكرى حمّام لم تكن فيه وحيدة. في البداية رمقتها عيون غير أليفة. ثم دار بينها تيّار كهربائي أعاد إليها الشحنة المقطوعة. وتدريجيًّا غمرها الجوّ بحرارته فاستعاد القلب دفئه. ورمقت سميّة فوجدتها تجلس ملتصقة بلحم الحممجيّة وكأنّها قطعة منه. وجهها مشرق وخدودها متفّحة وأكفّها تصفّق وفمها يتحرّك مردّدًا الهتاف باندماج وحماس. وعزيز الصغير يجلس على الأرض والطاسة مقلوبة على حضنه يوقع عليها ضربات تواكب ركب الغناء والدعاء. والحممجيّة مازالت ترسل نحوها نظرات التشجيع وهزّات الرأس التي تحمل نداء المشاركة والتحبّب.

وفجأة أبصرتها. من خلال البخار رأتها تدخل الباب المشقّق وفي يدها صرّة ثياب وجسمها عارٍ إلاّ من طاسة مقلوبة على عورتها. خفق قلبها وتصاعد بخار حارّ من حلقها وصل عينيها. رفعت يدها وغطّت فمها وتمتمت «خضرة»! وركض فكرها في كل اتجاه. فضيحة. عيون تحملق. أفواه تستدير نحو آذان بحجم أبواق فونوغرافات ضخمة. همس وبربرة وضجيج. سعديّة وخضرة. خضرة وسعديّة. نامت. قامت. سعديّة في تلّ أبيب. طبعًا طبعًا. وهذا يفسّر هذا وذاك.

حاولت أن تتوارى فالتصقت بالجرن وتمنّت أن يبتلعها. لم ترها خضرة. من فورها اندمجت بالجوّ ووقفت وسط الحلقة وأخذت ترقص بالطاسة وبغير الطاسة. والنسوة يضحكن ويصفّقن وخضرة تهرج. وأحيانًا تطلق زغرودة تفقع في الحمّام كالطلق.

استدارت سعديّة بوجهها واختلست النظر، ووجدت النسوة مازلن مندمجات في التصفيق والغناء والانسجام. وأحيانًا تنطلق منهنّ ضحكة جماعيّة مدوّية تهزّ أركان الحمّام. كانت خضرة قد أحضرت معها نفسًا جديدًا، نفسًا اختلط فيه التهريج بالقفشات والإشارات البذيئة والألفاظ النابية. وأثارت كوامن مكبوتة ومزاجًا ينقلب فيه الجنس إلى مادّة مثيرة للسخرية والشماتة معًا. الاحتلال. كذا لأمّ الاحتلال. السادات قاعد على بيض عوينات واحدة منها بجلدة سودا. إيران للخميني وهيك المراجل يا عروبة اللّي ما حيلتك ولا نصّ واحد.

وأخيرًا التقت عيناها بعيني سعديّة. توقّفت عن الرقص من فورها واقتربت منها وصاحت مهلّلة:

ـ سعديّة! يا ست الحبايب يا سعديّة. يا سعديّة وحقّ النبي ما نسيتك ولو أنّك عالسكّين. عالسكّين وعالسكّين فجلة بقاع المحتليّن.

وخبّأت سعديّة وجهها بيديها وتمنّت لو يبتلعها الجرن. وانتظرت الطامّة الكبرى حين تكتشف النسوة ما هي خضرة ومن تكون. ولكنّهنّ واصلن الغناء وواصلت خضرة الرقص والتهريج ونثر القفشات والألفاظ الطالعة والنازلة. وسألتها سميّة وهي تضحك وتشقرق:

ـ مين هذي يمّه؟

ولم تجبها وادّعت عدم السماع. وكذلك فعلت حين لكزتها الحممجيّة في خاصرتها وسألتها:

ـ مين هذي يا سعديّة.

وغنّت بصوتها العريض الأجشّ:

ـ سعديّة يا سعديّة يا سعديّة، صار لي سنتين بنادي ردّي عليّ.

وردّدت النسوة الغناء وهنّ يلوّحن لسعديّة بإشارات تطالبها بالمشاركة في احتفالهنّ، لكن سعديّة استمرّت في التجاهل وفي رسم إمارات الرصانة على وجهها. كانت خائفة، مذعورة، تتمنّى لو تغمض عينيها وتفتحهما فتجد نفسها في مكان آخر بعيدًا عن خضرة وبعيدًا عن النسوة وعن الحارة كلّها. عاودها الإحساس بالغربة والاختناق، وسيطر عليها فزع لم تحسّ به إلاّ مرّتين من قبل. مرّة يوم مات زهدي، ومرّة يوم دخلت قوّات الاحتلال المدينة وكانت في دار الشاويش.

وفجأة، انطلقت صرخات وبسملات حين زلّت قدم خضرة على الأرض الدبقة وتهاوت كتلة واحدة على البلاط فدوّت. ولثوان ظلّت ممدّدة على البلاط بدون حراك، فهبّت النسوة إليها وأحطن بها حتى أصبحن كتلة واحدة من الأجساد المتلاحمة. ركضت واحدة هنا وأخرى هناك. وفاحت رائحة كولونيا قويّة واندلقت طاسات ماء بارد على وجه المغماة حتى استفاقت ودلكن وجهها ويديها وساقيها، وأحطنها بالرعاية كما لو كانت طفلة إحداهنّ. كل ذلك وسعديّة مازالت مكانها مشدوهة ترقب التحرّكات وفكّها السفلي يكاد يصل صدرها. كانت سميّة تمسك بذراع أمّها وتضغط عليه وتهتف بخوف «يا ربّي، يا ربّي» وحين رأت خضرة تعود إلى وعيها أفلتت ذراع أمّها واقتربت من النسوة مخلّفة أمّها وحيدة معزولة.

تربّعت خضرة وسط الحلقة وأخذت تشدّ النسوة إليها فتقبّل خدّ هذه وجبين تلك وتكيل الدعوات بتأثّر: الله يستر عليكن. الله يحماكن. الله

يخلّي حبايبكن. ووجّهت نحو سعديّة نظرة طويلة آسفة ثمّ هزّت رأسها ولم تعلّق.

وكالبرق استعادت سعديّة الشريط والمشهد. خضرة تشدّ بيدها محاولة تخليصها من السجن. «ضيّعت الوقت يا حمارة». حتى أثناء أكثر اللّحظات حرجًا لم تنسها خضرة، وظلّت تشدّ بها وتسحبها وتصيح «يا الله، يا الله. نهرب؟ آ نهرب، وإلاّ نرقص!» وتقاسمتا الضرب والصفعات والنوم والسجن، وتبادلتا أحاديث القلب والذكريات معًا، وتاهتا في المخيّم معًا، وأكلتا من زاد أبو حسن معًا، وقابلتا رجال الحطط معًا. ولم تنسها خضرة، أمّا هي فأنكرتها. في ساعة الشدّة وقفت خضرة إلى جانبها، أمّا هي فلم تقف. تراكم إحساسها بالخجل والذنب وتكثّف وما عادت تجرؤ على النظر في عيني خضرة.

وكانت خضرة متربّعة على الأرض تمتصّ ليمونة قدّمتها لها إحدى النسوة وتحكي لهنّ عن مغامراتها وشجاعتها التي لا تتزحزح:

ـ والله أنا ما بخاف من حدا. ضربته بين رجليه ضربة قويّة ووقع من طوله مثل الشوال. وكانت معي واحدة من نابلس، بعيد عنكن، حمارة على السكّين. ما بتعرف غير البكا والنواح والدمعة بعينها ما بترتاح.

سألتها إحداهنّ:

ـ من هي؟

نظرت خضرة باتجاه سعديّة، ونظرت سعديّة باتجاه خضرة. ودوّى قلب سعديّة بضربات كقرع الطبل. نكست عينيها وأسلمت أمرها لله وخضرة. فقالت خضرة وهي تلتفت إليهنّ:

ـ ما بعرفها ولا بعرف اسمها. وظلّت تبكي والجندي يشدّ شعرها وهي تصيح وتقول «منشان الله».

همهمت النسوة ولغطن، وصاحت أمّ فتحي:

ـ العين تطرقها وتطرق شكلها. هذي حمارة بحقّ وحقيق.

قالت أخرى متباهية:

ـ والله لو أنا اللّي كنت معك يا خضرة لقعّدته على بلاط بيت النار وحرمته ريحة البيض.

وضجّت النسوة بالضحك وعلّقن تعليقات ظريفة تثني على شجاعة خضرة وتستهزئ بجبن من سجنت معها. وأخذت كل واحدة تتبجّح بقدرتها وتحكي عمّا كانت ستفعله فيما لو مرّت بتلك التجربة مع خضرة.

وهمست سميّة في أذن أمّها:

ـ يمّه لو كنت مع خضرة إيش كان عملتِ؟

نهرت سعديّة ابنتها وقالت:

ـ اسكتي وخلّينا نسمع.

وظلّت خضرة تستعرض شطارتها وشجاعتها أمام النسوة وهنّ يستمعن إليها بلهفة واستثارة. وحين تتوقّف عن الحديث لتمصّ ليمونتها تستحثّها النسوة بكلمة «وبعدين؟»:

ـ وبعدين؟ ولا قبلين، ما صدّقوا هم يطلعوني من الحبس ويخلصوا من شرّي. أنا خضرة، وخضرة ما تخاف ولا من الله.

وتمتمت بعضهنّ بكلمات الاستغفار لكنّهنّ واصلن مطالبتها بسرد المزيد. وقالت إحداهنّ معلّقة:

ـ والله يا خضرة إنّك فحلة، وبقولوا علينا نسوان كل خمسة بشلن! والله الواحدة فينا بعشر رجال.

نهرتها أمّ فتحي:

ـ عيب يا أمّ جمال، والله رجالنا ما قصّروا.

صاحت إحداهنّ بحقد:

ـ ما قصّروا فينا إحنا، يا شيخة إحنا بسّ نخلص من شرّهم! طلّقني المكسور وأخرجني من بيتي وطبختي على النار ما ذقتها وحقّ اللّي خلقك ورزقك. وتركني لقواريطه أعلفهنّ مثل الزغاليل وراح تجوّز. العين تطرقهم وتطرق سيرتهم. ولك يا سعيد، تعال يا مكسور أفرك لك رأسك قبل الميّه ما تنقطع.

لكن سعيد واصل قذف الصراصير باللّيفة وإغراقها في قنوات الماء المفتوحة. واستمرّت خضرة:

ـ وظلّيت أقول: السرقة حرام؟ تقول حرام. قلت لها، صحيح إنّك حمارة! مجنون يحكي وعاقل يسمع، ضاعت الدنيا وضاعت أهاليها وسرقوا كل إشيء وبعدك بتقولي السرقة حرام؟ تقول حرام، حرام.

قهقهت أمّ فتحي وعلّقت:

ـ هذي صحيح إنّها عالسكّين.

وغنّت بصوت ضاحك والنسوة يردّدن من ورائها: عالسكّين وعالسكّين، فجلة بقاع المحتلّين. وضحكن وتبادلن القفشات ثم عدن إلى أحاديث الجدّ. وقالت خضرة وهي تصوّب نظراتها نحو سعديّة:

ـ إنتو يا أهل نابلس مدلّلين ونواعم ووجوهكم لا وجوه جدعنة ولا مراجل. ويقولوا عليكم جبل النار؟ على إيش خيبتي عليكم؟ إحنا جبل

النار مش إنتو. إحنا الولد عندنا ببطح جمل وبشرب دمه وبقول ما شفت حدا. قال جبل النار قال! جبل النار يصيح ويقول «منشان الله؟» قال جبل النار قال!

تلفّتت النسوة حولهنّ وتبادلن النظرات الحارّة. وعادت خضرة تردّد مقولتها وهي تحدج سعديّة:

ـ جبل النار؟ طزّ على طزّ على النار لأجل جبل النار.

احتارت النسوة في أمر خضرة وأمر هذا التحدّي المفاجئ فتكهرب الجوّ وساد الصمت. فانبرت أمّ فتحي تتصدّى للهجوم.

ـ عيب يا خضرة، احفظي كلامك يا مستورة. نابلس طول عمرها جبل النار. من أيّام الإنكليز ورجالنا يا موت قلبي في الجبال مشرّدين، بين الصخر والشوك والصبر والله أعلم بحالهم. ونسفوا دورنا وحبسوا رجالنا وشنقوهم وذوّقونا الأمرّين. وإذا كان الولد عندكم ببطح جمل، الولد عندنا ببطح عمارة شالوم. بنقف بالمقليعة حجر يوصّله لتلّ أبيب.

علّقت أخرى بخبث:

ـ وتاني يوم بذيعوها في الأخبار ويقولوا عمليّة جديدة.

انفجرت النسوة بالضحك وهمست المعلّقة بصوت تآمري:

ـ أوعوا يسمعونا.

ورأت أمّ فتحي أن تغيّر الجوّ المكهرب وتعيد النسوة إلى وحدة الصفّ فأنشأت تغنّي:

وينك يا ليلى تشوف عينك إيش جرى ليّه

ترلم ترلم ترلم ترلم

دقّت طبول الناس لأجلك من حواليّه

وينك يا ليلى، وينك يا ليلى، تشوف عينك

أيش جرى ليّه

بيني وبين جبال قومك شيدوها ليَّه

ويش يمنع الأرواح تسري وسط الجبال

وإن أبعدوك الناس عنّي مرجعك ليّه

وينك يا ليلى، وينك يا ليلى تشوف عينك

أيش جرى ليّه

وهدأت النفوس وطابت، إلاّ نفس خضرة لم تطب. واستمرّت توجّه نظرات الحقد نحو سعديّة وتتحيّن الفرصة للنيل منها ومن كبريائها. فقالت فجأة:

ـ الكبرة اللّي ما هي لايقة مثل الحبلة المتضايقة. ول عليكم يا أهل نابلس ولّ. هيك الشرف؟ هيك الإنسانيّة؟ وتقولوا علينا ميّه مالحة ووجوه كالحة؟ والله ما كالحة إلاّ وجوهكم يا أكّالين يا نكّارين يا نصّابين يا حرامية.

وقلبت الطاسة على بطنها وبدأت تغنّي:

ـ نابلسي بمشي وبفسي

عالقطين وعالدبسي

واصفرّت وجوه واندفع الدم إلى وجوه أخرى فصاحت إحداهنّ تردّ على التحدّي بالمثل:

ـ يافاوي ذنب الواوي يافاوي ذنب الواوي

واقتربت المتحدّية بقبضتها من وجه خضرة وكادت تلكمها لولا تدخّل أمّ فتحي:

ـ يا ستّات وحّدوا الله. شو هالحكي الفاضي وقلّة العقل؟ صار فينا اللّي صار وبعدكن تقولوا نابلسي ويافاوي وغزّاوي. اخص عليك يا خضرة يا قليلة الخير. فتحنالك قلوبنا وحطّيناك بعيونا وطلعت قليلة أصل وقليلة خير.

ـ أنا اللّي قليلة الأصل وقليلة الخير؟ نابلس كلّها قليلة أصل وقليلة خير. إحنا اللّي خدمناكم وبعيونا حطّيناكم وأكلنا معاكم عيش وملح وقعدنا معكم في زنزانة واحدة وشكينا لكم همّنا وشكيتوا لنا همّكم ولمّا الطريق أخذتنا نسيتونا. ول عليها من بلد ما بتحفظ صاحب ولا صديق. قرف يقرفكم ويقرف بلدكم ويقرف رفقتكم. نابلس يا نصّابة يا كذّابة يا قليلة الدّين.

وارتفع الضجيج وبدأت النسوة تستعدّ لخوض معركة جانبيّة، فصاحت أمّ فتحي:

ـ يا نسوان وحّدوا الله. يا ولايا لمّوا الطابق وخلّينا مستورين! عيب يا خضرة يا مجنونة! أنت يا حرمة مين بعتك بينا؟ هذا كلام ينقال يا مستورة؟

امتصّت خضرة ليمونتها وقالت بشماتة:

ـ بين الناس يفضح ولا في القلب يسطح.

قالت أمّ فتحي:

ـ بالعكس يا مجنونة، المثل بقول بالقلب يسطح ولا بين الناس يفضح. ضبّي الطابق وخلّينا مستورين.

لوّحت خضرة باللّيمونة لسعديّة:

ـ الكلمة الحامضة مثل الليمون في اللّموناضة. ومسبّة الدين بوقتها تسبيح. أنا اللي عندي قلته وسامحونا، هه، أنا رايحة، خاطركم.

شدّتها أمّ فتحي وأعادتها إلى مكانها وصاحت:

ـ تعالي، رايحة فين؟ بعد الصواريخ اللّي ضربتيها ناوية تنسحبي؟ لا والله ما تروحي قبل ما نتفاهم. اسمعوا يا ستّات. أنا قلبي بقول إنّه فيه عند خضرة كلام بعده ما انقال.

وصاحت أخرى:

ـ وفيه سرّ بين خضرة وسعديّة. يا ستات فيه إشي بين سعديّة وخضرة. خضرة من أوّل ما دخلت الحمّام سلّمت على سعديّة لكن سعديّة ما سلّمت على خضرة. وخضرة رقصت وغنّت لسعديّة لكن سعديّة ما صفّقت ولا ردّت على خضرة. ولمّا تزحلقت خضرة كلّنا وقفنا وسعديّة ظلّت قاعدة يا جبل ولا يهزّك ريح. فيه سبب، فيه سرّ ولازم نعرف!

انحشرت سميّة بين الجرن وأمّها وأمسكت بذراعها تضغط عليه وقد أحسّت أنّ في الجوّ بوادر عاصفة تنبئ بالانفجار. وهمست وقد أخافها غموض الموقف:

ـ يمّه مين هي خضرة؟

وصاحت أم فتحي وهي تنقل بصرها بين الاثنتين وقد اكتسى وجهها بإمارات الشكّ والتحفّز:

ـ أنت مين يا خضرة؟ مين بعتك؟ لازم نعرف أصلك وفصلك وقصدك. اسمعوا يا ستّات، خضرة ما رح تخرج من الحمّام إلاّ لنعرف هي مين وتجاوب على كل سؤال.

قالت خضرة بسخرية وهي تمسك بطاستها وتحاول القيام من مكانها:

ـ هي محكمة؟

اندفعت اثنتان تتشبّثان بها وتلصقانها بالبلاط. وعادت أمّ فتحي لاستجوابها:

ـ يا الله قولي الكلام اللّي بعده ما انقال. قولي شو دينك؟

صاحت خضرة وقد بدأت تتوحّش:

ـ الله أكبر يا ناس. أنا مثلكم وديني من دينكم وإن كان مش مصدّقين اسألوا عنّي.

تساءلت أم فتحي مستدرجة:

ـ نسأل مين؟

نظرت خضرة إلى سعديّة تستنجد بها، فغضّت سعديّة النظر وغابت في ملكوتها. «بدّك أقول إنّي بعرفك؟ بدّك قول إنّي بعرف واحدة بطّالة ما ناقصها إلاّ الرخصة؟ إيش أقول؟ أقول إنّي أنا الحمارة عالسكّين اللّي ما بتعرف تقول غير «منشان الله؟» إذا خلصنا من مسخرتهم مش رح نخلص من بهدلتهم. سعديّة وخضرة، وخضرة وسعديّة. سعديّة مثل خضرة؟ الموت يسبق يا سعديّة. أي أنا من غير خضرة وسيرة خضرة ما رحمتني الحارة، كيف إذا عرفوا إنّي نمت معك وقمت معك؟ معقول يصدّقوا؟ فضيحة بجلاجل تقطع نصيبك ونصيب بنتك يا مسخّمة. وقعتك سودا ونهارك كحلي يا سعديّة. أنا مالي ومالك يا خضرة، أنت طلعتي لي منين؟».

وصاحت أمّ فتحي تستحثّ خضرة:

ـ نسأل عنك مين؟ قولي؟ حدا بعتك بينّا؟ كلامك وشماتتك ما تطلع من صديق ولا حبيب. قولي أنتِ مين وإلاّ . . .

استثار التهديد خضرة فلوّحت بقبضتها:

ـ إنتو بدكن تخوّفوني؟ خضرة ما بتخاف من اليهود ولا من القرود ولا من العبيد السود. خضرة ما بتخاف ولا من الله. أي أنا إسرائيل كلّها بطبلها وزمرها بحطّها بقاعي وبقول ما شفت حدا. إذا اليهود ما خوّفوني، لأخاف منكن؟

ـ ولا إحنا نخاف من اليهود، لكن اللّي من البلد بخاف من أهل البلد. أنت من البلد والاّ لأ؟

ولم تنطق خضرة وظلّت تنظر في الوجوه المغضبة بتحدٍّ وشراسة. واختلست سعديّة النظر إليها ورأت في وجهها التعابير المريرة المتوحّشة نفسها التي لازمتها حين حشرها الجند في الزاوية قبل أن يباشروا بضربها. وحين أحسّت خضرة بجوّ الحميميّة ينسحب ويخلّفها وحيدة عارية أمام وجوه تحاكمها، لفّت ساعديها على ثدييها الضخمين تستر عريّهما.

هدرت أمّ فتحي بصوت آمر:

ـ احكي.

أجابت خضرة بعناد:

ـ مش رح أحكي، لأشوف إيش رح تعملوا.

وتلفّتت النسوة وتبادلن نظرات الحيرة، فبدأت خضرة تقهقه وتضرب كفًّا بكفّ. وازداد الشكّ توقّدًا في عيني أم فتحي فنهرتها:

ـ استحي يا خضرة وقولي باللّتي هي أحسن، أحسن والله العظيم أخلّي البلد كلّها تتفرّج عليك.

فقشت خضرة بأصابعها وترنّمت:

ـ ما تفرّجت وشبعت فرجة. وهسّه دوري أنا أتفرّج وأشبع فرجة. قال بلد قال!

ورفعت إصبعها الوسطى في وجه أمّ فتحي ولوّحت:

ـ على هذا البلد، شايفة؟ على هذا البلد.

صاحت إحداهنّ:

ـ العين تطرقها ما أوقح عينها!

وصاحت أخرى:

ـ وين عيون البلد تشوف؟

وتردّدت كلمات وهتافات حادّة: جاسوسة، جاسوسة. فهزّت خضرة رأسها المثقل بالحقد ونظرت باتجاه سعديّة:

ـ أنا جاسوسة؟ أنا يا بلد جاسوسة؟ أنا اللّي بست تراب رجلين رجالك وحملتك في اللّيالي السود من مخيّم لمخيّم ومن شارع لشارع، وسحبتك من إيدك والضرب فوق راسنا شغّال وما مدّيتي إيدك تساعديني أو تساعدي حالك. وظلّيت تصيحي وتقولي «منشان الله». أنا جاسوسة؟

وقفزت الدموع إلى عينيها فجأة، فدبّت النار في قلب سعديّة وبدأت تبكي. واصلت خضرة ودموعها تسيل والحسرة تموج في صوتها والعتاب:

ـ ولّ على بلد تنكر وتتنكّر لعشرتها وتنسى الباص والحبس والمخيّم والرجال. ولّ على بلد تخاف على حالها من خيالها وما تقول كلمة بحقّ مظلوم، ول، ول، ولّ.

وأخذت تدقّ صدرها وتلطم رأسها، فهمست أمّ فتحي «هذه مجنونة يا نسوان، اتركوها بحالها وخلّيها تروح». وخبّأت سعديّة رأسها خلف الجرن وبدأت تنشج، فارتمت سميّة على أمّها وهي تهتف بقلب مكسور «يمّه، مالك يمّه؟» وبكى عزيز والتصق بأمّه مذعورًا. وكفّ سعيد عن قذف الصراصير باللّيف ووقف مع بقيّة الأطفال يتأمّلون وجوه أمّهاتهم الواجمة بخوف. توقّفت خضرة عن اللّطم ونظرت في وجوه النسوة بحقد متوحّش وصاحت:

ـ نابلس يا قليلة الخير يا قليلة الأصل يا نصّابة يا كذّابة يا قليلة الدين. قال بلد قال! طردوني على شويّة رزّ وشويّة سكّر. مثل الكلبة طردوني ودرت من شارع لشارع ومن مخيّم لمخيّم أشتهي اللّقمة وما ألاقيها وأشتهي الدوا وما ألاقيه. قال بلد قال! طزّ على البلد وأهل البلد.

وامتدّت يد إحداهنّ تلطم رأسها فحاولت أمّ فتحي أن تصدّ الكارثة عن الوقوع، إلاّ أنّ خضرة استمرّت في كيل التهم والشتائم والسباب حتى لم تبق في الحمّام يد إلاّ وامتدّت لتنال منها. وصاحت سعديّة من مكانها ويداها ممدودتان:

ـ لاء لاء لاء..

وكانت قد عقدت العزم على أن تبوح للنسوة بالسرّ لتنقذ خضرة، إلاّ أنّ الأوان كان قد فات، وضاعت صرخاتها في كوابيس الضباب ورجع الصدى وقرقعة الطاسات وارتطام الأجساد الساخنة الموتورة.

وهرعت نحو الكتلة البشريّة لتخلّصها، فتلقّفتها الأيدي وقذفت بها فوق القنوات المفتوحة. عادت تركض باتجاه الكتلة وسميّة تتشبّث بساقها وتصيح بذعر «يمّه، ليش يمّه، ليش؟؟».

وأخيرًا تمكّنت من الوصول إلى خضرة، فارتمت عليها تدرأ عنها الضرب وتصيح:

- قومي يا خضرة قومي..

لكن خضرة وقد وهنت قواها وسال دمها ظلّت ممدّدة على الأرض تتلقّى الضربات ولا تقاوم. وندبت سعديّة لعجزها عن مواجهة الجمع وحدها، لكنّها ظلّت تشدّ بذراع خضرة وتصيح:

- يا الله يا خضرة، يا الله نهرب.

همست خضرة قبل أن تفارق وعيها:

- على فين؟!

(٢٥)

الكوّات الفضائيّة تحوم فوق رأسها كواكب سيّارة. أعشاب وطحالب تهتزّ كأجنحة الفراش. والعالم يقلب ويعيد إليها الإحساس باختلال التوازن. وتلك القافلة من الحشرات تنسحب أسرابًا أسرابًا. أسرابًا تغطّي السقف، أسرابًا تغطّي الجدران، تروح، تجيء، تحملق فيها عيون كعيون الجانّ. تشدّ سعديّة وزرتها. إحساس بالعريّ. أصوات متشابكة ملتفّة كجذور بلّوطة ضخمة. صيحات نداء هناك. دمدمات هنا. صدى. أزيز كتهويم البعوض. خضرة. أين خضرة. أكوام اللحم تتعارك وخضرة ممدّدة على الأرض بدون حراك. لم تقاوم خضرة. يد تشدّ شعرها فصاحت: يا خضرا!

وحملقت فيها عيون كثيرة. فوقها مباشرة عينان كبيرتان أكبر من أيّة كوّة. وبسملت النسوة. وعادت سعديّة تصرخ: يا خضرا. ثم انسحبت إلى الكوّات تبغي الخلاص. وتناثرت حولها بسملات وحدقات مفتوحة. ويد صغيرة تشدّها وتصرخ «مالك يمّه؟» صوت سميّة، وعزيز، وحمادة، وزهدي.

مرّت دقائق، ساعات، أشهر، سنوات. لا حساب للزمن، وهي ممدّدة على الأرض دجاجة مذبوحة تنزف غلبًا. وامتدّت أيد تمسح وجهها. دموع تسيل على الجانبين. فلتغلق عينيها وتبتعد، وليكن ما يكون. وأصوات تختلط وتلتفّ وتتعقّد. خيوط كثيرة تنسحب من

مواسير ماكنات الخياطة. تتوقّف الإبرة. أبواق فونوغرافات ضخمة. والخيوط مشعّثة تسدّ الأبر.

كوّة زرقاء هناك، فلتغمض عينيها وتنسحب إليها. الكوّة ضيّقة. ترتطم بالحوافّ المطحلبة فترتدّ. سقوط من السقف وتعود إلى البلاط تشدّ بوزرتها تستر عريها وتتشبّث. عيون الجانّ مازالت تحملق.

قالت إحداهنّ وهي تبسمل:

ـ نامت، النوم سلطان.

وغابت. وتقاذفها البلاط والسقف وبيت النار. ماء يتدفّق كالشلاّل. عين المسكين. يا مغيث أغثنا. جفاف في الحلق. يتقاذفها الشلاّل وتبتلع الماء فتمتلئ الرّئتان. إحساس بالإختناق والعطش. ماء وعطش. يا مغيث أغثنا. طبول تدوي. صاحت واحدة:

ـ تعال يا مكسور أفرك لك رأسك قبل ما الميّه تنقطع.

وارتطمت طاسة بالأرض أعقبتها بسملة. تصاعد دخان سيجارة وقرقرة أرجيلة. وتحلّقت الأصوات في دوائر متضاربة متباعدة متقاربة، تتشابك حينًا وتنفلت أحيانًا. وتغنّى صوت حزين متموّج «وينك يا ليلى تشوف عينك». وهمهمت أصوات «إيش جرى ليّه؟» وهمس صوت فضولي:

ـ مين خضرة؟ مثل بسم الله الرحمن الرحيم. شقّت الأرض وطلعت منها واختفت من غير ما نعرفها.

وضاعت الطاسة. لم تتمكّن من فتح عينيها أكثر من ملمتر واحد. وظلّ بؤبؤاها يحومان داخل ستائر ورديّة مموّجة بالدم، وأحيانًا تنزل الكوّة إليها ويصبح العالم بلون أبيض مندوف.

قال صوت:

ـ حسرة علينا وعلى كسرتنا. خضرة قالت وأمّ فتحي قالت.

همس صوت آخر:

ـ أم فتحي تسمع.

ـ تسمع تسمع. صحيح اللّي قالته خضرة. يا ناس صحيح.

ـ واللّي تقوله أم فتحي صحيح.

ـ آ والله صحيح.

ـ ونصدّق مين؟

ـ أنا عارفة يا أختي؟ في القلب يسطح ولا بين الناس يفضح.

ـ بين الناس يفضح ولا بالقلب يسطح، ومسبّة الدين بوقتها تسبيح.

ـ آ والله صحيح.

ـ إش، أم فتحي تسمع.

ـ يا ستّي تسمع.

ـ لسانها طويل بثلاث شعب، بتقدري عليها؟

ـ والله صدقت.

الكوّات مازالت تعوم وتحوم. تنقلب السماء على الأرض. أسراب وأسراب. ينسحبون ببطء شديد، مثل عساكر مهزومة. قبل سنوات طويلة طويلة، كان زهدي في الكويت. كانت تلتجئ وأبناؤها لدار قريب زهدي، الشاويش. كان مازال حيًّا. مرّت أعوام. مات زهدي وقريب زهدي وبعيد زهدي. في اللّيل يحترق الأفق الغربي ودويّ

بعيد. قريب زهدي كان شاويشًا في الجيش البريطاني، سرق مرتينة وانضمّ إلى الثوّار وظلّ يردّد قصصًا عجيبة. يمسح شاربه الأبيض ويعدّد أسماء غريبة لقنابل وطيّارات. يعرف كلّ شيء. قال المعركة حامية في منطقة جنين. أشار بإصبعه المدبّب الأعجف وقال «هناك يا سعديّة». لكنّه في الصباح أشار بإصبعه للأسفل، نحو الواد وقال «تحت يا سعديّة». ونظرت ورأتهم ينسحبون ببطء، أسرابًا أسرابًا. ومسح شاربه وقال «راحت علينا». نظرت في عينيه وكان يحدّق بنظرة جامدة. وظلّت عيناه مفتوحتين تنظران إليها. عينان مفتوحتان. عيون كثيرة والأسراب تنسحب. نظرت من خلال منظار الشاويش. فروع أشجار الزيتون تغطّي سقوف الشاحنات الكاكيّة الخضراء. مشهد الشاحنات تهتزّ فتهتزّ الأرجل. تلوح كثديْ عجفاء ترقص في الحمّام. رقصت النسوة في الحمّام. زغردت النسوة في الحمّام. انطلقت زغرودة خضرة كالطلق وشقّت الدخان وخرجت من الكوات فوقعت الطاسة وضاعت. وصاحت أمّ فتحي بصوت آمر: «يا الله يا ستّات». همست إحداهنّ «أمّ فتحي زعلانة. خضرة سمَّت بدنها وراحت». «راحت علينا» أشار بإصبعه الأعجف لأسفل الواد ومسح شاربه المتهدّل بجمود. إحداهنّ تبربر، تقصّ قصّة طويلة لا أوّل لها ولا آخر عن حفلة عرس كلّفت ألف دينار.

ـ ألف دينار؟

ـ ألف دينار. جرسونات من أوتيل كبير كبير في القدس. جرسونات مثل الأفنديّة. شعرهم بلمع مثل القصب. غنّوا ورقصوا. فستان العروس كلّف كذا مبلغ، ولا تعدّي. ولا تعدّي فساتين ولا تعدّي نسوان ولا تعدّي جرسونات. فرقة تدقّ العود والكمنجة والطبلة تقرع. غنّوا لصباح وفريد وفايزة أحمد وأمّ كلثوم. غنّوا؟ أنا عارفة شو

غنّوا؟ غنّوا لحدّ الصبح. وكلّفت الحفلة ألف دينار.

ـ ولك يا مكسور تعال أفرك لك راسك قبل ما الميّه تنقطع.

واستمرّ يقذف اللّيف والصراصير تنسحب أسرابًا أسرابًا. مدّ إصبعه الأعجف وقال «راحت علينا». بكى حمادة وسأل «كيف راحت علينا؟» مسح شاربه وعينيه وقال «رحنا بلاش».

دندنت المرأة بصوتها النائح «وينك يا ليلى تشوف عينك». وردّدت مجموعة «إيش جرى ليّه؟» ونقرت أم فتحي طاستها وهتفت بأغنيتها المفضّلة «أيّامنا رح تتحلّى وترجع الدنيا كلاّ».

همست إحداهنّ:

ـ سعديّة وخضرة. فيه سرّ. رمت حالها عليها. ضربنا خضرة؟ تستاهل. عينها وقحة ولسانها فالت. لكن ما عرفنا هي مين؟ أصلها وفصلها وناسها ومداسها. يا ناس خضرة. خضرة.

فتحت سعديّة عينيها فجأة. ارتجّ العالم وسقط وسقطت أجفانها فأنّت وهمست:

ـ خضرا.

ـ مالك يمّه؟

ـ اتركيها يا بنيّتي، النوم سلطان.

شهقت سميّة بزفرات مكتومة:

ـ ضربتوا أمّي، يا ويلكم من الله.

ـ ضربنا خضرة، أمّك رمت حالها عليها. مين هي خضرة يا سميّة؟

ـ عمري ما شفتها ولا عرفتها.. يمّه، يمّه.

ـ يا بنيّتي اتركيها أحسن ترجع لها النوبة.

وهدأت سميّة وظلّت تمسح دموعها بانكسار وهي مازالت تتمسّك بذراع أمّها.

سقطت الطاسة فارتجّت. سقطت أغطية الطناجر. سقطت مغرفة العدس من يدها. وقف الرجال بالباب يحملقون بنظرات جامدة. صاحت وهي تتلقّى الخبر. يا ويلك يا سواد ليلك يا سعديّة. وسقطت على الأرض. تلقّت ضربة أطاحت بوعيها. صفعات كثيرة تنهمر كرشّات المطر. صفعة مدوّية على الخدّ السمين. أرملة. لو كان زهدي. لو بقي زهدي. المقصّ السحري. ما كان يخاف. فتح رأس شلومو بالمفكّ وما خاف. حبسوه وما خاف. جاع وما خاف. ولا خضرة خافت.

ـ يمّه، قومي يمّه.

ـ يا بنيّتي اتركيها تنام، النوم أحسن دوا.

ـ روحي لأخوك يا سميّة. يا الله يا بنيّتي أنت كبيرة يا حبيبتي، افركي رأس أخوك قبل ما الميّه تنقطع.

ـ فيه سرّ بين سعديّة وخضرة. والله لو أموت ولو أفوت لازم أعرف مين هي خضرة.

اقترب طفل من أمّه القرويّة الجالسة على البيضة فوق بلاط بيت النار وسألها:

ـ يمّه، مش بلدنا أحلى من نابلس؟

همهمت أمّه وهي تدلك فخذها ومصعد مؤخّرتها:

ـ أنا عارفة يمّه! كل الناس خير وبركة.

أصرّ على موقفه:

ـ لاء لاء، بلدنا أحلى.

وتأمّلت القرويّة الحيطان المبقّعة بخرائط الرطوبة والعفونة، وتسلّقت الجدران ومسارب الصراصير ثم تهاوت بعينيها نحو القنوات المفتوحة وعلى وجهها قشطة بيضاء وكتل شعر ملوّثة، وهمهمت ساهمة:

ـ بلدنا أحلى.

لوت واحدة شفتيها وهمست في أذن أخرى:

ـ ما شاالله ما شاالله. صار للقشل لسان وصار اللسان يحكي.

التفتت القرويّة وحدجتها بنظرة مغضبة حائرة. «احترنا فيكم يا أهل نابلس. ما حدا يقدر عليكم ولا إنتو قادرين على حدا. جبل النار؟ على إيش يا قشلي؟ والله والله لولا رجال القرى وفعال الفلاّحين ما ظلّ في نابلس غير الصراصير. نابلس؟ يا ما شفنا منكم يا أهل نابلس! يسلم تمّك يا خضرة». وتذكّرت حين كانت تجلس على الدوّار وأمامها سلّة البيض، وكان يمرّ بها قرد آدمي بطربوش أحمر وطقم أسنان ويد ترتجف حين يعدّ القروش، ويسألها بلهجة نابلسيّة قبيحة: بكم بيضاتك عمّي؟ وتهمهم وهي تتأمّل سحنته المشدودة البخيلة: عمّي في عيونك وعيون نابلس اللّي طلّعتك. «نابلس يا نصّابة يا حرامية يا قليلة الذمّة». وكانوا يجلسون مساء تحت الجوزة يقصّون حكايات كثيرة مثيرة عن نابلس وأهلها. التاجر الفلاني نصّاب، الدكتور الفلاني حرامي، أهل نابلس والكبرة وطولة اللّسان والنفخة الكذّابة. وذاك القرد أبو طربوش أحمر يقف أمامها يعدّ قروشه ويسألها بلهجة خبيثة: بكم بيضاتك عمّي؟ لكنّهم يتصيّدون أبناءهم ويزوّجونهم بناتهم حين يخرج منهم

طبيب أو محام أو مهندس. يعزمونه ويتودّدون إليه ويأخذونه لبناتهم. وينسى الولد أمّه وقريته ويلزق بنابلس يسكن الدار ويشتري السيّارة ويفتح العيادة ويسلخ جلد الفلاّحين كلّما احتاجوه. «نابلس يا نصّابة يا حرامية يا قليلة الدّين».

وأكملت المرأة قصّتها: السهرة كلّفت ألف دينار. فستان العروس وصيغة العروس ومهر العروس. وجرسونات ولا تعدّي..

ـ وخضرة؟

ـ اش.. أم فتحي تسمع.

ولكزتها وأومأت:

ـ الفلاّحة قاعدة على بيضة وجوزها في السعوديّة.

وقهقهت الاثنتان فانفجرت القرويّة:

ـ ولّ عليكم يا أهل نابلس ما حدا يقدر عليكم!

صاحت أم فتحي تنهرها:

ـ مالهم أهل نابلس يا حبيبتي؟ اسم الله عليهم وحوّطتهم بالله. رجالهم نار ونسوانهم شرار. وإنتو الفلاّحين أهل الخير والبركة. لولا الفلاّح ما عاش المدني. والله لولاكم ولولا خيركم وأفضالكم كان هلكنا من الجوع. السنة الماضية لمّا أضربت البلد أيّامًا وأسابيع مين وقف جنبنا وبعث لنا الخبز والزيتون والجبنة؟

انفرجت أسارير القرويّة وأجابت بحماس:

ـ وزغاليل ومسخّن وبيض بالميّات.

ـ يسلم تمّك. إحنا إلنا بركة إلاّ إنتو؟

ـ من خير الله وخيركم يا أهل نابلس، والله العين ما تعلا عن الحاجب.

همست واحدة:

ـ مش قلت لك؟ أم فتحي لسانها ماضي وما يقدر عليها قادر!

ـ إذن جوزها أخذ ٣٠ سنة على الفاضي؟ إذا كان النسوان اللي كلّ خمسة بشلن هيك، كيف الرجال؟

نفضت أخرى يدها:

ـ يا شيخة. هم بس يعفونا شرّهم. طلّقني المكسور وطبختي على النار ما ذقتها، وقعدت لأواريطه أعلفهم مثل الزغاليل. يا الله الصبر على كل أمر.

قالت أم فتحي لمجموعة نسوة تلتفّ حولها:

ـ الخميني أعطى النسوان حقّ الانتخاب، وإحنا بكره يعطونا.

وظلّت الوجوه جامدة ولا أثر فيها للفهم أو التفاعل. لكنّ المطلّقة عادت تكرّر:

ـ هم بس يعفونا شرّهم.

أصرّت أمّ فنحي:

ـ ومين إلنا غيرهم يا مستورة؟ هم الخير والبركة. بس شدّوا حيلكم يا ستّات قبل ما الميّه تنقطع.

وعادت تردّد وهي تدعك ظهر طفلة بين يديها: أيّامنا رح تتحلّى وترجع الدنيا كلاّ. وبعد اللّيل بيبجي نهار ويفرجها الله، الله، يفرجها الله.

وهمست سميّة وهي تشدّ ذراع أمّها:

ـ يمّه قومي. يمّه.

فتحت سعديّة عينيها وحامت الكوّات فوق رأسها صحون الماس. صحون ألماس وكنافة وفراندة زجاجيّة تجلس فيها تتشمّس والمدينة مفروشة تحت قدميها بساطًا. لا حارة ولا أمّ تحسين ولا طبلة. مع ستّين سلامة يا طبليّة، مع ستّين داهية. ستكون بعيدة عن كلّ الهمّ والغمّ، ولن تقف هذا الموقف المشؤوم بعد اليوم، ولن تحقّق معها أم فتحي وغيرها: مين هي خضرة؟ مين ما تكون تكون. مسكينة يا خضرة، ضربوك يا خضرة. وضربوني. والله ضرب اليهود أحسن. على رأيك، بحسّ الواحد أنّه محترم.

ستبني الدار هناك، بجانب دار الشاويش. وسَتَرى مداخل المدينة الغربيّة. وحين تهبّ المشاكل من الغرب ستكون أوّل العارفين. سكن الجبل أحسن من كل النواحي. المظاهرات في البلد القديمة، ومنع التجوّل في البلد القديمة، والرطوبة والفقر والشوارع الوسخة في البلد القديمة. وأهل الجبال ما يصيبهم من الهمّ إلاّ طرطوشة. لكن نسف البيوت ما يرحم لا بلد قديمة ولا بلد جديدة. نسف البيوت أنا مالي وماله؟ أولادي صغار وما بعرفوا هذا ولا هذه. لكن رشاد ما تسقط المقليعة من إيده، ويا خوفي يعمل عمله وينسفوا الدار. أبو العزّ عملها وبعد البيضة عنه ما فقست. ويا ويلك يا سواد ليلك يا سعديّة، مش كفاية الرملة، وكمان نسف الدار؟ آه يا زهدي.

صاحت أم فتحي: يا ستّات تفضّلوا. وفردت قطعة مشمّع كبيرة على الأرض ووضعت في الوسط طنجرة مليئة بالمجدرة. قلبت غطاء الطنجرة على ظهره وملأته بالمجدرة وبدأت تأكل منه وتطعم الأطفال

من حولها. واقتربت بقيّة النسوة من المشمّع وحللن صررهنّ وأخرجن ما فيه النصيب. سألت إحداهنّ جارتها وهي تتأمّل أصابعها تحلّ عقدة الصرّة:

ـ قالت الجارة وهي تخرج كيس نايلون مليئًا بالزيتون والمخلّل وحبّات البندورة:

ـ من خير الله وخيرك، خروف محشي.

وضحكت النسوة وبدأن في تبادل اللّقم والقفشات. وصاحت أمّ فتحي تنادي القرويّة وقد رأتها تنزوي خجلاً وترمق النسوة اختلاسًا. اقتربت القرويّة بحياء وجلست بجوارهنّ وابنها في حضنها.

قالت أمّ فتحي مداعبة:

ـ مسخّن؟

ضحكت القرويّة وكشفت عن أسنان نقيّة:

ـ بخروج أبو فتحي أعملّك مسخّن، مرحبًا بك.

وأخرجت صحنًا وضعته بين بقيّة الصحون فهلّلت إحداهنّ.

ـ خبّيزة! سنين وسنين ما ذقت الخبّيزة.

قالت القرويّة بكبرياء:

ـ بلدنا ملانة خبّيزة، تفضّلوا ولقطوا خبّيزة على كيفكم. مطر السنة رشتين ثلاثة، البير يا دوب نصّه، لكنّ الربيع ما شا الله، والخبّيزة كل ورقة قد الرّغيف.

شدّت سميّة ذراع أمّها بإصرار:

ـ يمّه، يمّه، قومي ناكل. يمّه قومي.

ونادتها أمّ فتحي بصوت كالجرس:

- يا سعديّة قومي. قومي يا حبيبتي واخزي الشيطان. وتمطّت سعديّة وبدأت تتحرّك. فشدّتها الحممجيّة وساعدتها على النهوض، فجلست تنظر لجمع النسوة بعينين زائغتين. ثقل في رأسها، ميوعة في معدتها، وصور تروح وأخرى تجيء وتظلّ صورة الوجه الحزين الشرس ماثلة أمام عينيها. خضرة. والأجساد الساخنة تلتحم في كتلة واحدة. خضرة ممدّدة على الأرض ولا تقاوم. يا الله يا خضرة نهرب، على فين؟

قالت واحدة بطنها مزروع أمامها كالجبل:

- جوزي مطلوب من خمس سنين. خسفوا الدنيا وهم يدوّروا عليه وما لقوه. وأنا صرت مفقّسة ثلاثة بعين العدوّ. آخر مرّة كبسوا الدار قاموا الدنيا وما أقعدوها. فتحوا الخزاين والشبابيك والأبواب، حتى الجوارير فتحوها. ومن غيظه صاح الضابط وهو يؤشّر لبطني: وهذا منين؟ سكتّ وما عرفت إيش أقول. وظلّ يصيح: هذا منين يا ستّ؟

صاحت واحدة بصوت حادّ:

- من الله.

فانفجرت النسوة بالضحك. وغنّت واحدة وهي تصفّق «يا عين كوني صبّارة»، وقاطعتها أم فتحي وغنّت بمصاحبة الطاسة «أيّامنا رح تتحلّى وترجع الدنيا كلاّ».

اهتزّ الحمّام، ورقص الأطفال وبأيديهم قطع الخبز المبلولة. ارتفعت روح سعديّة وحلّقت، واتّسعت الكوّات وأصبحت أبوابًا مشرّعة تصل السماء بقفزة. وهمست سميّة وهي تلتصق بأمّها بذعر:

ـ يمّه، يمّه، أمّ صابر وأمّ تحسين. . .

وعادت الكوّات تحوم والأعشاب والطحالب تهتزّ كأجنحة الفراش. وشدّت وزرتها تستر عريها، لكن عيون الجانّ ظلّت مفتوحة والكوّات موصدة. وهمست وهي تحسّ بالجفاف يغزو حلقها ويحيله بيت نار:

ـ اسقوني، اسقوني.

شهقت واحدة وصاحت:

ـ سبعين عين تطرقهم، قطعوها!

وضربت صدرها فتطايرت قطرات الماء واختفت وسط الضباب.

(٢٦)

المجلّة تهتزّ فعقدوا اجتماعًا ناقشوا فيه الأوضاع. الحالة الاقتصاديّة سيّئة، تدهور في المبيع والتوزيع. وقالوا إنّ هذا يدلّ على أحد أمرين أو كليهما. الأوّل أنّ الناس سئموا قراءة الكلام وما عادوا يتحمّسون بسهولة. والثاني أنّ هيئة التحرير عاجزة عن استقطاب القرّاء والوصول إليهم. مدير التحرير عزا المشكلة إلى تهاون أفراد هيئة التحرير وطالب برفع ساعات العمل أو بتشكيل لجنة تتوجّه شرقًا وتعود بلمّة تعزّز الصمود. فارتفعت أيد ثلاث تطالبه بالصمت فصمت. أصرّ على موقفه فهدّدوا بالاستقالة الثلاثيّة، فتراجع المدير وظلّ ينظر في عيني الأستاذ بديع يستوحي الإلهام.

وجاء الإلهام على عجل إذ قال الأستاذ بديع إنّ السبب في تدهور المبيع والتوزيع هو سوء استخدام الكلمة، فهذا الجيل لا يجيد القواعد والنحو والصرف كما أنّه لا يحترم العروبة لأنّه فقد الإيمان بها وبدينها الحنيف. أين الشيخ الشرتوني، أين الزمخشري، وأين صلاح الدين؟ خبّأ سالم رأسه في ذراعه وشخر، فامتعض الأستاذ بديع وعلّق فعلّقت الجلسة.

أعادوا الكرّة لأنّ المجلّة مازالت تهتزّ فيهتزّون معها. وناقشوا الأمر مطوّلاً، وطال الأخذ والردّ لدرجة نسوا فيها القرّاء وتذكّروا أنفسهم. وصاح عادل على غير عادته وهدّد بالاستقالة فوجموا، كان قد سبقهم

إلى التلويح بصيغة يخبّئها كل واحد منهم للملمّات فأحبطهم.

لكنّ الموقف لم يتغيّر. صاحوا واستراحوا، ثمّ استراحوا وصاحوا، وتبادلوا النعوت والألقاب والضرب على الأوتار حتى انقطعت. ثمّ وقف على رؤوسهم الطير وعقدوا سواعدهم دون أن يمدّوها. وأخيرًا أوجز الأستاذ بديع واختصر الموضوع في مطلب واحد. وما هو المطلب والمطلوب؟ نغلق الجسر ونمنع الناس عن الهجرة. ومن يقوم بذلك؟ إسرائيل أم الأردن؟ وذاك السيل الجارف من التصاريح والجوازات وملايين الليرات والدنانير؟ وتلك المكاتب وطقوس الدخول والخروج وشؤون الأرض المحتلّة والوظائف؟ نغلق الجسر ونمنع الناس عن الهجرة. من يفعل ذلك؟ نحن أم هم؟ ثم ماذا بعد هذا؟ يقبع الناس في بيوتهم يشترون الخبز ويتناسلون ويتناقلون الأخبار فيزدادون شغفًا بالصحافة. وقبل أن يشخر سالم ألمّت برأس عادل فكرة طارئة. نظر إلى كرسي رفيف الفارغ وهمس بحيرة وقلق «أهي السبب؟» ثم سأل سؤالاً أوقع الهيئة في دوّامة أخرى من التساؤلات واللاإجابات. «نزل المبيع مذ هجرت رفيف المجلّة، أليس كذلك؟» بعضهم قال نعم والآخر لا. وناقشوا طوال ساعتين وربع الساعة حتى مَنّ الله على مدير التحرير بسؤال جوهري. قال «وما المقصود يا عادل؟». المقصود أنّ الرجال يهاجرون والمرأة تبقى. بحكم التركيبة الاجتماعيّة يظلّ الرجل أكثر تحرّرًا وقدرة على الحركة. معظم دول النفط ترفض تشغيل المرأة إلاّ حين تكون مصحوبة بولي أمر. وليّ أمر مراهق، وليّ أمر عاجز، وليّ أمر أبله، فهو وليّ أمر. ومعظم الولايا الشغّيلات بدون أولياء أمر، فتظلّ المرأة قاعدة ولا تهاجر.

تنطّح سالم للتحليل بتحليل آخر. قال إنّ الطلاّب الذين يتلقّون

العلم خارج الضفّة يظلّون خارجها ولا يدخلونها إلاّ في الصيفيّات. أمّا الفتاة فتنهي دراستها الجامعيّة وترجع لتعيش في جوّ العائلة بحسب الأصول المرعيّة. هذا هو السبب وليس ذاك.

وأدلى محرّر زاوية الرياضة بدلوه وقال إنّ أعداد الفتيات الرياضيّات أصبحت تفوق أعداد الفتيان الرياضيين. لكن سالم الذي كان يتحيّن الفرصة لإثبات سخف أفكار محرّر الرياضة، قال إنّ الهجرة تأخذ مجراها بين الشباب المتخرّج وليس أثناء الدراسة. وأثبت محرّر الرياضة أنّه أكثر إلمامًا بمشاكل البلد ممّا يتصوّر أفراد الهيئة، فقال إنّ الرجل حين يهاجر يسحب عائلته معه، وخرج بنتيجة مفادها أنّ الهجرة تكون أثناء الدراسة وليس بعد التخرّج. فحين يسحب الرجل عائلته يسحب ابنه وابنته على السواء.

قال سالم، وهذا يعني أنّ عدد الفتيات الرياضيّات لا يفوق عدد الفتيان الرياضيين. قال محرّر الرياضة «بل يفوق». قال سالم «بل لا يفوق». وظلّت الهيئة معلّقة بين اليفوق واللايفوق حتى أمسك عادل الكرمي برأسه وهتف: «يا ليتني بقيت عاملاً هناك».

وفي الجلسة الثالثة قال المدير إنّه سيتوجّه في الغد شرقًا، فها قد مرّت الأسابيع وما استطاعت الهيئة الخروج بحلّ عملي واحد. نحن بحاجة للمال، هذا هو لبّ الموضوع. هاجر الناس أم لم يهاجروا، أعداد الرياضيّات فاقت أعداد الرياضيين أم لم تفق، اشترت المرأة المجلّة أم لم تشترِ، المهمّ أنّنا بحاجة للمال. تساءل عادل: والقرّاء؟ أيّ قرّاء؟ صاح سالم: ولمن نكتب إذن؟ قال الأستاذ بديع: المهمّ أن نكتب. العروبة لا تهمل تاريخها، ونحن جزء من هذا التاريخ، وفقد سالم أعصابه وهمس «دينك على دين التاريخ على دين العروبة». سمعه

الأستاذ بديع فاستقال من فوره، لكنّه مسحها في لحية المدير في غضون دقائق. وهمهم عادل مستجيرًا: أينك يا بو العزّ أينك؟

ومضت الفكرة في رأسه فنفّذها في الحال. قال للمدير: أنت بحاجة للمال، سأحضر المال. من أين؟ سأبيع مزرعة الكرمي وأدخل شريكًا في المجلّة. انقلبت سحنة المدير وفكّر أنّ المسألة أصبحت أكثر خطورة ممّا توقّع في أيّ يوم من الأيّام. فأن يكون عادل شريكًا معناه أن تكون لعادل صلاحيات المدير نفسه، وبما أنّ عادل أكثر موهبة وأكثر ثقافة وأكثر شبابًا وشعبيّة فلن تمرّ أشهر إلاّ ويصبح عادل مديرًا ويصبح الأستاذ عطا الله نائبًا له أو محرّرًا لزاوية من الزوايا الكثيرة، وقد يصبح فيجد نفسه قاعدًا على الرف لا يتزحزح.

ومن منطلق أبوي بحت عارض المدير بيع المزرعة لأنّها تركة المرحوم وأموال اليتامى وخطوة أولى لتحويل المزرعة إلى مستوطنة. مستوطنة؟ أينعم، أنت شابّ ومازالت أماني الشباب ومثله تخيّم على رأسك وتمنعك من رؤية جوانب الحياة المعتمة. أنت شابّ ولا ترى إلاّ الإشراق. فعلّق سالم باقتضاب: كلّنا في الهمّ شرق.

قال عادل:

ـ غدًا أحضر أبو العزّ، وإذا وافق أبو العزّ على المشروع نكون قد اتفقنا.

حملق المدير وسأل بصوت تبرّت الروح منه:

ـ أبو العزّ؟

ـ أبو العزّ أخي الأصغر، ألا تذكره؟

ـ وكيف ستحضره من السجن؟

ابتسم عادل فتبرّع سالم بالردّ:

ـ خرج منذ شهرين ومازال يبحث عن عمل.

«يا وعدنا، كنّا بأربعة أصبحوا ثلاثة بفضل استقالة رفيف، وما لحقنا أن نحمد الله ونسأله المزيد ونتنفّس، حتى وُوجهنا بالاختناق. أبو العزّ؟ هذا اختناق مركز مرتّب أصلي لا هوادة فيه ولا هدنة. أبو العزّ؟ كل شيء إلاّ هذا. أبو العزّ؟

قال الأستاذ بديع مدافعًا عن مستوى الصحافة الذي سيهبط حتمًا فيما إذا فتحت المجلّة أبوابها للهواة والمبتدئين:

ـ اسمع يا عادل يا ابني. أخوك على رأسنا من فوق، وقلوبنا مفتوحة لكلّ خرّيجي السجون بدون استثناء، فهم شموعنا وتاج رأسنا والنجوم المضيئة في سمائنا. ولكن يا عادل يا ابْني، صاحبة الجلالة لها هيبتها ولها سرّها وصنعتها. أبو العزّ مازال صغيرًا وليست له دراية في أمور الصحافة. مثلاً أنا، بكلّ ما لديّ من تجارب وخبرات تعرفها ولا تعرفها، ومع الأربعين سنة في حقل التدريس وزد عليها سني الخدمة في هذه المجلّة المتواضعة، إلاّ أنّني رغم ذلك مازلت أشكّ في قدراتي الصحفيّة.

علّق سالم:

ـ أشاركك الرأي لأوّل مرّة.

بلع الأستاذ بديع الإهانة وتغاضاها، ففي الجوّ تلوح بوادر عاصفة أين منها قلّة أدب سالم غير المستساغة، وأين منها دلاعات رفيف وزاويتها الرعناء، وأين منها مشاريع عادل الموغلة في التعقيد والمخاطرة. أبو العزّ؟ قضي علينا. قضى على والده ولن يتردّد في

القضاء علينا. نسف دار الكرمي ولن يتردّد في نسف المجلّة. ما حسب حساب السلطة فهل يحسب حساب المجلّة؟

ـ يا عادل يا ابني، أبو العزّ لم ينه دراسته الثانويّة بعد.

ـ بل أنهاها في السجن.

ـ وهو مازال صغيرًا.

ـ كبر في السجن.

ـ ولا يعرف مشاكل البلد.

ـ منذ خرج من السجن وهو يتعرّف عليها.

وتبادل الأستاذ عطا الله والأستاذ بديع نظرات تشي بأعراض ضغط الدم، وخاف كلٌّ منهما أن يسبقه الآخر للجلطة ويبقيه في الميدان وحده. سأل الأستاذ عطا الله بلهجة أبويّة بحتة:

ـ ولماذا لا يعمل أبو العزّ في المزرعة ويرعاها؟

ـ لأنّنا ضمّناها للفلاّحين ولن نأخذها منهم ونقطع أرزاقهم في سبيل أن يجد أبو العزّ عملاً.

علّق سالم بسخرية:

ـ يا دار الكرمي، غاطسون في الإقطاعيّة حتى آذانكم وتتشدّقون بالاشتراكيّة والاشتراكيّة منكم براء.

تغضّنت جبهة عادل بينما انفرجت أسارير المدير والأستاذ بديع. وانتهز المدير الفرصة ليزيد الفتيل اشتعالاً:

ـ أنت يا سالم حاسد يدّعي الاشتراكيّة لأنّ يده ما امتلكت. لو ورثت مزرعة كمزرعة الكرمي لما فرّطت بها ولو على روحك.

قال سالم بقرف:

ـ آراء البورجوازيّة في الاشتراكيين ليست جديدة علينا. ها هو عادل أمامك، ملاّك ولكنّه اشتراكي.

ـ أنت تناقض نفسك.

ـ بل هو عادل الذي يناقض نفسه. اشتراكي وملاّك، كيف صارت؟

تساءل عادل:

ـ وماذا أفعل بالمزرعة وقد آلت إليّ، أرميها؟

ـ بل وزّعها على الفلاّحين أو اجعل منها مزرعة تعاونيّة.

ـ بالنسبة للتعاونيّة حاولت ذلك وفشلت، فشلت مع الفلاّحين وفشلت مع نفسي، تحوّلت من مزارع إلى قاضٍ يحكم بين الفلاّحين. إنتاج المزرعة تأثّر بفعل المشاحنات فشحّ، وخسرنا جميعًا. قسمتها قطعًا وضمّنتها للفلاّحين بعد أن سحبتني المجلّة. ماذا تريد أيضًا، أن أملّكها لهم؟ أنا لست المالك الوحيد للمزرعة، هناك أمّي وأختي وأبو العزّ وأخوتي الصغار، وهؤلاء جميعًا ظلّوا يلومونني على ما فعلت حتى تخلّصت من المزرعة وهمّها بأن ضمّنتها للفلاّحين. باختصار، وأظنّك تعرف ما سأقول: إنّ الحلول الفرديّة لن تأتي بالخلاص والمناخ كلّه موبوء ومريب. وبهذا نصل إلى نقطة خلافنا الجذريّة. الحلول الجزئيّة السريعة لا تنمو دون قاعدة ومناخ يساهمان في نموّها. عمليّات الإجهاض سئمناها، ونحن الآن في معرض البحث عن الحلّ المناسب في الوقت المناسب والمكان المناسب، أبني القاعدة أوّلاً.

ودخل الاثنان في نقاش أيديولوجي طويل، فانزاح الضغط عن صدر المدير ودخّن سيجارته بتمهّل وهو يفكّر في أمر الجسر الذي يغلق

في ساعة مبكرة. وتمنّى أن يجد عذرًا مناسبًا ليغادر الجلسة ويتوجّه من فوره لقطع تصريح للغد. لكنّه حين قام أوقفه عادل بعد أن فطن إلى نواياه، وقال لسالم:

ـ نكمل النقاش خارج الجلسة، أمّا الآن، فلنعد إلى ميزانيّة المجلّة. غدًا أحضر أبو العزّ، وإذا وافق على بيع المزرعة ندخل شركاء في المجلّة وتنحلّ الأزمة.

قال المدير بانفعال:

ـ أولى الخطوات نحو تحويل المزرعة إلى مستوطنة. رحمة الله عليك يا أبو عادل، لو كان يعلم بما ستؤول إليه مزرعته لحرقها قبل موته. أبوك مات وهو يجمع التركة وأنت تبعثرها؟ لا حول ولا قوّة إلاّ بالله، أهذا ما يفعله الأبناء بعرق الآباء؟

وفي صدر عادل استفاق جرح قديم. «متشبّث بالحياة تشبّث الفيروس بالخليّة الحيّة. حتى بعد موته يلاحقني. كل عصارات الحياة في جسدي كانت مسخّرة لأمراضه. ومازلت أجرجر التركة. مازلت أجرجر الأقدام والتركة».

قال بحزم:

ـ المال سيصلك وستنحلّ أزمة المجلّة.

هزّ المدير رأسه بمرارة. تنحلّ أزمة المجلّة؟ وهل ستظلّ هناك مجلّة؟ وهل تظلّ المجلّة مجلّة؟ أيّة ورطة هذه؟ ألا يكفينا عادل وسالم وحافظ، وأخو عادل أيضًا؟ وهو ألعن والدين وأدقّ رقبة. لا والله ولو حرقت المجلّة بمن فيها. سيحلّ بالمجلّة ما حلّ بالدار، وما سيحلّ بالمزرعة. اغتنموا فرصة موت الرجل وقلبوا الدنيا، أمّا أنا فلم أمت. لم أمت بعد ولن أموت.

وتبادل والأستاذ بديع نظرات التعاطف، فاشتدّ أزر المدير وصاح:

ـ الله أكبر، تتحوّل مزرعة الكرمي إلى مستوطنة أمام عيني ولا أتحرّك! قسمًا عظمًا لا أسمح بذلك ولو كلّفني الأمر إحراق المجلّة.

هدّأه عادل وطيّب خاطره وهو يردّد: اهدأ اهدأ، يا أستاذ عطا الله أرجوك. يا والدي امنحني فرصة الكلام.

ـ أيّ كلام وأيّة فرصة؟ تحوّل المزرعة إلى مستوطنة وأسكت؟ والله لو وصلنا إلى المحاكم لن أسكت. ولو وصلنا إلى جامعة الدول العربيّة لن أسكت. ولو وصلنا إلى هيئة الأمم لن أسكت. أيّ جيل هذا؟ أيّة مشاريع خطيرة هذه؟ مشروع الملحق وتخلّصنا من ورطته بأعجوبة، ولولا الأستاذ بديع وبعد نظره وحصافته لكنّا دخلنا في ورطة ما غسل عنّا عارها صابون العالم العربي كلّهُ. أيّة أفكار هذه؟ هذه الإيديولوجيّات الدخيلة هي السبب في كل ما نمرّ به من أزمات. يطبّلون في موسكو فترقصون هنا، أيّ خراب بيت هذا. أيّة لعنة!

ـ يا أستاذ عطا الله اسمعني، يا أستاذ عطا الله امنحني فرصة.

ـ أيّة فرصة؟ أيّة فرصة؟ تريدون القضاء على المجلّة، أهذه هيَ الفرصة التي تطلبها يا عادل الكرمي؟

ـ يا أستاذ عطا الله اهدأ، يا أستاذ عطا الله روّق.

ـ تريدون تدمير المجلّة، تريدون الخلاص منّي والاستيلاء على المجلّة! نجوم السما أقرب. فاهم؟ نجوم السما أقرب.

صاح سالم:

ـ نصوّت على الهدوء.

ورفع الثلاثة أيديهم، عادل وسالم وحافظ. وبسلامة نيّة وروح

رياضيّة رفع محرّر الرياضة يده، فأرغم الأستاذ عطا الله على ممارسة الهدوء. وتكلّم عادل:

ـ سأبيع المزرعة للفلاّحين فهم أولى بها، وأحلّ أزمة المجلّة فأنا أولى بها.

هزّ المدير رأسه والكلمات ترنّ في أذنه: أنا أولى بها، أنا أولى بها، أنا أولى بها. وحلّ ربطة عنقه وهو يلهث بصمت. أصبح على الرّفّ؟ أنا أصبح على الرفّ؟ لماذا؟ وهل انقطعت أموال الصمود لأمدّ يدي لأموال المزرعة وأغرس في قلب المجلّة وتدًا لا يخلع؟ وتد؟ بل شاكوش ومنجل وكلّ درجات اللون الأحمر. على جثّتي يا عادل الكرمي يا دسّاس السمّ في العسل. أنا لست أباك، أنا لم أمت. أنا هنا على رأس المجلّة ورأسك رغمًا عن التاريخ والدنيا كلّها. إيران؟ ومن قال إنّ ما حدث في إيران ورطة؟ الورطة هنا، هنا يا عالم. إيران، رضي الله عن إيران وعن الخميني. البلوى هنا، هنا في هذا الجيل الكافر الذي لا يرمش له جفن ولا يندى له جبين. أولى بها؟ أنت أولى بها يا عادل الكرمي؟ من أسّسها؟ من بناها وعلاّها ورفعها؟ من صرف عليها دم القلب؟ احرث وادرس لبطرس. تكون في فمك وتصير لغيرك. أبدًا، لا يمكن، قطعًا، مستحيل.

قال سالم:

ـ صحيح ما يقوله عادل، الفلاّحون أولى بالأرض، فليشتروها وبذلك ننقذ المجلّة ولا نمدّ أيدينا لأحد. أعتقد أنّ هذا هو الحلّ السليم. ومن ناحية مبدئيّة، أظنّ أنّ الأوان قد آن لنجد حلولاً محلّيَّة بدل اعتمادنا الدائم على الحلول المستوردة عبر الجسر. هذه أوّل سبل تنمية الاكتفاء الذاتي.

صاح المدير:

ـ أيّ اكتفاء ذاتي؟ نعيش بدون العالم العربي؟ هذه روح انفصاليّة وانعزاليّة لا أسمح بها. نحن طلاّب وحدة من رأسنا حتى أخمص قدمينا.

وتبادل عادل وسالم النظرات ولسان حالهما يقول «آه يا عكروت».

ورفع المدير الجلسة على أن يعودوا للاجتماع في صبيحة الغد الباكر. وفي الصباح تأخّر عادل عن الحضور فتنفّس المدير الصعداء وتمنّى أن يكون الله هداه أو أخذه. لكنّه أصيب بصاعقة محكمة حين فتح الباب ودخل عادل وبصحبته أخوه. وارتجّت الغرفة بأركانها الأربعة حتى تخلّص المدير من ربطة عنقه. وابتسم في وجه الشاب ذي الشاربين الظريفين مرحّبًا ومهنّئًا بخروجه من السجن سالمًا. وسأله أسئلة مستفيضة عن أحوال السجن ونوعيّة الأكل والشرب والنوم والحالة الصحّيَّة. وأخيرًا فاض الكيل في صدر سالم فصاح بفراغ صبر:

ـ خلّصونا، خلّينا نشتغل. أينعم، وماذا في جعبتك يا رفيق؟

وسمع المدير كلمة «رفيق» فطار صوابه. ومسح الأستاذ بديع شعره الذي نسي أن يمشّطه لشرود ذهنه وانشغال باله بأمر هذه العاصفة التي ما توقع حدوثها، ولكي نكون عمليّين في التقييم، فإنّ الأستاذ بديع للحقّ والحقيقة كان قد توقّع حدوث شيء من هذا القبيل، إلاّ أنّه لم يتوقّع حدوثه في زمانه ولا حتى في زمان ابنه. لكن ما وقع وقع، ولتشحذ الطاقات قبل أن يصبح الأمر قضاء مبرمًا لا ردّ فيه ولا تأجيل.

وحتى لا يفلت زمام الأمور من يد المدير ويستضعف المدير الجديد فيكتسحه، قرّر أن يهادن ويداور حتى يزن الأمور ويعرف لصالح من

تميل الموازين. وقال وابتسامة رقيقة على وجهه: نوجز الموضوع من البداية. وأوجز. وبعد أن أوجز بحذر ودقّة تلفّت حواليه ليرى ردّة فعل الشاب الجديد. ورأى الشاب يحمل ورقة وقلمًا ويده تتحرّك بسرعة الرّيح فأصابه البرد واستعاذ: لا حول ولا قوّة إلاّ بالله. أعوذ بالله، لم يكن ينقصنا إلاّ هذا. ماذا يفعل هذا الولد؟ لم يعد ولدًا وحقّ السماء. كبر في السجن واستطال شاربه وقست نظرته. أيّ وعد هذا؟ ماذا يكتب بحقّ العفاريت؟ يريد أن يبرهن أنّه ابن صنعة؟

وظلّ صامتًا يتأمّل يد الشاب وسحنته وينتظر. وحين انتهى الانتظار سأله أبو العزّ أسئلة محدّدة. متى هبط التوزيع؟ ما هي تكاليف الطباعة؟ ما هي تكاليف التصوير والتخطيط والمونتاج؟ كم تبلغ قيمة أجور العاملين في المجلّة؟ هل تستخدمون الإنترتايب أم الأوفست؟ هل جرّبتم استخدام الأي. بي. أم. والأوفست؟ أيّ نوع من الورق تستخدمون وإلخ...

وجّه الأستاذ عطا الله نظرة حائرة نحو الأستاذ بديع. وتذكّر فعلة مماثلة قام بها عادل حين أتاهم بمشروع الملحق. وقارن بين وجهي الأخوين. وجه عادل يدلّ على نزعة مرهفة تبعث في القلب ارتياحًا، أمّا هذا فذو وجه متحفّز لا يرتاح ولا يريح. عادل يطرح الأسئلة في شكل استشارات، أمّا هذا فيطرح أسئلته كما لو كانت إجابات. ولكن، من أين أتى هذا الشاب بكل هذه المعلومات التي لا يعرفها إلاّ المتمرّسون في المهنة؟ السجن؟ لا لا، المسألة لا تتعلّق بالسجن بل بمن هم خارج السجن. والموضوع جديد على الشابّ، وهذا يعني أنّه لم يعدّ له العدّة في السجن، بل خارج السجن. مع من أعدّ العدّة ومن استشار؟ استشار أخاه ورتّب الأمر معه وتآمرا عليه وعلى المجلّة، وسينجلي الأمر خلال دقائق لا أكثر.

وطال انتظار الهيئة وأخيرًا تكلّم:

ـ سأدرس الوضع فامهلوني مدّة أسبوع.

ازداد المدير حيرة، فقد كان يتوقّع أن تكون لدى الشابّ خطّة مدروسة للهجوم. وهذا يدلّ على عدّة أمور. الأوّل أنّ الشاب غير مندفع وراء المشروع، وهذا شيء حسن. والثاني أنّ الشابّ لا ينسّق مع أخيه لأنّه لو كان كذلك لما احتاج لتلك المهلة، على الأقلّ لكان طلب مدّة يوم أو اثنين حتى يكمل ترتيب الخطّة مع أخيه، أمّا أسبوعًا كاملاً، فوراء الأكمة ما وراءها، وهذا يجعل الوضع أكثر تعقيدًا من السابق. وأمر أخير هو أنّ الشابّ يتعامل مع المجلّة من موقع الندّ وليس من موقع المحتاج. فهو من خلال أسئلته وتصرّفاته أوحى للآخرين أنّه قادم لأنّه استدعي ولأنّ المجلّة بحاجة إليه وليس لأنّه «مستقتل» على المجلّة. وهذا التصرّف يدلّ على أمرين: الأوّل أنّ عادل لم ينقل له الجوّ بحذافيره، وهذا يرجّح احتمال عدم وجود تنسيق بين الأخوين. والأمر الثاني وهو الأمرُّ، أنّ الشابّ يمثّل الدور بإتقان لا يجيده إلاّ الخبثاء حقًّا.

وتساءل وهو يتفّحص الوجه الشابّ: أيكون هذا الوجه خبيثًا؟ فكّ عريض يدلّ على الطيبة والحزم. جبهة واسعة تدلّ على الذكاء. أنف أقنى لا يدلّ على شيء محدّد. شارب أسود يدلّ على ماذا؟ تخونني الفراسة ولا أصل لتحديد فكرة واضحة. هل تغيّرت؟ أم أنّ الأمور أصبحت أكثر تعقيدًا من أن يفكّ المرء لغزها بسهولة؟ ولماذا كل هذا الخوف؟ تخاف ولدًا في سنّ ابنك أو ابن ابنك يا عطا الله؟ ما عمره؟ في أوائل العشرينات لا أكثر، وهذا الشارب الذي قصد به إثبات اكتمال نضجه أكبر دليل. لكنّك صغير يا بني ولو أرخيت بدل الشارب

لحية. أنا أخافك! الستينات تخاف العشرينات؟ وأين ذهبت حنكة السنين ودرايتها! أين ذهبت دعكة الأيّام ونابات الزمن؟ أين ذهبت الخبرات والاختبارات وشتّى المحن التي مررت بها وخرجت منها خروج الشعرة من العجين؟ تخاف ولدًا كلّ مؤهّلاته شارب وفكّ عريض؟ ولكنّ السجن ومن هم خارج السجن؟ هذا الولد ليس بمفرده، وما يدريك أنّ من يرسم له الخطط أكثر منك حنكة وأطول نابًا؟ هذه هي الطامّة الكبرى. الولد لا يخيفك بل من هم وراء الولد. هذا الشارب لا يضيرك بل تلك الشوارب. مع من تتعامل يا عطا الله؟

وحين ابتسم أبو العزّ في وجه المدير وقهقه ببساطة طفوليّة انتاب المدير إشفاق مضاعف، على نفسه وعلى هذا الشاب الظريف الذي لا يستطيع أن يحسّ تجاهه إلاّ بالودّ. هذه هي اللّعنة، أن تكون مهدّدًا بمن وممّن تحبّ. الوقت أكثر تعقيدًا وغموضًا من أيّ وقت مضى. أين أنت؟ أين هم؟ أنت معهم أم هم معك أم أنّكم على طرفي نقيض؟ ما هو المطلوب؟ أين مصلحتك؟ إذا وقفت مع التيّار خسرت، وإذا وقفت ضدّه أطاح بك. لا تكن يابسًا فتكسر أو ليّنًا فتعصر. الأمثال العربيّة ملجأنا ومرجعنا. فعلاً، لا تكن يابسًا فتكسر ولا ليّنًا فتعصر. خير الأمور الوسط. أمسك العصا من منتصفها. وازن الأمور واختبر الميزان والموازين. مع المدّ حتى يرتدّ. وإذا ما ارتدّ تقف مع الواقفين وتستمرّ الحياة. أحسنت: دعكة الأيّام ونابات الزمن. مع المدّ حتى يرتدّ.

(٢٧)

قرّر أن يدرس الوضع من جميع جوانبه قبل اتخاذ أيّ قرار. الطباعة وعمّال المطابع. الموزّعون والباعة والسوق. رفيف وزاوية المرأة. والمزرعة والفلاّحون. وبدأ بزاوية المرأة. كان قد سمع من عادل تعليقًا أثار فضوله. هبطت نسبة المبيع مذ هجرت رفيف المجلّة. أصحيح ما قاله عادل أم مجرّد استنتاج تحدوه رغبة عادل المكبوتة في استرجاع رفيف؟ لابدّ من زيارتها لمعرفة ما يدور في رأسها وما يدور حولها.

قال لها إنّ المجلّة تتهاوى. هزّت كتفيها وقالت: ما باليدّ حيلة. قال لها. سنبيع المزرعة. قالت: ما باليدّ حيلة. قال: ألا تؤمنين بدور المجلّة؟ قالت: وهل تؤمن المجلّة بدوري؟ أغاظه برودها فنهرها: أشكّ في ولائك للصحافة. أجابت دون فضول: وما هي الصحافة؟ احتدّ واحتدم: أهذا ردّ فتاة ثوريّة؟ قالت ببلادة: أيّة ثورة؟ قال أترضين العيش على الهامش؟ قالت وهي تحملق في وجهه: وأنت هل ترضاه لي؟ ترضى أن أستخدم طعمًا لاجتذاب القرّاء السذّج؟ ترضى أن تغطّي المجلّة مساحة العالم العربي وأظلّ أقبع في الزاوية؟ لا كانت المجلّة ولا كانت الزاوية ولا كانت المساحة.

ـ أجادّة فيما تقولين؟

ـ كلّ الجدّ.

ـ ما كنت أظنّك ذاتيّة وفرديّة. كنت أعتقد أنّك صحفيّة حقيقيّة، هل تفهمين؟

ـ وما معنى أن أكون صحفيّة حقيقيّة؟ معناه أن أعطي من غير طمع في أجر؟ متى تكفّون عن النظر من خلال منظار رومانسي!

قال بحدّة:

ـ وهل نسيت الرقابة والرقيب؟

حملقت.. كفّ عن ترديد هذا النشاز. أما سئمتم هذه النغمة المكرورة المستباحة؟ استباحها مدير التحرير قبلك، ألا تخجلون من اقتفاء أثر المدير؟ كلّما اصطدمتم بحاجز لوّحتم بقانون الرقابة. أيّة رقابة تعني وأيّ رقيب؟ نخّت الرقاب فارتفع الرقيب.

قال مذكّرًا:

ـ الرقابة.

ـ فكّ رقبتي أمنحها لك.

ـ لا أفهم.

تأمّلت عينيه البريئتين. «مازلت صغيرًا على الفهم. غدًا تكبر. ولن تكبر ما لم تفهم. ما لم تستوعبني لن تكبر. ما لم تفهمني لن تستوعبني. ما لم تستوعبني لن تكبر».

قال بحيرة:

ـ لا أفهم.

فكّرت بغيظ: بعثوا به إليّ ليستعيدوا القرّاء ويرتفع التوزيع. لماذا لم يحضر المدير بنفسه؟ لماذا لم يحضر عادل؟ عرفوا أنّ منطقهم ما

عاد يؤثّر بي وها هم يلوّحون به كطعم جديد. حكاية الطعم أعرفها جدًّا. أحفظها عن ظهر قلب. يصطادون الطعم بطعم جديد.

صاح مستنجدًا:

ـ المجلّة يا رفيف!

لم ترمش. سألته:

ـ وماذا عن القرّاء؟

ـ المجلّة للقرّاء، لكنّها ما عادت تصل القرّاء.

ـ ذنب المجلّة أم ذنب القرّاء؟

ـ مازلت تتعاملين مع الواقع كحرمة.

ـ لأنّي ما عدت حرمة فأنا أطالب بنصف المجلّة.

ـ من لا يعمل لا يأكل. من لا يعطي لا يأخذ.

ـ كما أكلوا في تركيا بعد حرب الاستقلال؟ وكما أكلوا في إيران بعد الثورة؟ وكما في الجزائر؟ عمل من غير أكل، عطاء من غير أخذ. أيّ قانون ثوريّ هذا؟ حذار أن يسمعك المدير فيخسف أجور الموظّفين والعمّال، وعند ذلك لن تواجهك مشكلة الزاوية فحسب.

ـ في فترات الشدائد تعلن التعبئة وتستغلّ كل الطاقات وتعمّ التضحيات.

ابتسمت. وقود الثورة البردانة. وداعبته:

ـ هل تعرف نزاهات؟

ـ نزاهات!

ـ نزاهات صغيرة، جان دارك تركيا أثناء حرب الاستقلال.

ـ لا أعرفها.

ـ في البرلمان التركي أثيرت عاصفة حولها. بعضهم أرادوا منحها وسام الاستقلال. آخرون رأوا منحها لقب جنرال. لكنّ الأكثريّة أصرّت على منحها مكافأة تصرف لها حين تهيّئ نزاهات نفسها للعريس وتتجهّز. هذا ملخّص الموضوع.

قال متجهّمًا:

ـ أنا أحدّثك عن المجلّة. والمجلّة تواجه أزمة.

ـ بالتأكيد! وأثناء الأزمة نحن صحفيّات أولاً ونساء ثانيًا. وبعد الأزمة نساء أوّلاً وصحفيّات ثانيًا.

كان النقاش قد أصبح أكثر تعقيدًا من أن يستطيع حلّه بنفسه. فهو أولاً وأخيرًا مازال جديدًا على أجواء المجلّة. وهو لا يؤمن بالحلول الفرديّة، كما أنّه أكثر ذكاء من أن يدّعي القدرة على التنفيذ وحده. فلماذا يدور في حلقة مفرغة معها؟ حتى لو اقتنع بما تقول فهل يستطيع أن يبادر باتخاذ قرار عنها أو عنهم؟ على الجانبين مواجهة الموضوع معًا، فلابدّ من جمعهما إذن.

قال: أجمعك بهم يا رفيف. قالت: أعرف موقفهم سلفًا. يستهينون بي ويداعبونني بالمهانات. قال: لكنّ المجلّة في أزمة ولهذا اختلف الوضع. هم بحاجة إليك، جرّبي. امنحيهم وامنحي نفسك فرصة. اقتنعي بضرورة اللقاء والمواجهة.. أرجوك. واقتنعت. وكانت جلسة.

قبع أبو العزّ في زاوية بعيدة يرقب الجوّ ليتأكّد. لم يكن قد أعطى لأيّ واحد من أفراد الهيئة جوابًا محدّدًا، أراد إبقاء الموضوع مفاجأة

كي لا تجرى الاستعدادات وراء السلك فيعمّ التمثيل. ورسم ابتسامة محايدة على وجهه وراح ينتظر ويتحيّن.

سأله المدير وابتسامة مشعّة تتلألأ على صفحته:

ـ كيف الحال؟

هزّ أبو العزّ رأسه وأعلن:

ـ مشتاقون.

غمز سالم بعينه اليمنى ثم اليسرى وقال:

ـ للإدارة أم للتحرير؟

اعتدل المدير وقاطع المماحكة:

ـ ندخل في الجدّ.

قال سالم موجّهًا الكلام لمحرّر الرياضة:

ـ أدخله في الجدّ يا أيّها الزميل. قل له إنّ أعداد الرياضيّات تفوق أعداد الرياضيين.

احتدّ محرّر الرياضة واعتبر التعليق إهانة واستخفافًا بمعلوماته فانبرى:

ـ حتى أقطع دابر حججك، قمت بزيارة لمكتب التربية وزرت كل المفتّشين وكلّهم قالوا إنّ أعداد البنات أكبر من أعداد البنين.

جحظت عينا الأستاذ بديع:

ـ سترك يا ربّ، تقول الحقّ يا زميل؟ تقصد أنّنا أصبحنا أمّة من الولايا والعواقب؟

نفخت رفيف واستدارت تبحث عن ملجأ. اصطدمت عيناها بعيني عادل فتكهربت أوصالها وعادها الحنين. همست تستنجد بأبو العزّ:

ـ تعال اجلس هنا، تعال إلى جانبي يا أبو العزّ.

تحرّك قلبه لكنّه فكّر أنّ الأوان لم يأت، فلتقف على رجليها وحدها، ولتتعلّم كيف تناور وتدافع وتهاجم وكيف تخلص إلى نتائج. وأوّلاً على آخر يا أبو العزّ، أنت مازلت بعيدًا عن جوّ المجلّة. هذا هو المدير، وهذه هي هيئة التحرير، وأنت لست سوى مشروع شريك، ولست شريكًا حقيقيًّا يمسك أرزاق الهيئة ويدفع أجور الموظّفين والعمّال ويوزّع المساحات والزوايا.

قال الرياضي:

ـ للحقّ، أروع مهرجان رياضي عرض هذا العام كان مهرجان معهد الزهرات العالي. بعض الفتيات ضربن أرقامًا قياسيّة في الجري.

هزّ الأستاذ بديع رأسه برضى:

ـ لا بأس، لا بأس، وهذا يهوّن مسؤوليّة الدفاع عنهنّ.

وضحك الجميع فاحمرّت رفيف. لحظها عادل فقال مذكّرًا:

ـ علينا ألاّ ننسى البطولات النسائيّة التي أبرزها الوضع، وعلينا أن نذكر بأنّ المرأة في الدول الاشتراكيّة قد قطعت أشواطًا مجيدة في التقدّم.

لوى الأستاذ بديع شفتيه وعلّق:

ـ أصبحت المرأة هناك كالمصفّحة. دبّابة. لا أنوثة ولا ظرف ولا رقّة. رأيتها بعيني وهي تنقل البراميل بعضلات قبيحة، يا الله ما أقبحها!

ارتسم الفضول على وجه الرياضي:

ـ رأيتها بعينيك؟ أين؟ لم تقل لي هذا الموضوع أبدًا. هذه أوّل مرّة أسمع فيها أنّك زرت الدول الاشتراكيّة. متى كان هذا؟

تلمّظ الأستاذ بديع وأعاد وضع نظّارته فوق قنطرته:

ـ أجريت عمليّة في عيني. كنت أعاني من مشكلة بصريّة بحتة.

علّق سالم:

ـ بل نظريّة.

قال الأستاذ بديع على عجل:

ـ بل بصريّة من إبصار. أنت يا سالم ضعيف لغويًّا. المجلّة كلّها تعاني من فقر لغوي مشين. المهمّ، كنت أعاني من مشكلة بصريّة عجز الطبّ هنا والطبّ هناك عن حلّها. أجريت عدّة عمليّات في الكويت وبيروت ومصر ولندن. لم أترك طبيبًا يعتب عليّ. وابني توفيق طبيب كما تعلمون. كان لايزال هناك، وكان لا ينفكّ يبعث إليّ برسائل يقول فيها «يا أبي تعال هنا، الطبّ هنا ممتاز، الطبّ هنا متقدّم، الطبّ هنا مجّاني. بمجرّد أن تطأ قدماك الأرض تصبح الدولة مسؤولة عنك».

دمدم سالم:

ـ وهذه هي اللعنة. أينعم.

ـ أينعم يا مولانا. بعد أن مللت وتعبت وصرفت ما فوقي وما تحتي قلت: أجرّب. وجرّبت. نجحت العمليّة بحمد الله.

قال الأستاذ عطا الله بدهشة:

ـ عجيب. فشلت العمليّة في لندن ونجحت في موسكو؟ غريب.

مع أنّ الخبراء يقولون إنّ الطبّ في أوروبا وأميركا أفضل بكثير منه في الدول الاشتراكيّة. ابنة أختي حكيمة حصلت على بعثة لدراسة الطبّ هناك. استشارتني أمّها فاستشرت ملحقًا في القنصليّة الأميركيّة، فأكّد لي أنّ الطبّ في الاتحاد السوفياتي مازال كالطفل قياسًا بالطبّ في أميركا.

علّق سالم:

ـ مفهوم معلوم، أميركا تشتري ذكاء العالم كلّه بالدولار، إلاّ العالم العربي طبعًا، تأخذ دولاره وتبقي له ذكاءه.

كان أبو العزّ ينقل عينيه بين أفراد الهيئة فاغر الفم. تدخّل مقاطعًا:

ـ أستاذ عطا الله، أعتقد أنّنا اجتمعنا لنناقش أمر عودة رفيف إلى المجلّة.

قال المدير متذكّرًا:

ـ آ صحيح، فعلاً.

ونقر الطاولة عدّة نقرات متّزنة لاستعادة النظام، إلاّ أنّ محرّر الرياضة مدّ يده مستوقفًا:

ـ أرجوك، أرجوك، دعه يكمل قصّة النساء السوفييتيّات والبراميل.. دقيقة واحدة من فضلك.

هزّ المدير رأسه بأريحيّة، وأشار إلى الأستاذ بديع يمنحه دقيقة واحدة.

ـ بعد أن أجريت العمليّة ونجحت بحمد الله، أخذني ابني توفيق الله يرضى عليه في جولة سياحيّة. ابني توفيق كان من الأوائل طوال عمره.

علّق المدير مجاملاً:

ـ طالع لأبيه.

ـ تشكر يا أستاذ عطا الله، هذا من لطفك وذوقك، وأنت أيضًا لديك أولاد جواهر. هذه الأشبال من ذاك الأسد. ربّيت وأحسنت التربية يا أستاذ عطا الله. الحمد لله. على رأي المثل، الولد الفالح من ظهر الصالح.

بدأ سالم يفقد صبره فعلّق:

ـ خلّصونا، خلّينا نشتغل.

لكن محرّر الرياضة عاد يلحّ:

ـ وكيف رأيت النساء السوفييتيّات؟ المرأة السوفييتيّة تتفوّق تفوّقًا مهولاً في الجمباز. في كلّ دورة للألعاب الأولمبيّة تكون معظم الميداليّات الذهبيّة من نصيب السوفييتيّات. إذن هكذا. فهنّ يتعوّدن على رفع البراميل منذ الطفولة.

قال الأستاذ بديع مصحّحًا:

ـ أنا لم أقل منذ الطفولة. قلت إنّي رأيت بعضهنّ يعملن في رفع البراميل. رأيت واحدة تقف على الأرض والثانية على برميل. التي على الأرض ترفع البرميل بيديها كما لو كان بالونًا منفوخًا بالهواء وتناوله لزميلتها، والأخرى تمسك به كما تمسك أنت بالعصفور ثم تضعه في شاحنة أضخم من هذه الغرفة بكثير. للحقّ أنّ صناعتهم متقدّمة، ولكنّهم دفعوا الكثير مقابل ذلك. الرجال يعملون والنساء يعملن، حتى العجائز يعملن. لكنّ المرأة هناك مسكينة فعلاً. منظرها كئيب، لا لمسة حمراء ولا خضراء ولا فستان جميل ولا قدّ ميّاس. شيء محزن. رأيتهنّ وهنّ يساومن السائحات على شراء ألبستهنّ. ماذا

تظنّون؟ المرأة مرأة ولو وضعوها في قالب من حديد، تظلّ نفسها تهفو للحلق والأسورة والخشخوشة والدندوشة. أشفقت عليهنّ وكادت الدمعة أن تفرّ من عيني.

انطلق صوت رفيف لأوّل مرّة بدون إذن ودون مقدّمات:

ـ ولماذا لا تفرّ الدمعة من عينك على نسوتنا نحن؟ اذهب مرّة إلى المحاكم الشرعيّة ودع الدمعة تفرّ هناك على الأصول. تفرّ الدمعة من عينك على امرأة تتلهّف إلى دندوشة ولا تفرّ الدمعة من عينك على امرأة لا تعرف مع من تصنّف، مع الإنسان أم الحيوان! وماذا إذا تلهّفت المرأة السوفييتيّة إلى دندوشة ولم تجدها؟ تكفيها الميداليّات الذهبيّة التي تنالها في الألعاب الأولمبيّة. وماذا إذا امتنعت الصناعة السوفييتيّة عن التفنّن في صناعة الدناديش؟ أليس لديها ما...

قاطعها سالم ضاحكًا:

ـ الدناديش. أوهوه، لا أكثر من دناديشهم. اركضي شرقًا وشمالاً تري الدناديش على قفا من يشيل.

حملق أبو العزّ واهتزّ شارباه: اللعنة. من سلّح جيوشكم؟ من شدّ في هيئة الأمم أزركم؟ من يهزّ الرسن لأطماع الإمبرياليّة في منطقتكم؟ حتى أنت يا سالم؟ حتى أنت!

نقر الأستاذ عطا الله الطاولة بلطف:

ـ يا جماعة، يا جماعة، فلنعد إلى الموضوع.

دمدم عادل بإحباط:

ـ وهل فتحناه لنعود إليه؟

وألقى بنظرة حزينة نحو أخيه، فاعتصر الألم قلب الأخير: الآن

أعرف سرّ شحوبك. لم لا تقف وتصبّ جامّ غضبك على رؤوسهم وتعيدهم إلى صوابهم؟ أين ذكاؤك؟ أين حنكتك؟ أين شخصيّتك؟ ممّن تخاف؟ علام تخاف؟ الأب ودفنّاه. الدار ونسفناها. المزرعة وخسرناها. على أيّ شيء تخاف؟ هل بقي شيء تخاف منه أو تخاف عليه؟

وتأمّل وجه المدير الطافح بالعافية والقدرة: تذكّرني بالمرحوم يا والدنا، لكن وجهك لا يشي بأعراض الكلي. أعراض ضغط الدم، ربما، عنصر الزمن يا والدنا. وأنت يا عادل. عنصر الزمن؟ ولكن، حافظ هذا متى أسمع صوته؟ نسيت وجوده رغم وجوده. حاضر غائب يا حافظ. أصبحت خاضعًا لقانون الحاضر الغائب. أيّ قانون وأيّ خضوع؟ أنا لست عادل.

واقتحم الميدان دون هوادة:

ـ أرجوكم، الوقت يضيع. مرّت أكثر من نصف ساعة ولم تفتتحوا الجلسة. يا سادة، جمعتكم اليوم لتناقشوا أموركم بروح عمليّة.

امتعض المدير فامتدّت يده نحو سيجارة: هذا الولد يصدّق نفسه. من يظنّ نفسه؟ أنا المدير وأنا الذي أفتتح الجلسة وأنا الذي أغلقها. فليغلق هذا الولد فمه قبل أن يفلت الزمام وتصبح الأمور شوربة. أمسك بالخيط. تبسّم:

ـ باسل، الحقّ معك. فلنناقش الأمور بروح عمليّة. ها، ماذا قرّرت؟ هل ستبيع المزرعة وتأتينا برأس المال؟

ابتسم أبو العزّ:

ـ رأس المال موجود فاستفيدوا منه. تكلّمي يا رفيف.

تلفّتت حواليها وهمست:

ـ أنا؟

ـ أنت، تفضّلي.

ومنحها نظرة تشجيع. لكنّها كانت تبحث في أعماقها عن موطن للثقة والهدوء إثر التلميحات التي تلت ذكر المرأة السوفييتيّة ودمعة الأستاذ التي كادت تفرّ ففرّت معها ثقتها بنفسها وبالآخرين.

«ماذا أقول؟ من سيسمعني؟ المدير، مقسّم الأرزاق والزوايا؟ الأستاذ بديع ساعده الأيمن؟ سالم قاطع الطريق على أيّ مشروع عملي والذي لم تنل منه المجلّة إلاّ طرطقة اللّسان؟ عادل والحوت الذي يقطع المسافات والأكوان ويظلّ معلّقًا بين هذا وذاك؟ حافظ! أين حافظ؟ صمته أنساني وجوده. من بقي لي؟ هذا الشابّ الصغير؟

قال المدير ويده على قلبه:

ـ وهل اتخذت قرارًا بشأن المزرعة؟

لم يجبه باسل بل أخذ يوجّه نظرات الاستفزاز نحو أخيه كي يدفعه للكلام. ورأى المدير النظرة فتبعها وأتبع:

ـ ها يا عادل؟ ماذا بشأن المزرعة؟

قال عادل بهدوء:

ـ مازلت أنتظر إشارة منه. لم يعلمني بقراره.

قال المدير متجهّمًا:

ـ ما هذا؟ أهي حزّورة؟ إذا كان الأمر كذلك فلأتّجه نحو مكتب التصاريح قبل أن يغلق الجسر.

مدّ أبو العزّ يده من بعيد:

ـ لا لا، أيّ تصريح وأيّ جسر؟ أنت تقعد هنا وتستريح.

غرق المدير في صمته.. لم يبق إلاّ هذا. اقعد واستريح؟ ما هذه اللّهجة؟ كيف يجرؤ هذا الولد؟ من أيّ موقع يتكلّم وما موقعه في الإعراب! أنت خارج المجلّة، أو على الأقلّ مازلت خارجها فاحترم الحدود واعرف مع من تتكلّم. بمقال افتتاحي واحد أهزّ أعطاف المجلّة من أقصاها إلى أقصاها. بجلسة واحدة تعقد في الغرفة تتزلزل أركان الهيئة وتتقرّر سياسة المجلّة. وأنت يا ولد من أنت؟ شارب وفكّ؟ تشرّفنا، لكن نابات الزمن..

ـ أنا أحقّ الناس بالتصريح.

قفز أبو العزّ عن كرسيّه البعيد واقترب من الطاولة وانحنى أمام حافظ وهمس بصوت جافّ:

ـ أنت؟

رفع حافظ إليه عينين خلا منهما البريق:

ـ أنا.

صاح أبو العزّ:

ـ لماذا يا حافظ، لماذا؟

أمسك حافظ بقائمة إحصائيّات طويلة عريضة ورماها وسط الطاولة:

ـ هذا يفسّر لك الأمر. اقرأ تفهم.

نظر أبو العزّ في عيني أخيه ينشد التفسير. فطأطأ عادل. ألم أقل لك يا أبو العزّ؟

قال سالم متهكّمًا:

ـ قولوا يا دار الكرمي أنّكم لا تريدون التنازل عن المزرعة فينتهي الإشكال.

همهم عادل:

ـ أنت تبحث عن حلول جديدة أم عن تهم جديدة؟

قال أبو العزّ:

ـ ارفع صوتك يا عادل ولا تهمهم.

تنهّد عادل وأطرق:

ـ وما الفائدة!

ضرب أبو العزّ الطاولة بيده:

ـ لن يصل أحدكم مكتب التصاريح.

وتلفّت في الوجوه الجامدة. ولمح وميض ابتسامة صفراء على وجه المدير فاستعاد انضباطه: لا بأس يا حضرة المدير. تسرّعت. أعترف. لكنّ الموقف! وهذه الوجوه! آه، لو أنّ صالح هنا. خرجت من السجن ولا شيء في رأسي إلاّ صالح، لكنّ الدوّامة تسحب. أهذا ما حلّ بعادل وسالم وحافظ؟ وتلك المسكينة المذعورة التي لا تتكلّم حتى لو أعطيت فرصة الكلام. أين أنت يا صالح؟

سحب أبو العزّ كرسيًّا وجلس. وفكّر المدير أنّ أبو العزّ قد تخطّى صلاحيّاته وحدوده. فبأيّ حقّ يقتحم الهيئة وهو مازال خارجها؟ لم نر منك أسود ولا أبيض فبأيّ حقّ جلست؟ لا أنت من أفراد الهيئة، ولا أنت شريك في رأس المال، ولا أنت موظّف. ألأنّ أخاك موظّف في

المجلّة تمنح نفسك الحقّ باغتنام كرسيّ؟ تنتهز كرسيًّا من كراسي مجلّة بنيتها بيدي هذه؟ أنت وأخوك تتآمران. لكنّك مخطئ في التقييم تمامًا. أخوك هذا في يدي، أحرّكه كما أحرّك لعبة العرائس، وأقبّضه في نهاية الشهر أجرًا لم يكن يحلم به حتى وهو في الصناعة الإسرائيليّة. قل الحمد لله أنّي أنقذته، هذه هي اليد التي أنقذته. وبدل أن تقبّل هذه اليد تتآمر عليها. ما حدث في إيران ليس بورطة.

قال أبو العزّ معاتبًا:

ـ حتى أنت يا حافظ؟ حتى أنت؟

قال حافظ:

ـ لن أتفلسف عليك، لكنّه أمر معروف. البروليتاريا لا وطن لها. العامل الاقتصادي هو الحاسم. لا تفتح عينيك، افتح الكتاب وراجع النظريّة. ولماذا مراجعة النظريّة وأمامك الواقع بأسره؟ العامل بحاجة للعمل لأنّه بحاجة للأجر. وهو بحاجة للأجر لأنّ الفم بحاجة للقمة والجسم بحاجة لملبس ومسكن وماء وكهرباء ومواصلات وإلى آخر القائمة. تنسدّ السوق هنا فيتوجّه العامل للسوق المفتوحة. تنسد الثانية فيتوجّه للثالثة والرابعة وهكذا.

قال أبو العزّ بغيظ:

ـ هذا كفر. أنت تشجّع الهجرة وتدافع عنها.

مدّ عادل يده مستوقفًا:

ـ لا لا، لا تعم على السطح.

وغاب بعينيه ودمدم:

ـ أنت لم تخض التجربة. مازلت صغيرًا. مازلت بدون زوجة

وأولاد وقواريط. تسعة أفواه آدميّة والآلة.. تجربة لم يعف عنها الزمن.

قال أبو العزّ مستدركًا:

ـ آسف، ولكن ماذا تريدون؟ حتى العمل هناك وأخرجنا له فتوى من قاع الدست، وقلنا لا بأس، المهمّ أن تظلّ الأقدام راسخة في الأرض.

قال سالم:

ـ اقتصادهم ومخطّطاتهم اختلفت، عمليّات الترميج على قدم وساق، يعود العمّال فلا يجدون البديل في الضفّة. لكن، البركة في خطط التنمية والتعمير وما وراء الجسر.

قال أبو العزّ لحافظ:

ـ لكنّك صحفي، ومازالت مهنتك مطلوبة هنا.

علّقت رفيف:

ـ ولمن يكتب إذا لم يقرأ العمّال زاويته؟

ابتسم حافظ بجمود:

ـ وغدًا يطردني المدير بحكم قانون العرض والطلب.

وضع المدير كفّه على صدره وقال بصوت متهدّج:

ـ أنا أطردك؟ أنا أطرد أحدًا؟ أنا طردتك يا رفيف أم أنّك استقلت بمحض إرادتك؟

قالت بسخرية:

ـ ولماذا تطردني فتثير مشكلة تتعلّق بقانون العمل والموظّفين؟ قصقصت أجنحتي فانسحبت بسلام، وكان الله بالسرّ عليمًا.

قال معاتبًا:

ـ هكذا إذن؟ تحاورون وتداورون وتحسنون ختم المواويل بإطلاق تهمة؟ أهذا هو موضوع الجلسة؟ أهذا ما اجتمعتم من أجله؟ أهذا ما أعددتم العدّة له؟

تدخّل عادل مهدّئًا:

ـ اهدأ يا أستاذ عطا الله، أرجوك، أتظنّ أن لا شغل ولا مشغلة لدينا إلاّ إعداد صيغ التهم وتوجيهها إليك؟ يا أستاذ عطا الله مهمومون أصلاً فلا تزد علينا أرجوك. همّنا الأوّل والأخير يظلّ المجلّة. ألا تعرف هذا؟

فكّر المدير بتوجّس: المجلّة أم إدارة المجلّة؟ نجوم السما أقرب لكم.

قال معقّبًا:

ـ هذه مجلّة الجميع وليس لي فيها أكثر ممّا لأيّ واحد منكم. ثمّ، أتظنّون أنّ منصب الإدارة مريح وممتع؟ أتظنّونه مريحًا؟ أيّ ربح في هذه السوق المحدودة المجفّفة المقدّدة؟ قسمًا عظمًا إنّ هذه المجلّة لا تفي بالتزاماتها ولا تكاد تغطّي أجور موظّفيها. أيّ ربح في هذه المجلّة؟ لو أنّي كنت أركض وراء الربح لسعيت مع الساعين وتوجّهت نحو دول النفط كما فعل من هم مثلي ومن هم أقلّ منّي. أتظنّون أنّي لا أستطيع أن أكون رئيس تحرير «الدوحة» أو «العربي» أو «الحوادث» وغيرها وغيرها؟ أتظنّون أنّ هؤلاء الرؤساء يفضلونني بشيء؟ لكنّي أحمل رسالة مقدّسة ولا أتنازل عنها حتى لو تنازلت الملائكة عن عروشها.

لكزه الأستاذ بديع:

ـ استغفر الله ولا تدع الأزمة تفقدك إيمانك. استغفر الله العظيم. استغفر الله.

سحب المدير نفسًا قويًا.. أهذا وقتك؟ انزل لمن فوق ومن تحت. حلّ عن ديني. انزل عن ظهري. لم يبق إلاّ أنت! ولكن فعلاً، لم يبق إلاّ أنت. وإذا فقدتك فمن يظلّ معي؟

وأطلق زفيرًا وابتسم معتذرًا:

ـ أستغفر الله العظيم. أستغفرك وأتوب إليك. لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم. الحقّ معك يا أستاذ بديع. يجب ألاّ يتزعزع إيمان المرء مهما اشتدّت النوائب والمحن. الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه.

أطلق سالم ندهة أوجمت الجميع:

ـ يا قيّوم!

وساد الصمت لحظات ثمّ انفجروا ضاحكين. لكنّ الأستاذ بديع حدجهم، فما أثّرت حدجته إلاّ في جنبات المدير فاستعاد اتّزانه وكشّر. قال معقبًا:

ـ حقًّا، علينا أن نتكاتف وننسى خلافاتنا ونفكّر في أمر المجلّة. يا أبنائي، المجلّة مجلّتكم وليس لي فيها شعرة أكثر ممّا لأيّ واحد منكم. وأنا كما قلت لكم، لو كنت أركض وراء الربح لما قعدت في هذا المكان وهذا المنصب. أتظنّون أنّني سعيد بهذا المنصب؟ أتظنّون أنّ إدارة المجلّة عمليّة سهلة؟ لا مال ولا سوق ولا جمهور ولا قرّاء ولا تبرّعات قرّاء ولا ميزانيّة مثل العالم والناس. ماذا بقي لنا في هذا العالم إلاّ البلد ومجلّة البلد وصمود البلد وثواب الصمود؟

همس سالم:

ـ وأموال الصمود.

سمعه المدير فتغاضى وادّعى الصمم: ماذا تقول له يا عطا الله؟ كذبت؟ خسئت؟ والتصريح من كان يعدّ له العدّة، ألم تقل «التصريح» بعظمة لسانك؟ ولماذا قلت؟ أكان لابدّ أن تقول يا عطا الله وتثير هذه الزوبعة؟ زوبعة صغيرة أتحفتنا بأبو العزّ ابن الذين.. ورفيف بنت اللتين.. وعادل دسّاس السمّ في العسل. حتى حافظ تنطّح وبدأ يسابق الرّيح والتصريح ويتوعّد بقائمة تحتوي الألوف. نسي العالم العربي أن يفتح لنا بنكًا يطبع عملة نقشت عليها كلمة «صمود» بماء الذهب!

قال أبو العزّ بعد أن لخّص الموضوع:

ـ وهكذا أقنعت رفيف بضرورة الاجتماع بكم للتوصّل إلى تسوية ترضي الأغلبيّة.

وعلّق سالم مداعبًا:

ـ فلنحذِف من الأغلبيّة تاء التأنيث لأنّها مذكّر.

أصرّ الرياضي على موقفه:

ـ قلت لك إنّي زرت مكتب التربية وسألت كل المفتّشين وكلّهم أدلوا بالجواب نفسه. قالوا إنّ أعداد الرياضيّات أكبر من أعداد الرياضيين، وأنّ أعداد البنات أكبر من أعداد البنين.

قال سالم وهو يرقّص حاجبيه:

ـ تحشيش هذا أم بخشيش؟

فتح الرياضي عينيه بغباء:

ـ بخشيش؟

أشار سالم باتجاه رفيف ورسم بيده إشارات ملتوية التموّجات، فاحمرّ وجه رفيف وهمست «يا إلهي». فدقّ الرياضي الطاولة وقد نفد صبره، وصاح هادرًا والأستاذ بديع يصيح من خلفه:

ـ لا أسمح.. عيب عليك.. أنت سليط.. أنت قليل الأدب، قليل الدين، قليل الذمّة، أنت كذا.. أنت مذا..

ودقّ المدير الطاولة بالمنفضة فانفضّ النقاش ومازال أبو العزّ ينتفض.

(٢٨)

سحبتها عيناه وأحسّت بدبيب النمل يسري في شرايينها. وعاودتها الذكريات ورفيف القلب وأجنحة البلابل. أيّ سحر في الرجل وعالمه اللّيلكي العابق بالشوق وبالأحزان! كان للأشياء طعم. الشمس والزهر والربيع وصوت الريح وحبّات المطر. في تلك الأيّام، وحين كانت تسير إلى جواره ويدها مشبوكة بيده، كانت تحسّ بنفسها فراشة لا تنقصها إلاّ القدرة على الطيران. لكنّها كانت تطيرُ. تحوم وتحلّق وترتدّ طفلة تسبح في الطيبة والإيمان. كانت الحياة رحبة. الوجوه طيّبة مهما قست. والسماء واعدة مهما غامت. والمسارب واسعة مهما ضاقت. في نهاية المسارب نور يبشّر بالحرِّيَّة القصوى والدفء والشبع والحبّ المطلق. والآن، لا طيبة ولا إيمان ولا هدنة. استفزاز متواصل. تحدّ لا يعرف الراحة. إيمان مجرّد لا تثبته لمسة واقع. إيمان بحرِّيَّة الإنسانيّة وسعادة البشر. أمّا الإنسان السعيد، فحلم بعيد عن التحقيق. الأمم والطبقات والجنس الآخر. طبقيّة الأمم، طبقيّة الطبقات، وطبقيّة الجنس. الجنس طبقة. حقيقة لا ريب فيها. وأنا تلك الطبقة.

وحملقت تبحث عن أبو العزّ فوجدته يبتسم لها مشجّعًا، ولأخيه. «تبتسم له وتبتسم لي، فأيّ الابتسامتين أصدق؟ وتمحّصت وجهه المألوف بحذر. عينان عطوفتان، ملامح عادل. وتذكّرت إيمانها السابق به وبقدراته. سحر وعواطف وألم بدون حدود. ولحظة

الاكتشاف وفقدان التوازن. وبدل أن يساهم عادل في تخفيف آلامها زادها حدّة وتعقيدًا. وكان عليها أن تعرف من البداية أنّ عادل الرجل عاجز عن فهم واقع رفيف المرأة. ولن تثق. لا عادل ولا سالم ولا حافظ ولا حتى باسل. كلّهم رجال.

وتصعّدت نقمتها وتصاعدت. وفكّرت بتحدٍّ: سأدحض نقاشاتهم وسفسطاتهم وأنزلها الأرض. سأعطي أمثلة من الواقع، وقد زوّدتني زاوية المرأة بعشرات الأدلّة والأمثلة. سأقول للمرأة كوني حذرة. هو لا يعطيك بقدر ما يأخذ منك. الطفرات الفرديّة التي يطالبك بها لن تنتهي بك إلاّ نهايات عبثيّة. عادل نفسه يقول هذا. يقول «الحلول الفرديّة لن تأتي بالخلاص والمناخ كلّه موبوء ومريب». ويقول «الحلول الجزئيّة السريعة لا تنمو بدون قاعدة ودون مناخ يساهم في نموّها». هه، هذا ما قلته للجميع إلاّ لي، ومن هذه القاعدة ناقشت كلّ المشاكل إلاّ مشكلتي، لماذا؟

وقالت دون أن تنظر في وجه أحدهم:

ـ نصف المجلّة أوّلاً.

رفع أبو العزّ يده مستوقفًا. كان يخاف أن تنفرط الجلسة ومازالت في بدايتها. أليس هذا ما يريده الأستاذ عطا الله ومن خلفه الأستاذ بديع؟ فليعمل ما في وسعه للإبقاء على وحدة الهيئة. وهمس بلطف:

ـ يا رفيف..

نفضت يدها في الهواء بلامبالاة ناتجة عن يأس مفرط:

ـ لا رفيف ولا غير رفيف. نصف المجلّة أوّلاً. أنا لن أعمل أجيرة في المجلّة، بل شريكة. أنا لن أعمل على تنمية مجلّة يقطف ثمار

مغنمها الرجل. بصراحة، أنا لم أستغن عن هذه المجلّة فحسب، بل عن الصحافة ككلّ. ولن أعود للعمل هنا بالشروط السابقة نفسها.

علّق سالم بسخرية:

ـ تركة المرحوم تتخاطفها الأيدي، والشاطر بشطارته.

هتف المدير وقد زهقت روحه:

ـ تركة المرحوم؟ أيّ مرحوم؟ تقصد أنا؟ تقصد أنّ المجلّة أضحت تركة؟ تقصد أنّها من غير صاحب أو مالك؟ اضبط كلامك واضبط فكرك. أنا مؤسّس المجلّة ومالكها ومديرها ورئيس مجلس إدارتها. أنا لم أمت. أنا مازلت حيًّا أرزق، مفهوم؟

التقط أبو العزّ أنفاسه وضرب أخماسًا بأسداس: ستنفرط الجلسة ولاريب. وتمنّى أن يصرخ في وجه سالم «اصمت. ألا تنضبط ولو مرّة؟ ألا تخطّط وتتكتك أبدًا؟» وعدّ للعشرة واستردّ أنفاسه، وقال محاولاً استجماع الخيوط التي أفلتت من يد رفيف بسبب الأزمة:

ـ أنا مؤمن بذكاء رفيف وقدرتها على استيعاب الموقف مهما بلغ من تعقيد. لكنّنا أحيانًا، وحين تسيطر علينا قناعة ما نعتقد لفرط حماسنا أنّ الجميع مقتنعون ومؤمنون. والحقيقة أنّ على المناضل أن يعرف كيف يمشّط الطريق قبل أن يعبر حقل الألغام. وعليه أن يتثبّت من حلفائه ويعمل على كسب المحايدين ويكسر شوكة المعادين قبل أن يضرب ضربته ويهجم. لنفرض يا رفيف أنّ المجلّة سلطة ما. اعتبريها برلمانًا أو نقابة أو مجلس شعب أو أيّ شيء من هذا القبيل، فكيف تصلين إلى السلطة؟ ما هي قاعدتك؟ أينها؟

فتح المدير أذنيه جيّدًا.. ما هذا الكلام؟ أهذا كلام يصدر عن ولد في العشرينات؟ من لقّنه هذا؟ السجن أم خارج السجن؟

ابتسم أبو العزّ في عيني رفيف الحائرتين:

ـ نحن لا نتعلّم من تجاربنا وحدنا، نتعلّم ممّن سبقونا وممّن لحقونا. والنظريّة متحرّكة وليستْ جامدة. وإذا جمدت في أذهان البعض فلأنّ الأذهان جامدة لا النظريّة.

هزّ عادل رأسه بخشوع، وأحسّ بغلاف الدمع الرقيق ينسحب إلى عينيه. وخشي أن ينظر إلى أحد منهم فيكتشفون تأثّره وضعفه.. آه يا باسل. آه ما أكبر تجربتك. من لحم الأكتاف ودم القلب وذل الضعف وقضبان السجّان. لكنّ البحر كبير. آه ما أصغر مركبتك.

وكان أبو العزّ يقول:

ـ لا أريد أن أثبط همّتك، ولكنّي أعتقد أنّ بدايتك كانت مغلوطة. من يسمعك تقولين «نصف المجلّة» يقول: تشنّجات فوضويّة تطلب المعجزات. وحين لا تتحقّق المعجزات ترفع يديها مسلّمة وتقول بلهجة متعالية: لا نبي في قومه. وتعودين إلى انزوائك وانطوائك وتظلّين على الهامش.

وكانت تنظر إليه بخيبة أمل وقد هزّها موقفه المحايد: أهذا ما اتّفقنا عليه يا أبو العزّ؟ أيّ حلف عقدته معك؟ وهل أنت حليف حقًّا!

همست مشدوهة:

ـ من موقع السلامة تدين.

قال بصبر:

ـ لا أدين، ولكنّني أستغرب. كوني علميّة وعمليّة.

وأحسّت بالرثاء على نفسها يتزايد. واجتاحتها غصّة ملأت حلقها بالمرارة والشكوى: حتى أنت يا أبو العزّ؟ أضرب رأسي؟ أنتف

خدّي؟ أقطع شعري؟ كيف تفهم؟ لن تفهم لأنّك لم تكن أنا، لم تكن المرأة التي تدين إدانة متفرّج انفتح عقله على فكر الطبقة العاملة فتبنّاه وتبنّاها. ومن موقع السلامة جلجل: أين الثورة! عامل يتجرجر في متاهات الحياة اليوميّة ومسؤوليّات الرزق وغذاء الأطفال، محنيّ الظهر مشدود الأعصاب مذعورًا موجوعًا موصدًا، يقبع في القاع وفي القلّة، والمتفرّج يقف على مرتفع الطبقة والاستنارة ويقرع الطبول ويستغرب: أين الثورة؟ أين المنهاج؟

وكان عادل يتأمّل هيئتها المعذّبة بإشفاق ويفكّر: لماذا لا تجتاز المرأة حدود خصوصيّتها؟ لماذا تصرّ على رؤية العالم من خلال تجربتها الخاصّة ومن خلال زاوية المرأة؟ ألم تقرأ رفيف؟ ألم تتعلّم؟ ألم تنظر إلى خريطة العالم وترى أصابع الأخطبوط ممتدّة في القارات المسحوقة لتفهم؟ أيّ فرق بين رفيف ونوّار؟ صالح ونوّار. أيّة نكسة!

علّق سالم بتلامة وصفاقة:

أنت يا رفيف تتعاملين مع العالم من خلال عقدتك كامرأة.

وكانت النقطة التي طفحت الكيل والشعرة التي قصمت ظهر البعير، فصاحت بغضب وشراسة:

ـ وليكن، نعم، وليكن. لكن فكرتك هذه مملّة لأنّها مكرّرة. ماذا تتوقّع إذن؟ أن أتعامل مع الواقع بدون الاستناد إلى تاريخي وتجربتي؟ وهذه العقدة التي تعيّرني بها، أليست الشيء نفسه الذي يحسّ به العامل تجاه المتحكّم في رزقه؟ أليست الشيء نفسه الذي يحسّ به السود تجاه البيض؟ أليست ما يحسّ به العالم الثالث تجاه العالم الأوّل؟ سمِّها عقدة، سمِّها الحقد الطبقي، سمِّها صراع المصالح، سمِّها ما شئت

لأنّ المضمون سيظلّ واحدًا. سيظلّ واقعًا مرفوضًا نعاني منه ونثور عليه. ومنذ متى كانت الثورة جرمًا؟ في الماضي كانت كذلك، في زمن الزنج والحشّاشين والصعاليك والإسبان في الأندلس. أمّا الآن، وأمّا أنتم. . أيّ تناقض هذا! أيّ انفصام!

تدخّل أبو العزّ محاولاً استرداد الخيوط التي أفلتت:

ـ اهدأي يا رفيف، اهدأي. لن تكسبي الجولات وأنت فريسة الغضب.

ضربت الطاولة بقبضتها:

ـ هذا صميم الانفصام. تحيّون غضبة العامل والفلاّح والشعوب المقهورة، وحين تغضب المرأة تجأرون في وجهها «معقّدة» محبطة، قصيرة الباع، قصيرة النظر، الوقت ليس وقتك» وقت من إذن؟ وقت العامل والفلاّح والشعوب المقهورة؟ وأنا؟ ألست بروليتاريّة الرجل؟ ألم يقل ماركس وإنجلز هذا؟ فلماذا قدّستم كل ما جاءا به وأغفلتم هذه النقطة؟ ألأنّها تنتهي بتاء التأنيث يا سالم؟

نقر المدير الطاولة بخاتمه متدخّلاً:

ـ أرجوكم يا جماعة، أرجوكم. ألهذا اجتمعنا؟ ألكي نتبادل التهم والإدانات والعتاب والغضب، ثم نخرج من الجلسة بخفّي حنين؟

علّق سالم بلؤم:

ـ بل نخرج من الجلسة بتصريح.

التفتت إليه كلّ العيون تبتغي إغتياله، فالوقت لا يتحمّل فتح كلّ الجبهات في وقت واحد. ثم قال عادل مؤنّبًا بصوت جافّ وهو يرى أنّ رفيف تسدّ السبل أمام جناحه كلّما أراد تحقيق جولة ليعلو:

ـ تجاوزي يا رفيف، تجاوزي.

واجهته لأوّل مرّة، ونظرت في وجهه المكبوت فأحسّت بكراهيّة شديدة نحوه. واندلعت تهدر في وجهه:

ـ أتجاوز؟ أتجاوز مصلحتي؟ أتجاوز حقّي؟ أتجاوز تاريخي وتجربتي؟

وغرقت في الصمت ولم تتجاوز. كانت تمضغ غضبتها وتهضمها فلم تتجاوز.. أتعامل مع العالم من خلال عقدتي كامرأة؟ ماذا تريد إذن؟ أنال ما نلت وأضطهد كما اضطهدت وأستنزف كما استنزفت ولا أتعقّد؟ وأتجاوز؟ البلداء هم الذين لا يتعقّدون لأنّهم لا يحسّون. والأغبياء هم الذين لا يتعقّدون لأنّهم لا يفكّرون. والأنبياء هم الذين يصلبون ويتجاوزون. وأنا لست هذا وذاك. أحسّ وأفكّر وأعرف البديل وأعرف تاريخي وأحمل عبئه. منذ بداية عصركم وأنا أعيش لغيري ولا أعيش لنفسي. طبخت فأكلتم. زرعت فقطفتم. حملت بذوركم في بطني وسقيتها غذاء عيني وأسناني واشتداد عضلي. وحين تتلقّف أيديكم المولود يحمل اسمكم بدل اسمي. والأب نفسه يحمل اسم مولوده الذكر ولا يحمل اسمي. وأنا نفسي أسلخ عن اسمي وأسمّى باسمكم. وأفقد هويّتي وشخصيّتي في مطابخكم ومعابدكم. وتاجرتم بي شرعًا وبدون شرع. وسننتم قوانين أنزلتموها من السماء صواعق ومقابر وقلتم أقواس قزح. وحين انخمدت عيّرتموني بجهالتي. وحين استفقت عيّرتموني بغضبتي. وحين نهشت الغيرة قلبي عيّرتموني بالقصور والمحدوديّة. وحين كشفت انفصامكم جأرتم في وجهي: الوقت ليس وقتك. تجاوزي.

وصاحت بعنف في وجه من أحبّته مرّة بعنف أكبر:

ـ لن أتجاوز. انعتوني بكل التهم فلن أتجاوز.

والتفتت في الوجوه التي ترقبها بجمود وإدانة، وانتابها إحساس قطّة محشورة في الزاوية وفي يد الطفل عصاه. فأنشبت أظفارها وبدأت تخمش:

ـ أنتم متفرّجون لا أكثر. أمّا أنا فمجرّبة. أنتم متفرّجون مهما ادّعيتم. متفرّجون. ولتذهب المجلّة إلى الجحيم. ولتذهب المزرعة إلى جهنّم. أنا لن أكون الجندي في معركة يقطف ثمار مغانمها الرجل.

وابتسم أبو العزّ بحيرة: يا غضب الأرض. أيّة فتاة هذه وكيف السبيل إلى التفاهم معها! وقال مهدّئًا ومحاولاً لفت انتباهها:

ـ لسنا جميعًا متفرّجين يا رفيف، بل حلفاء.

قهقهت بمرارة:

ـ حلفاء؟ هه، هاهاها، كما تحالفون السود في أميركا. كما تحالفون زمبابوي ضدّ أيان سميث. وما نفع هذا الحلف؟ ماذا أفعل بهذا الحلف؟ أنقعه وأشرب ماءه؟ أم أعلّقه في عنقي حرزًا وحجابًا أدرأ به عين الحسود؟ أم أخطّه على مؤخّرتي كما يخطّون التمنّيات على الشاحنات: سيري فعين الله ترعاك؟

قهقه سالم. وابتسم عادل.. مازلت طفلة يا رفيف، مازلت طفلة، وتذكّر وقفتهما أمام الضوء الأحمر منذ أشهر طويلة تبدو أعوامًا. ستموتين بلا مبرّر. أكون قد أعطيت الناس مثالاً. وما يضيرك لو انتظرت اللّحظة المناسبة وعبرت؟ كلّهم يقولون هذا حين يفلسون. يتذرّعون بالضوء الأحمر. لكنّ اللعبة مكشوفة، لعبة الرقص على الحبال. أنت سيّئة النيّة. وأنت تنزّ مثاليّة برجوازيّة.

اهتزّ الأستاذ بديع وقد أحسّ أنّه أهين. لعمري أنّ وقاحة هذه الفتاة تعتبر وصمة في جبين العالم العربي أجمع. تقول «مؤخّرتي» بهذه البساطة فيضحكون لها، أيّ شباب هذا؟ أيّ جيل فاسد فاسق قليل الحياء قليل الدين؟ وزجرها بحدّة:

ـ هذا عيب، أنا لا أسمح بهذا.

ردّ عليه أبو العزّ بحزم:

ـ نحن ننسّق معًا.

نظر الأستاذ بديع في وجه المدير بدهشة، فما موقع هذا الفتى من الإعراب؟ من أسلمه قياد الأمور؟ من اختاره ومن نصّبه ومن زكّاه؟ وبأيّ حقّ يفرض وجوده على المجلّة؟ الآن الخزينة فارغة وهم بحاجة إلى رأسمال؟ لا ردّ الله المجلّة ولا ردّ رأس المال، أهذا ما يحلّ بنا بعد هذا العمر الطويل؟ حسبي الله ونعم الوكيل.

قال أبو العزّ محاولاً كسب ثقتها:

ـ ألا ننسّق معًا؟

حدجته بشكّ: فيك بعض ملامح عادل ولن تخدعني. أنت رجل عربي. بسلطته وعنجهيّته ودلاله الممعن في رفض التنازل. عادل المنفصم أنت مثله. سالم المهيّج أنت مثله. الأستاذ بديع عطا الله وتشقّق الثدي والحلمة. تجاوزي تاريخك وتجربتك. عود الكبريت الذي لا يشتعل إلاّ مرّة. صحن الزجاج الذي لا ينصلح. اضربوهنّ واهجروهنّ في المضاجع. وذاك الاختيار المهين «ما بين الموت على كتفه أو بين دفاتر أشعاره». خسئت يا متحف الشبق المبنيّ على هيكل

سليمان ونشيد الإنشاد والرقيق الأبيض. أنا لن أموت على كتفك ولا بين دفاتر أشعارك ولن أتجاوز تجربتي. عقدة المرأة؟ وعادت تنشب أظفارها في وجه سالم:

ـ لم يصرخ أحدهم في وجهك أنت أسود لتعرف مرارة الغضب الأسود. ولم يصرخ أحدهم في وجهك أنت امرأة لتعرف الحقد الذي يستحيل أمامه الحقد الطبقي مسخًا.

تراجع سالم مختبئًا:

ـ طيّب فهمنا، يا عمّي فهمنا، والله العظيم فهمنا.

ووجد المدير الفرصة مناسبة لينفث غيظه بسالم:

ـ كل هذا منك يا سالم. أنت الذي بدأت الإشكال كلّه. منذ بداية الجلسة السابقة وأنت تناوئ، وكلّما حاولنا الوصول إلى الطريق تضيّعنا في منتصفه. أنت السبب.

قال سالم مدافعًا عن نفسه:

ـ أنا ما قصدت شيئًا. رفيف تعرف أنّي أكنّ لها كلّ الاحترام.

قال الأستاذ بديع مؤازرًا حليفه ضدّ سالم:

ـ أنت الذي اتهمتها بعقدة المرأة.

فكّر أبو العزّ بسرعة: يا سبحان الله. يصبح الأستاذ بديع الآن في صفّ رفيف. وأنت يا أستاذ عطا الله، الاصطياد في الماء العكر. لا عليكم، الحقّ علينا نحن وليس عليكم. نحن ملومون لا أنتم. أين التقدّم وأين التأخّر؟ يختلط الحابل بالنابل. الصبر جميل يا بلدي، الصبر جميل.

قال بسرعة:

ـ نشرب فنجان قهوة ونصمت مدّة نصف ساعة لتبرد الأعصاب وتهدأ، ثم نفتح الجلسة من أوّلها. ما رأيكم؟

قال سالم مؤيّدًا وقد وجدها فرصة مناسبة ليخرج من الطوق الذي بدأ يحكم حوله:

ـ موافقون، موافقون جدًّا. ما رأيك يا رفيف؟

وابتسم في وجهها مجاملاً ومتحبّبًا، لكنّها ظلّت عاقدة الجبين ورأسها مازال يدوي.. تسخر منّي؟ تسخر من غضبتي؟ لن ترشوني بكلمة أو ابتسامة. وأنت يا أبو العزّ لن ترشوني بفنجان قهوة.

وشربوا قهوة وأعادوا تنظيم صفوفهم. أبو العزّ ألصق فمه بأذن رفيف وقال كلامًا كثيرًا. وفتحت فمها لتقول شيئًا لكنّه قال كلامًا جعل فتحة فمها تضيق، ثم تضيق، ثم تضيق حتى ردمت. وابتسم فابتسمت. وشدّ على كتفها بكفّه فاستجابت. وقال «أنا معك» قالت «وأنا معك».

وبدأت تدوّن أفكارها في نقاط مرتّبة، وحين قال المدير «نبدأ». بدأت من البداية. التركيبة الاجتماعيّة. الثقافة السائدة ووجوب تغييرها. مفاهيم المجتمع وقيمه. الدين والجنس والاستغلال والابتذال. أنت امراة، إصبع يرتفع إثر كل كلمة أو خطوة. إصبع بضخامة المئذنة يملأ الشوارع يسدّ الأزقّة يحجب النور فيصفرّ النبات. النبات والمناخ المناسب، أيّهما أسبق؟ المناخ السليم أم الجسم السليم؟ إنسان مريض يقبع في الظلمة والرطوبة. يتفجّر غضبًا وشوقًا للشمس. أمامه حلول ثلاثة. البقاء في العتمة والاستسلام لها ومن ثم احترافه الموت البطيء، أو الخروج إلى الشارع والبقاء فيه ومن ثمّ

التشرّد. أو الاستيلاء على المحكمة والجامع والمدرسة ومن ثم الشمس. جهد الأوّل استرخاء النيام وراحة البهائم. وجهد الثاني رفاهية العبث وفوضى التفلّت. وجهد الثالث انضباط وتصعيد ومعركة. والسؤال لا يتعلّق بالمفاضلة، بل في تشابك الثلاثة في بنية تلاحميّة. أزمنة ثلاثة في زمن واحد. أشخاص ثلاثة في شخص واحد. ثلاثة في زمن واحد. أشخاص ثلاثة في بنية تلاحميّة. أزمنة ثلاثة في زمن واحد. أشخاص ثلاثة في شخص واحد. ثلاثة أوضاع في وضع واحد. وبين الوضع والوضع تشعّبات أوضاع أصغر، وللأصغر أصغر. وبين الوضع والوضع اصطراع وتأزّم. الموت يكره النضال لكنّه يستهوي العبث. والعبث والنضال يستهويان الموت ويحتّمانه. لكنّ النتيجة مختلفة، موت العبث موت لنفسه، وموت النضال موت لغيره. موت من أجل الموت أو موت من أجل الحياة.

وواصلت: تقولون نضال البروليتاريا ويا عمّال العالم اتّحدوا. تقولون نضال الشعوب المستلبة ويا شعوب العالم اتّحدي. وتقولون نضال المرأة ولا تكملون. أين البرنامج؟ تخاطبون العامل والأجير وتقولون له احم نفسك بالجماعة حتى لا تكون عصاة مفردة يسهل كسرها. وحين تخاطبون المرأة الفرد تقولون أنت عصا موسى التي تشقّ البحر فينفلق. أيّ انفصام وأيّ زخرف وأيّ سوء نيّة!

ودارت الكلمات والسطور في رأس عادل وتذكّر «أنت تنزّ مثاليّة برجوازيّة» وسمعها تقول:

ـ الذي يطالب العامل الفرد أن ينتظم ويحمي نفسه بالجماعة حتى لا يكون مصيره الشارع ويطالب المرأة الفرد أن تمارس التمرّد ولا يعبأ إذا كان مصيرها الشارع هو إنسان منفصم مزيّف سيّئ النيّة، أو أنّه

قاصر عن فهم الواقع في حركته. هو إنسان ديماغوجي مغلق محدود بحرفيّات السطور عاجز عن قراءة ما بينها وما تحتها.

وظلّت الكلمات تدور.. أنت لئيمة يا رفيف. لئيمة. وأحسّ بألم جارح يعصف بقلبه ورأسه وما عادت غرفة الاجتماعات تسع ضيقه. أنا لم أقصد هذا. أسأت فهمي لأنّك سيّئة النيّة. أنت سيّئة النيّة لا أنا. تبحثين عن بيت تقليدي قد يحصل الإنسان فيه على الاختناق أكثر ممّا يحصل على التنفّس. أنت ونوّار.

وعادت الأرض تميد. لكن كلماتها ظلّت تتدفّق:

ـ أناس محطّمون لا يستطيعون إنقاذ غيرهم وتقديم الخلاص. والخلاص لا يقدّم على طبق من فضّة. هو جهد يمارسه الجميع قاعدته الثقة. وإذا سحب المجتمع ثقته عن واحدة أبطَل مفعولها المنتظم. والانتظام يعني الاستمراريّة. لسنا بحاجة لشهب تحترق وهي مازالت في أوّل الطريق.

ووضع رأسه بين كفّيه ونزف. لئيمة أنت يا رفيف. لئيمة. أريد أن أمشي من هنا أن أترك هذا المكان. توقّفت وسط الشارع ودقّت كعبها بالأرض. لن أمشي معك بعد الآن، ولن أدعك تستعبدني. ولكن من قال إنّي أريد استعبادك؟ أريدك حرّة مستقلّة قويّة لا تعرف الضعف ولا تخضع لأيّ كان مهما كان. أريدك ثورة حقيقيّة بدون شوائب. فالعواطف شوائب إذن ثورة بدون عواطف؟ وأصبح باردة ككتّاب البحوث؟ أنت إنسان بدون عواطف. اختلطت الأشياء حتى باتت لعبة الموت أهزوجة سلام.

وسمعها تردّد:

ـ الجنس طبقة.

ـ خطأ خطأ. لا يا رفيف. هذا خطأ. وأراد أن يقول هذا ويناقش ويصحّح، لكن رأسه كان ثقيلاً والصداع ينخره ويحيله ركامًا. وجاءه تدخّل حافظ كالنجدة:

ـ المرأة ليست طبقة، هي والرجل في بوتقة واحدة ويخضعان للتقسيمات ذاتها. المرأة العاملة لها وضع الرجل العامل نفسه.

قالت ببرود يشبه برود كتّاب البحوث:

ـ بل لها وضع مختلف من حيث الاستلاب. فاستلابها مضاعف لأنّه استلاب قومي وطبقي وجنسي.

وعاد حافظ يلحّ بإصرار:

ـ لكن فكر الطبقة العاملة يلغي التمايز ويلغي الاستلاب.

ـ هذا في المحصّلة النهائيّة وحين تتمكّن من فرض وتطبيق فكر الطبقة العاملة. وحتى تصل تلك المرحلة فالطريق مازال طويلاً.

وتدخّل سالم وقد فقد صبره وانضباطه:

ـ أفهم من هذا النقاش أنّك تناهضين المخاطرة؟ يا آنستي، إذا لم يقم بعض الأشخاص هنا وهناك بطفرات رياديّة فكيف تتمّ التحوّلات الاجتماعيّة وكيف نصل الثورة؟ كيف نجدّدها ونحقنها بدم جديد؟

أطرقت تفكّر. وانتابها قلق مبهم. سؤال صعب. فخّ يحمل بوادر الهزيمة. الهزيمة؟ وتذكّرت نداء قديمًا وجّهته لسلوى. أنت يا باحثة الاجتماع علّميني. علّميني كيف أهزم من غير دموع. وقرّرت بعناد. لن أهزم. واستعادت أنفاسها وانتظام دقّات قلبها وهي تنظر في عينيه مباشرة. ورأت فيه ملامح الرجولة التي ما عادت تثير عظيم انفعالها. من أنت؟ ماذا حقّقت حتى الآن سوى طرح التساؤلات؟ ماذا حقّقت

في ساحة المجلّة؟ لا تعلّميني يا سلوى فأنا أتعلّم.

وكان الجميع ينتظرون إجابتها وقد تلكّأت. وفتح عادل أذنيه بحرص. وقالت:

ـ لا بدّ أنّك تقارن بين النضال السياسي بأصعدته المختلفة وبين النضال الجنسي. وقد تقول إنّهما من أصل واحد ويؤدّيان إلى مصبّ واحد. هذا صحيح، لكنّ الخلفيّات مختلفة. فأنت في الأصل حين حملت راية النضال السياسي لم تخرج على مفاهيم المجتمع العربي بمفاهيم مخالفة لعرفه وتقاليده ودينه ومصالحه المادّيّة. نظرة الشعب العربي إلى المناضل السياسي تنعكس فيها نظرته إلى الشهيد والجهاد المقدّس والدفاع عن حقّ الملكيّة. أمّا النضال الجنسي فيعني الخوض في كلّ المحرّمات. والجنس في الوعي العربي يقترن بالعهر والزنى والسقوط إذا كان خارجًا عن الإطار، وإذا كان داخل الإطار فأنكحوا ما طاب لكم من النساء، والرجال قوّامون على النساء، وللرجل مثل حظّ الأنثيين، والنساء ناقصات عقل ودين. معنى هذا أنّ ثورة المرأة ليست ثورة شعب ضدّ استغلال آخر، وليست ثورة الأغلبيّة المقموعة ضدّ أقلِّيَّة ظالمة، وليست ثورة ضدّ نظام حكم، بل ثورة ضدّ نظام اجتماعي اقتصادي ديني أخلاقي وأضف إليها ما شئت من مسمّيات بلا عدد. وحلّني حتى تصل القاع وتصل الجذور الممتدّة من بداية البطريركي. وتسألني يا سالم إذا ما كنت ضدّ المخاطرة؟ لست ضدّ المخاطرة لكنّي أندّد بالفوضى. الفوضى قد تحقّق التمرّد لكنّها لا ترقى بالوعي إلى الثورة. ونحن في غنى عن دفع الضحايا بدون مقابل. لسنا بحاجة إلى شهب تحترق ولا تضيء. أليس كذلك؟

ولم تجبها إلاّ ابتسامة خاطفة لاحت في وجه باسل. أمّا سالم فقد

أحسَّ بكلماتها تشكّل زلزالاً لقاعدته فاستعدّ لشنّ الهجوم:

ـ أنت رجعيّة. لا أقلّ ولا أكثر.

فكّرت ببرود: وأنت سمج وأرعن وديماغوجي. لكنّك تتمتّع بمزيّة الصدق التي يفتقرها عادل.

وفكّر عادل بحيرة: أهي رجعيّة حقًّا؟

وهمس الأستاذ بديع في أذن الأستاذ عطا الله «أهذا ما اجتمعنا من أجله؟ ألا تكفينا فلسفات عادل وسالم؟ ألا يكفينا همّ حافظ؟».

هزّ المدير رأسه بحسرة وهمس «اصمد» وفكّر أنّ للصمود ثمنًا باهظًا عظيم الثواب، لكن أبواب الجسر تغلق باكرًا.

وعاد سالم إلى استفزازاته:

ـ أنت تتّخذين من مفاهيم المجتمع الرجعي ذريعة لتعزّزي بها رجعيّتك. أهذا ما ستتحفين به قارئاتك في نصف المجلّة؟ إذا كان الأمر كذلك فأنا أوّل المعارضين.

وابتسم المدير وهلّلت أعماقه: للصمود ثواب عظيم.

واصل سالم باشمئزاز:

ـ هذه ردّة، اليوم تطلع علينا بدعوة إلى التحفّظ وغدًا تطلع علينا بدعوة إلى التحجّب.

قال عادل وقد أثير فيه حسّ العدالة:

ـ أهذا ما خرجت به من كل ما قالته؟ أهكذا تفكّر؟

ـ بل رفيف هكذا تفكّر.

وفكّرت هي بانتعاش: لا بأس يا عادل، بدأت تدرك. ولكن، ما

بال أبو العزّ صامت لا يتكلّم؟ لماذا يأخذ دور المتفرّج الذي لا أنال منه سوى البركة!

وقالت ببطء:

ـ بل المجتمع هكذا يفكّر. وأنا كفرد، ما قيمة ما أفكّر به إذا لم يعترف لي الآخرون بحقّ الممارسة والتطبيق؟ كمفهوم الدولة، أنت تفكّر أنّ الدولة حقّك، ولكن ما قيمة ما تفكّر به وأنت محروم من هذه الدولة؟

تدخّل أبو العزّ بسرعة:

ـ ولهذا أناضل وأموت في سبيل حقّي.

ابتسمت خلسة: أخيرًا تحرّكت. لا تعلّميني يا سلوى فأنا أتعلّم. ووجّهت كلماتها إليه:

ـ وحين تموت يضعك المجتمع على رأسه ويقول: مات شهيدًا. وأنا يبصقون عليّ ويقولون: ماتت عاهرة. أهذا ما تريدون؟ ضحايا بدون مقابل؟

تساءل أبو العزّ وقد استولى عليه العجب:

ـ ما معنى هذا؟ أن تكفّي عن النضال؟

قالت بحزم:

ـ أناضل من خلال نصف المجلّة، فهي حقّي.

هزّ رأسه تعبيرًا عن عدم الموافقة:

ـ بل تناضلين من أجل نصف المجلّة.

حملقت فيه وقد أحسّت أنّها غُدرت:

ـ ولكنّك قلت. .

ـ أنا لم أقل سوى أنّي معك. وأنا مازلت معك فلا تسيئي الفهم.

أطرقت بحزن: مذبذب كالآخرين. حليف؟ أيّ حلف هذا؟ ماذا أفعل به؟ أنقعه وأشرب ماءه؟ أم أخطّه على مؤخّرة شاحنتي: سيري فعين الله ترعاك؟ أم أحمل السلاح وأطبّق مبدأ الكفاح المسلّح وأشهره في وجه الزوج والأب والأخ والولد؟ أهذا معقول يا ثورة؟ أيّ نضال تقصد؟ رحم الله نزاهات والبرلمان التركي. من وسام الاستقلال ولقب جنرال إلى الدوطة. كلّ الثورات أسهل، على الأقلّ يفشّ الثوري قلبه ويحمل السلاح وينتزع حقّه بالعنف وبالقوّة. أمّا نحن فماذا نفعل؟ نلقي بالصداري في وجوههم كما فعلت المرأة في أميركا؟ علّميني يا بلدي كيف أهزم من غير دموع.

قال حافظ متجهّمًا:

ـ أنا مازلت أقول إنّ كل هذا مضيعة للوقت. أيّة نظريّة هذه؟ المرأة طبقة؟ الجنس طبقة؟ في أيّ عرف؟ في أيّ علم؟

قالت بعناد:

ـ أنا لا أعبأ بكلّ التقسيمات والعلوم والنظريّات التي أبدعها الرجال. ولكن قبل أن أصمت صمتًا نهائيًّا، أودّ أن أذكّرك بكلّ الامتيازات والمنجزات التي حقّقها الرجل وكانت مبنيّة على أكتاف المرأة. تذكّر ما كان للفنّانة من تأثير على المجتمع الإغريقي. النبلاء يفكّرون ويفلسفون ويستغلّون طاقاتهم في الإبداع الذهني لأنّ طبقة العبيد أراحتهم من مسؤوليّات العمل اليدوي. والمرأة كان لها الدور نفسه مع تغيير طفيف في الشكل لا في المضمون. الرجل يبدع،

والمرأة تحبل وتلد وتطبخ وتقيم البيت. لا فرق، طبقة العبيد وطبقة المرأة. وتقول بأن المرأة ليست طبقة؟ بل هي طبقة.

قهقه سالم وعلّق:

ـ لم يبق إلاّ أن تطالبينا بالحبل والولادة.

قال عادل بجدِّيَّة:

ـ بل إنّ ما قالته صحيح، وأعتقد أنّ رفيف تتقدّم بسرعة. وأعترف أنّها تتعامل مع الواقع بينما نحن مازلنا نحلّق في النظريّة.

والتقت عيناها بعينيه، عينان معذّبتان. وجه معذّب. «أين الإله الذي تعبّدته فيك؟ الآن تعترف؟ فات الأوان يا عادل».

وهمس بصوت متهدّج:

ـ رفيف، رائع. واصلي.

ولم تتحرّك شعرة من جسمها. لأوّل مرّة تحسّ بأنّ ثقتها بنفسها وبقدراتها أكبر من كل ردود فعله. ماذا لو قال «رائع» وهو يقصد رائعة؟ ماذا لو لم يقل؟ فات الوقت الذي كانت تتبرّك ببركته. الآن تعرف أنّها رائعة حقًّا، بشهادته أو بدونها. وتعرف أنّها على حقّ وأنّها تستحقّ نصف المجلّة، وأنّ المجلّة تستحقّها. «هذه المجلّة تستحقّ أن تصل إلى كلّ بيت وكل يد. سيرتفع التوزيع، سأعمل على رفع التوزيع. وبفضلي ستعمّ المجلّة».

وأحسّت أنّها أكثر من رائعة، بل عظيمة، أعظم منه، أعظم منهم. كل واحد منهم يدافع عن قضيّة سامية ويتبنّاها. حتى الأستاذ عطا الله يدافع عن مجلّته من براثن الرقابة. وسالم يدافع عن المثاليّة المطلقة رغم قصوره وعدم قدرته على التخطيط. وعادل يدافع عن كل القيم

الخيّرة بالأسلوب الطوباوي نفسه الذي اعتاده منذ بداية عهده بالحياة.
وأبو العزّ يدافع ويضحّي ويحرّض. وهي، تدافع عن كل ما يدافعون عنه وزيادة عليه دفاعها عن قضيّة لم يتبنَّها أحدهم إلاّ من خلال النظريّة. ولأوّل مرّة في حياتها تهمس بثقة وكبرياء «أنا امرأة»، ولأوّل مرّة تعرف أنّ هويّتها ستمنحها فرصة دخول أجواء ومعرفة أسرار ثورة لم تكتشف بعد. ثورة؟ بل مدّ الثورة، رأسمال الثورة.

هل كان أبو العزّ واعيًا لما قال؟ وهل كان يعني ما يقول؟ «رأس المال موجود» ألم يقل هذا؟ هبط التوزيع، ارتفع التوزيع. ودوّت في أذنيها أصوات الباعة في مواقف التكسيات وفي محطّات الباصات وعلى الجسر وفي المخيّمات والمدارس والشوارع والحوانيت والأزقّة. اقرأ اقرأ اقرأ، يا الله الفجر، يا الله الشعب، يا الله القدس، يا الله البلد. وستمتدّ أيد كثيرة نحو المجلّة، معظمها ناعمة تخشوشن. وسيد البائع نفسه يقول بتلقائيّة: اقرأي اقرأي اقرأي. قانون العرض والطلب. أليس كذلك يا أستاذ عطا الله؟

قال الأستاذ عطا الله بعد فترة صمت:

ـ والآن، ماذا نفعل؟

عقب الأستاذ بديع زافرًا:

ـ إنّ ما سمعته لعجب. ما كنت أعلم أنّ هذا المخلوق اللّطيف الظريف سيثير كل هذه البلبلة ويساهم في تشويش الصورة.

علّق سالم بلؤم:

ـ مشكلة نظريّة بحتة. هل نجحت العمليّة؟

ولم يجبه أحد. كان المدير يفكّر في حلّ عملي يتعلّق برأس المال.

وكان عادل يفكّر أنّ رفيف قد بدأت تكبر. وكان أبو العزّ يفكّر في طريقة للحصول على رأس المال غير المستغلّ. وكان الرياضي يتحيّن الفرصة ليعيد مقولته السابقة «أعداد الرياضيّات أكبر من أعداد الرياضيين» دون أن يجرؤ سالم على السخرية منه.

وعاد المدير يلحّ:

ـ والآن، ماذا نفعل؟ أين الحلّ؟

قالت رفيف بإصرار:

ـ تمنحونني نصف المجلّة. هذا هو الحلّ.

قال حافظ وهو يلوّح بقائمة إحصائيّاته:

ـ إذا كان الأمر كذلك، فأنا أولى الناس بنصف المجلّة.

تلفّت عادل حواليه مذكّرًا:

ـ وماذا عن الملحق؟

علّق سالم مقهقهًا:

ـ تركة المرحوم تتخاطفها الأيدي والشاطر بشطارته.

استفزّ المدير وبدأ يهدّد ويتوعّد «نجوم السما أقرب» ولحقه الأستاذ بديع ولوّح بالاستقالة وبأعراض جلطة تستدرّ عطف جميع الأولياء والمرسلين والخليل بن أحمد.

وكان أبو العزّ ينقل عينيه من هذا لذاك ومن ذاك لهذا، وفي نظره اختلطت المشاهد والأشرطة، وكذلك الحابل بالنابل. ولكزته رفيف وسألته بقلق «وأنت، ما رأيك؟» فتح يديه ولوى فمه بحيرة. لمحه عادل فابتسم بمرارة وهمس «ألم أقل لك؟»، وفطن أبو العزّ إلى إشارة

أخيه فاستعاد صوابه ورباطة جأشه وفكّر: الدرب طويل يا عادل. الدرب طويل.

ومن بين الأصوات والاحتجاجات والتهديدات والتلويحات والتلميحات لمحت حيرته فأشفقت على نفسها وهتفت:

ـ تتخلّى عنّي يا أبو العزّ؟

قال بحرارة:

ـ لا أتخلّى عن أحد.

التقط سالم الخيط وعلّق بخبث:

ـ وهذه مشكلتك.

دقّ المدير الطاولة بمنفضته ورفع صوته:

ـ الهدوء يا إخوان، الهدوء، أرجوكم.

وهدأوا على مضض وكلٌّ يتربّص ويتحيّن الفرصة المناسبة ليرفع صوته أو يده. لكنّ المدير أعادهم إلى حظيرة الصمت بسؤال واحد:

ـ آخر الشهر على الأبواب، والخزينة فارغة، فمن أين تقبضون؟

ووقع الطير على رؤوسهم ولم يرتفع.

(٢٩)

ركب إلى جانب سائق مرسيدس بسبعة ركّاب، وأخذت السيّارة تنهب الأرض والذاكرة. مرّت بمخيّم عسكر، ثم أكوام الخردة، وبعدها انحدرت في الواد. رائحة العشب، والشمس، وهبّات الرّيح. الأيّام تركض كسيّارة أفلت منها الزمام على منحدر. منذ أعوام طويلة، يا الله ما أطولها، مرّ أسامة من هنا! مرّ بالبادان والشلال وأكياس الجوز وقناني الكولا. وبعد غياب طويل في المهجر وبلاد الناس اكتشف أنّ الضفّة قمقم. يحكى أنّ صيّادًا اصطاد قمقمًا وفتحه فاندلعت منه نملة. نملة؟ أهذه حدود رؤياك؟ نملة تحبل بفيل يا أستاذ!

إيه يا صالح. إيه يا كلّ الرفاق ويا كلّ القماقم. الحكايات تفقد بهجتها. في السجن كانت الحكايات أظرف. وكنت أنتظر ساعة الإفراج لأخلص. من زوايا السجن كانت الضفّة زاوية انفراج. ومن زوايا المجلّة أصبحت أكثر حدّة من رأس رمح. بين أوراق عادل على مكتبه في المجلّة صور الخضر والتنّين. ما هذا يا عادل؟ الخضر يركب الحصان ويحمل الرمح ويغرسه في قلب التنّين. مازلت تحلم يا عادل؟ أولى بك أن تركب الحصان وتحمل الرمح أنت. ماذا تحمل الآن؟ تحمل قلمًا؟ لا بأس، لكن هذا لا يكفي. التنّين لا يموت بشكّة دبّوس أو جرّة قلم. دعنا من هذا. أين أنت وأين صالح. صالح. أحسُّ بوحشة. أحيانًا أتساءل، لماذا خرجت؟ لماذا كنت أنتظر الإفراج؟ ألا

تعتقد أنّ هذا الإحساس طبيعي يا صالح؟ ألم تقل «أيعيب الثوري حزنه؟» لكن أكمل. أيعيب الثوري اغترابه؟ أيعيب الثوري قرفه؟ الثوري إنسان؟ أو لا يحزن؟

ومدّ بصره عبر الزجاج فوق الهضاب والمنحدرات وتأمّل السماء المغبرّة بامتداد الأفق. ولاحت أشجار الصفصاف بقاماتها المسحوبة وأوراقها الفضيّة منابر تتجه نحو السماء بانتظار قرع الأجراس وانطلاق الأذان. تأمّل الحجارة البيضاء في قاع الوادي حيث يتدفّق الماء شتاء، وكان جافًا تمامًا. ورغم ذلك فقد تفجّر نوّار أشجار الدفلى المحيطة بالجدول، وملأ الجوّ وعدًا بالسنى.

أطلق مسعود نبحات واهنة وهو يرى شبح إنسان يقترب من باب المزرعة. ارتدّ إلى غفوته لحظات ثم عاد يفتح عينيه ويتأمّل الرجل متفحّصًا وكأنّه يحاول التعرّف على شخصه. كانت الشيخوخة قد أنهكته فلم يتعرّف. وركع أبو العزّ على الأرض وتحسّس الرقبة الهرمة بقلب حزين وهمس:

ـ مسعود، حتى أنت كبرت يا مسعود!

الأيّام تمرّ. حتى الكلاب تكبر وتشيخ. إيه.. يا صالح. أخاف أن نكبر حتى الشيخوخة أو ألاّ نكبر أبدًا. تعيّرني بالخوف؟ أيعيب الثوري خوفه؟ لسنا هراقلة ولكنّا نعرف كيف نرتدّ صغارًا نعايش البراءة وندفع عنها الكبر. تذكر يا مسعود حين كنت أخافك وأنا طفل صغير؟ تذكر حين كنت أنادي «يا شحادة» أين شحادة؟.. أين أبو شحادة؟

واقترب رجل وهو يخترق ممرّ الددونيا وصاح:

ـ من هناك؟

ـ أنا باسل أبو العزّ.

ـ أهلاً أبو العزّ. يا ألف حمد الله على السلامة. انتظرت مجيئك منذ أشهر، أين أنت يا رجل؟

قام أبو العزّ عن الأرض، واقترب من الرجل الذي يمدّ يده بالسلام. تأمّله وهو يصافحه. في الستينات. طويل. عريض. يلبس الكاكي ويده أخشن من منشار. له شعر رمادي أجعد أشعث. وشارب كثيف لكنّه مشذّب. وجهه متغضّن لكنّه إذا ما ابتسم انفردت تغضّناته وشعّ وجهه بالحرارة والإلفة. وقال بحميميّة:

ـ كيف وجدت السجن؟

انتقلت حرارة الرجل إلى أعماقه فبدأ يستعيد نشاطه وبديهته.

ـ عال، الداخل مفقود والخارج مولود.

ـ أو قل الداخل مولود والخارج مفقود.

ودارت الكلمات في رأسه: ما هذا؟ حتى أنت؟ قلنا المدينة وأمر الله، أمّا الرّيف فما أمره؟ لكن يا صالح، علينا أن نتأكّد من النبرة.

ـ والاسم الكريم؟

ـ أبو الفوارس محسوبك ومحسوب المولود والمفقود.

وتجلّت الدهشة في عينيه. فقهقه الرجل:

ـ خرّيج الدفعة الأولى محسوبك. أنا خرجت من هنا وأنت دخلت من هناك. هه، صار السجن مثل الحصبة، شرّ لا بدّ منه. أسمعت بإنسان كبر دون حصبة؟ والسجن مثل الحصبة تمامًا.

وعاد يقهقه فرقصت عيناه ورقص الضحك في جوف أبو العزّ.

وتذكّر أنّه لم يضحك منذ أيّام كثيرة. عجيب! في السجن كنّا نضحك من الطير وهو يطير. ولكن أيّ طير في السجن؟ وابتسم وهو يذكر كيف قال له الفلاّح الجبعي «أنت قرد، أنت عفريت أزرق، تضحك؟ تضحك بلا أسنان. أنت يا باسل يا ابن العزّ تضحك من الطير وهو طاير. خير إنشا الله. للّيش الضحك؟» أضحك من الطير وهو طاير. «ولك يا إبليس، هو فين الطير ها؟ فين؟» قال صالح من وراء كتابه «أنا الطير، وسأطير». إيه يا صالح، سامحني فالدوّامة تسحب، تسحب، تأخّرت عليك، لكن امهلني أيّامًا أخرى.

وكان أبو الفوارس يعلّق بحنين:

ـ لكنّ السجن مدرسة، أكبر مدرسة. الواحد منّا لا يعرف حقيقة نفسه إلاّ إذا اختبرها. والسجن يجعلك تكتشف أشياء كثيرة عن نفسك وعن الناس والبلد والحياة كلّها من فوق لتحت. علّموك درس الفوق والتحت مثل بقيّة المقرّر أم لا؟

وقهقه ثانية وهو يسحب أبو العزّ من يده نحو معرش الدوالي ويجلسه على حافّة إسمنتيّة تشكّل فوهة البئر. ووقف يفرك يديه بنشاط وحيويّة وسأل بمرح:

ـ تشرب قهوة؟

ـ اسعفني.

وبلمحة عين قطع المسافة بين المعرش والبيت واختفى في البناء الصغير الذي كان يستخدم كمكتب للوالد في يوم من الأيّام الغابرة. هنا كان بيت الكلب، وخلف مكتب الوالد وبيت الكلب تقبع براكية أبو شحادة. مازلت تذكر يا أبو العزّ رغم مرور الزمن. وهذا المعرش كم شهد من أيّام عزّ. آه، حتى الكلمة باتت ذات حدّين. عزّ. أبو العزّ

وابن العزّ وشتّان ما بين العزّين. عزّ الماضي وعزّ المستقبل والشتّان.

واستغرق في التأمّلات فامتلأ رأسه بالذكريات والصور. في هذا المعرش بالذّات كانوا يجلسون. بين أوراق الدوالي كهارب ملوّنة، وانقلبت العريشة شجرة عيد ميلاد. وزهر البرتقال وسماء صيفيّة وأنسام. وأقداح بيضاء ورائحة اليانسون مختلطة برائحة الشواء. ومسعود يقترب بأنفه من وعاء كبير مليء باللّحم النيء. وزعق الوالد «يا شحادة». ولم يظهر لشحادة أثر. هشّ أبو شحادة الكلب عن وعاء اللّحم وعاد ينقل صحون النقل ويضعها أمام الرجال والنساء. رجال ببدلات داكنة وربطات عنق أنيقة، ونساء بلحوم القشطة وأردية الربيع، ولا أثر لأمّي. وأبي يضحك فاقترب الكلب وصاح الوالد «يا شحادة». كنت صغيرًا وكنت أكره شرب الحليب، وعجبت كيف يحبّ الكبار شرب الحليب. والنساء يقرصن خدودي ويقلن «اشرب حليب، اشرب حليب». هربت بين الأشجار فاصطدمت بشحادة. كان مختبئًا وراء سياج الددونيا. وضع إصبعه على فمه. جلست بجواره على الأرض ونظرت من شقوق الأغصان نحو العريشة. ورأيت الوالد يضحك فاحترت في أمره. يضحك هنا ولا يضحك في البيت. يضحك للرجال ويصرخ في وجه شحادة. يبتسم للنساء ويتجهّم في وجه أمّي. حتى معاملته لي اختلفت أمام الناس، داعبني وأثنى عليّ أمامهم وكلّمني كما لو لم أكن أنا. ونظرت مليًّا من شقوق الأغصان ورأس شحادة فوق رأسي. اقترب الكلب من الوعاء وقلبه وانسكب اللحم على الأرض. وصاح الوالد بغضب «يا شحادة، يا شحادة».

ـ تفضّل.

وأصابته رعدة للانتقال المفاجئ، فقهقه أبو الفوارس.

ـ خرّيج سجون وتجفل؟

ضحك بفتور، وبدأ يرتشف قهوته ومازالت الصورة تتوالى على ذاكرته. ألا تفكّر بما أفكّر فيه يا صالح؟ يأكلون ويشربون ويضحكون ويتأنّقون وحين يقترب الكلب يصيح الوالد، يا شحادة، ما رأيك في هذا؟

ـ أين شحادة؟

ـ شحادة؟ هوهوهو، لا تعرف أين شحادة؟ أين تكون سعديّة يكون شحادة. ألا تعرف؟ شحادة واقع، وسعديّة لا ببالها شحادة ولا غير شحادة. سعديّة اشترت الأرض أخيرًا، وربّها ومعبودها الأرض. كل يوم من صباحيّة ربّنا تعشّش في الأرض. وهذه هي قصّة شحادة باختصار، شحادة واقع في سعديّة وسعديّة واقعة في الأرض.

ـ ولماذا اشترت سعديّة الأرض؟

ـ ستبني بيتًا وتسكنه، ألا تعرف طبع الناس؟ الواحد منّا يقطع اللّقمة عن فمه ويشتري أرضًا يبني عليها بيتًا. هذه هي العادة. وسعديّة مثل باقي الناس.

ـ وتهجر سعديّة الحارة؟

ـ طبعًا، إذا بنت البيت تهجر سعديّة الحارة.

ـ غير معقول يا رجل. سعديّة لا يمكن أن تهجر الحارة. سعديّة في الحارة من يوم خلقها الله وخلق الحارة. ولدت في الحارة وكبرت في الحارة وتزوّجت في الحارة وترمّلت في الحارة.

وكان أبو العزّ قد تلقّى صدمة لم يتوقّعها الرجل ولم يتوقّعها هو نفسه. ماذا لو هجرت سعديّة الحارة؟ الألوف يهجرون، وسعديّة

واحدة من ألوف. وتذكّر أيّام المرحوم زهدي حين كان يمرّ بهم وهم يجلسون في دكّان الحاج عبد الله. كان يداعبهم ويقهقه ويحكي للأولاد نكات ماجنة تحمرّ لها آذانهم. وسعديّة كانت تمرّ وخلفها قطيع الأطفال. كانت تضع على شفتيها حمرة فاقعة كالشقيق، وتلبس شبشبًا عالي الكعب وفستانًا أبدًا مزهرًا. وحين خرج من السجن كانت سعديّة هي أوّل من سأل عنه. سعديّة معلم هامّ من معالم الحارة، ولا يمكن أن تهجر سعديّة الحارة، لا يمكن.

ولكن لماذا تهجر سعديّة الحارة؟ وتذكّر أقوالاً سمعها من هنا وهناك. سعديّة وشحادة، سعديّة والماكينة، وسعديّة وتلّ أبيب. سعديّة تنام في تل أبيب ولا تسأل حتى عن أبنائها. سعديّة في حمّام البلد، سعديّة وخضرة. ما هذا؟ ألاَ سيرة للحارة إلاّ سيرة سعديّة؟ والآن يا بو العزّ، الآن، وحين تسمع أنّ سعديّة ستهجر الحارة تصرخ «غير معقول». من منّا سأل عن سعديّة. حتى عادل لم يسأل. لو أنّ رفيف تسمع بالقصّة لجعلت منها مأساة ولطالبت بكل المجلّة لا بنصفها. إيه يا رفيف، أيّة مجلّة! أيّة مزرعة! أيّة دنيا! حصّليها وحاسبيني بعدها إن كان لنا عمر ليحاسب أحدنا الآخر. «أناضل من خلال نصف المجلّة» «بل تناضلين من اجل نصف المجلّة». «تجاوزي يا رفيف». دقّت الطاولة بقبضتها «لن أتجاوز. حقّي، تجربتي، تاريخي، لن أتجاوز» من منهما أوّلاً؟ المناخ السليم أم الإنسان السليم؟ فسّرت يا رفيف ولكنّك لم تجدي حلاً لهذا السؤال. المزرعة أم المجلّة؟ نربح المجلّة إذا خسرنا المزرعة، ولكن أيّ ربح لمجلّة تسحب رزقها من أفواه الفلاّحين وأفواه الناس؟ وإذا خسرنا الناس فلمن نكتب؟ وحين تنقضّ الرقابة على المجلّة فبمن نستجير؟ انسكب اللحم على الأرض فصاح الوالد بغضب: «يا شحادة». آه يا صالح.

ـ جئتك يا أبو الفوارس لأسأل عن حال المزرعة.

ـ مزرعة؟ قل مزارع. أخوك قسّمها وضمّنها للفلاّحين. أنا ضمنت الزاوية الرئيسيّة بالمدخل والمكتب والإسطبل والبير. والحجّ سلامة ضمن الزاوية الشرقيّة على حدود السيل. والحجّة مبروكة وأولادها ضمنوا الزاوية الشماليّة على حدود مزرعة أبو الحافظ، وروحي ضمن لأبيه الزاوية الجنوبيّة على حافّة السيل مباشرة. أمّا أرض العين فقد استولوا عليها، طردوا الفلاّحين وحاصروا المنطقة وسيّجوها من جميع النواحي إلاّ من الناحية الغربيّة. وهذا يعني أنّهم قد يتوسّعون من الناحية الغربيّة ويستولون على الزاوية التي ضمنها الحجّ سلامة، هذا إذا لم يستولوا على المزرعة كلّها، بل قل المنطقة.

صاح أبو العزّ:

ـ ما هذا؟ أهي فوضى؟

ـ وماذا تظنّ إذن؟ في ساعة سمّاعة استولوا على أراضي القرية الشرقيّة وسيّجوها بلمح البصر. واليوم، إن كنت ترغب، آخذك لترى المستوطنة. أحضروا بيوتًا جاهزة وألصقوها بالأرض وبدأت الجرّافات تجرف. ومدّوا أنابيب من العين وزرعوا الأراضي وسقوا الزرع، واليوم صار طول الشتلة عندهم شبرين والشتلة عندنا مازالت تزحف على وجه الأرض.

صاح أبو العزّ ثانية:

ـ ما هذا؟ أهي فوضى؟

وضع أبو الفوارس فنجانه على حافة البئر وجلس على الأرض وأطلق زفرة:

ـ فوضى، نظام، قيامة قايمة، سمّها ما شئت. هذا هو الحال.

ـ لكن يا أبو الفوارس..

ـ لكن يا أبو العزّ أنت تعرف وأنا أعرف. هذا هو الحال.

صاح أبو العزّ:

ـ سلام؟ أيّ سلام؟ لا سلّمنا الله ولا سلّمهم. أيّ سلام؟ وأنت ومعك الفلاّحون، ماذا فعلتم؟

لوّح أبو الفوارس بكفّيه:

ـ حملنا العصي وفروع الشجر والحجارة ونزلنا في المستوطنين ضربًا. اشتبكنا بالحجارة والعصي. هربوا لكنّهم رجعوا بالسلاح والجنود. قتلوا رجلين وجرحوا خمسة فهربنا وقعدنا في بيوتنا. النساء تلطم والرجال بالانتظار، بانتظار الاعتقال. واليوم صار طول الشتلة عندهم شبرين وبيوتهم مثل بيوت النمل. هذا هو المختصر المفيد.

وكان أبو العزّ يلهث. جئت أبحث عن عون للمجلّة في المزرعة. والآن، لا مزرعة ولا ماء ولا أشتال ولا فلاّحين ولا حتى حجارة. رأسمال المجلّة؟ زوايا المجلّة؟ زوايا الأرض تفلت من أيدينا فهل نمسك بزمام زوايا المجلّة؟ الزوايا الثابتة تهتزّ فما بالك بالزوايا المهزوزة أصلاً. قرّي عينًا يا رفيف. نصف المجلّة؟ حصّليها وحاسبيني بعدها إن كان لنا عمر ليحاسب أحدنا الآخر. لكنّ الأستاذ عطا الله، هه، غدًا يتوجّه الأستاذ عطا الله إلى مكتب التصاريح ليأخذ تصريحًا يقطع به الجسر. أهذا هو الحلّ؟ حلّ مؤقّت يجعلك تعيش على هامش أيّامك. والمجلّة، قارب ورق طفولي طفيلي يعوم على شبر ماء. وهل كان الأستاذ عطا الله غير ذاك أبدًا؟

ومشى إلى جانب أبو الفوارس وقلبه ينزّ. وسرح بنظره عبر المسافات. أشجار الصفصاف بأوراقها الفضّيَّة الخابية مازالت ساكنة تمامًا. والسماء فوقها مازالت بيضاء من غير غيوم. غبار ووهج ورطوبة نسبتها قليلة، ورائحة زهر البرتقال تنخر قلبه فيزداد أنينًا.

متى انتابك إحساس كهذا؟ حين دخلت السجن لأوّل مرّة. حين جابهت العائلة بزيفها وعاديت الجميع وبقيت وحيدًا. حين نقلوا صالح إلى سجن بعيد وبقيت وحدك مدّة أشهر. حين أحببت ابنة الجولان لكنّها أحبّت غيرك. كم مرّة أصبت بهذا الإحساس يا بو العزّ؟ وحدة وحشة خوف غربة حنين وقلب يذوب عشقًا ويسعى على دروب الحبّ كثور يجرّ الطاحون ولا يصل.

وكان الرجل يقفز فوق القناة بنشاط. وصاح وهو على الحافّة الأخرى:

ـ تحرّك، مالك يا رجل؟ العالم مازال في أوّله. والدنيا مازالت حلوة.

رفع إليه عينين بليدتين وتأمّل ابتسامته العريضة. كانت له عينان عجيبتان حين يبتسم تستحيل التغضّنات حولهما ظلالاً راقصة لشباب يبلغ حدّ المراهقة. وإذا هدأ واستكان وغرق في التفكير ينطفئ لون بياضهما ويصبح كابيًا. وفي تلك اللحظة بالذّات، كانت محاجره ترقص وكانت يده تمتدّ إلى رأسه:

ـ أترى هذا الرأس؟ شاب لكثرة ما رأى. وكم رأينا. حروب ومذابح ومؤامرات وتشريد. وحملنا السلاح وحملنا المبادئ وحملنا قلوبنا على كفوفنا وقلنا يا أرض اهتزّي، فاهتزّت، وعن عزم الهزّات تشقّقت ووقعنا في الحفرة تلو الحفرة. هات يدك.

ـ لا لا، سأقفز وحدي.

وقفز فوق القناة ومشى صامتًا بين الأشتال الصغيرة. مازال هناك ماء يسقيها، ومازالت بعض الرشّاشات تعمل. قد لا يكون الماء كافيًا إلاّ أنّه يبقي على الروح في الشتلة والأرض. لا بأس، طول ما العود موجود الصحّة بتعود. الفلاّح الجبعي كان مغرمًا بهذا المثل. وهذا الرجل، خرّيج الدفعة الأولى، والحصبة، ويد منشار. الداخل مولود والخارج مفقود. لماذا قال هذا؟ لكنّه لا يبدو حزينًا رغم المستوطنة الجديدة والماء الشحيح والشيب في الرأس.

ـ أبو الفوارس.

ـ يا نعم؟

ـ حزين أنت؟

لم يجب. انحنى على الأشتال يجسّ نبضها. كانت الخضرة تتدفّق في عروقها زمرّدًا. وغرف حفنة تراب ومرغ أنفه فيها وقال همسًا:

ـ فعلت هذا أوّل الاحتلال. كنت أحد المتسلّلين عبر النهر. كنّا بالمئات. ارتميت على الأرض أشمشمها وحلفت، لن أهرب بعد الآن ولو حكموني بدل المؤبّد عشرة. والآن، مهما رأيت فلن أرى أسوأ ممّا رأيت. ماذا تريد؟ مازالت الخضرة حولي، والأشجار، والسماء ورائحة التراب وزهر النوّار. كلّها مازالت حولي.

قال باسل بكآبة:

ـ وماذا إذا طردوك وأخذوها؟

ـ هه، سؤال عويص لكنّي فكّرت فيه مرارًا، ورغم شيب الرأس فلا جواب سوى الجواب المعهود، المطاردة.

ـ لا أفهم.

ـ هي المطاردة، ألم يعلّموك في السجن؟

ـ آ، بلى، لكنّك قلت، الداخل مولود والخارج مفقود.

لم يجب، لكنّه واصل السير وأبو العزّ في أثره. وقال وهو لا ينظر نحو جاره:

ـ حين خرجت من السجن ورفضوا إعادتي لوظيفتي لم أصدم، كنت أتوقّع هذا، خرّيج سجن ويعود إلى التدريس؟ مستحيل. وكنت أعرف أنّي لن أعود إلى التدريس والمدرسة، ولهذا لم أصدم. لكنّي حين وقفت الصبح في نافذتي، وكان ذاك أوّل يوم في بداية السنة الدراسيّة الجديدة، ورأيت الأولاد يمرّون أمامي برؤوسهم الحليقة وكتبهم الجديدة أحسست بالنار تحرقني. يا ناس، وظيفتي، أولادي، مدرستي التي وعيت بناء غرفها غرفة غرفة. والأولاد الذين تخرّجوا على يدي صاروا أطبّاء ومهندسين ومدرّسين وأساتذة جامعات، وأنا أحرم من وظيفتي؟ أقول لك الحقّ، اسودّت الدنيا في عيني. هذا الإحساس ما انتابني إلاّ مرّتين من قبل. مرّة، حين طردتني حكومة قاسم من العراق، ومرّة حين طردتني الحكومة اللبنانيّة من آخر أرض عربيّة التجأت إليها. وفي المرّتين، أو بالأحرى، في المرّات الثلاث أحسست أنّ وجودي أو عدمه سيّان. وتمنّيت لو لم أكن ولدت على الإطلاق كي لا أكون عربيًّا وأرى من العروبة ما رأيت. وذاك تاريخ طويل، تشرّدت بدل المرّة مرّات. لم يبق في العالم العربي شبر واحد إلاّ ولفظني، لفظني الأردن ولفظتني سوريا، والعراق ومصر والجزائر، وكانت نهاية المطاف في لبنان. وحكمت غيابيًّا أكثر من مرّة، ودخلت الزنزانة أكثر من مرّة. الجفر والزرقا وأيّ معتقل اعترض طريقي. لكن

يا بو العزّ، لم يحرق قلبي أكثر من مشروع الصحراء. ٧٥ يومًا في الصحراء تحت الشمس الحرّاقة والرمل المعجون بنار جهنّم، وفي العرق والقلّة والموت الأحمر، ومع هذا كنّا نغنّي للمصانع التي ستحيل العالم العربي جنّة، وللحقول التي ستمتدّ من المحيط إلى الخليج ولا تبقي شبرًا دون ماء ودون خضرة. أحيانًا كانت تهبّ علينا الرّياح الرمليّة فنكاد نختنق، فنبلّ المناديل ونتنفّس من خلالها. وعندما تهدأ العاصفة نهبّ على الأرض مثل العواصف. مع شقّ الفجر نحمل المعاول والقفف ونمشي مع العتمة وأهازيجنا تسبقنا. وفجأة، وبعد ٧٥ يومًا حملوني بدون سؤال أو جواب ولا كمّ ولا كيف ولا عملت ولا سوّيت، وإلى المطار سرّ. وتأمّلت اسم بغداد في واجهة المطار فطار قلبي وتبعه عقلي وبدأت أصرخ، يا عالم، يا ناس، بلاد العرب مفتوحة للمرتزقة والغزاة والعملاء والساقطين والخونة ومحرّمة عليّ أنا الشريف النظيف! ما هو ذنبي؟ ما هي جريمتي؟ ألأنّني آمنت بروح الشعب؟ ألأنّني آمنت بتعمير الصحراء؟ ألأنّني آمنت بتوجيه الأبناء؟ سمعني الضابط فأمسك بجواز سفري وخطّ عليه بالأحمر «يمنع من دخول العراق». وحين حملتني الطيّارة تمنّيت لو أنّ قردًا يحملني على كفّه ويرميني في جهنّم. وأحسست بقطعة من قلبي تسقط في أرض المطار وتدوسها أقدام العابرين والمغادرين. الإحساس نفسه الذي أحسست به حين حملتني الطيّارة من بيروت إلى زيوريخ. قطعة أخرى من قلبي سقطت في أرض المطار وصرخت وشتمت وتوسّلت وما من سميع. أجلسوني في المقعد، وطارت الطيّارة، ونظرت تحتي وبكيت. وحين مرّ الأولاد أمامي في ذاك الصباح مع بداية السنة الجديدة قطعة ثالثة من قلبي سقطت وبكيت. حتى الأولاد أخذوهم منّي. لم يبق إلاّ هذا التراب، فليأخذوه، لكن لا تسأل ماذا بعد؟ أنت تعرف وأنا

أعرف. وتسألني إن كنت حزينًا؟ شاب الرأس يا ابن الناس.

ووقف، فوقف أبو العزّ معه ونظر في عينيه. الظلال القرميديّة حول العينين، وفي السواد ومضات دافئة حزينة. كان يجيل عينيه مرتفعًا بهما نحو أعالي الصفصاف ثم ينزل بهما نحو قعر الجدول الجافّ. وقال باسمًا:

ـ ألم يعلّموك درس الفوق والتحت؟

ـ بلى، علّموني.

وفكّر بسخرية: وفي المجلّة ينتظرون بيع المزرعة.

وقال أبو الفوارس مواصلاً:

ـ فليأخذوها، لكن لا تسأل ماذا بعد.

فليأخذوها؟ من؟ هم أم نحن؟ لا والله ولو شحذنا الموت وما طلناه. المطاردة، أنت قلتها يا بو الفوارس وسبقتني إليها. نعم، هي المطاردة، وتبيع يا بو العزّ؟ لمن تبيع؟ لفلاّحين مازالت أشتالهم تحبو على وجه الأرض؟ أم لأمثال الأستاذ عطا الله ممّن يعرفون أفضال التصريح؟ تبيع المزرعة لتنقذ المجلّة؟ وإذا بيعت الأرض فهل تبقى المجلّة؟ الأرض أوّلاً ثم المجلّة. الحكم بالإعدام وارد لكنّك لن تكون أداة التنفيذ أبدًا، مهما حصل. ولتصرخ رفيف وليحبط عادل وليسخر سالم. رفيف تصرخ منذ قرون، وعادل محبط منذ سنين، وسالم يسخر حتى من نفسه، أمّا الأستاذ عطا الله، فليركب أمواج التصريح. قبض التصريح خير من قبض الرّيح. وليتوجّه الأستاذ عطا الله إلى الجسر صباحًا. والنملة مازالت تسعى، تكسر يدها، تكسر رجلاً، لكن حتمًا لن تتحطّم، بذاك الفراغ ولا الهاوية.

ـ وتسألني إن كنت حزينًا؟ قد لا تصدّق لكنّي سأقول. ماذا لو أحسست بالحزن هنا وهناك؟ ماذا لو طردوني من بغداد أو بيروت؟ تمرّ أيّام وفي فمي طعم العلقم، مرارة، حزن، حريق، سمّه ما شئت. وأعود لبيتي ألبد فيه ولا أغادره. وأقضي الأيّام وأنا أحاسب الدنيا وأراجعها. وأقلّب أوراقي القديمة، وأتذكّر. هذا منشور من أيّام نوري السعيد، وهذا من أيّام فاروق، وهذا من أيّام السنوسي، وهذا سيف الإسلام الحسن، وهذا وذاك وهذا، وأقلّب الصفحات ما قبل وما بعد. وأرى العالم خريطة معلّقة على جدار صفّ صغير في قرية منسيّة. وأراجع الدرس وأقول، اسمعوا يا أولاد، القرن العشرون هو قرن ميمون. هذه أوروبا وهذه آسيا وهذه أفريقيا وأميركا اللاتينيّة والشرق الأقصى والأدنى. ونحن هنا في الشرق الأوسط. هل تغيّر شيء؟ وترتفع الأصابع الصغيرة بحماس. انتهى الدّرس. وأستيقظ في الصباح وأرى الدنيا جديدة. وأعود أباطح الدنيا وأغنّي لها. وحين أسمع الشبابة والمجوز وأرى الدبّيكة مجتمعين، أنسى الدنيا وأنسى الأمس وأنسى اليوم. وأنزل للساحة أدبك، وأظلّ أدقّ الأرض أدقّ الأرض حتى تهتزّ.

هذه الكلمات تذكّرني بصالح، يقترب الموعد يا صالح.

ـ طردوني من بغداد وبيروت وعمان وهنا وهناك، بكيت لا أنكر، لكنّي هنا لن أبكي، أنت تعرف وأنا أعرف.. هذا بيتي.

ـ لك بيت؟ لم أرَ زوجتك.

ـ ماتت، ولي منها بنت تزوّجت منذ سنوات. أنا جدّ إن كنت لا تعلم. آه، ذكّرتني بزوجتي. منذ وفاتها وأنا مشرّد. وحتى قبل وفاتها وأنا مشرّد. قبل الاحتلال بثلاث سنوات استقرّ بي الحال وعدت

لمدرستي. ولم يطل الحال طويلاً. سنة ١٩٦٧ حملت مرتينة من مخلّفات الجيش البريطاني وربضت مع الرابضين في الجبال. مرتينة أنتيكة وفشك أنتيكة وطيّارات تقذفنا بالنابالم. قتل منّا من قتل، وعاش من عاش، وهربت مع الهاربين ثم رجعت مع المتسلّلين. ألم أقل لك: شاب الرأس يا ابن الناس؟ والبركة فيكم يا أولاد.

صالح، أين صالح؟ وهل سيشيب الرأس ونقول للأبناء يومًا، البركة فيكم يا أولاد؟

وضربا في الأرض والصمت طويلاً، ثم أشار أبو الفوارس بإصبعه:

ـ هناك.

الأرض الخضراء والرشّاشات تنثر الماء حجارة ماس ولؤلؤ. باذنجان وبندورة وأوراق بطاطا تتفجّر خضرة وعافية. تراكتورات حديثة، بيوت متنقّلة في شاحنات. بيوت إسمنتيّة كبراكسات الجيش البريطاني، وطواق صغيرة وسوالف جيّدة التغذية. وكانت المضخّة تعمل والماء يسير في أنابيب غليظة ورفيعة وكل الأحجام. أنبوب يمتدّ من العين الجديدة مباشرة ويصبّ في حوض كبير بغزارة الشلاّل. وضع يده على قلبه وهمس:

ـ فلنذهب من هنا.

ـ لم تر شيئًا.

ـ سأعود ثانية، ولن أكون وحدي.

(٣٠)

وقفت في أعلى الهضبة ومدّت بصرها. جبال وهضاب ووديان وأشجار زيتون بامتداد الأفق وحدود الصيف. وهبّت النسمات فطار قلبها وحلّق. القلب نفسه الذي دقّ لزهدي وغنّى. ربما كانت روح زهدي تحوم حولها. لم يمت بعيدًا، بضعة كيلومترات من هنا حيث لاقى ربّه وارتفع إليه. وها هي أيضًا ترتفع، وترى الدنيا ممدودة تحت قدميها بساطًا.

لأوّل مرّة تحسّ أنّ للموت جلالاً لا تعكّره الدموع. ما عادت للموت أجنحة سوداء ولا لسعات نار تهبّ في القلوب فتكوي البدن. روح تصعد في تأنٍّ وسلام كما لو كانت رائحة الأرض حين يبلّلها المطر، وتهبّ الرّيح وتحملها لأعلى، وتنتشر فوق الجبال ندى وغمامًا أبيض.

ومشت بين الحجارة والصخور على الأرض الحمراء. الأرض أرضك يا سعديّة، وأرض زهدي، حمراء بدمه. لو كان هنا، لكنّه هنا، قريب بعيد، على مرمى حجر، على بعد إطلاق ندهة، على بعد لفتة. وأحسّت به يحتضنها. لمّها دفء تنفّس الرّيح حولها فناداها الحنين. تذكّرت الحيّ العتيق والبيت الأوّل. تذكّرت الفصل الأخير مع الأولاد. حين وطئت قدماها عتبة الدار وكانت قد رجعت لتوّها من عند السمسار، زفّت الخبر إليهم وقلبها يكاد يطير: اشترينا الأرض يا أولاد، فيها زيتون

وفيها شمس وفيها هوا. نزرع خضرتنا ونربّي الصيصان ونبعد عن حارة الهمّ ولسانات الناس. هلّل الأولاد وصفّقوا ورقصت سميّة. أمّا رشاد فقد أقعى على مصطبة النافذة واستدار بوجهه نحو الزقاق. وحين نادته للعشاء ظلّ في مكانه ولا يتزحزح. وسألت الأولاد عمّا به فقالت سميّة «يبكي؟!» تبكي؟ بدل ما تضحك وتفرح يا ابني يا رشاد تبكي؟ مش كفاية اللّي نلناه من هالحارة؟ مش كفاية اللّي ذقناه من أمّ تحسين وأمّ صابر ولسانات الناس؟ مش كفاية عتمة ورطوبة وعيون تبحلق على الطالع والنازل؟ وظلّ الولد يبكي ولم يستجب، يا ولد اعقل. يا ولد روق حرام عليك أمّك التعبانة والشقيانة.

وصاح الولد فجأة «حارتنا يمّه، حارتنا». أيّ حارة يا ابن المكسورة يا مقطوع؟ ومين إلنا فيها؟ وصاح بحدّة «ومين إلنا غيرها؟» استبدّ بها الغيظ وهي تتذكّر ما عانته وما سمعته وما يتناقله الناس: «سعديّة الدايرة طقّ شرش حياها وما عادت تخجل حتى من أولادها. يا عيب الشوم!» وتقوّلات ونظرات ونوافذ وأبواب تغلق فجأة حين تمرّ سعديّة بها. وهذا الولد يقول «حارتنا يمّه، روحي أنت وأولادك. أنا مش رايح ولو أدور شحّاد على بيوت الجيران».

ابن سعديّة يدور شحّاد على بيوت الجيران؟ يا ما أحلى الرملة يا سعديّة. مش كفاية همّي. مش كفاية سخامي. مش كفاية مراري يا ابن الرملة. خذ، خذ، خذ. وأمسكت بمسطرة الخياطة ونزلت به. وبكى الأولاد وبكت هي، وظلّ العشاء منصوبًا على الطبليّة وما مسّته يد.

طردت الذكرى بإصرار وابتلعت غصّتها. لا دموع لا أقاويل لا منغّصات بعد اليوم. على هذه الأرض الجديدة ستبني دارًا جديدة. ستبني غرفتين صغيرتين واحدة لها والثانية للأولاد. لن تكون فراندة من

زجاج كما حلمت. ولن تشرف على نابلس ولن تراها. أحسن. ستكون هنا أقرب إلى القرية منها إلى المدينة. من هنا ترى مئذنة القرية وكروم الزيتون ومروج الخضرة. وستمرّ بها الفلاّحات صبحًا ينادين على التين والصبر واللّبن. لن تشتري منهنّ البيض فلديها دجاجاتها السمينات. وستقطف الخبّيزة بيدها وتطبخها طوال الموسم. نسوة المدينة يشتهين الخبّيزة، أمّا هي فلن تشتهي شيئًا بعد اليوم. يكفيها من الدنيا هذه الأرض وراحة البال. «آه يا ابني يا رشاد، بكرة تكبر وتفهم» وظلّ الولد يبكي. فمشت بين الصخور محاولة تناسي كلمات رشاد.. لكن عبثًا.

يا ابني يا رشاد، هون الهوا والشمس والرّيح تلعب صيف وشتا. وهناك، إيش فيه هناك؟ عيون تبحلق ولسانات تلعن. هون الأرض واسعة وشجر وعصافير، وبكرة تصطاد العصافير بمقليعتك بدل الجنود وما يحاسبنا حدا. لا مظاهرات ولا نقف روس ولا تعالي يا سعديّة ادفعي الغرامة بالتي هي أحسن. هون، لا منع تجوّل ولا حبس ولا مشاكل. هون أحسن.

وعاد صوت رشاد يصرخ: «لأ مشي أحسن. حارتنا يمّه، حارتنا. تعوّدناها وتعوّدنا أهلها وجيرانها وأولاد الحارة. حتى عبده تعوّدته. حتى أمّ تحسين تعوّدنا لسانها وأعمالها. نلعب مع مين؟ نحكي مع مين؟ نتظاهر مع مين؟ حتى أم تحسين لمّا شافت الجندي بضربني دعت عليه بكسر إيده.

أسكت يا ولد أسكت. أنت يا ولد ناوي تطيّر لي عقلي! هاتي يا سميّة المسطرة. وظلّ العشاء منصوبًا على الطبليّة وما مسّته يد.

وضاقت بها الأرض رغم الاتساع ورغم مئذنة القرية القريبة.

وعادت تستنجد بروح زهدي وتستحضر ذكراه وأنفاسه. الأرض أرضك يا زهدي وأرض أولادك. ارض عليّ يا زهدي الله يرضى عليك. ابنك رشاد جنّني يا زهدي. المقليعة ما تسقط من إيده وخايفة يعمل عملة تضيّعنا بلاش. رحمة الله عليك يا شاويش، وكوم الأولاد. يا الله، اللّي معاه الله ما بخاف من عبيده.

وانطلق الأذان من مئذنة القرية فسمعته وبسملت بخشوع. وحمدت الله واعتبرت الأذان فأل خير وإشارة من روح زهدي تمنحها الرضى. ومسحت وجهها واستعاد قلبها بعض الثقة وعادت تحلم. ستبني الدار هنا فوق هذه الصخور. ستزرع هنا أحواض البقدونس والنعنع. ستجلس على العتبة تأكل البرتقال وتتشمّس، وتتأمّل الخضرة وهي تنمو وتهشّ الدجاج عن الأحواض. لا كنافة ولا صحون ألماس ولا شبشب أحمر. لا بأس. أوّل المطاف غرفتان. ثمّ غرفتان، ثمّ فراندة زجاجيّة تطلّ على الشارع. ومن مكانها سترى السيّارات والناقلات والباصات تمرّ على الإسفلت من الشرق غربًا ومن الغرب شرقًا. ستقف على طرف الشارع تلوّح بيدها لسيّارة، وخلال دقائق تكون على حافّة الشارع بعد أن يطلق زمرة. يندفع الأولاد إليها يحملون عنها الأكياس الورقيّة المنتفخة. يصعدون الطريق الترابيّة وهي وراءهم كراعي غنم. يأكلون الموز والتفّاح على الطريق. يتكلّمون ويتطاير رذاذ التفّاح من أفواههم.

آه يا سعديّة، قرب الفرج، ما بعد الضيق إلاّ الفرج. لا أمّ تحسين ولا أمّ صابر ولا . . . «حارتنا يمّه. نروح هناك في الخلا بعيد عن الناس والحارة لا إلنا جيران ولا أصحاب؟ وإذا اليهود فرضوا منع التجوّل نتسلّى مع مين؟ بتتذكّري يمّه، وأنت تستقرضي الخبز من أمّ تحسين ومن غيرها؟ بتتذكّري يمّه كيف كنّا نقعد على الأسطح نغنّي والجنود تحتنا

والدربكة ترقع وإحنا ولا سائلين؟» يا ولد أسكت. حرام عليك. حرام عليكم. آه يا زهدي تركتني لمين؟

وظلّ العشاء منصوبًا على الطبليّة وما مسّته يد.

وهبطت على الصخرة وأسلمت نفسها للبكاء. ابك يا عين بدل الدمع جمرة. آه يا سعديّة. حتى الولد اللّي حملتيه ببطنك وربّيتيه بدموع العين انقلب ضدّك وصار مثل باقي الناس. يا ويلك يا سواد ليلك يا سعديّة. لا الرملة ترحم ولا الناس ترحم ولا الولد يرحم. ما ظلّ إلك في الدنيا حدّ يا سعديّة. تعالي يا سعديّة اقعدي جنبي. تعالي يا مسخّمة ما ظلّ إلك في الدنيا غيري.

وفي وحشتها ووحدتها تمنّت لو أنّ إنسانًا واحدًا، حتى ولو كانت خضرة إلى جانبها. آه يا خضرة. صحيح، مثل ما قلت، نهرب من الشقا ومطرح ما نهرب نلاقيه مستنّي. الله يقطعني ويقطع حظّي. ول على هالدنيا ول! حتى أولادنا ما يتعرّفوا علينا يا ربّ. حتى أنت يا خضرة مش ممكن تتعرّفي عليّي بعدما أنكرتك. خطيّة خضرة المسكينة، وربّك ما يرمي الناس بحجار. خطيّة خضرة اللّي فتحت لك قلبها وتذكّرتك وأنت نسيتيها يا سعديّة. لكنّ الناس يا خضرة، الناس!

ـ سعديّة.

أجفلت وارتجّ كيانها ورفعت رأسها بعنف ورأته فنشجت:

ـ أبو العزّ!

وعادت إلى دنياها القاتمة تراجع خطايا ارتكبتها. وجلس على التراب قريبًا من قدميها وقد ملأه الإحساس بالذنب. هذه هي سعديّة، وهذا هو همّ آخر. تلقى وعدك يا بو العزّ. أيّة جريمة اقترفناها يا

شعوب الأرض ويا غضب التاريخ! سعديّة يا أمّ حمادة، أين الضحكة؟ أين الحمرة الفاقعة كالشقيق؟ أين الشبشب العالي والفستان المزهر؟ أنت تهجرين الحارة؟ أنت الحارة يا سعديّة. آه يا صالح، وغدًا تبكي أراملنا في البرِّيَّة ولا يجدن إلاّ من كان مثلنا مهدور الدم. زهدي ارتحل والجمل اغترب، لكنّ العرب مازالت تقول، جمل مطرح جمل برك. أولاده دمّي وامرأته أمّي وتركته على أكتافي من هنا حتى القيامة. حتى أنت يا سعديّة تهجرين الحارة؟ أنت الحارة. أنت الرضى، أنت السما، أنت نور زقاقات العتمة. أنت أمّي، وفي عينيك أرى الدنيا نورًا وإيمانًا وصلاة. أنت الأمل، وتهجرين الحارة؟

نشجت:

ـ الناس ذبحوني يا أبو العزّ.

ـ كل الناس؟

ـ كل واحد اللَّهُمَّ نفسي. قرش الجيب وعلم الغيب. ومشيت مع الماشين ولمّيت قروشي بدموعي ودمي. وقلت اللَّهُمَّ سترك، لكن لا ربّك ستر ولا الناس سترت.

ورنّت في أذنيه كلمات أبو معروف «نسترها وإلاّ نخلّيها عورة؟» نسترها؟ وما نستر لنستر يا صالح. أهذه حدود رؤياك؟ أمّي يا كلّ دموع الأرض. أمّي يا محل الفلاّحين. تكتب شعرًا! أسامة علّمني الكثير. وعادل. تيمّموا، أمّا أنا، فغدًا أتوضّأ بالبترول. وقد تحترق! لا اشتعال بدون احتراق.

ـ أمّي يا سعديّة أنت، أنت الحارة، والحارة بدونك ما تنداس. الجنّة بدون الناس ما تنداس.

ـ الحارة اللّي ربّتني رمتني. سعديّة بنت بيّاع الطمريّة اللّي الناس ما شافت منه أو منها إلاّ الخير ما ظلّ إلها في الدنيا ولا حتى خضرة. الرملة قلنا قضاء الله، والقلّة قلنا نصيبنا من الدنيا، والعرق واللّقمة قلنا وعدنا والمكتوب. وقلت الستر يا ربّ وربّك ما ستر ولا الناس سترت. أنا آمنت لكن إيماني ما رحم. الناس كفرت، والكافر ما برحم يا أبو العزّ. وظلّيت كل ما أسمعهم يكفرون أستغفر لحدّ ما كفرت. أستغفرك يا ربّ. لكن ساعات بتكون المصيبة أكبر من بني آدم وبكفر. وصرت وحيدة لا إلي ظهر ولا أهل ولا ناصر. والحارة اللّي ربّتني رمتني. هالراس يا ما حمل تنكات ولمّا عطشت ما حد سقاني. حرقوا لي قلبي يا أبو العزّ.

«حزين أنت؟ أيعيب الثوري حزنه! لكن وعدك أن تتصبّر. وعدك وحدك، عبّاد الشمس وسيّدها، تجترح الآفاق وتعلّق الأجراس بعنق الربّ».

ـ الحارة بدونك ما تنداس يا سعديّة، أنت الحارة.

وازدادت نحيبًا:

ـ رضينا بالهمّ والهمّ ما رضي فينا. قلنا في القلب يسطح ولا بين الناس يفضح. وانفضحنا وانسطحنا وصارت سيرة سعديّة بين الناس أمّ الفضايح. تقول الحارة؟ غريبة وعطشانة في حارة سقيتها بدموعي ودم المرحوم. الراس يا ما حمل تنكات والرقبة يا ما انتفخت فيها عروق. وزهدي راح وفراخه كل ما طلع لواحد منها جناح يطير. وأنا قاعدة أباطح وأسحب اللّقمة بسكّين. والإيد اللي ما اعتادت السكّين تنصاب. وانصابت الإيد وانصاب القلب وانصابت العين وصابتني. حتى العين اللّي ملّيت منها التنكات وسقيت منها الحارة نشفت. وما

ظلّ غير الماكينة ورملة سعديّة ولسانات الناس. نسيوا اليهود وتذكّروني. يضربوا الجندي بحجر ويرموني بعشرة. بيشتغلوا بالماكينة وبغير الماكينة ويقولوا الله الله يا ماكينة سعديّة. لا الماكينة ماكينتي ولا القمصان قمصاني ولا الحارة حارتي. أنت قلتها وأنا بقول معك، الحارة بدون ناس ما تنداس. حتى اللّقمة مكتوب على جبينها اللعنة، إذا أكلناها ملعونين وإذا ما أكلناها جوعانين. وظلّ العشا منصوب على الطبليّة ما انذاق وحياة شبابك. آه يا سعديّة. يا ويلك يا سواد ليلك يا سعديّة.

«الصبر يا بو العزّ الصبر. البحر ساكن لا تخدشه نأمة. سياج يمتدّ ويصل الأفق. سماء باهتة لا غيث فيها. مرآة تعكس صمت الأفق اضرب في القاع يا غوّاص اضرب، حياة البحر في قاعه. حلم الخلاق والثائر. قال لكم الأرض تدور، دوار يرتدّ على الجهلة في أرض نضبت منها العين. وقال لكم الأرض تدور، قالوا، كفرًا. الأرض تدور، الوجه بارد والباطن شعلة، ولدتها الشمس وسكبتها، وعدك وحدك، تجترح الآفاق وتعلّق الأجراس بعنق الرّب».

ـ يا سعديّة يا أمّ حمادة...

ـ لا تقول حمادة ولا تقول رشاد. زهدي راح وفراخه كل ما طلع منها جناح يطير. طول ما الولد بحضني يتنطّح ويقول «حارتنا يمّه». ولمّا يطلع له جناح يفرّ وينساني، وتأخذه منّي مرة غريبة وبلاد غريبة. وأنا أظلّ أربّي الزغاليل وأطلق الجناحات. وتمرّ السنين وألاقي حالي على العكّازة في حارة غريبة. الدنيا قطعتني يا أبو العزّ، وما إلي غير هالقلب اللّي لابس أسود، حداد على اللّي مات وما نشف دمه، وحداد على الغايب وما رجع، وحداد على حمادة اللّي راح وعلى رشاد اللّي

بكرة يروح. آه يا سعديّة، يا ويلك يا سواد ليلك يا سعديّة.

شدّ ذيل ثوبها:

ـ الصبر يا سعديّة الصبر، صبركِ وإيمانك يا سعديّة!

صرخت لأعلى:

ـ رحمتك يا ربّ.

وأصاخت السمع علّها تسمع الأذان وفأل الخير ورضى زهدي، لكنّ العالم مغرق في الصمت ولا شيء حولها إلاّ البرِّيَّة. وتمايل رأسها بحسرة وقالت:

ـ حتى المؤذّن ما عاد يؤذّن. مع أذان المغرب كان زهدي يهلّ ويخلي غياب الشمس نهار. نقعد على السطح نُفرش الأرض بالطراريح ونساهر النجمة. وكنت أشوف اللّيل نجوم وقمر طول ما زهدي فوق رأسي وأولادي جنبي وفي بطني وعلى الطراريح. وراح زهدي وتغرّب حمادة وبقيت مكسورة الجناح في حارة ما ترحم حتى الأيتام. في البداية كنت أقول يا ناس عيب، تذكّروا زهدي، دمه في التراب بعده ما نشف! وكانوا يتذكّروا ويترحّموا ويبكوا على المرحوم. مرّة ومرّتين وثلاثة وعشرة، وبعدين صار زهدي اسم وبسّ. الناس كفرت يا أبو العزّ، والكافر ما يرحم ولا نفسه. وقالوا سعديّة وماكينة سعديّة، وضاقت الدنيا وضاقت الحارة.

من زمان أقعد في الشبّاك ألاقي الشبّاك نور وفرج أتصبّح وأتمسّا بوجوه مبتسمة وكلمات حلوة تردّ الروح. وكنت أشوف عتمة الحارة فضا ورطوبتها دفا. كنت أستنّى المغرب لمّا المؤذّن يقول الله أكبر، ويهلّ زهدي ويخلّي ليلي نهار. واليوم صار الأذان ما يجيب إلاّ غياب

الشمس واللّيل القلقان وذكرى اللّي رايح واللّي جاي. والأذان صار بدل ما يجيب زهدي يجيب العتمة، والشبّاك اللّي كان ينفتح على الناس صار غمّ وسواد. ويقول الولد، حارتنا يمّه، بكره جناحاته تريّش ويطير وما يعود يقول حارتنا ولا يقول يمّه. قسمتك يا سعديّة. قسمتنا نعرق والماكينة تتزيّت بعرقنا، وآخر النهار يظلّ العشا على الطبليّة منصوب ما تمسّه إيد ولا يبلعه زور.

وبعدك يا أبو العزّ تقول الحارة؟ وأيّ حارة؟ فين الشمس فين الهوا فين راحة البال وهنا اللّقمة؟ أنا بدّي أطير مع الطايرين وأقعد في بيت ما تغيب عنه الشمس. زهقت العتمة زهقت الرطوبة زهقت الأذان اللّي ما يذكّرني إلاّ بفراق الحبايب. لا الحارة تسمع ولا الأذان واصل لربّك. أستغفر الله العظيم. الكفر داء. تعرف خضرة يا أبو العزّ، خضرة كانت تقول بين الناس يفضح ولا بالقلب يسطح، وانفضحنا وانسطحنا وصارت سيرة سعديّة مثل خضرة.

«وماذا يا صالح؟ أنقذني من هذا الموقف. هيّا أنقذني وأنقذها. علّمني كيف يتمّ الوضوء في حارة انقطعت منها العين. لكنّك تتيمّم بالشمس. وأنت تقبع في القاووش؟ انتظر الفورة وافر. وحدك؟ بل بالمجموعة الشمسيّة. انسكب اللّحم على التربة ومازلنا نصيح، أينك يا شحادة، يا شحادة».

ونزل الطريق الترابيّة وحده... وحدك يا بو العزّ؟ بل إنّي أبحث يا شحادة. في أيّ مكان؟ في أيّة حارة أو مصنع؟ في أيّة قهوة يا شحادة؟ وأنا مازلت أبحث.

ودخل المقهى يبحث بين ضباب السجائر. شيش بيش. قهوة على الريحة لأبو العزّ. حاضر. جاي. طلباتك عمّي. تؤمر يا أدون.

وتأمّل شحادة بين الرؤوس المنكبّة على الأراجيل وطاولات الزهر. دخان، ويوم من الأيّام الغائمة كأيّام الخريف. الباب مسدود إلاّ فتحة. والزبائن مكدّسون وكراسي الأرصفة مهجورة. أصابه الاختناق فانثنى يلتمس التنفّس. ومشى في الأزقّة المعتمة يتفجّر غضبًا.

الصبر يا بو العزّ الصبر. وعدك يا عبّاد الشمس، تصعد الجلجلة وتعلّق الأجراس بعنق الرّبّ. لا الأذان واصل ولا الله أكبر. أجراس تعقبها زلازل. اضرب معول. اضرب لا أهل ولا صاحب! وحدك يا عبّاد الشمس، فأر يتعملق ويخيّم فوق الغيمة. تصطاد النجم بسنّارة. تحترق دخانًا ولهيبًا. تنطفئ شموع. تتكهرب أوصال الدنيا، تخفت أضواء، تعلو مشاعل. يذوب الشمع على الشمعة. ترقد مسفوحًا مبذولاً يا غضب الأرض. اضرب معول. اضرب واهرب. وحدك يا بو العزّ صاح. تنسحب الآلة من كلية ودم فاسد. الدّم الساذج يتبخّر ودم الشمس قطرات شموع. تنصهر، تذوب، لكن ترفض أن تتبخّر.

اشتدّي أزمة تنفرجي، وعدك وحدك، عبّاد الشمس وسيّدها. اضرب في القاع يا ابن الشمس اضرب، حياة البحر في قاعه. اضرب معول، ينبثق حريق، معادن مصهورة وبراكين، اضرب واهرب.

وانطلقت قذيفة. وانسكب اللّحم على الأرض، وهدرت مكبّرات الصوت تعلن منع التجوّل.

(٣١)

في الطريق إلى القدس نحو المجلّة. والراديو وقارئة الفنجان، تضرب في اللّيل وفي الغيم. وهذه أيّة غيمة، أيّة ليلة؟

قالت يا ولدي لا تحزن. سئمت العدّ والتوقيت. أمّا الدوّامة فتسحب. دوّامة ضخمة كقمع كبير، تبدأ بالدنيا، تنزل بالضفّة وإسرائيل. أذكر يا صالح أنّي مررت، بقرون أولى وعصور وسطى ورسوم في كتاب كبير. وأذكر ما أسلفت الذكر عن دانتي وجحيم الأرض. ضحكنا ساعتها حتى دخنا. لكنّي الآن لا أضحك. مازلت أحبّ الضحك كثيرًا، ومازلت أؤمن يا صالح أنّ النملة تحبل بالفيل. لكنّي أصبحت أدرك ما يصنعه الحبّ اليائس بقلب نبيل. لا لا، لست بيائس، لكنّي بتّ أشكّ، أنّي سأعيش بروح الطفل ووحي الطفل لأحتضن الطفل.

أبو الفوارس ذكّرني بشباب مازلت أعيشه، ركض ولهاث ومناشير، مرتينه وفشك أنتيكه، وعروبة تحقّق ما يعجز عنه الأغراب. أعرف أفهم، عقلي أبدًا لم يتفاجأ. أعرفهم ساسات الزفّة، أعرفهم أبطال الشطرنج وفتّ الورق. لكنّ القلب المتمزّق أدمته مفاجأة الموسم. قاموا لعبوا فتّوا شربوا، تحلّقوا بطاولة قمار، وقم لنلعب باصرة من القاهرة حتى الناصرة. عقلي أبدًا لم يفاجأ، لكن لا تسأل يا صاحب، عمّا يفعله الحبّ اليائس بقلب نبيل. فهذه روحي عالكفّ. أترى قلبي؟

ياقوتة نار. وربما أنت كذلك، لكنّي لا أفهم أبدًا، مداد الدم بقلم رصاص.

ريح في الداخل والخارج. ينوء الوعد، هزيم الرعد، تمشي على حبل مشدود ما بين الماء وبين النار. يمينك تمتدّ الغابات، وحوش، أشداق مفغورة. آلات تعوي كالغيلان، بضائع أميركا واليابان. لا لا أمزح، لكنّي حين يفيض الكيل، أنفجر بقنبلة وبضحك. أضحك من مقلب شربته قنافذ تايوان. أو من خازوق أميركي في شاه إيران. ما بال وزيرهم الناصح لا يتعلّم. ظلموا الأرمن، لو كل الأسماء برجلين لهرب الأردن من عمان. اضحك يا خال، اضحك، قهقه. ثم اقرأ، اقرأ فاتحة وتشهّد عن روح جموع المحرومين.

ـ أهلاً خضرون.

ـ أبو العزّ، سمعت عنك الكثير.

ـ وماذا سمعت؟

فكّر خضرون وتأمّل:

ـ ندخل في الجدّ؟

ـ لا لا أرجوك، فلنبق حشاشتنا للقاعة. ها، وغير ذلك ماذا سمعت؟

ـ سمعت؟ أنّا سنغنّي للطرشان.

ـ هه هه، حلوة. تحبّ النكت؟

ـ جرّبني.

وسمعا طرقة قويّة تنبعث من قاعة الاجتماعات أعقبتها أصوات متشابكة وهجوم كاسح.

هزّ أبو العزّ رأسه وهمس:

ـ وهذه أوّل نكتة.

ـ بايخة.

ـ يهودي مصري. يا دي الوكسة، الناس بوعد أنت باثنين.

وانفتح الباب بضربة قويّة فجائيّة وارتدّ على مصراعيه ثم انغلق. حملق أحدهما في عيني الآخر وتساءل خضرون بقلق:

ـ ما هذا؟

هزّ أبو العزّ رأسه وابتسم:

ـ على من يعلّق الجرس.

ودخّنا سيجارتين أخريين، وازدادت أقدامهما اهتزازًا. وقال خضرون بحرج:

ـ وهل نحن في عيادة ننتظر الدور؟

ـ وأين الطبيب؟ هنا أم هناك؟ هذا ما أتساءل عنه.

وراء الباب المغلق صاح المدير:

ـ يا أساتذة، يا سادة، يا محترمين!

لكن أحدًا لم يلق إليه بالاً، وكان سالم يهزّ قبضته ويتوعّد:

ـ ديكتاتوريّة، أنت تتصرّف كحاكم مطلق. من أذن لك بإحضاره؟ أتظنّنا من فصيلة الطراطير؟ لسنا في الدول العربيّة يا أستاذ، آن الأوان لأن تعرف. سقطت عنكم مقاليد الوجاهة يا آل الكرمي، لا آل الكرمي، ولا آل النظمي ولا آل الخرا.

وارتفعت الأصوات من هنا وهناك: عيب عليك، احفظ لسانك يا سالم. اسكت يا أحمق. اسكت. برجوازي عفن، مهيّج أرعن: سكوت يا سادة، يا سادة يا محترمين. سكوت.

وطرق المدير المنفضة بعنف، فانكسرت لأوّل مرّة وطار الرذاذ. وخدشت وجوه وبعض الأيدي. وارتفع الضغط في رأس الأستاذ بديع فأصيب بنوبة لجمت الجميع. ركضت رفيف تحمل إليه كوب الماء فحشرج «هوا، هوا». وأمسك كل واحد بدفتره وبدأ ينشّ ويهوّي، فتطايرت الأوراق والمشاريع. تحت الطاولة، وتحت الكراسي، على الرفّ ومن فتحات النوافذ. وانشغلوا بلمّ الأوراق عن النوبة، ثم ساد الهدوء، فاغتنم الأستاذ بديع الفرصة وقال بصوت باك:

ـ ما يحزنني هو أن يسمعنا الطرف الآخر، لو لم يكن وراء الباب!

وقف سالم بحماس وقال بفتوّة وهو يتلفّت حواليه:

ـ أقول له مع السلامة؟

شدّه المدير من ذراعه وهمس:

ـ اقعد يا سالم اقعد، أنت ابن ناس وتعرف الأصول.

فتهاوى سالم على كرسيه محبطًا ودمدم «أقول لهم لا آل الكرمي ولا آل النظمي ولا آل الخرا فيقول لي أنت ابن ناس وتعرف الأصول! يا لوعتي يا شقاي».

قال أبو العزّ لخضرون:

ـ لكنّك يهودي مصري.

ـ أمّي مصريّة وأبي ألماني وأنا صابرا.

ـ ومع من تصنّف نفسك، مع الاشكناز، أم السفارديم؟

ـ لا أصنّف، أقلعت عن هذه العادة.

ـ أمّا إسرائيل فلم تقلع.

ـ لا لم تقلع.

ـ ولا نحن، كفّك.

قال المدير وقد استعاد نظام الهيئة وهيئة النظام:

ـ الآن يا سادة، أرجوكم، دعوا عادل يفسّر لنا هذا الموقف.

صاح سالم:

ـ مفهومة بدون تفسير. ألم تسمع الأبواب الخلفيّة؟

رفع المدير يده وتأفّف:

ـ وآخرتها معك يا سالم؟ ألا تمنحنا فرصة التفاهم بهدوء ولو مرّة! تفضّل يا عادل فسّر. موعدنا اليوم كان مع أبو العزّ وليس مع أيّ إنسان آخر، وهذه أوّل هفوة، أن تبدّل موعدًا بآخر. وثاني هفوة أنّك لم تسألنا رأينا في هذا اللقاء وتصرّفت بفرديّة مطلقة، ونحن متّفقون على أن نأخذ برأي الأغلبيّة بشأن أيّ مشروع. حتى أنا أعرضت عن قطع التصريح أخذًا برأي الأغلبيّة. وثالث هفوة، أنّك تحاول أن تفرض علينا سياسة الأمر الواقع وترغمنا على تبنّي مشروع كنّا قد رفضناه بتصويت الأغلبيّة. فما هذه السياسة التي تتّبعها وكيف تفسّرها؟

دمدم سالم:

ـ مفهومة بدون تفسير.

احتدّ عادل لكنّه ضبط انفعاله وسأل بصوت جافّ:

ـ وما هي المفهومة يا سالم؟

ـ السياسة طبعًا.

ـ أيّة سياسة؟

ـ الجلا جلا.

وقامت الطوشة في الحال. وأعادوا الأسطوانة المملّة، واتفقوا على ألاّ يتّفقوا.

قال خضرون:

ـ الأغلبيّة الساحقة من العاهرات واللصوص في إسرائيل كانت ومازالت من يهود الشرق. الدعاية الرسميّة وغير الرسميّة كانت تقول ليهود الشرق «أنتم قذرون جاهلون ولا تفهمون أيّ شيء. ثقافتكم الشرقيّة هذه يجب التخلّص منها فهي مخجلة للغاية». ابن ميمون نفسه كان محترمًا في الأزهر أكثر ممّا هو محترم في إسرائيل. أعتقد أنّ هذا يفسّر تصنيفي لنفسي في ذاك الوقت.

ـ مفهوم، مفهوم، شيء طريف للغاية، ومع أنّي قرأت الكثير عن التركيبة الاجتماعيّة العجيبة في إسرائيل، إلاّ أنّ سماع هذه التقييمات من فم إنسان خاضها يظلّ أقرب إلى القلب والعقل، أكمل.

ـ الدعاية الرسميّة وغير الرسميّة كانت تقول ليهودي الشرق «صحيح أنّك في أسفل السلّم، إلاّ أنّ هناك من هو أسفل منك وأحطّ منك، وهو العربي». والنتيجة، أنّ يهود الشرق كانوا ومازالوا أكثر عنصريّة وتعصّبًا من الأوروبيين أنفسهم. وهذا يفسّر اعتماد الليكود اعتمادًا كلّيًّا على أصوات يهود الشرق. وأوّل مبادرة سياسيّة قام بها الفهود السود كانت بانضمامهم لليكود.

ابتسم أبو العزّ وهو يذكر كيف كانت تهمة شحادة شراء التلفزيون وتدخين الغليون.

قال عادل بصوت منضبط:

ـ تفسير ما فعلت يتلخّص في عدّة نقاط. النقطة الأولى أنّكم صوّتم على رفض مشروع الملحق وليس على مقابلة خضرون. وللتذكير، أحبّ أن ألفت نظركم إلى أمر يهمّكم ويعنيكم وهو أنّ خضرون إنسان تقدّمي يؤمن بعدالة قضيّتنا ويحاول هو ورفاقه تحقيق هدف إعلامي مناهض للأجهزة السائدة. والنقطة الثانية، ودعوني أكون صريحًا هنا، أنا أعرف أنّ كل واحد من أفراد هذه الهيئة قد قابل شخصيّات إسرائيليّة من هذا الاتجاه أو غيره، فلماذا ترفضون مقابلة خضرون مجتمعين؟

قال سالم:

ـ يتهرّب من السؤال بطرح سؤال آخر، إلعب غيرها.

قال المدير بصبر:

ـ دعه يكمل يا سالم. أينعم، وماذا بعد؟

ـ نقطة ثالثة تتعلّق برأس المال.

ارتفع اللّغط، وأخذ كل منهم بدوره يذكر عادل أنّه هو الذي اقترح بيع المزرعة، وأنّه من أجل ذلك حضر أبو العزّ إلى هذا المكان بالذات، وأنّ المدير نفسه ألغى رحلته عبر الجسر بانتظار ما سيأتي به أبو العزّ من حلول. واليوم، وقد قاربت اللّقمة الفمّ واجتمعوا للبتّ في أمر المزرعة وأمر المجلّة، يطلع عليهم عادل بمفاجأة جديدة!

قال عادل:

ـ ومع أنّي لم أر أبو العزّ منذ ذلك اليوم، إلاّ أنّ أخبار المزرعة لا

تبشّر بالخير. أبو الفوارس أخبرني بالأمس أنّ الأمر قد تطوّر أكثر، فبعد مصادرة الزاوية الشرقيّة صادروا العين أيضًا. وهذا يعني أنّ مشاكل الفلاّحين ستتضاعف، فما فائدة مزرعة بلا ماء؟

قال المدير مفكّرًا:

ـ هذه مصيبة جديدة، كان الله في عونكم يا آل الكرمي. معنى هذا يا عادل أنّك لن تحصل على الأجور من الفلاّحين إلاّ بشقّ النفس. هل أنت واثق من قانونيّة العقود بينك وبينهم؟

ـ أيّة عقود يا أستاذ عطا الله؟ هؤلاء الفلاّحون كانوا يعملون في الأرض منذ البداية، ثم هجروها وتوجّهوا للصناعة الإسرائيليّة وعادوا إليها حين بدأت أعمال الترميج فقسمتها قطعًا وزوايا وضمنتها لهم. وكان الاتفاق أن آخذ نسبة من المحاصيل تتناسب ومقدرة كل واحد منهم. لا توجد هناك عقود قانونيّة ولا غير قانونيّة.

تبادل المدير والأستاذ بديع النظرات الممتعضة، وشكر الأستاذ عطا الله ربّه ألف مرّة لاتخاذه القرار الصائب بعدم إرسال ابنة أخته حكيمة للدراسة في روسيا. وقال المدير بعد تفكير:

ـ إذن فبيع المزرعة أصبح مسألة ضروريّة لا كماليّة. مالكم ومال هذه المزرعة المتعبة، بيعوها واستريحوا منها. وأعتقد أنّ أبو العزّ سيكون قد نفّذ هذه الخطوة أثناء زيارته للمزرعة واطّلاعه على أحوالها.

هزّ عادل رأسه نفيًا:

ـ لا، لا أعتقد، أبو الفوارس أطلعني على الأمر، وأعتقد أنّ أبو العزّ يفكّر في الاتجاه نفسه الذي أفكّر فيه.

قال سالم بشكّ:

ـ ولكن أين هو أبو العزّ؟ لماذا لم يحضر في الموعد؟

أشار عادل نحو الباب:

ـ أبو العزّ ينتظر في الخارج منذ أكثر من نصف ساعة.

هتف المدير:

ـ وتركته وحده يا عادل؟ عيب يا ابني.

ـ لا، ليس وحده، هو مع خضرون، الاثنان بالانتظار.

قهقه سالم:

ـ بلا ثلاثة، ثالثة الأثافي معهما.. ها ها ها.

قال الأستاذ بديع بحيرة:

ـ ولكن يا عادل يا ابني أنا لا أفهم. كيف سوّلت لك نفسك الاضطلاع بمهمّة كهذه؟ ألم نتّفق على أنّ الملحق سيجرّ علينا مصائب لا أوّل لها ولا آخر؟ ألم نواجه السؤال معًا؟ السؤال الذي يتعلّق بأيّ اللّغتين نبدأ، بالعربيّة أو العبريّة؟

نفخ سالم:

ـ ثاني!

أصرّ الأستاذ بديع على موقفه:

ـ ثان وثالث، أنا أفهمتكم منذ البداية أنّي غير معني بالتورّط في مغامرات قد تقودنا إلى التهلكة، والأستاذ عطا الله أفهمكم أنّه لن يجازف بسمعته ومنجزاته في سبيل مشروع غير مأمون العواقب.

وافقه الأستاذ عطا الله:

ـ فعلاً، هذا ما قلت، وقد صوّتنا على ذلك بالأغلبيّة. أنا والأستاذ بديع وسالم ورفيف و. . .

تدخّلت رفيف:

ـ لا، أنا لم أصوّت ضدّ المشروع، امتنعت عن التصويت فقط.

وابتسمت بخجل وهي تذكر موقفها السابق، إلاّ أنّها عادت وتذكّرت أنّ حركة الالتفاف التي يقوم بها عادل الآن ستأتي بنتائج سلبيّة على مشروعها، فمسألة رأس المال هي المعضلة، وإذا حلّت المعضلة الآن، فحلّتي حتى تأتي الأحداث بظرف آخر يحتاجون فيه إليها، وعند ذاك، فلا نصف المجلّة، ولا حتى الزاوية. وانتبهت للطريقة التي باتت تفكّر بها: المقايضة والمساومة يا رفيف؟ ولم لا؟ كلّهم يفعلون هذا، ومن لا يستخدم السلاح نفسه يهزم. أنا لست المسيح ولن أهزم.

قال سالم:

ـ أقولها وأمري إلى الله. كل هذه الدورات واللفتات ما هي إلاّ تمثيليّة مرتّبة بعناية.

هزّ المدير رأسه تلقائيّة ثم عاد وضبط نفسه وهو يتلفّت حواليه. وواصل سالم:

ـ أنا لا أعتقد أنّ آل الكرمي غير ميّالين إلى بيع المزرعة لأنّ في الإقطاعيّة وجاهة أكثر ممّا في البرجوازيّة.

وقامت الطوشة من البداية.

قال خضرون لأبو العزّ:

ـ ثمّ اكتشفنا أنّ الليكود يمثّل ذوي المصالح وأنّه غير معني بتغيير الأوضاع الطبقيّة، وبدأت البوصلة تتجه نحو اليسار. وقبل حرب أكتوبر كنّا قد صمّمنا على عدم خوض الحرب. وجّهنا كتابًا مفتوحًا إلى جولدا مائير قلنا فيه: الوطن معناه أن يكون لنا بيت وعمل وضمان اجتماعي، ونحن محرومون من كل شيء، لا بيوت ولا رزق ولا أمان، ولهذا فنحن غير ملزمين بالدفاع عن وطن ليس لنا. وهكذا امتنعنا عن تأدية الخدمة العسكريّة فقاموا بتسديد ضربة، رشوا بعضنا واضطهدوا بعضنا ولاحقوا البعض الآخر. تظاهرنا فلحقونا بالعصي ولاحقونا بالاعتقالات. فررنا من القدس واختبأنا لدى عرب تقدّميين في أريحا ونابلس.

سأل أبو العزّ بفضول:

ـ وأنت؟

ـ اختبأت في نابلس، ألم يخبرك؟

فتح أذنيه جيّدًا ولم يجب. «أيكون عادل؟ لا لا، عادل أجبن من أن يقوم بذلك». ورمى بسؤال حذر كي يتأكّد:

ـ وأنت، هل تقوم بمثل هذه المجازفة؟

ـ أيّة مجازفة؟

ـ تخبّئ عربيًّا في بيتك؟

ابتسم خضرون:

ـ مازلت تشكّ؟

ـ لا تلمني، كنت في السجن.

ـ أعرف، ولهذا ملأت فراغ سريرك.

وحملق أحدهما في عيني الآخر، ثمّ انطلقا بالضحك. وهبّ أبو العزّ وقال بحماس:

ـ الآن، افتح الباب وندخل.

ـ ألا ننتظر الإذن؟

ـ تعال يا رجل، إذا تركناهم لنقاشاتهم نظلّ على المنوال نفسه، هم في الداخل ونحن في الخارج. تعال.

ودفع الباب، فجمدت الوجوه وتسمّرت الكلمات على الشفاه، وكفّوا عن الكلام وعن التنفّس.

(٣٢)

وقفا في الباب فساد الصمت، وبدأ كل فريق يتفحّص الآخر. أمام الباب اثنان، أحدهما في العشرينات والآخر في الثلاثينات. الأوّل أسمر والثاني ممزوج القسمات. الأول بالكاكي والثاني بالجينز، وكلاهما مفتوح العينين ويترقّب.

جوّ معتم، ستائر المخمل العتيق مسدلة على نافذة الصدر، وطاولة الاجتماعات داكنة تحت نجفة مغبرّة. في القمّة يتربّع المدير، يدخّن وينفض رماد سيجارته في قطعة ورق مدعوكة بعد أن زالت منفضته. وهذا عادل وذاك سالم والأستاذ بديع ورفيف وحافظ ومحرّر زاوية الرياضة.

قال المدير بلطف:

ـ أجلسهما يا عادل.

هبّ سالم واقفًا فعاجله أبو العزّ:

ـ اجلس يا سالم المختار، لديّ كلام يهمّك.

دمدم سالم بلهجة حردة:

ـ أنا لا أجلس في مكان واحد مع...

قاطعه أبو العزّ بحدّة:

ـ قديمة. اجلس، اسمع ما سأقول ثم انسحب إن شئت.

وظلّ سالم واقفًا فشدّه المدير من ذراعه وأجلسه دون عسر يذكر. ونفض المدير سيجارته في الورقة المدعوكة وقلبه يدقّ ببطء... انجلى الأمر وانكشف. أهي مؤامرة حقًّا؟ والله إنّي ما عدت أعرف رأسي من رجليّ. أهذه آخرتها يا عطا الله؟ يقال عنك ما يقولونه عن السادات؟ وبعد هذا العمر الطويل وكل هذا الصيام تفطر؟ لو أنّي ما أصغيت لعادل النمس هذا من البداية وقطعت التصريح لما وقعنا هذه الوقعة المشؤومة. ماذا سيقال في عمان؟ ماذا سيقال في بيروت؟ ماذا سيقال في الجامعة العربيّة؟ حتى القاهرة ستقول الكثير. وبعد كل هذا الصيام تفطر والسادات على صحن واحد؟ ويقال قرأنا على شيخ واحد؟ لا حول ولا قوّة إلاّ بالله. أين أنت يا أستاذ بديع!

وكان الأستاذ بديع يعدّ العدّة لنصب فخّ محكم لذاك الغريب بأن يسأله السؤال المحرج المعهود: ماذا تعتقد يا... يا فلان، بأيّ اللّغتين نبدأ؟ فإذا قال بالعبريّة أقول وقعت، وإذا قال بالعربيّة أقول له أيضًا وقعت. وعلى الباغي تدور الدوائر. القول الكريم يقول هذا؟ وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدّن في الأرض مرّتين ولتعلن علوًّا كبيرًا، فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادًا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدًا مفعولاً. أمّا الوعد الثاني... فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أوّل مرّة وليتبرّوا ما علوا تتبيرًا.

ولنر يا فلان كيف يجيء وعد آخرتك، بأيّ اللغتين نبدأ؟ قل، بأيّ اللّغتين؟

سحب أبو العزّ كرسيًّا في رأس الطاولة السفلى وشدّ خضرون من

ذراعه فأجلسه إلى جانبه. وساد الصمت ثانية وكلّ يحملق في وجه الآخر. والتقت عينا أبو العزّ بعيني أخيه فابتسم الأصغر وهو يرى الوجوم في وجه الأكبر... «بماذا تفكّر. الآن أستطيع فهمك أكثر. خائف؟ لا، ولكنّك حذر. لم تقل لي أين خبّأت خضرون ومتى!».

تنحنح المدير وقال بتأنٍّ:

ـ هذا الموقف لم نتوقّعه، والمسؤول عنه كما يعرف الجميع، عادل. فلتشهد الهيئة وليشهد الله ولتشهد الصحافة العربيّة كلّها أنّي بريء من هذا الـ...

ولم يعرف كيف يكمل جملته، فعاد يردّد وهو يطفئ سيجارته في الورقة المدعوكة:

ـ إنّي بريء من هذا.

وابتسم أبو العزّ وفكّر أنّ المدير قد نسي أن يطلب طستًا يغسل فيه يديه. وقام عن كرسيه واقترب من أخيه وهو يمدّ يده نحو سجائره وهمس:

ـ لم تقل لي كيف استطعت تخبئته دون علم من أمّي ونوّار!

التفت عادل نحو وجه أخيه، وكان لا يفصله عنه سوى سنتيمترات معدودات. وظلّت النظرة الهادئة الباردة تسكن عينيه، وهمس ببطء دون أن يرمش:

ـ ولم تقل لي كيف خبّأت ذخيرة أسامة.

هزّ أبو العزّ رأسه ولم يعلّق.

قال سالم بجفاف:

ـ قل ما لديك يا أبو العزّ ودعنا ننتهي ونخلص.

تأمّل أبو العزّ العيون المسلّطة عليه بشكل دائري، ثم قال:

ـ نبدأ بالتعريف أوّلاً. هذا خضرون كما تعرفون، ولا حاجة بي لتعريفكم به وبخلفيّته، أظنّكم تعرفونها.

علّق سالم بالجفاف نفسه:

ـ نعرفها جدًّا، إسرائيلي يقف على أرض عربيّة ويسكن بيتًا عربيًّا ويستظلّ بعلم دولة عنصريّة استيطانيّة توسّعيّة، وحين تقوم الحرب يحمل أسلحة أميركيّة يحصد بها رقابنا، هذا هو خضرون والسلام.

التفت خضرون نحو أبو العزّ وقد أخذته المفاجأة، فهمس الأخير:

ـ دعه لي.

تدخّل عادل وقال بلهجة تقريريّة:

ـ خضرون كان أحد الذين امتنعوا عن خوض حرب أكتوبر.

قال سالم بسخرية:

ـ تشرّفنا.

ردّد عادل وهو يحملق في عيني سالم:

ـ خضرون إنسان تقدّمي يؤمن بعدالة قضيّتنا.

اتّسعت عينا سالم وقال بانفعال:

ـ ولماذا إذن لا يحمل ملابسه ويرحل عن أرض ليست له إن كان تقدّميًّا حقًّا؟

قال خضرون محتجًّا:

ـ لأنّي ولدت هنا ولي مثل حقّك في العيش على هذه الأرض.

صاح سالم:

ـ أيّ حقّ هذا الذي تتحدّث عنه؟ إسرائيلي ويتحدّث عن الحقّ! يا سادة، إنّي أحذّركم من هذه الألاعيب. هذا أسلوب جديد من أساليب التسلّل إلى صفوفنا وزحزحتنا عن موقفنا الثابت في رفض المخطّطات الإمبرياليّة والحلول الانهزاميّة. منذ قيام السادات بزيارته المشؤومة للقدس والإسرائيليّون لا ينفكّون عن محاولة إيجاد عملاء بيننا ينفّذون مخطّطات واشنطن. كلّ الأساليب استخدموها، الرشوة والتهديد والضغط وتصعيد الضرائب والاعتقالات وكل ما تعرفونه. وهذه محاولة جديدة منهم لإيجاد ثغرة للدخول منها. لقد حذّرتكم وانتهيت. سلام عليكم.

وهبّ واقفًا، فصاح أبو العزّ:

ـ اجلس يا سالم، اجلس، أنا لم أقل ما لديّ. اسمع ما سأقوله ثم انصرف أو تصرّف.

ـ إذن قل بسرعة.

ـ حسنًا، ما جئت من أجله يتعلّق برأسمال المجلّة والمزرعة. بالنسبة للمزرعة...

قاطعه سالم بفراغ صبر:

ـ نعرف نعرف، لن تبيعوها يا آل الكرمي، فهمنا.

ـ لا لم تفهم. المزرعة أو ما تبقّى منها قد يصادر في أيّة لحظة.

تدخّل المدير:

ـ إذن بيعوا المتبقّي منها قبل مصادرتها.

ـ ماذا تقصد؟

ـ ألم يقل عادل في البداية إنّه سيبيعها للفلاّحين؟

قال عادل بجمود:

ـ تقصد أن نبيع الفلاّحين أرضًا محكومًا عليها بالإعدام؟ تقصد أن نغشّهم؟

تراجع المدير:

ـ لا لا. أنا لم أقصد هذا، ولكنّي أذكر أنّك قلت شيئًا حول أحقِّيَّة الفلاّحين في امتلاك الأرض، ألم تقل هذا؟

تبادل أبو العزّ وعادل النظر، فسارع أبو العزّ إلى القول:

ـ لن نتوه في مسالك جانبيّة ولهذا سأقول لكم ما لديّ باختصار شديد وأمشي، فلديَّ مهام أهمّ بكثير من مهمّة فتح جوار لا ينتهي ولن ينتهي حتى قيام الدولة أو قيام الساعة.

ما أستنتجه من كل ما مررت به وما وصلت إليه، أنّه لم يعد هناك أيّ مجال لإنقاذ المجلّة إلاّ بسلوك أحد السبيلين. السبيل الأوّل يتلخّص في أن يقوم الأستاذ عطا الله من فوره ويقطع تصريحًا يعبر به الجسر في صباح الغد. وهذا السبيل لن يكون له أكثر من مفعول المهدّئ، أي أنّه علاج سطحي لا يستثير مناعة الجسم ولا يعمل على إفراز مضادّات حيويّة من الداخل.

تبادل المدير والأستاذ بديع النظر ولم يعلّقا. وواصل أبو العزّ:

ـ والسبيل الثاني وهو الأصعب، إلاّ أنّه الأكثر عمقًا والأضمن

نتيجة، هذا السبيل يتفرّع في شقّين متوازيين. الشقّ الأوّل يقودنا إلى مشروع عادل و...

وقرع جرس التلفون في غرفة المدير، فتوقّفوا عن الكلام والإنصات لحظة، ثم ارتفع اللغط. وصاحت رفيف بصوت حادّ:

ـ يا أبو العزّ. ليس هذا ما اتفقنا عليه.

رفع يده مهدّئًا:

ـ لا تتسرّعي، انصتي واسمعي البقيّة.

وقفت وهي تحمل أوراقها ولوّحت بمشروعها في وجهه:

ـ عمليّة التفاف جديدة، ما عدت أؤمن، وهذا؟ ماذا سيحلّ بهذا؟ تريد أن تسلّط الأضواء على مشروع عادل فتتبنّاه المجلّة ولا يظلّ فيها متّسع لمشروعي. لن يكون هذ أبدًا. لن يكون ولو ذهبت المجلّة إلى الجحيم.

وظلّ جرس التلفون يقرع ولا أحد يتزحزح من مكانه ليردّ عليه. وقال عادل بحدّة:

ـ لكن مشروعك لن ينفّذ دون إنقاذ المجلّة، متى تفهمين!

صاحت في وجهه:

ـ هذه مؤامرة. رجعنا لحكاية الضوء الأحمر يا عادل؟ مؤامرة.

وصاح سالم من بعدها مردّدًا:

ـ مؤامرة. آل الكرمي يتآمرون والتاريخ يعيد نفسه. مؤامرة. وقف المدير ورفع يديه الاثنتين وصوته:

ـ يا سادة، يا محترمين، يا شباب، يا أبناء...

ولم يجبه أو يستمع إليه أحد، وظلّ جرس التلفون يقرع فهتف المدير طالبًا النجدة:

ـ التلفون، يا سالم، يا حافظ، يا عادل، الجرس، يا رفيف الجرس، الجرس.

ولم يصغ إليه أحد، وظلّوا يتبادلون التهم والنعوت والألقاب، فغادر المدير الغرفة ليردّ على التلفون بنفسه.

قالت رفيف بصوت متهدّج ضاع في عباب الأزمة:

ـ التاريخ يعيد نفسه. يمهلونا حتى يحقّقوا أهدافهم ثم لنا بعد العشاء حديث آخر.. خدعة، مؤامرة.

وبشقّ النفس استطاع الأستاذ بديع أن يجد لِنفسه متّسعًا ليقول من خلاله:

ـ يا أبنائي، أرجوكم، اسمعوني، كلمة واحدة قد تقرّر مصائرنا كلّنا.

استبدّ الفضول بأبو العزّ فهبّ لنجدته، وأقنع الآخرين بإفساح المجال له ليقول كلمته. وأخيرًا استمعوا، فقال الأستاذ بديع لاهثًا:

ـ ليطمئنّ قلبي وقلوب الجميع أريد أن أسأل الأستاذ خضرون سؤالاً واحدًا، واحدًا فقط.

وتبادل عادل وسالم وحافظ النظرات، وزفرت رفيف باختناق «أهذا وقتك»!

وقال الأستاذ بديع بلطف وتأنٍّ:

ـ يا أستاذ خضرون، إذا قبلنا بمشروعك، فبأيّ اللّغتين نبدأ؟

والتفت خضرون نحو أبو العزّ وقد استغلق السؤال عليه وسأل:

ـ ما هذا؟

صاح سالم مردّدًا:

ـ نصوّت ونأخذ برأي الأغلبيّة، نأخذ برأي الأغلبيّة، الأغلبيّة.

مسح عادل جبهته المبلّلة بالعرق وأبقاها فوق عينيه. ودفنت رفيف رأسها في ساعدها وهربت إلى عالمها الخاصّ... «الأغلبيّة؟ ويعيد التاريخ نفسه. الأغلبيّة التي هزمت المرأة في تركيا. الأغلبيّة هزمت المرأة في إيران. الأغلبيّة هزمت المرأة في الجزائر. في البرلمان التركي صوّتت الأغلبيّة ضدّ تحرير المرأة. أتاتورك وحده حرّرها وليست الأغلبيّة. في أوائل القرن فعل أتاتورك هذا، وها نحن في أواخره ويعيد التاريخ نفسه. أتاتورك منذ عشرات السنين، وبدون اشتراكيّة ولا شعارات ولا مزايدات فعل هذا، وعادل وسالم وحافظ... ما حلّ بالجزائر؟ وإيران؟ وما يدريني؟».

ـ يا جماعة، يا جماعة. خبر هامّ، خبر عاجل. نابلس تموج كالزلزال. انتفاضة، مصادرة، مستوطنة جديدة. هيّا يا شباب، بسرعة، من سيغطّي الأحداث في نابلس؟ يا عادل، يا حافظ، يا سالم، هيّا، خذوا سيّارة المجلّة وانزلوا لنابلس حالاً.

واندفع أبو العزّ نحو الباب ركضًا وخضرون في أثره.

(٣٣)

حين وصلوا مشارف نابلس راعهم منظر السيّارات والشاحنات التي اصطفّت بالمئات تنتظر الإذن بدخول المدينة. وكان الجنود بكامل أسلحتهم يطوفون بين السيّارات ويأمرون الركّاب بالنزول وبإبراز هويّاتهم. وأثناء ذلك ينشغل اثنان منهم بتفتيش السيّارة من الداخل والخارج وصندوق الأمتعة والموتور والإطارات وتحت الفرش وخزانة السائق والأوراق والرخصة والهويّة واسم الأب والجدّ والحمولة والملّة. وطال الوقوف فنزل الركّاب من السيّارات واصطفّوا على جانبي الطريق وبدأوا يتناقلون الأخبار والتساؤلات.

دارت النسوة بأطفالهنّ الباكين من سيّارة لسيّارة بحثًا عن شربة ماء أو موزة، أو بسكوتة. وابتعدت بعضهنّ بأولادهنّ مسافة قصيرة. وهناك قرفص الأولاد واستمتعوا بما حرم الكبار منه. وفوق رؤوس المقرفصين نصبت النسوة الدواوين وحكين القصص وتناقلن أخبار نابلس ولم يغفلن ذكر ما قاله الحاكم العسكري وما قاله الطلبة في الشوارع أثناء التظاهر. قال الحاكم لرئيس البلديّة: إذا لم توقفوا الطلبة عند حدّهم نوقفهم نحن وإذا كنتم لا تعرفون كيف تربّون أولادكم نحن نربّيهم.

وضربت واحدة كفًّا بكفّ وأطلقت ضحكة فرقعت كالفتّاش ولمّت النسوة حولها لتحكي لهنّ كيف يربّون الأولاد. وانشغلت النسوة

بالحواديث والحكايات ونسين أولادهنّ في أوضاعهم حتى احمرّت منهم الركب. وبكى بعضهم وأيديهم ممدودة نحو أمّهاتهم، ومشى طفل يتعثّر بلباسه مسافة خطوات ثم وقع على الأرض وارتفع صراخه، فهرولت إليه أمّه وفي يدها حجر صغير. وبعد أن أحسنت استغلال الحجر عادت إلى جمع النسوة لتسمع بقيّة القصّة. وكانت المرأة تشرح وتقرقر: بعد ما كسّر الأولاد السيّارة أخذوهم للمخفر وحطّوا عقلهم بعقلهم وحاكموهم. كبسوهم في القفص مثل المخلّل وقالوا لهم، ما فيش تربية، رح نربّيكم بأوضة الفيران. وضحك الأولاد وواحد منهم مدّ لسانه للقاضي.

واقترب جندي من جمع النسوة وصرخ: يا الله، يا الله امشي. والتفتت إليه النسوة ببلادة وعدن إلى حكاياتهنّ. وعاد يصرخ: امشي، امشي. وهمست إحداهنّ بتسلية، وبعدين؟ وعاد الجندي يصرخ فصاحت النسوة فيه بصوت واحد: طيييب، مال ربّك! هيّه الدنيا طايرة! وعدن إلى حكاياتهنّ، آه، وبعدين؟ وبعدين مدّ الولد لسانه للقاضي، والقاضي كان في رأسه عقل وطار. وصار يخطب في الأهالي ويقول: عرافيم مش مربيين، عرافيم ما فيش مخّ ما فيش أدب. ولد من الأولاد صار يعصر حاله ويلوي رجليه ويصيح، بدّي أشخ، بدّي أشخ.

وانفجرت النسوة بالضحك وتمايلن على بعضهنّ بتسلية فثارت حمية الجندي وهجم على إحداهنّ وشدّها من أكتافها، فأطلقت صوتًا عظيمًا كالزلزال. هبّت النسوة إلى نجدتها وبدأت الدعوات تنهال على رأسه جزافًا: يكسرك ما يجبرك بجاه اللّي سخطك قرد وحمّلك بارودة. تعدمك أمّك وتصبغ عليك أسنانها والعين تطرقكم وتطرق الساعة اللّي شفناكم فيها. يا ريتكم سود بجاه الربّ المعبود وبجاه سيّدنا داهود.

تراجع الجندي خطوات وقد ألجمته المفاجأة. ووقف يتأمّلهنّ للحظات وقد اكتسى وجهه بإمارات الحيرة. وهدأت النسوة وظللن يحدجنه بنظرات حاقدة حتى سمعن إحداهنّ تقول: وبعدين؟ فعدن يتكوّمن واستعادت الحلقة أنسها خلال ثوان.

مشى الجندي بسرعة وعاد وبرفقته جندي آخر ببشرة سمراء وملامح شرقيّة. وصاح الشرقيّ بجلافة: يا الله بلاش شرمطة. شهقت واحدة وضربت صدرها: جاي تربّينا بلسان بنقّط زفر يا قليل الحيا؟ وشاطر تقول همّا ما فيش تربية ما فيش أدب ما فيش مخّ؟ والله لأنزّل لأمّك وأنزّل لأبوك وأنزّل لأعور الدجّال منك وفوق. فهجم الجنديان على جمع النسوة وأخذا يدفعانهنّ فامتدّت أيدي النسوة وألسنتهنّ واندلع الصياح.

ووقف الأولاد وفي أيديهم حجارة أحسن استغلالها يتحيّنون الفرصة. وبمجرّد أن تفرّقت النسوة وبقي الجنديّان وحدهما على الرصيف اشتغل الرّشق وانهالت الحجارة وانشقّت الأرض عن مئات الأولاد. بعضهم من أولاد الركّاب ومعظهم من أولاد المخيّم القريب. وأضحى الشارع جبهة.

ووقف السوّاقون وسط الشارع يستحلفون الأولاد ويشيرون إلى زجاج نوافذ السيّارات والمصابيح، لكنّ الأولاد استمرّوا في قذف المزيد من الحجارة، واستمرّ المخيّم في قذف المزيد من الأولاد.

أمسك جندي بمكبّر صوت يدوي وأخذ يطلق الأوامر والإنذارات. وبدأت المطاردة بين الأولاد والجند، وانتقلت المعركة إلى أزقّة المخيّم. امتلأت سيّارات الجند بالأولاد، وامتلأ الشارع بالنسوة النادبات والملوّحات والمحرّضات.

وهدأ الجوّ قليلاً، فتدخّل السوّاقون وبعض الركّاب وتواسطوا لدى الضابط وتوصّلوا بعد جهد إلى قرار يقضي بالسماح للنسوة والأطفال بدخول المدينة مشيًا على الأقدام. ولمّت كل واحدة حوائجها وأطفالها، ومشين نحو المدينة مخفورات باللعنات والدعوات، والجنود من خلفهنّ يكيلون السباب.

وقهقهت رفيف في السيّارة:

ـ تعيش زاوية المرأة.

فعبس حافظ واعترض:

ـ بل يعيش المخيّم.

صاح سالم بفراغ صبر:

ـ أهذا وقته؟ المهمّ هو كيف ندخل المدينة يا جماعة!

وفكّر عادل وهو يتأمّل سيّارة خضرون أمامهم. . . «باستطاعة خضرون أن يمرّ، فلماذا يقف مع الواقفين؟ ينتظرنا؟» لكنّه ظلّ صامتًا خوفًا من تهمة جديدة قد يوجّهها إليه سالم فيقول «مؤامرة».

وتأمّل نصف وجه رفيف وكانت تجلس إلى جانبه على المقعد الخلفي. وعاد الحنين إلى قلبه وتذكّر أيّامًا خالية مرّت. كانت لا ترفع عينيها عنه ولا تترك مناسبة تفوتها دون أن تمسك بيده أو تقترب منه. والآن، ها هي جالسة إلى جانبه في المقعد الخلفي وكل ما يشغلها مراقبة الناس. أليس هذا ما كان يسعى إليه؟ أن يجعل من رفيف إنسانة حرّة لا تخضع لأيّ كان مهما كان. لكنّ الحياة أصبحت باردة، بل أكثر برودة. معها كان يحسّ أنّ باستطاعة الإنسان أن يتخفّف من أحماله وأوزانه أحيانًا، يركض وسط الناس، يضحك بأعلى صوته

ويصرخ في خواء الشارع «مجنونة». ويسمع صوتها اللاهث يهلّل «وأنت أهبـ ال».

كانت في الحياة لحظات دفء، وكان دفؤها ينتقل إليه ويجعل الحياة أخفّ وطأة. وها هي رفيف قريبة منه لكنّها عنه بعيدة. أصبحت حرّة! صحيح، وتحرّر هو من ملاحقتها المستمرّة ومن عبء عواطفها، لكنّه لا يشعر بالسعادة أكثر، أو على الأقلّ لا يحسّ بتعاسة أقلّ. تريد نصف المجلّة، هذا هو كل ما يشغل بالها. وأحسّ بشيء من المرارة والحسرة. ألا يكفي ما يراه أمامه وما خلّفه وراءه وما يسعى إليه ولا يقدر على الوصول؟ ألا يكفي كل هذا التعقيد؟

وناداها بلطف:

ـ رفيف.

التفتت إليه وفي نظرتها حياد تامّ. ولم يكن في وجهها أيّة بادرة من بوادر الاندفاع القديم. أحسّ بالخيبة لكنّه تمالك نفسه.

ـ مسموح للنسوة بتخطّي الحاجز، تستطيعين العبور. ولاحت في عينيها لمعة سريعة، وقالت بطيبة:

ـ لن أتخطّاه وحدي، سأنتظر.

ابتسم ولم يعلّق، وعاد يسترجع ذكرى وقفة كانت معها أمام الضوء الأحمر. وهمس بعد لحظات:

ـ كبرت يا رفيف.

هزّت رأسها وظلّت تنظر إلى الناس من خلال النافذة وفكّرت بحسرة: كبرت. وكم دفعت مقابل ذلك!

قال سالم بفراغ صبر وهو يدقّ الستيرنج:

ـ لو كنت مكانك يا رفيف لتخطّيت الحاجز.

قالت ورأسها مازال في النافذة:

ـ وما فائدة أن أتخطّاه وحدي؟ أيّة أحداث سأغطّي وأنا وحدي؟

واستدارت بوجهها نحو عادل لكنّها لم تنظر في وجهه. ودقّ قلبه ببطء وأحسّ بحزن رقيق ناعم ينساب إلى نفسه. ما أبعد ذاك اليوم! يبدو كما لو مرّت سنوات بأكملها مذ كانا معًا. والآن، هي معه، إلى جانبه، وتنتظره كما تنتظر الزملاء، وهو ما عاد أكثر من زميل. «كبرت يا رفيف». وما كان يعرف أنّ كبرها سيسيء إليه ويحزنه. واستجمع أفكاره وربطها... «ألهذا يصعب عليهم تطبيق مبادئهم تجاه المرأة؟ يخافون أن تقوى عليهم وتعتاد العيش بدون حمايتهم فتفقد الحياة طراوتها. أن تركن المرأة إليه يعطيه إحساسًا بالقوّة ويملأ قلبه بالرقّة، لكن لذلك ثمنًا باهظًا، والثمن حرّيّته. أيّة خدعة! وأين هي حرّيّته، وأين حرّيّتها!!».

صاح جندي في جمع السوّاقين: ارجع، كلّه ارجع. وتصايح السوّاقون: نكون في نابلس ونرجع لرام الله! وعاد الجندي يصرخ: ارجع، كلّه ارجع.

ونزل أبو العزّ من سيّارة خضرون واقترب من النافذة الأماميّة حيث يجلس حافظ، ومدّ رأسه وهمس:

ـ باستطاعتنا دخول المدينة في سيّارة خضرون، من يرغب في ذلك؟

وساد الصمت لحظات، وظلّ عادل ينتظر ردّة فعل سالم. إلاّ أنّ سالم ظلّ صامتًا لا يجيب.

فتح عادل الباب وقال:

ـ سأنضمّ إليكم.

وتبعته رفيف وكذلك حافظ، وركبوا سيّارة خضرون وانتظروا بضع دقائق، وقدم سالم ودخل السيّارة دون أن ينبس بكلمة. واستدار خضرون بسيّارته ودخل منعطفًا يؤدّي إلى المخيّم. ومن هناك أخذت السيّارة طريقها نحو المسالك الجبليّة. وارتفعت بهم نحو عيبال.

من هنا تبدو المدينة قعر نهر جافّ رصفته الحجارة. لا أثر للحياة إلاّ بضع سيّارات تسير في انحناءات ثعبانيّة بأحجام النمل. ونفثات دخان المصابن ترتفع في خطوط قصيرة وتتلاشى. وقمّة عيبال غارقة في الصمت. وأوقف خضرون السيّارة على طرف الشارع المرتفع المطلّ على المدينة وأخذ يبحث بعينيه عن تلك الانتفاضة التي سمع عنها، لكنّ الصمت المطبق مسترسل في إطباقه.

فقال سالم بغيظ:

ـ وأين هي تلك الانتفاضة وأين هي أمواج الزلزال؟

وأخذ يكيل السباب كيفما اتّفق، والآخرون مازالوا يبحثون في الوادي الضخم عن مؤشّرات الزلزال أو بوادره. ولم يجدوا، وانتابهم الإحساس المعهود من الخيبة وفقدان الصبر. وفجأة دوّت عيارات ناريّة متقطّعة ثم ساد الصمت ثانية. هتف سالم بحماس مفاجئ:

ولعت، ولعت.

وفرك يديه بجذل ونزل من السيّارة وعادل يتأمّل المدينة تحته. ولم ير شيئًا فانكبّ راجعًا وقد زال حماسه بالسرعة نفسها التي جاء بها.

قال أبو العزّ:

ـ لا شيء يتحرّك في المدينة إلاّ قاعها. ولن نرى القاع من هنا.. لو ننزل للقاع.

قال سالم:

ـ ولماذا ننزل؟ من هنا سنرى الأشياء بوضوح أكبر.

ـ لن نرى وأنت بعيد على مرتفع.

ودوّت صلية طويلة من الطلقات. ووصلهم صوت ضجيج بعيد. فقال أبو العزّ عازمًا:

ـ سأنزل للمدينة ولو مشيًا على الأقدام.

وحاول أن يفتح الباب فأوقفه خضرون:

ـ ننزل معًا.

وأخذت السيّارة طريقها نحو المدينة. وفي نهاية شارع منحدر أوقفتهم سيّارة شرطة. وقبل أن يقترب الشرطي منهم رجع خضرون بالسيّارة وغيّر الاتجاه. وسلك إلى المدينة طريقًا آخر.

وفي شارع سكني كان الأولاد يقفون إلى جانب متراس صغير صنع من إطار كاوتشوك يحترق ببطء وعلى جانبيه صفّت حجارة متوسّطة الحجم وبعض تنكات صدئة. وحين لمح الأولاد السيّارة بدأوا يقذفونها بالحجارة. قهقه سالم، وخبّأت رفيف رأسها في كتف أبو العزّ. ونزل حافظ بسرعة ورفع يديه وسدّ الشارع وهو يصيح بكلمات غريبة. وتوقّف الرجم في الحال. عاد حافظ إلى مكانه وفي أثره قائد الأولاد. كان يلفّ رأسه الصغير بحطّة ولا تظهر من وجهه إلاّ عيناه. تأمّل الوجوه بنظرات متشكّكة ودمدم بأمر ما. وبدأوا يمازحونه، فرفع خشبة في يده وأشار بها نحو الزجاج، فصاحوا. وعاد الولد يلوّح بخشبته ويردّد الأمر من وراء الحطّة:

ـ هويّات، هويّات.

ناوله أبو العزّ هويّته بجدِّيَّة وحيّا:

ـ يعطيكم العافية.

أنزل الحطّة عن فمه وسأل زاجرًا:

ـ من الضفّة وفي سيّارة إسرائيليّة؟

وتوالت تعليقات من في السيّارة، فابتسم، وأخيرًا أشار إلى ممرّ ضيّق على الرصيف الترابي.

سارت السيّارة ببطء حتى اخترقت جانب الحاجز: وابتعدت عن الأولاد والمتراس. والتفتت رفيف ورأت الأولاد يصبّون الكاز على الإطار المشتعل فصاحت:

ـ النار! أخاف عليهم فهم صغار.

همس أبو العزّ:

ـ لا اشتعال بدون احتراق.

وعادت الطلقات تدوّي، وبدأت الأصوات تتضح أكثر. وصلوا الشارع المؤدّي إلى الدوّار ففوجئوا. مصفّحات وشاحنات وجنود بطاسات وتروس بلاستيكيّة وعصي وبنادق. شوارع مليئة بالحجارة والزجاج والتنك. متراس ضخم وسط الشارع العريض يتقافز وراءه الأولاد. بعضهم يلفّون الرؤوس بالحطط. وبعضهم يلبسون طواقي مصنوعة من جوارب مثقوبة من جهة العينين والفمّ. يتقدّم الأولاد دفعة واحدة، تتناثر الحارة في كل اتجاه. مقاليع تصوّب لأعلى حيث يربض الجنود فوق أسطح البنايات. يتراجع الجنود، يهجمون. يتراجع الأولاد ويختفون من أفواه أزقّة المدينة القديمة. يقترب الجنود من

المتراس. تنهال الحجارة، يتراجعون. «عليهم». يصرخ الأولاد، اضرب. زجاجة مليئة بالنفط وسط الشارع. يتراجعون، يتجمّعون. قنبلة غازيّة تنفجر. شظايا. يعرج ولد، ينسحب. تنكفئ تنكة فوق قنبلة فتحبس غازها.

صاح جندي بخضرون، ارجع، ارجع. تتراجع السيّارة، تنهال الحجارة فينكسر الزجاج الأمامي وتتناثر شظايا. تصرخ رفيف. يصرخون، ارجع. ارجع. تتراجع السيّارة. «عليهم». ينفجر مصباح السيّارة الأمامي. قنبلة أخرى. جنود بألبسة وأجهزة كروّاد الفضاء. بصلة تطير وترتطم بغطاء السيّارة الأمامي. سالم يلهث «مولّعة».

تمتلئ فوهات الأزقّة بالأولاد. يندفعون كالجراد. تتساقط الحجارة من السماء. الإطارات تشتعل. مصفّحة تمخر الشارع، برميل يندفع نحوها فجأة. يصرخ عادل: صوّر يا سالم، صوّر.. براميل كثيرة. إطارات تقف على أحرفها وتتدحرج باتجاه الجند. صوّر.. سيّارة ذات صهريج وماء ملوّن. تنفتح الخراطيم. صوّر.. يتراجع الأولاد نحو أزقّة. براميل. إطارات مشتعلة. ارجع يا خضرون. إطار يقترب. دعنا نهرب. ماء ملوّن. ارجع، ارجع، ارجع. وقعنا في الفخّ، ارجع، ارجع.

نحو الغرب تتجه السيّارة ومازالوا يلهثون. تمتم خضرون بكلمات يرثي بها سيّارته. عادل يعده أن تساهم المجلّة في إصلاحها. حاجز الجنود ومسامير مدبّبة على الأرض بشكل متعرّج. صفّ من السيّارات تقف بالانتظار. جنود يطالبون بالهويّات وفتح السيّارات من الداخل والخارج والأمام والخلف. انزل من السيّارة. تحت الفرش. في الخزانة. وراء المساند. ارجع. اطلع. امش.

سيّارة خضرون تخترق الحاجز دون تفتيش. يصرخ جندي بكلمات عبريّة مشيرًا إلى الزجاج المكسور والمصباح. يهزّ خضرون رأسه. يدوس على البنزين ويرتفع العدّاد.

حاجز آخر. صفّ سيّارات طويل. فتى في السابعة عشرة يقف مسندًا ظهره إلى جدار. يحيط به جنديّان. وجهه نحيل شاحب. بشرته بيضاء ولحيته لم تطلع بعد. حبّ الشباب يأكل خدّيه. عيناه عسليّتان ناعمتان. شعره ناعم وبنيته رقيقة. الخوف في عينيه.

نظرت إليه، فغضّ بصره خجلاً من نظرة فتاة. اجتاحتها غصّة وبدأ قلبها يخفق ويتدفّق أمومة. استقرّت نظرته في وجهها فهتفت بقلب نازف «يا إلٰهي». ارتفع الدم إلى جلدة رأسها ووقف الشعر في مسامّها. طفرت الدموع من عينيها. حاولت التماسك من أجل معنويات الفتى. نظرته حائرة. خائفة، عيناه رقيقتان ناعمتان. انزلقت دمعتها وانحرفت نحو أنفها. مسحت دمعتها فلكزها أبو العزّ. هتفت: لكنّه صغير كأرنب مذعور. اصمدي. أين أمّك يا فتى. خائف أنت يا ولدي؟ نشجت: أترى يا خضرون؟ صاح سالم بغيظ: «خضرون لا يرى ولن يرى».

داس خضرون على البنزين وانطلق كالصاروخ. الكلّ في سيّارة واحدة، مهشّمة الزجاج والمصباح والطريق مليئة بالشظايا والحفر. والسيّارات مازالت تقف في صفّ طويل الانتظار. والركّاب يقفون صفوفًا طويلة. وجنود بأسلحة وألبسة فضائيّة، وشباب في صفّ طويل لصق الحائط، وجوههم نحو الجدار، أيديهم مرفوعة، والجنود شاهرو السلاح.

ـ اصمدي يا رفيف.

ـ لكنّه مذعور كأرنب.

ـ وتطالبين بنصف المجلّة؟

ـ لكنّه طفل بريء.

ـ وكلّنا كنّا كذلك، لكنّ الدوّامة تسحب.

قال سالم بسخرية:

ـ رفيف انهارت، تسقط زاوية المرأة.

خبّأت وجهها في يديها وبدأت تنتحب:

ـ لكنّه صغير كالأرنب، ومذعور.

تطوّع عادل بالنجدة:

ـ نسيت النسوة في باب المدينة. أحالوا الموقف مشهدًا. حتى أنت يا رجل لم تفعل هذا.

ـ هؤلاء لسن رفيف.

ردّ أبو العزّ بجفاف:

ـ وما الفرق؟ أجزاء في كل واحد. لا تكتمل الصورة ببعد واحد.

تداخلت الصور وماجت وعادت، وعادل... للصورة أكثر من بعد واحد يا أسامة. مرّت أعوام طويلة. سنوات ذات أسنان وطواحين. سنو الهزيمة ليست كسني النصر. سنة الهزيمة بمئة.

نشجت رفيف:

ـ أحسست أنّه ابني. تمنّيت لو كنت مكانه. ماذا فعل! أنتم لا تحملون قلب الأمّ.

ـ وفّري دموعك.

ـ لكنّه طفل بريء.

ـ وفّري دموعك.

ـ ماذا سيفعلون به؟ لو كنت مكانه.

ـ غدًا تكونين، كالحصبة.

ـ بلى، والسرطان والطاعون، لكنّ الطبّ تقدّم.

ـ أرأيتم عينيه؟ خجل منّي. آه، أنا خجلة. لو كنت مكانه.

ـ غدًا تكونين.

ـ أين الطريق إلى المستوطنة؟

ـ عند المنحنى ثم أتجه جنوبًا. هناك. أترى تلك السيّارة؟ التلفزيون والصحافة، أسرع.

ـ شركات التلفزيون تتغذّى. منطقتنا خصبة. أسرع. سبقونا.

سيّارة ستيشن صفراء ورقم أجنبي. مدّ أشقر رأسه وسأل بالإنكليزيّة عن الطريق إلى المستوطنة الجديدة. أشار خضرون بيده وداس البنزين. تبعته سيّارة كسيّارات الإسعاف تحمل شارات ورموزًا. مرّت درّاجة ناريّة كالبرق وعليها شاب وكاميرا معلّقة في ظهر فتاة.

أسرع. الصحافة تسبقنا. الأستاذ عطا الله سيفقد عقله. لا مزرعة ولا تصريح ولا سبق صحفي. أسرع. حتى أخبارنا يسبقوننا عليها. يا جرح القلب يا بلدي. ولهذا أنا مؤمن يا خضرون بضرورة الملحق وتثقيف الشعبين. شركات الصحافة تتغذّى على جوعنا ودموعنا ويربحون من نقل الخبر. خبرنا أم خبركم؟ الكل في سيّارة واحدة

مهشّمة الزجاج والمصباح، والطريق مليئة بالحجارة والشظايا والحفر. يذكّرني هذا اليوم بيوم بعيد. ارفع. ارفع. كلية الوالد. أسور تطلع الدرج يا أدون. وانفجرت الدار وانفجرت الآلة واعتقل باسل. هل كانت العاصفة التي حملت سرّ التحوّل أم مبدأ التحوّل؟

علّق سالم:

ـ كلّ الأحداث لم تُبْكِ رفيف. أبكتها العيون العسليّة والنظرة الرقيقة. شبعنا شعر ومشاعر فجّة. يسقط الشعر وتسقط زاوية المرأة وتسقط العواطف.

انتحبت دون محاولة منها لإخفاء مشاعرها:

ـ وأين الثورة؟ ثورة بدون عواطف؟ والناس كيف تحبّهم؟ وإذا لم تحبّهم فكيف تقوم بهم ولهم؟ أنت لا تعرف، لا تفهم.

ـ ومن يفهم، عادل يفهم؟

نهره أبو العزّ:

ـ أسكت يا سالم، أهذا وقته؟ دعها وشأنها.

ـ لكنّها تبكي.

ـ وماذا إذا بكت. فلتبك، أيضيرك هذا؟

ـ تضعف موقفنا.

ارتفع نحيبها:

ـ لو كان موقفكم قويًا لما أضعفته دموعي. سأبكي وأبكي وأبكي.

ـ تبكين ولدًا وتنسين أمّة بأسرها؟

ـ لكنّي أرى فيه أمّة بأسرها. ألا تفهم؟

«آه. يا صالح. وغدًا تبكي أراملنا في البرِّيَّة ولا يجدن إلاّ من كان مثلنا مهدور الدم» ومدّ يده وأحاط بكتفها. دفنت رأسها في صدره وازدادت نحيبًا.

«تبكي يا رفيف! أيّ فأل شؤم هذا. تبكين لهذا الصدر أم عليه؟ وماذا باستطاعة هذا الصدر أن يحمل! ابك، ولم لا، حرام على المرء أن ينزف ألمه؟ وأين الشجاعة؟ للقلب وقت وللعقل وقت وللمعول وقت. وحين ينفجر الثلاثة في كل واحد تحمرّ الدنيا وتتطهّر في بحر الدمع. أسرع يا خضرون أسرع. الزمن يضيع. أسرع».

(٣٤)

شارع إسفلتي ضيّق مليء بالحفر، والسيّارة ترتفع وتنخفض ولا أثر للحركة في منطقة الصخر والزيتون. هضاب وتلال ورقع أرض كان الزرع فيها أخضر ثم حرثته الماكنات واختلطت خضرته بحمرة الأرض ودم الفلاّحين.

للسنة الثانية يصرّ الفلاّحون على الزراعة. في العام الماضي طارت الطائرات في الجوّ ونثرت موادّ سامّة قتلت الزرع وقتلت الحياة في قلوب الناس. وجاء الشتاء فغسل الأرض وغسل القلوب واستعاد الناس حبّهم للحياة وزرعوا من جديد. وقبل موسم الحصاد بقليل زحفت الآلات من الغرب وغرست أسنانها في بطن التربة وقلبت الأرض عاليها سافلها. وتناثرت سيّارات الجند في المنطقة كالجراد. وبأمر من الحاكم العسكري صودرت آلاف الدونمات. وبدأت سيّارات المستوطنة تأخذ طريقها نحو المستوطنة الجديدة في أرض الميعاد. لوّح الفلاّحون بأوراق الطابو فأخذها الحاكم ليتثبّت من صحّتها، ولم يتثبَّت حتى الآن.

وأقيمت الثكنات في أعلى الجبل وسكنها مواطنون مسالمون يقيمون الصلوات عن أراوح وضحايا نبوخذ نصّر. وقفوا صفوفًا مرصوصة وتمايلوا على أنغام الأدعية حمدًا لله أن أعاد مجد بني إسرائيل فوق أشلاء الدخلاء في الشرق الأوسط. ورشق أولاد الفلاّحين الحجارة.

حجر أصاب طاقيّة أحدهم فاستلّ بندقيّته وقتل صبيًّا، وعاد يصلّي بخشوع وسلام.

متراس يسدّ الشارع الضيّق ولهيب الإطارات يحجب الرؤية والطريق. أوقف خضرون سيّارته تحت الزيتونة بعيدًا عن الشارع ومشوا على الأقدام باتجاه القرية.

في دار المختار يجتمع أصحاب الظلامات. خالات وعمّات الصبي المغدور يطالبن بالأخذ بثأره. بعض الفلاّحين يطالبون باسترجاع أوراق الطابو من الحاكم. ورجل في السبعين يفترش الأرض ويعفّر وجهه بالتراب ويندب. الأرض، شقا العمر وشقا الأولاد في الكويت والسعوديّة ورزق العيال. الأرض صودرت وارتفع دونها السياج، والدار دكّتها الجرّافات ومشّطتها، ولحقوا به يطالبونه بالأجرة.

تساءل خضرون:

ـ الأجرة؟

ـ أجرة الجرّافة يا ابني، وأجرة سوّاق الجرّافة.

ضرب خضرون جبينه بكفّه لاهثًا، فأسمعه سالم كلمة واقفة تعني أن كُفَّ عن التمثيل. رفع أبو العزّ إصبعه في وجه سالم، فاستدار وأعلن عن رغبته في التبوّل.

وجلسوا على الأرض وفي يد كل دفتره وقلمه، يدوّنون القصص المتناثرة والأحداث. ودارت قهوة المختار على الصحفيين ومعها وجّهت إليهم الدعوة للاجتماع في العليّة مع المختار. الصحفيّون الأجانب هرعوا إلى العليّة وعيونهم تدوّن التفاصيل. ذباب كثير وملابس ممزّقة. ومختار جاهل. هؤلاء هم العرب وهذه قضيّتهم. فهل

يستحقّون الأرض حقًّا؟ وهل يستحقّون الحياة أصلاً؟ وتبادلوا النظرات وقالوا بالعربيّة كلمة المجاملة المعهودة «شكرًا». وابتسم المختار بامتنان وطلب لهم فنجانًا آخر من القهوة.

شربوا القهوة الثانية وعيونهم مازالت تدوّن التفاصيل الهامّة وأعراض القضيّة. وسألوا المختار عن آرائه السياسيّة فأفاض من خلال مترجم. وسألوه عن الغرب فقال بريطانيا سرّ اللّعنة. وأقنعه أحدهم أنّ لولا بريطانيا لظلّ الشرق الأوسط جاهلاً ومتأخّرًا ولا يعرف كيف يفكّ الخطّ. استثاروا ذكرياته فحدّثهم عن المشانق والثلاثاء الحمراء والزير وبو جلده، وأعادوا الأسطوانة وقالوا لولا الإنكليز والأميركان لكان الوضع أسوأ. وطار صوابه: وما الأسوأ؟ وظنّوا أنّ تساؤله بحاجة لجواب فشرحوا له عساه يفهم. لكنّه خيّب أملهم وظلّ يسترجع ذكريات عن الإنكليز والمشانق ونسف الدّور. وقال إنّ اليهود تعلّموا منهم. اليهود يدكّون الدار ويطالبون بأجر الجرّافة والإنكليز كانوا يشنقون الرجل ولا يسلّمون جثّته لأهله إلاّ إذا دفعوا أجر المشنقة. خمسة جنيهات عدًّا ونقدًا أجرة المشنقة وغرامة المشنوق. وحاولوا أن يناقشوه في أمر السياسة العالميّة فأسكتهم بفيض من قصص الفلاّحين الصغيرة. تهدّج صوته وارتفع صراخه وأفرغ شحنة أساه في وجوههم. فكتبوا في أوراقهم تفاصيل هامّة عن انفعاليّة العرب وعواطفهم غير المنضبطة.

وقالوا له وماذا عن أميركا؟ فقال إنّها أوسخ من تلك وكلّهم أوسخ من بعض. أوسخ؟ ونظروا إلى الذباب ووجوه الأطفال المصطفّين في الباب يتفرّجون على الأجانب، وكتبوا عن وساخة الشرق ومازالت الجرّافات المستوردة من الغرب تدكّ البيوت وقلوب الناس.

وقالوا له: وماذا عن الحكم الذاتي؟ فقال إنّه مختار على قدّ الحال ولا يعرف بالسياسة وأمور الحكم، وأنّ عليهم أن يسألوا الشباب المتعلّمين. والتفت إلى شابّ يجلس في طرف الغرفة، وقال له: احك يا جابر.

وقال جابر كلامًا كثيرًا وكثيرًا. تكلّم على الإمبرياليّة والشعوب المقموعة والعالم الثالث والأوّل والثاني. وقال شيئًا عن الاشتراكيّة وحقوق الناس المضطهدين وثورة الأغلبيّة المغلوبة. نظر الصحفيّون في عيون بعضهم وسألوا: ستكون دولتكم شيوعيّة تتلقّى الأوامر من موسكو؟ علا الاشمئزاز وجهه وقال: لن نتلقّى الأمر من أحد. واعتبروا النفي نفيًا للحقيقة فدوّنوا في أوراقهم أنّ هذه الدويلة ستكون وبالاً على العالم الديموقراطي الحرّ وستكون رأس الحربة السوڤييتيّة في الشرق الأوسط.

ووجّهوا إلى جابر سؤالاً آخر، فصمت ولم يجب. فدوّنوا في أوراقهم مجدّدًا انطباعات موضوعيّة عن سوء تصرّف العرب وعنادهم وسلبيّتهم.

وعادوا إلى المختار يسألونه عن رأيه في الحكم الذاتي، فقال: اسألوا منظّمة التحرير. قالوا: لكنّك مختار وأنت الموجود هنا. فعاد يردّد دون كلل: اسألوا منظّمة التحرير. التقط أحدهم الخيط وسأل سؤالاً وجيهًا: في أيّ حكم وأيّ احتلال يسمح للناس بحرّيّة التعبير هكذا؟ قال جابر وهو يفزّ واقفًا: إذن لنحي الاحتلال ونشرب نخبه المزيد من القهوة والشاي.

ولم يكذّب المختار الخبر فطلب لهم المزيد من القهوة، ودوّنوا في أوراقهم انطباعات موضوعيّة أخرى عن ميزة العرب البدائيّة في الكرم

اللامحدود. وشربوا القهوة للمرّة الثالثة وقالوا بالعربيّة «شكرًا». فانتخى المختار وعزمهم على الغداء وهو يحلف أغلظ الأيمان، فلبّوا الدعوة مبتسمين.

وأسفل العلّيّة كان أفراد هيئة تحرير مجلّة البلد مازالوا يجلسون على الأرض بين أصحاب الشكاوى يدوّنون القصص والحكايات ويحفظون الأرقام. وفجأة، اندلع الصياح من خارج سور الحاكورة. جمد الجميع للحظات ثم عادوا يدوّنون الأحاديث والأرقام. وازداد الضجيج، واندفع باب السور بارتطامة قويّة، ومن باب الحاكورة سيل آخر من الفلاّحين. وخلف الفلاّحين تهرول امرأة بثياب مدنيّة يشدّ بذيل ثوبها طفل ويحيط بها أولاد الفلاّحين بفضول.

وصاحت المرأة مولولة:

ـ يا مختار.

قفز أبو العزّ عن الأرض ونادى:

ـ سعديّة.

سقطت على ركبتيها فارتفع صراخ الطفل وبدأت سميّة تسحبها من ذراعها وتصيح:

ـ يمّه، يمّه، قومي نروح عالدار.

وأخذت سعديّة تلطم رأسها بهستيريا:

ـ أيّ دار يا مكسورة، أيّ دار؟ راحت الأرض وراحت الدنيا وشقا العمر وسنين الرملة.

وتطلّعت في الوجهين الأليفين وهمست قبل أن تصيبها النوبة:

ـ أبو العزّ، الأرض، أخذوا الأرض.

دارت الدنيا ودارت الوجوه وحلّ على العالم صمت مسالم. والتمّت النسوة وغضّ الرجال النظر ونظر الصحفيّون من شبابيك العلّيَّة بفضول. ورأوا ملفّعات بشاش أبيض، ملابس طويلة، أصوات تنطق باللّغة الخشنة، وأيدي النسوة خشنة ووجوههنّ، حركات الأجساد المتراكضة ترفل بملابس فضفاضة، أيد تلوّح وهنّ يتبادلن الحديث كما لو كنّ يتشاجرن. مشهد ذكّر الأجانب بأفلام ترصد حضارات غريبة وعادات أقوام أغرب. والمرأة الممدَّدة على الأرض مازالت بدون حراك، والنسوة يركضن هنا وهناك. إحداهنّ تمسك بوعاء تغرف منه الماء وترشّ به وجه المغماة. عمّات وخالات الولد المغدور استثارهنّ الحادث فعدن إلى الندب والبكاء. وهمست صحفيّة لزميلها في شبّاك العلّيَّة وقد تذكّرت:

ـ زوربا، بوبولينا. تذكر؟

وهزّ رأسه وهو مازال يتابع حركات النسوة العنيفة وتلويح النادبات بالمناديل.

صاح المختار من أعلى ينهر النادبات:

ـ بس أنت وهي، تحشمن يا ولايا وخلّونا نشتغل.

وللتوّ همدت أصوات النسوة، وما عاد يسمع سوى صوت أقدام عارية تحفّ أرضيّة المصطبة كأوراق خريفيّة جافّة، وحين شدّت سميّة ذراع أمّها وناحت «يمّه قومي، يمّه، يمّه» زجرتها النسوة وأصابعهن تشير إلى علّيَّة المختار، وهمس «المختار، المختار». كبتت سميّة شهقاتها في كمّ أمّها، وانتقل خوف النسوة من المختار إليها، فازدادت فزعًا ونحيبًا.

وكان رشاد يقف بين أولاد الفلاّحين يمسح عينيه خفية ويتظاهر بعدم التأثّر. بسملت النسوة واستفاقت سعديّة من غيبوبتها وأسندت ظهرها ورأسها إلى الجدار بجوار النسوة النادبات. وتلفّت رشاد حواليه ليتعرّف على أولاد جيله. وحين اهتزّ رأس سعديّة على وقع الندب وهي تسترجع ذكرى زهدي وذكرى الأرض وذكرى اللّي راح واللّي جاي، أخرج رشاد مقليعته من جيبه، ومشى في أثره جوقة أولاد.

وانفجرت زجاجة مليئة بالنفط واشتعلت وراء سياج المستوطنة فانطلقت عيارات ناريّة واندفع في أثرها الجنود يحومون في أنحاء القرية. ركلوا هذه، وصفعوا ذاك، وأمسكوا برجل يحمل كيسًا ورقيًّا مليئًا بالبندورة والخيار وأشبعوه ضربًا حتى تمزّقت عضلاته وتمزّق الكيس وتناثرت الخضار.

ومرّ الناس أمام بوّابة المختار مهرولين وكلّ يحاول الاختباء في بيته. وظلّ الصحفيّون ينظرون من شبابيك العلِّيَّة ويسجّلون الحقائق والانطباعات ولا يكفّون عن نثر الأسئلة لكلّ من اجتمع في العلِّيَّة. ووقف أبو العزّ على الدرجات المؤدّية للعلِّيَّة ينظر فوق مستوى السور يراقب الناس وأعمال الجند. وشدّت سعديّة كمّ سميّة وهي تتلفّت حولها وتسأل بذهول:

ـ فين رشاد يا سميّة؟

وأحسّت أنّها غريبة في مكان غريب ولا أحد يعبأ بها وبهمومها. فترحّمت على الحارة وذكرت أمّ تحسين وأمّ صابر بالخير. ورأت نسوة متّشحات بالسواد وأخريات بوجوه عابسة وجباه مقطّبة فحلّ في نفسها خور بليد. ورأت لفيفًا من الرجال يحومون بين النسوة يكتبون وإحداهنّ تهمس، وعادل منكبّ على أوراقه ولا يعيرها التفاتًا، وأبو

العزّ منشغل عنها بمراقبة الناس وراء السور ولا يسأل عن أرضها التي أخذت منها، فأحسّت بوحشة ممزوجة بالنقمة وتمنّت لو أنّها لم تشتر الأرض ولم تبتعد عن الحارة.

واقترب منها أبو العزّ وابتسم ملاطفًا:

ـ كيف المعنويّات يا أمّ حمادة؟

غضّت بنظرها ولم تجبه. كانت تحسّ بالمرارة من موقف اللامبالاة الذي أعاره لها وهي التي فتحت له قلبها في ذاك اليوم كما لو كان حمادة. وتلفّتت حولها تبحث عن رشاد، ولم يكن لرشاد أيّ أثر. وطلبت من سميّة أن تذهب لعادل تطلب منه البحث عن رشاد، فذهبت سميّة وعادت لتقول لها إنّ عادل يسألها أن تذهب إليه لأنّه مشغول بالكتابة. أيّة كتابة؟ أيّة كتابة في الدنيا أهمّ من رشاد؟ أهذا هو رفيق زهدي وجار الرضى وسند الحارة؟ أيّ سند؟ عادل نسينا ونسي أهله ونسي زهدي ونسي الحارة، هذا هو عادل.

تمايل رأسها وهي تذكر النكبات المتتالية التي حلّت بها في السنين الأخيرة. منذ رحيل زهدي اسودّت الدنيا واسودّت الحارة ووجوه الناس. ولم يكن قد بقي لديها إلاّ أمل واحد، وهو الرحيل عن الحارة. تذكّرت كلّ الأحلام التي بنتها وهامت بها. وتذكّرت ما نالته من اتهامات بسبب شحادة وغير شحادة ممّن تردّدوا على بيتها بسبب متطلّبات العمل والخياطة. وتذكّرت مشاويرها المشؤومة لتلّ أبيب في سبيل لقمة العيش والأرض، وتذكّرت خضرة والحبس والحمّام وكل الهوان الذي مرّت به من أجل ادّخار تلك اللّيرات التي ضاعت هباء في ساعة أو أقلّ من ساعة. كل تلك السنين وكل ذاك العرق والشقا ووخزات الأبر في كل إصبع من أصابعها وصوت جوقة الماكنات الذي

لا يهدأ منذ الصبح حتى غياب الشمس. كل ذلك ذهب هباء؟ ماذا بقي لديها؟ حتى الدموع جفّت وما عادت تلبّي نداء الحاجة وأنين القلب. أين ذهبت الدموع!

تحسّست وجهها ومحاجر عينيها ومهابط الدمع، ومرّت أصابعها بجلد متهدّل في مواضع، مشدود في مواضع أخرى، وعند الأصداغ عروق تنبض ببطء وبلادة. هكذا إذن. ضاع الشباب وضاع العمر وشقا العمر وصبر سني الرملة، وضاع الأمل في سكنى دار لا تنساها الشمس. وتعود إلى الحارة بدون الأمل في هجر الحارة؟ أسعد الأوقات قضتها وهي جالسة على عتبة الحصير تحلم بالفراندة الزجاجيّة وصحون الألماس والشبشب الأحمر. ثمّ اشترت الأرض وأصبح الحلم حقيقة، وأصبحت زيارة الأرض أشبه بزيارة مشرفة لقبر الرسول. وكم جلست هناك في عصر كل يوم كانت تركب التكسي الشغّال على خطّ القرية وتنزل قبل بلوغ القرية بقليل وترتقي الطريق الترابيّة وهي تحلم باليوم الذي تصعد فيه ولا تهبط. كانت تجلس على الصخرة تنتظر الأذان المنطلق من مئذنة القرية، وكان الأذان يرفعها ويحيي روحها وروح زهدي الراحل معها. كانت ترى الأرض الخالية وقد حوت كل ما تمنّته وحلمت به. هنا حوض البقدونس وهنا حوض النعنع، وهنا قفص الدجاج.. وهنا الغرفتان الأساسيّتان اللّتان ستبدأ بهما في تحقيق مشروع الدار. وكل هذا ذهب إلى غير رجعة؟!

وأحسّت برأسها ينتفخ ويصبح قربة مليئة بماكنات خياطة لا تكفّ عن الضجيج. وامتلأ قلبها بنيران حمراء تتّقد وترتفع إلى عينيها وتخرج من أحداقها لهيبًا. لو أنّ البكاء يسعفها وتفرغ شحنات القلب المضغوط. لو أنّ الدموع تتفجّر من عينيها فتغسل وتغسل هذا السخام

المتلبّد في أعماق باطنها. لو أنّ أحدًا يسمع شكواها كما يستمع عادل إلى شكاوى هؤلاء الفلاّحين.. لا أحد يسأل عنها، حتى أبو العزّ الذي فتحت له قلبها نسيها.

ونظرت إليه، وكان مازال يقف على درجات العلّيّة يرقب الناس من وراء السور ولا يتحرّك. في ذاك اليوم تبعها إلى الأرض الجديدة وذكّرها بالحارة وفي عينيه ونبرته اتهامات وعتاب. وقال لها كلامًا جميلاً مازالت تذكره وستظلّ تذكره حتى لو نسيه أبو العزّ نفسه. قال لها: «أنت يا سعديّة أمّي، والحارة بدونك ما تنداس». إذن، لهذا لم يعبأ أبو العزّ بخسارتها وضياع الأرض. يريدها أن تظلّ قابعة في الحارة لا تفارقها، وأن تظلّ مع الناس الآكلين الناكرين الحاسدين المتشكّكين. وما يهمّ أبو العزّ من أمرها؟ أهو الأرملة المسؤولة عن أفواه الأطفال؟ أهو الحرمة المسؤولة عن تصرّفات عملتها وما عملتها أمام هؤلاء الناس؟ أهو المشبوه؟ أهو المتهم؟ أهو المجروح في صميم القلب والكبرياء؟ هو رجل وهي حرمة. هو ابن الكرمي وهي ابنة أبو شمر بيّاع الطمريّة. هو الأعزب وهي أمّ الأولاد. هو وارث المزرعة وهي التي ما ورثت إلاّ تنكات الماء والرملة وهمّ الأولاد. كيف يفهم ما تحسّ به وما تقاسيه وما ترزح تحت وطأته؟

لو أنّ الدمع يلبّي حاجتها ويغسل سواد قلبها ويسلّي وحشتها! ولكن، حتى الدمع نسيها وأهملها كما يفعل عادل وأبو العزّ. وهؤلاء الشباب من هم؟ وهذه الفتاة المدنيّة من هي:

وندبت النسوة بصوت خفيض:

يا ريت البارود يغور في تراب   عمنه صواري ما حَماش صحابه

يا ريت البارود يغور السهلة عمنه صواري ما حماش أهله

لا تضرب يا أبو إيد مسودّة ريت رقبتك للشنق ممتدّه

لا تضرب يا أبو النجمة خيّاله ريت قلبك للذبح ميّاله

وذرفن الدمع ومسحن وجوههنّ بالمناديل وهي تتأمّلهنّ بجمود وذهول. أيّ يوم مشؤوم هذا! تحقّق ما سمعت الناس يتناقلونه. قالوا إنّ أراضي المنطقة كلّها قد صودرت. صودرت؟ أي أقاموا عليها المستوطنات. وأرضها هي بالذّات؟ مستحيل، لا يمكن. ولم تصدّق إلاّ حين فتحت أمّ تحسين نافذتها المغلقة منذ أشهر ونادتها وتحدّثت إليها بلطف وعطف. بعد كلّ تلك الأشهر من الخصام تفتح أمّ تحسين نافذتها؟ بعد كلّ تلك الخناقات والاتهامات والتشنيعات المتبادلة تلاطفها أمّ تحسين! ودبّت النار في قلبها فسحبت أولادها وانسلّت من المدينة أثناء ساعة الإفراج خلال منع التجوّل. كل الناس هرعوا إلى الدكاكين يشترون الخبز والطحين والسكّر، وهي الوحيدة التي لم تعبأ بالأكل أو الشرب. لأوّل مرّة منذ بدء أمومتها لم تعبأ بالمسؤوليّة الرئيسيّة في حياتها، ونسيت طعام الأولاد وطعامها وسحبتهم وراءها في أوّل ساعة إفراج. وكانت ساعة سوداء لا أذاقها الله لمحبّ أو صديق. الجرّافات تجرف الأرض وتمشّطها من الصخر وتحيل زيتونها ركامًا، وقال لها والبارودة بيده «امشي». قالت «أرضي». «امشي». «أرضي». هزّ البارودة في وجهها ولم يقل شيئًا آخر.

ومشت والأولاد يتبعونها كالخراف. رأت بعض الفلاّحين يحملون المعاول والقفف ويتّجهون نحو القرية ونسوة هناك يلوّحن بأيديهنّ لجندي آخر والرجال صامتون، وهزّ الجندي بارودته فمشوا. لحقت بهم، سألتهم، لوّحوا بأيديهم وساروا باتجاه القرية يطلبون النجدة

والمختار. وأين هو ذاك المختار؟ هذا الفوج من الفلاّحين الذين تكاد الحاكورة أن تضيق بهم، وهؤلاءِ الشباب الشبيهون بعادل، وتلك الفتاة المدنيّة التي تكتب كما يكتب الرّجال. أين المختار من كلّ هؤلاء؟

وعادت النسوة للنواح:

يا حرّى على المقاتلين — على اللّي في دماهم غارقين

بات الوحش وارد عا دماهم — كأنّ الوحش وارد ع غدير

بات الطير ينقل في شوشتهم — كأنّ الطير ينفش في حرير

وانطلق صوت المختار من شبّاك العلّيّة:

ـ بس إنت وهي. عيب يا ولايا قدّام الأجانب.

إذن فذاك هو المختار. ودبّت في نفسها حمية أحيت خوار نفسها. فاتّكأت على الحائط ووقفت وهي لا ترى أمامها إلاّ هدفًا واحدًا، المختار.

استوقفها أبو العزّ على الدرجات وسألها عمّا تطلب. لم تنظر في وجهه ولم تحبّ سؤاله. وكانت سميّة تتبعها وعزيز الصغير يشدّ بذيل ثوبها ولا يفلته. وحين ألحّ في السؤال لم تجبه إلاّ بكلمة واحدة «المختار». قال شيئًا لم تسمعه. تحرّكت يده باتجاه الناس وراء السور وأشار بإصبعه إلى رؤوس الجمع المرتصّ من الفلاّحين والشباب والنادبات في الحاكورة. وعادت تردّد بإصرار وإلحاح «المختار». وسألها أسئلة تتعلّق بأوضاع الناس في البلد القديمة، فأحسّت بروحها تزهق تحت عبء إلحاحه، فاندفعت تصعد الدرجات دون أن تكلّف نفسها عناء الرّدّ أو النظر في وجهه. فماذا يعنيه من أمرها؟ وماذا يعنيها من أمره؟ هو الأعزب، الرجل، الوارث الذي لم يفقد مزرعته أو

أرضه. قال لها أنت يا سعديّة أمّي. عاملها بهذا الإهمال وهي أمّه فكيف لو لم تكن!

ووقفت في باب العلّيَّة المفتوح على مصراعيه، وكانت الغرفة تعجّ بالرجال الشقر والسمر وآلات التصوير والسمّاعات وفناجين القهوة وأكواب الشاي. ورأت أحد الرّجال الشقر يحمل على كتفه جهازًا أسود وفي يده كاميرا يصوّر بها الحضور بشكل دائري. وكان المختار يتحدّث إلى فتاة أجنبيّة تجلس أمام جهاز آخر وتحمل بيدها سمّاعة بحجم البرتقالة. وكان المختار يقول:

ـ الحكم الذاتي؟ إيش يعني الحكم الذاتي؟ يعني لا أرض ولا ميّه ولا زرع؟ حتى الإنكليز ما عملوا هالعمل فينا.

وسأل الأجنبي سؤالاً قام بترجمته رجل يجلس إلى جانب المختار:

ـ وما رأيك بالدور الأميركي لإحلال السلام؟

تدخّل شابّ بصوت قوي وصاح من طرف الغرفة:

ـ المختار قال من البداية إنّه رجل على قدّ الحال ولا يعرف السياسة الدوليّة.

وترجم المترجم. وتوقّف رجل الكاميرا عن الدوران. وكبست الصحفيّة زرّ الآلة أمامها. وارتفعت الأصوات من هنا وهناك والمختار يلوّح بيده للحضور كي يهدأوا فلم يفعلوا. ووجدت سعديّة فرصتها المناسبة لترفع صوتها هي الأخرى وتنادي المختار:

ـ يا مختار.

لكنّ المختار كان مشغولاً بالتحدّث إلى الصحفيّة والمترجم يترجم. ورطن الأجانب فيما بينهم وسعديّة مازالت في الباب. وقال المترجم:

ـ يطلبون منك أن تعيد ما قلته عن وسخ الغرب.

صاحت سعديّة بفراغ صبر:

ـ يا مختار!

لوّح المختار بيده مشيرًا إلى وجوب التزام الصمت، فصمتت على مضض وعادت إلى مراقبة ما يدور في الغرفة رغمًا عنها.

قال المختار وقد ارتفع صوته وتهدّج:

ـ بقول لكم يا عمّي الناس وهموم الناس وحقوق الناس، تقولوا لي «وأميركا». يهدّوا الدور وينسفوا البنا ويطلبوا أجرة الهدم والردم. يحرثوا الأرض ويقلعوا الزرع والشجر ويحرقوا أنفاسنا وجايين تسألوني عن أميركا! محروق أبو نفس أميركا وملعون أبو كارتر من هون ليوم القيامة.

سأله المترجم بحيرة:

ـ أترجم؟

احتدّ المختار وصاح وهو يلوّح بيديه:

ـ ترجم ولا يهمّك، قول اللّي بقول لك عليه. قول ولا يهمّك، أكثر من هالقرد ما سخط الله. بدّهم يحبسوني؟ يتفضّلوا يحبسوا، ما ظلّ من العمر قد ما مضى، وهي موتة، لا مقدّمة ولا مؤخّرة، وما يأخذ الروح إلاّ اللّي خلقها وعزراييل. على إيش نخاف؟ لا أرض ولا ميّه ولا زرع؟ الله أكبر يا عالم، وبعدنا نخاف؟

وارتفعت الأصوات من أنحاء الغرفة، وصفّق أحدهم، وتلفّت الأجانب حولهم وألحّوا على المترجم أن يترجم. فتساءل المترجم بحيرة:

ـ أترجم؟

دغره المختار في كتفه وصاح:

ـ بقول لك ترجم، يحرق اللّي مات لك يا خايس. ولك ترجم. قول لهم ما ظلّ إشي نخاف عليه. قول. بس يا جماعة اسمعوا. ولك ما جابر أنصت من غاد. قولوا لهالنسوان تحت ينصتن.

وقام إلى الشبّاك مسرعًا ومدّ رأسه وهو يمسك بحطّته:

ـ بس إنت وهيّ. . أحسن إلعن عظام اللّي مات لكن. بس قلّة حيا وقلّة دين. روحن لبيوتكنّ عاد وخلّونا نشتغل.

وعاد المختار إلى مجلسه في صدر العلّيَّة ينتظر المترجم أن يفرغ من حديثه. وكان الصحفيّون يسجّلون في أوراقهم وأدمغتهم انطباعات موضوعيّة عن الشرق وابتسامات رصينة تحيط بوجوههم البيضاء. وانسحبت سعديّة بهدوء، وعادت تنزل الدرجات وعزيز مازال يتمسّك بذيل ثوبها المغبر.

(٣٥)

بمجرّد أن سألتها الشابّة عن قصّتها اندلعت. كانت تحسّ بالنار تلتهم قلبها ورأسها وتتفجّر في أصداغها. وكان العرق يتسرّب من جبينها وينسحب إلى عنقها، وحبّات من الماء البارد تسيل على ظهرها وتصل خصرها. أصوات الناس تدوّي كطنين النحل. العيون الباكية والجباه المتحجّرة والشفاه المطبّقة جعلت دنياها أضيق من فتحة أنفها. حاولت استنشاق الهواء فتعذّر التنفّس. فتحت ياقة ثوبها ورفعت أكمامها عساها تخفّف من وطأة الحرّ، لكنّ الصيف وأصوات الناس والأرض المفقودة زادتها احتراقًا. وصوت طلقات وراء السور ذكّرتها باليوم المشؤوم. سقطت مغرفة العدس من يدها وصاحت وهي تتأمّل وجوه الرجال. يا ويلك يا سواد ليلك يا سعديّة. لو أنّ البكاء يسعفها. ولم تسقط من عينيها دمعة واحدة.

شدّ عزيز ذيل ثوبها وبكى:

ـ أنا جوعان يمّه.

ولعنته ولعنت أمّه ولعنت أباه ولعنت الدنيا بأسرها، فارتدّ مذعورًا والتجأ إلى أخته، وجلس الاثنان في الزاوية يبكيان. وانشغل أبو العزّ بالطفلين لكنّها لم تره، ما عادت ترى إلاّ وجه رجل واحد، وما عادت تسمع سوى كلمة واحدة. قال لها «امشي» ومشت، ومازالت الدنيا تمشي بأقدام أغلظ من أقدام فيل، وهي النملة.

قالت الشابّة بلطف:

ـ من البداية يا سعديّة، من البداية.

قالت بِغلّ:

ـ من البداية قال الشاويش راحت علينا، رحنا بلاش. وشفت رجليهم في سيّارات الشحن تلوح مثل أكمام قميص على حبل غسيل.

قالت رفيف.

ـ من هم؟ اهدأي وركّزي حتى أفهم.

نظرت في وجه الفتاة بذهول. «تفهمي؟ واحدة مثلك تفهم واحدة مثلي؟ لا ولد ولا رملة ولا أرض ولا ماكنات خياطة ولا إبر، أنت تفهمين؟ فهّميني كيف رح تفهمي».

أبو العزّ نادى الشابّة وكلّمها همسًا، وعادت إليها وفي عينيها إصرار أكبر:

ـ يا أمّ حمادة، من البداية، من البداية.

وتداخلت الصور وتذكّرت أيّام الرملة الأولى، وتذكّرت جلساتها الطويلة على مصطبة النافذة تتأمّل المارّة بذهول. كانت النسوة تحيط بها وهي ذاهلة عنهنّ. وكان الأطفال يسترقون النظر ويمشون على أطراف أصابعهم. لم تكن الدار تخلو من النسوة والمعزّين. سيل من الناس، أفواج تروح وأخرى تجيء وهي تجلس على المصطبة تشدّ رأسها بالعصبة ولا ترى إلاّ وجه زهدي ماثلاً أمام عينيها لا يفارقهما. وكانت تصيبها ساعات انهيار فتفقد وعيها وتغيب عن الدنيا ولا تحسّ بشيء إلاّ بالموت. وتصيح في خواء اللّيل البارد. «يا زهدي، تركتني لمين يا زهدي»! ويهبّ الأولاد من فراشهم ويتكوّمون حولها يبكون

بصمت. ومرّت الأيّام واستعادت صحوتها، لكن قلبها ظلّ مجروحًا كحيوان مصاب في غاب مسكون، وعيون مضاءة بالفوسفور تتربّص بها وتنتظر لحظة الخور التام لتبدأ بالانقضاض. وها قد بدأ، بل استكمل.

قالت وعيناها مفتوحتان بجمود:

ـ ما نسّاني همّه وهمّ الدنيا وما شغلني عنهم إلاّ حلم واحد. كنت أحلم ببيت على أرض نظيفة. أنت لا بتعرفي البلد القديمة ولا بتعرفي حاراتها. لا شمس ولا هوا ولا نظافة ولا حال مستور. فضحوني وهتكوا عرضي وخلّوني أشوف نهاري ليل. ويلي الرملة وويلي همّ الأولاد وهمّ اللّقمة وغرامات رشاد وكلام الناس، وكمان يا ربّي همّ الأرض، حاسّي النار طالعة من نافوخي ويمكن إنجنّ، فاهمه إيش إنجن؟ فاهمة؟

قالت الشابّة ورأسها منحن على دفترها ويدها تسابق القلم:

ـ فاهمة فاهمة.

قالت سعديّة بحدّة:

ـ وإذا فاهمة إذن ليش بتكتبي؟ اسمعيني وتطلعي في وجهي وأنا بحكي إذا كنت فاهمة. بس لا أنت فاهمة ولا الناس فاهمة ولا الله فاهم.

وعادت تحملق بجمود وأطبقت فمها وما عادت تستجيب.

ودارت السمّاعة في القرية تعلن «بأمر من الحاكم العسكري كل ذكر من سن الثالثة عشرة وما فوق مطالب بالذهاب إلى ساحة المدرسة». وأمسكت سعديّة رأسها وهمست بجفاف:

ـ رشاد.

قالت الشابّة بإصرار:

ـ بكم اشتريت الأرض؟

أحسّت بخنجر يخترق أحشاءها فصاحت:

ـ بدم القلب ودم الأصابع وسهر الليالي ومشاوير الشركة وتلّ أبيب. أرضي، ولك أرضي! بعرقي ودموعي ورملتي وسواد اللّيل ويتم الأطفال. أرضي!

ومدّت كفّيها للشابّة وهي تحملق فيها:

ـ شوفي، شوفي، ما إصبع إلاّ وفيه غزّة إبرة. لا كشتبان نفع ولا البال الرايق خلاّني أفرّق بين القميص وبين إيدي. وكل الجلبات الرايحة، والجلبات الجاية، ما ظلّ منها ولا حبّة تراب! كل الشقا جمعته بهالأرض، وراح الشقا وراحت الأرض وما ظلّ إلاّ كوم الأولاد ولسانات الناس. أرجع للحارة إيد من وراء وإيد من قدّام؟ وبعد كل اللّي ذقته وتحمّلته من السهر والناس ما يظلّ إلاّ سعديّة وسيرة سعديّة؟ الموت يسبق.

«كلّ الذكور من سنّ الثالثة عشرة وما فوق مطالبون بالتوجّه إلى ساحة المدرسة فورًا».

هبّت سعديّة عن الأرض وتوجّهت نحو الباب فتبعها أبو العزّ وشدّ بها.

ـ اهدأي يا سعديّة.

ـ رشاد، رشاد.

ـ مثله مثل غيره يا سعديّة.

شدّتها رفيف وأجلستها إلى جوارها في زاوية تحت الدرج، وبدأت أفواج الرجال الصامتين تأخذ طريقها نحو باب السور. وخرج الصحفيّون وتوجّهوا نحو سيّاراتهم ليغادروا القرية. ومشى عادل وخضرون وأبو العزّ والآخرون نحو الزيتونة حيث تقبع السيَّارة، وبقيت رفيف إلى جانب سعديّة والنسوة يحطن بها بصمت. كفّت النادبات عن البكاء وتسمّرت العيون على باب السور المفتوح ترقب الرجال الصامتين يمرّون في طريقهم نحو المدرسة.

قال خضرون وهو يستدير بسيّارته إلى الخلف بعنف:

ـ سأهزّ إسرائيل بيدي هذه.

قهقه سالم ولم يعلّق. ومشت السيّارة في الطريق الغربي وطارت، وطارت معها أنفاس أبو العزّ.

«في يوم من أيّام الصحو سيرتفع غمام أبيض، ويصبح العالم شفّافًا جدًّا، والزهور قطرات ندى. وتهبّ الريح تسبق أوراق الخريف وجنوح اللّيل. ومع السمّاعة ينطلق أذان أزرق، يسري فوق الغابات والوديان وقمم الجبال ورؤوس الشجر، يتداخل في الظلمة نورًا، تصحو الغابات من نوم عميق، وتتراقص، تطفو تلمع تخبو تقفز ترتجّ فتنطلق الأفواج. طيور بيضاء بمناقير حمر وأجنحة كالرّيح. اسبق الرّيح يا خضرون أسرع، صالح مازال وراء الصحو».

قال خضرون:

ـ عند الضوء نفترق، تتّجهون إلى القدس وأنا وأبو العزّ إلى تل أبيب.

سأل عادل أخاه:

ـ هويّتك معك؟

هزّ رأسه وحملق في هشيم الزجاج ودوران المشاهد وحدود الأرض.

«لا تبتئس، هويّتي معي، حملتها عمرًا ودهرًا، حفظوها في ملفّاتي وزنازين السجن، طبعوها فوق سواد القلب وثني العين فأغلقت الأهداب عليها. ومرّت الأيّام ومزّقت النابات عظامي وظلّت مصونة. غابت عن عيون الجميع إلاّ عيوني، كانت هناك. رأيت العالم فيها ومنها سيراني العالم. وبرموشي أطرد الذباب عنها، وبها أطرد الجوارح والجنّ الأزرق. ويوم يجيء فأجعلها رداء يتّسع لكل المحرومين. أسرع يا خضرون أسرع، أنا وأنت وآلام الشعبين وكل الشعوب. أحلم؟ دعني أحلم، لكنّي مازلت أحملق في وجه الأرض».

وانطوت المشاهد. أشجار تركض، حقول تنطوي، مروج وهضاب وطيور، وشارة الوقوف والضوء الأحمر.

قالت سعديّة وقد بدأت تصحو من غفلتها:

ـ وأخذوا رشاد؟

أمسكت رفيف بيدها وهمست:

ـ اهدأي يا سعديّة، عيب، كل النساء أمّهات مثلك. ومثل غيرك مثلك.

صاحت:

ـ أنا ابني ابن الرملة وابن الليالي السود وغزّات الأبر.

ربتت رفيف كتفها وبدأت تهمس في أذنها، وظلّت تهمس.

واصطفّ الرجال في ساحة المدرسة الكبيرة صفوفًا مرصوصة.

داروا بينهم يستفزّون هذا ويصفعون ذاك، وأمّك وأختك ودينك، وعرافيم ملوخلاخيم والسادات باس صرمتنا وصرمنا، إنتو يا فلسطينيين تطلعوا راس! خذ، خذ، خذ. وقست نظرات الرجال وتحجّرت ملامحهم. ونفّذوا الأمر دون نقاش وقرفصوا. ورنّت أصداء البساطير على إسمنت الساحة بدويّ، وطارت معها أفئدة الفلاّحين.

قال خضرون وهو يمسح وجهه:

ـ أحسّ بالعجز والانفصام. أريد ولا أريد. أريد أن أمدّ يدي وأخاف أن تتلقّفها الغربان فتهتزّ. أريد أن أرى وأن أسمع وأن أظلّ حيّ الحواسّ. لكنّ العذاب بالمرصاد، ولست مازوخيًّا رغم أمراض البيئة. في القرية كنت قريبًا منه. أودّ لو أهرب كي لا أرى.

همس أبو العزّ من خلال الزجاج:

ـ وما نفع الهرب؟

ـ أعرف، ولهذا فأنا مازلت هنا، مازلت أحاول، ومازلت مثلك أتلقّى الضرب.

ـ شتّان.

ـ ليس الأمر كما تتصوّر، أتعرف إحساس الحرّ في مجتمع كئيب؟

ـ أعرف.

وحملق في هشيم الزجاج.

«لا تذكّرني. تاريخي أطول من سينا، ورمالي أحرق من جدّي وملوك النفط. الجرح الساخن في الجبهة وجمود الدم. لكنّي أعرفها سلفًا. حكاية النملة والفيل».

ـ لا لن تعرف، لديكم، يثور الحرّ على الأنظمة، أمّا هنا فالناس

هم الجلاّد. النصر زادهم استعلاء، وفقدوا البصيرة والذاكرة. حرب الستّين أغوتهم، والاحتلال زادهم انحلالاً، وغوش إيمونيم هي ابنة النصر المبين، وشالوم عخشاف هي ابنة مأساة السبعين. بدأوا يصحون، العرب ليسوا قصار الباع إذا قصدوا. لكنّ الدولة تمغنطهم. خافوا، ويقيني الخوف يؤدّبهم. النصر يزيدهم جنونًا، جنون العظمة. أمّا الهزيمة فهزّتهم، وشالوم عخشاف هي الثمرة. هل تفهمني؟

ـ آكل العصي ليس كمن يعدّها.

ـ تذكّرني بذاك اليوم. كنّا حوالى الخمسين، نحمل اللافتات والمناشير ولا شيء أكثر. انتظمنا في جماعات صغيرة واتجهنا نحو الجامعة العبريّة. سمعنا الضابط والووكي توكي «اضربوهم». مجموعة الدروز رفضت فجاؤوا بآخرين ضربونا حتى دخنا. لم نقاوم الضرب ولم نهرب، واعتقلونا.

ـ أسألك سؤالاً قد يحرجك؟ ما موقعك في إسرائيل؟ اقصد شعبك؟

نظر إليّ بالورب وابتسم:

ـ يرتدّ السؤال عليك.

أطلق أبو العزّ قهقهة جافّة:

ـ أفهم، لكنّي بين ناسي رمز الوفاء...

ـ لا تكمل، فهمت. نعم، ينظرون إليّ كما لو كنت صميم الخيانة، وربما كنت كذلك، لكنّ السؤال الأهمّ هو ما يلي: حين ينحرف المدّ هل تلقي بنفسك في عرض التيّار؟

قالت سعديّة:

ـ أرجع للحارة إيد من وراء وإيد من قدّام؟ فضحوني وهتكوا عرضي وهدّوا حيلي. وأطلع من المولد بلا دين ولا دنيا؟ ويكون ما نالني غير الرملة وسهر الليالي وشماتة الناس!

ـ شماتة، ومن يشمت بهمّه؟

تأمّلت الشابّة وابتسمت ابتسامة صفراء. «أنت يا بنت إيش عرّفك بالدنيا؟ هاي إنت ما شا الله عنّك، شباب وجمال ومال وعلم ووجاهة. بتفكّري كل الناس مثلك؟ لابسة بنطلون وقاعدة بين الرجال القلم بإيد والسيجارة بإيد ولا وراك فاطمة ولا محمّد. وأنا اللّي إن غبت عن بيتي ساعة تنهدّ الدار وتنهزّ الحارة. وجاية تقولي لي عيب يا سعديّة، شماتة مين يا سعديّة؟ مين يشمت بهمّه يا سعديّة؟ يا شيخة حلّي عن ديني، والله ما أنا طايقة أشوفك ولا أشوف حتى أولادي».

واقترب منها عزيز ولمس يدها بحذر، فصاحت به:

ـ روح إنت الثاني، صار القلب صدا وما عاد يسأل عن حدا. أنا عارفة نتعب لمين ونشقى لمين؟ كله رايح يا رملتي. كله رايح. الجوز والابن والأرض والشغل والسمعة بين الناس. بس قولي لي ليش الله خلقنا؟ عشان نتعب ونشقى ونترمّل وننفضح بين اللّي يسوى وما يسواش؟ ونخلّف الأولاد لمين؟ لهالعكاريت يمسحوا فيهم الأرض ويخلطوا دمهم بالتراب؟

وكانت الشابّة تحملق في وجهها تستوعب الخلفيّة والأحداث.

ـ مالك بتبحلقي فيّ؟ عمرك ما سمعت كلمة عكروت؟ عمرك ما عرفت عكروت بزمانك؟

ـ سمعت وعرفت.

ـ سمعت وعرفت؟ وناقص تقولي جرّبت.

ـ جرّبت.

ـ أنت جرّبت؟ وإيش جرّبت يا حسرة؟ جرّبت الرّملة؟ جرّبت الفضيحة؟ جرّبت همّ الأولاد الملزّقين بالرقبة مثل العلقة وما تحلّ عنها إلاّ لمّا تمصّ آخر نقطة دم؟ جرّبت الماكينة ودوشة الخياطة ومشاوير الشركة وعكرتة الرجال؟ جرّبت لمّا واحد يستوطي حيطك ويستفرد فيك وما يرحم بابك ولا يرحم رملتك؟ جرّبت الحال المايل اللّي يصعب على عزاريين وما يصعب على ربّك؟ جرّبت حال خضرة اللّي تبيع حالها وحيلتها عشان لقمة ونقطة دوا؟ جرّبت؟ ولك بس. بس. خلص. مش طايقة أشوف حدا ولا أسمع حدا ولا أحكي مع حدا.

وبكت الشابّة أمامها وأمسكت بيدها وهمست:

ـ يا سعديّة همّك همّي، صدّقيني.

ـ طيّب، وتشرّفنا، وبعدين؟

وبكت رفيف بحرقة وتذكّرت مرارتها وهي تواجه أفراد الهيئة وهم يذكّرونها بتعاطفهم وتحالفهم، ألم تكن الكلمات نفسها بحروف مختلفة؟ وماذا أفعل بهذا الحلف؟ أنقعه وأشرب ماءه؟ وسعديّة ماذا تفعل بتعاطفها هذا؟ تنقعه وتشرب ماءه؟ وأحسّت بالعجز التامّ فخارت عزيمتها وانهارت معنويّاتها. فماذا باستطاعتها أن تفعل إزاء كلّ هذا؟ وما قيمة ما تفعله؟ وما الذي تفعله سوى خوض صراعات جانبيّة مع عادل وسالم والأستاذ عطا الله والأستاذ بديع؟ وماذا حقّقت حتى الآن؟ لا شيء سوى إطلاق صرخات الندهة في واد مفغور الفم. وما نفع هذا؟ نصف المجلّة؟ أيّة نكتة! وماذا ستفعل بنصف المجلّة؟ تكتب فيها عن تجارب لم تخضها؟ أين أنا منك يا سعديّة!

وقالت من خلال دموعها:

ـ أنا وأنت يا سعديّة نكتب للناس ونهزّ الضمائر.

حدّقت سعديّة في وجهها وقد علت فمها أمارات القرف:

ـ نكتب للناس؟ أيّ ناس؟ هم بس يحلّوا عنّا يا شيخة. هو مين اللّي خرب الدنيا وهدّ الدور وفضح الأرامل والمطلّقات وقطع اللّقمة عن تمّ الأولاد؟ مش الناس؟ ومين حطّ محطّتنا وهتك سترنا ودعى علينا وسخط كبيرنا قبل صغيرنا؟ مش الناس؟ لمين نحكي ولمين نشكي؟ إذا ربّك مش سامع ليسمعوا الناس! اسكتي يا شيخة اسكتي، والله حاسّه رأسي نافورة نار ودمي حامي ولا الكبريت. والله والله لو بإيدي قنبلة لأنسف العالم وما أخلّي من ريحة الناس ناس.

وندبت الندبات بصوت خفيض:

خذوا النار يا اللّي توخذن الثار خذوا ثارهم لا يروح معيار

خذ لي ثارهم يا مختار يا كبير خذ لي ثارهم وارحل عالمغير

هاتوا البارودة وقرّبوا جلبتها وإلاّ احرقوها واشعلوا دخنتها

فصاحت سعديّة بجنون:

ـ بس، بس، صرعتونا. مش ناقص على الدنيا إلاّ نواحكم! أخذوا رجالكم ورحّلوا جمالكم وبعدكم بتنوحوا. يا خيبتكم من دون الناس يا ناس!

وقامت عن الأرض وركضت نحو درجات العلّيّة وبدأت تقفز الأدراج قفزًا. وتبعتها رفيف راكضة، ووجدتها تقف أمام النافذة الغربيّة تنظر إلى ساحة المدرسة حيث يتكوّم الرجال صفوفًا مرصوصة على

الأرض. وكان الجنود يعتلون الأسوار فوق رؤوس الرجال وفي أيديهم بنادق تلمع تحت وهج الشمس.

عضلاتهم توتّرت تحت ثقل أجسامهم فتأرجحت بعض الأكتاف، وهوت عصا في يد الجندي على ظهر كهل فخارت قواه وارتمى على الأرض وارتفعت همهمات واحتجاجات. وامتدّت عصي كثيرة وتناثرت طرقات هنا وهناك، ونزفت أنوف وتورّمت رضّات وصاح شيخ بصوت خائر:

ـ الله أكبر عليكم يا ناس!

والتفتت سعديّة إلى جارتها وحملقت بوحشيّة:

ـ وتقولي ناس؟ أيّ ناس يا هبله؟

بلعت رفيف الإهانة وهمست:

ـ معك حقّ.

ـ وابني؟ رشاد فين؟ لو أشوفه واطّمن عليه.

وعادت تمسك بقضبان النافذة تتأمّل الرجال. بحثت بين الوجوه البعيدة عن وجه رشاد، وانطبعت صورة رشاد في كل الوجوه وما عادت تقوى على التمييز. واخترقت أشعة الشمس الحامية عينيها فتراقصت الأشكال وتماوجت. وتماوجت أكتاف المقرفصين فهوت العصي وتمزّقت عضلات وتشنّجت جباه وسال العرق. ومن خلال مكبّر الصوت سمعتهم ينادون على أبناء المدرسة ويلقطونهم فردًا فردًا. أوقفوا الفتيان في صفّ دائري طويل وانتقوا بضعة مارسوا عليهم تجاربهم في تلقين الدرس. وسمعت صرخات ألم وصوت أحدهم يصرخ «منشان الله». وقف الشعر في رأسها وقفزت عيناها من محجريهما وصاحت من وراء القضبان:

ـ لاء لاء لاء لاء.

ودارت الدنيا واحمرّ العالم ورقصت نجوم وأقمار أمام عينيها فاختلّ توازنها. تمسّكت بالقضبان تتدارك السقوط وفرار الروح، وارتطم رأسها بالحديد فازداد العالم احمرارًا. خضرة. وعاد صوت الفتى لصراخه «منشان الله». وضاعت الصرخة في كوابيس الضباب ورجع الصدى وقرقعة الطاسات وارتطام الأجساد الساخنة الموتورة. وأحسّت بيد تشدّها من الخلف لكنّها تمسّكت بالقضبان تتحاشى السقوط. وصاحت تدافع عن وقفتها:

ـ لاء لاء لاء.

وأحسّت بماء بارد ينصبّ فوق رأسها فاستعادت صحوتها وعادت تحملق في النافذة. رشاد. رشاد. وبحثت في كلّ الوجوه عن وجه رشاد، ورأت في كلّ الوجوه وجه رشاد. همست بتشنّج «ابني». وانطبقت أسنانها وبدأت تصطكّ، وارتجفت يداها على الحديد وانثنت ركبتاها فهوت على المصطبة ومازالت تتمسّك بالقضبان. اختفى الصحو وحلّ ركود بطيء ومشت الساعات ببطء.

كم ساعة مرّت وهي في موضعها؟ غاب الزمن وارتدّت عقاربه ثمّ ركضت وتراجعت وقفزت ثم نامت.

همست رفيف وهي تمسح وجهها بالماء:

ـ أمّ حمادة، سعديّة، يا أختي يا سعديّة، حبيبتي سعديّة.

هبّت من غيبوبتها ورفعت رأسها عن حجر الفتاة وعادت تمسك بالقضبان. ورأت الأجساد المرصوصة في ساحة المدرسة مازالت في وضعها وموضعها. نظرت في الساعة تتأكّد من الوقت ومرور الزمن،

ولم تر إلاّ دائرة سوداء تحيط بمعصمها، وحلقة معدنيّة تلمع تحت وهج الشمس. وعادت تحملق في النافذة، ورأت الفتيان يركضون في الشارع المرصوف بالحجارة وشظايا الزجاج وفروع الشجر: سيّارة جيش تركض وهم يركضون أمامها، أرانب تهرب من صيّاد. وارتفع صوت شيخ ينتحب:

ـ حرام عليكم يا ناس!

ودوّت طرقة فارتمى على الأرض وارتفعت صيحات. ودوّت طرقات أخرى وساد الصمت. وهمس صوت بين الرجال «نقف؟» اهتزّت رؤوس وانطبقت شفاه المسنّين وبسملت تردّد الآيات والدعوات. هبّ الشباب وقوفًا وظلّ الكهول والشيوخ في موضعهم وارتفعت العصي وهوت. وتهاوت الأجساد وعادت ترزح في القرفصاء.

قال أبو العزّ لخضرون:

ـ أنزلني عند المفرق، لن آتي معك.

ـ تنزل في منتصف الطريق. وأين تذهب؟

ـ لن أحلم أكثر، سأعود إلى القرية والناس.

ـ وتتركني؟

ـ وجهتك هناك، وأنا سأعود إلى القرية.

ـ وصالح ومشروع الغد؟

ـ اليوم أعود إلى القرية وغدًا نعود إلى صالح.

ـ ولكن!

ـ لن أحلم أكثر ولن أسبق الزمن بوعود الغد.

ـ بدأوا يصحون، ألا تؤمن؟

ـ بلى أؤمن، لكنّيَ الآن مشغول بعذاب اليوم.

ـ هم في الطريق إلى القرية، مئات يا بو العزّ، مئات.

ـ من هم؟ جماعات أنصاف الحلول واللافتات؟ أنا لا أريد السلام الآن، أريد السلام الآن ـ غدًا.

ـ أوّل الطريق.

ـ وأنا مازلت في أوّله. أنزلني هنا.

ـ ألن نلتقي؟

ـ بلى نلتقي.

«أنزل هنا. تتلقّفني الأضواء واللّون الأحمر. أعود إلى القرية والناس. أمشي على الدرب المحفوف بآمالي ووعود الغد. لكنّ الطرق المرصوفة بوجوه أجمد من فلقات الصخر! بشرات البيض تعذّبني وجنوح الغرب، لكنّي يا صالح أمشي على الأوتاد وصمت القبر. نادىٰ يا صمت المغلوبين. دوّى بقنابل موقوتة. لكنّي حين أعود هناك، سأنفجر بقنبلة ودموع. الضحك نسيناه وما عدنا نتبسّم في وجه أبيض. وجه أبيض، قلب أسود، وجراحًا تنزف هيروشيما. يا عالم قف. خضرون يقول «ألن نلتقي؟» وأنا أقول «بلى نلتقي».

ومشت نحو القرية ألوف. طلبة، معلّمون، أساتذة جامعات وأفراد كيبوتسات. وقامت في الشارع حواجز وبنادق جند. وارتفعت لافتات تحمل نداءات عبريّة «الاحتلال انحلال». «أين الحرِّيَّة من شعب يستعبد آخر». واصطدم الناس بالشرطة. عصي، طرقات، أفواه

تصرخ، تشتم، ترتدّ الأفواج على الأعقاب، تتناثر على الأرصفة تحت وهج الشمس.

وسال العرق. أنين العضلات تحت الأجساد المرصوصة. وشيخ يستحلف جنديًّا من أجل البول. صاح الجندي «شيف». أمسك الشيخ بأطراف قنبازه، ضغط مثانته وتلوّى. وحكى عن شيخوخته وكبر السنّ. «شيف». صاح فتلقّى ضربة، قليلاً ترنّح ثم استجمع قوّته وخطا. تلقّته الأذرع وأعادته. صاح بيأس «تحتي؟». «تحتك عرافيم، تحتك وفوقك». وانطلقت قهقهة جامدة وأنين.

همس الصوت «نقف؟» تلوّت أعناق واهتزّت رؤوس واستعاذ المختار بربّه وقال: يا شباب الصبر. واتّكأ ظهر عاجز على جدار السور فتلقّى ضربة «اقعد منيح». وأنّت عضلات السيقان، وامتلأت المثانات وأعلنت العصيان. وهمس الصوت بإلحاح أكبر «نقف؟» «واحد، اثنين، ثلاثة». وقف النصف وظلّ النصف يرزح في القرفصاء. وارتفعت عصي وانطلقت شتائم. وأمّك وأختك وتحت وفوق والسادات باس صرمنا وصرمنا إنتو يا فلسطينيين ترفعوا الرأس؟

قال المختار «لا»، وقال الشباب «نعم». الوقت يمرّ. أصوات الجماعات تدوّي بهتافات عبريّة. التفت الجند فوق الأسوار، نظروا للجموع في الشارع البعيد، لافتات كثيرة، عبارات محتدمة، أذرع تلوّح، أصوات. نظروا تحتهم فاطمأنّوا. وتوسّل الشيخ وعاد لذكر البروستاتا. وقف يتلوّى، تلقّى صفعة. رفع يديه فارتفعت أيد، وبيأس تراجع ثم ركض، وارتمى على السور ينزف بولاً. أمسك به الجندي من ظهره، واستقرّت عيون الجند فوق السور على جندي وشيخ يبوّل.

همس الصوت بإصرار «واحد، اثنين، ثلاثة». وهبّ الرجال في

وقفة واحدة. وصاح صوت قوي «عصيان». وتردّد النداء والأصداء في هدير واحد «عصيان». واشتبكت الأصوات بالهتافات البعيدة. علت وجوه الجند رعدة، وفاجأهم خوف غاضب. هناك جموع. هتافات ولافتات هناك، وهنا وجوه متحجّرة تتحدّى الأوامر. شدّ الزناد فانطلق الرصاص. وعادت الأصوات تردّد «عصيان».

صاحت سعديّة:

ـ ابني.

واندفعت تركض، تقفز الأدراج، تفتح باب الحاكورة، تصرخ «ابني». لحقت بها النسوة، كل واحدة تصرخ «ابني». وفوق الطرقات المتربة ركضت أقدام النسوة. انفتحت أبواب الجند، رصاص. صياح. عويل الأطفال يشدّون الأذيال. تحلّقن حول الأسوار. خرج الضابط. صياح النسوة، صاحت رفيف بذعر وهي ترى سعديّة تهجم على الضابط:

ـ يا سعديّة!

صفعها، تناثر شعرها. «ابني». ضربة فوق رأسها أفقدتها الصواب فتوحّشت. تشبّثت بصدره «ابني». صفعة ثانية، ثالثة. تراجعت خطوات ثم الهجوم. رفسته ما بين الرجلين، بكل الحقد وكل المرارة وغضب القلب المغضون. صاحت بالشعر المنبوش «يا عرصات، ابني». هتف الصوت من وراء السور.

ـ بالحجارة، اضربوا.

وبدأت سعديّة تضرب، والنسوة تضرب. حجارة، حصى، تراب، شظايا زجاج، صراخ النسوة، ضرب وحجارة ومقاليع. تسلّق الشباب

الأسوار ونزلوا. خرج المختار وقد أشرع حزامه. صاح بذعر وصوت الرصاص:

ـ عيب يا ولايا. عيب يا قليلات الحيا والدين، بس إنت وهي، انصرفن لبيوتكن، خلّونا نشتغل!

دفعته واحدة، تلقّفته أخرى. هوى بحزامه. أصاب سعديّة فتصدّت.

ـ عيب يا وليّه!

ـ وليّه بعينك شايب وعايب.

ـ يا حرمة!

ـ أنت حرمة.

اختبأ بعض الجند، حوصر آخرون وهم فوق الأسوار. حجر أصاب أحدهم فهوى، رصاص. حجارة. صياح. هتافات بعيدة. والنسوة يضربن ويتلقّين الضرب. شباب خارج الأسوار. حجارة فوق الأسوار. اضرب. اضرب. صاح أبو العزّ. اضرب. واندلع حريق.

جموع، أصوات، رصاص، أفواه مفتوحة، فتيان، فتيات تقفز كالجنّ، اشتعل الدم في الجبهة. اجتاح النسوة حماس عنيد. صاح المختار «عيب يا ولايا». ارتمى على الأرض، تعثّرت الأقدام. وقفت سعديّة، لمحت رشاد، يضرب من فتحة مقليعة، من أعمق الأعماق صاحت:

ـ عليهم يا رشاد، عليهم يا ولدي. عليهم يا حبيبي يا زهدي!

انتهى الجزء الثاني

تمّت



يتفتّح من خلال هذه الرواية، التي هي الجزء الثاني من رواية الصبّار، وعيُ المرأة لطاقاتها وإمكاناتها. فترفض مقولة الضعف النسائية، وتنخرط في المقاومة، وتمتدّ الروح الثورية إلى حياتها وتعريفها لذاتها. فثورة سحر خليفة هي الثورة التي تقلب المفاهيم الاجتماعية ولا ينحصر مسارها في الخط السياسي فقط، وتصبح مشاركة المرأة في تثوير واقعها الاجتماعي جزءاً لا يتجزّأ من مقاومة الاحتلال في الأراضي الفلسطينية.

سحر خليفة روائية فلسطينية. دكتوراه في الرواية الحديثة من الولايات المتحدة الأميركية. صدر لها عن دار الآداب: لم نعد جواري لكم، الصبّار، عبّاد الشمس، مذكّرات امرأة غير واقعية، باب الساحة، الميراث، صورة وأيقونة وعهد قديم (جائزة نجيب محفوظ للرواية ٢٠٠٧).

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت


ISBN: 978-9953-89-011-1

تصميم الغلاف: ريم الجندي